

كولين ويلسون

إله المتناهية

ترجمة: عبد الإله الناصر



إله المتناهية، رواية تناقض السائد المتوارث، وتدفع بالتأثير
التغريبي نحو سياقات وفضاءات روائية واسعة، خاصة وأنها
إتخذت من أدب الجنس منطلقاً حقيقياً، للإنتلاق بهذه الروى
التغريبية نحو تلك الفضاءات الرحبة الواسعة.

من هنا فلا يمكن اعتبار هذه الرواية من روايات الأدب الداعر
التي تسعى لتدمير التأثير التغريبي. وقد جاءت الرواية على شكل
مذكرات إعرافية، تتخذ من الجنس منطلقاً لأفكارها ورواها من
دون أن يكون الركيزة الأساسية لبناءها الروائي، وبذلك فقد
شكلت بحق تحدي ممتع وكبير، لأن رواية الأدب الداعر أكثر
صراحة من الناحية الشكلية من أي نوع روائي آخر، أن الرواية
تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي تصف بها الباليه من دون أن
تنتهك حرمة هذا الفن الراقي والرائع.



كله يشير إلى وجود صلة بنيتشه، في حين أن دراسة التشاؤم تربط للوضوع بشوبنهاور وشبتلر.

حاول ولسون في اللامنتمي أن يبين بأن الوجودية، التي ينتمي إليها فكراً، قد انحرفت عن طريقها الحقيقي، وأن بعض الفلاسفة والمفكرين الوجوديين حاولوا إلباس تعصبهم وفشلهم الذاتيين لغة مؤثرة ومجردة ولا معقولة، فأغرقوا في تعقيد الأمور، وهو الأمر الذي جعل ولسون يحاول أن يقاوم هذا الإنحراف ويواجهه على الرغم من إدراكه للسبق بأن مقاومته ستكون متواضعة وغير مؤثرة، ولكنها حتماً ستكون جديرة بالاهتمام في التفكير الوجودي.

وهكذا سلطت الأضواء بشكل مؤثر وكبير على ولسون بعد نشره لكتابه (اللامنتمي)، حتى أن ولسون نفسه تعجب أشد العجب من النجاح الكبير الذي أحرزه الكتاب في الساحة الأدبية والفكرية، يقول ولسون: "لن أنكر بأن فقدان (اللامنتمي) من المكتبات قد أصابني بمفاجأة، فقد أخطأت حين افترضت أن الوجودية موضوع لا يستهوي إلا القلة من الناس".

النجاح الباهر والكبير الذي حققه ولسون في كتابه (اللامنتمي) دفعه إلى التفكير جدياً في إصدار كتاب آخر، خاصة أن كتابه المشار إليه تناول الإشكالية المطروحة (انحراف الوجوديين) بتوسع وبيان من دون إعطاء تحليل حقيقي لها، ولذا فقد فكر ولسون بالحاجة الشديدة إلى فكرة أشمل وأعمق. وبنا ولسون بالفعل في مشروعه هذا، متوقفاً نجاحاً أكبر، أو يوازي في أسوأ الأحوال، كتابه (اللامنتمي)، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

ففي تلك الفترة الصفقت بكون ولسون تهمة الانتماء إلى مجموعة (الشباب للتمرد)، التي أطلقها بعض الكتاب المعاصرين في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم (القرن العشرين)، وكان المفكرون والأدباء والناس عموماً لا ينظرون لتلك الحركة بعين الارتياح والقبول، سواء في فكرهم أو أديهم. وهي ولعاً التهمة التي أثرت كثيراً على حياة ولسون الأدبية، أجبرته مرعماً رغم ما يتمتع به من ذكاء وإبداع أدبي وفكري، في الجلوس على مقاعد المبدعين والمفكرين من الدرجة الثانية، وختم عليه بذلك، حتى أنه عندما أزيحت عنه هذه التهمة بقي ولسون في مكانه في الصف الثاني، وكان الأدباء والمفكرون والناس يتشككون في كل ما يطرحه كون ولسون.

مقدمة

■ كون ولسون كاتب دخل الأدب والفكر المعاصرين من باب عريض وواسع، وهو واقعاً لا يدعي ذلك، أشار حوله العديد من الضلال والعارك النقدية والجدل العميق، سواء أكانت المشجعة أو النبطية، انطلق بنجاح مذهل في ولوج هذا العالم الرائع (الأدب والفكر)، بعد انصراف غريب إلى المطالعة والبحث والمناقشة والحياة الجدية الثانية، على حساب رزقه وراحته وصحته وتفوقه المدرسي، لقد كان يتأرجح في سلم الحياة العملية بين ضابط في سلاح الطيران وعامل في تعبئة الطرقي والأزقة، بين موظف محترم في شركة كبيرة وعامل للغسيل والتنظيف، لكنه كان دائماً ذلك الفكر الذكي القلق الباحث عن الحقيقة والهدف والسعادة النفسية العالية. وبعد إصداره لكتابه الإشكالي (اللامنتمي) عام ١٩٥٥، والذي لقي قبولاً واسعاً وانتشاراً مدهلاً، وطبع عشر طبعات خلال أربعة أشهر، يقول ولسون عن الكتاب: "استطعت ذات صباح أن أضع خطة كتاب ما خلال نصف ساعة، وكنت مزماً أن أسميه (اللامنتمي في الأدب)، وأردته أن يكون بحثاً لمختلف أنواع القلق الإنساني. وأعددت قائمة بأنواع الناس الذين كنت أميل إلى بحثهم، وأهديت في الحال إلى بعضهم... وكان هنالك طبعاً عند كبير من مختلف أنواع اللامنتمين، كان هنالك بعض العمليين بينهم، وكان هنالك أيضاً سلبيون تماماً، وكان في وسعي أيضاً أن أخصص جانباً من الكتاب للشخصيات الدينية، التي كانت جميعها عاصية ضد التقاليد الشائعة، وهكذا يتشعب اللامنتمي إلى ناحيتين، ناحية الضعف، وناحية العصيان، ثم أعقب بالوجوديين الفرنسيين، وكان ذلك

عندما نشر ولسون كتاب (دين وتمرد)، وهو رؤية أكثر شمولية واتساع من كتاب (اللامنتمي)، وهو ملحق لكتاب، وجه الكاتب والكتاب بسخط كبير وغريب بين الناس، ولم يلقى من الصحف الأدبية غير الأذراء، حتى أن أحد النقاد في ذلك الوقت وصفه بأن (العاب السيد ولسون الأدبية قد انتهت أجلها)، فيما وصفت نافذة كتابه (دين ومرد) بأنه كتاب (نافه حقاً). يقول ولسون أن السمعة السيئة التي ألصقت باسمه في العام ١٩٥٦، (لا تزال تصبغني بلون غريب يجعل النقاد لا يتخذون حتى خطوة قصيرة بالنسبة لكتاباتي، عليهم قد يكتشفون بأنني أملك شيئاً يستحق الكتابة. وهكذا مرت جميع كتبي دون ملاحظة تذكر).

هذا الأمر لم يقف عائقاً أمام ولسون في الاستمرار بالكتابة الإبداعية، ولذا فقد كتب (عصر التخاذل)، والذي لم يلق أية ملاحظة تذكر من قبل النقاد والأدباء، حاول فيه ولسون خلق وجودية جديدة، لترت الموضوع (الفلس) الذي أوجده سارتر وهيدغر، إذ أن السقوط الفجائي من قمة الشهرة يشل الحركة، وأن (الإنشكال الثقافي ما هو إلا مغلوط (اللامعنى) وهو شكل فلسفي لذلك المغلوط الذي قاد الوجودية إلى طريق مسدود).

وبذا استمر ولسون بالكتابة والإبداع الأدبي والفكري، فكان أن نشر (القوة على الحلم) و(أصول الدافع الجنسي) و(ما بعد اللامنتمي) و(ما بعد الحياة) و(ضياء في سوهو) و(الشك) و(العقول واللامعقول في الأدب الحديث) و(القفس الزجاجي) و(طقوس في الظلام) و(سقوط الحضارة) و(رحلة نحو البداية) و(الشعر والصوفية) و(الحالم)، إلى آخر ذلك.

ما تجدر الإشارة إليه أخيراً أن كتابات كولن ولسن على الرغم من السمعة السيئة التي ألصقت وتعلق رذاذها به شخصياً وكتاباته طوال حياته الأدبية والفكرية، إلا أنه يتميز بظاهرة قلما انتبه لها أي ناقد أو كاتب، وهي أن كتابات ولسون مرتبطة مع بعضها البعض بسلسلة متشابكة واحدة، يصعب على أي كان أن يجزئها أو أن يختار جزء من تلك السلسلة لدراستها والاطلاع على أفكارها، من دون الأجزاء الباقية، فالرؤية في تلك الحالة ستكون قاصرة وغير دقيقة، فالكاتب الكبير كولن ولسون يتناول في جميع كتبه المنشورة موضوعاً واحداً من زوايا مختلفة، حتى تصل إلى الفكرة التي تستقطبها الكتب السابقة كلها، ومن الممكن القول ببساطة بأن الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها جميع كتب ومؤلفات كولن ولسون، تقوم على محاولته لخلق (فلسفة جديدة) تركز بقوة على الأفكار الوجودية

والرومانسية. ربما نجح ولسون في إيجاد هذه الفلسفة الجديدة من خلال كتبه العديد، وربما استطاع أن يقول في كتبه بكل ما يريد أن يقوله في شرح تلك الفلسفة، إضافة إلى رؤاه الفكرية، إلا أن المؤكد أنه لم ينجح كل النجاح في إيصال فلسفته إلى جميع الأدباء والفكرين والناس، وبقي فكره محصوراً في فئة معينة، دون الفئات الواسع والأكثر.

حول (إله المحاهة)

■ في وقت ما من عام ١٩٦٨، نشرت جريدة الديلي تلغراف مقالاً افتتاحية تنتقد فيها تزايد كمية للشاهد للكشوفة فيما ينشر من أعمال أدبية، وأشارت إليّ وإلى ميس بريجيد بروفي Brigid Brophy باعتبارنا كاتبين "جادين" يهدفان إلى المزيد من المبيعات بأن يضمنا كتبهما ببهارات قوامها مشاهد ومواقف كان يمكن أن تؤدي إلى إدانتنا في أزمة أقل تحرراً. ولم أتخفظ بشيء على هذه المقالة، لأنه من الصحيح أنني كتبت عن الجنس في عدد من كتبي بطريقة ما كانت تواجه بالقبول أو يسمح بها منذ خمسين عاماً. ولكنني لا أفكر في نفسي باعتباري من كتاب الأدب الداعر Pornography ولكن إذا رغب شخص آخر في أن ينظر إلي بهذه الصفة، فلا شك أن هذه مسألة تتعلق بوجهة نظر صاحبها. ولكن حدث بعد بضعة أسابيع قليلة، أن أعيد نشر مقالة التلغراف اللندنية في جريدة نيوزيلاند، فكتب هارري نيوزيلاندي خطاباً يدافع فيه عني بقوة. أشار هذا القارئ إلى أن أكثر من نصف كتبي تدور حول موضوعات من مثل الفلسفة والفن والموسيقى والأدب، وأنه من بين رواياتي السبع، لا تحتوي أربع منها إلا على القليل من الجنس، أو لا تحتوي شيئاً منه على الإطلاق. وقد افتتحت حينما قرأت هذا الخطاب، أنني لست من كتاب الأدب الداعر. حقاً أن ناشر كتب من نيوزيلاند قد قدم إلى المحاكمة بسبب عرضه كتاب "يوميات جيرارد سورم الجنسية" في واجهة مكتبته، ولكن هذه المحاكمة لم تؤد إلى إدانته. وكان رأي القاضي أنه

رغم أنني كنت محروماً بشكل كامل من أي موهبة أدبية، فإن الكتاب لم يكن منحطاً ولا مسيئاً للأخلاق من الناحية الفنية.

وبعد بضعة أسابيع من ظهور مقالة التلغراف، طلب مني أحد مكاتب المحاماة أن أتقدم إلى إحدى المحاكم كشاهد أشهد في صالح ناشر كتب من برادفورد، كان يحاكم بتهمة بيع كتاب "حياتي السرية" وهو ترجمة ذاتية كتبها أحد كتاب العصر الفيكتوري الجهولين، وأجبت على هذا الطلب بأنني مشغول لدرجة تمنعني من الذهاب إلى يوركشاير. وهذه رحلة تستغرق يومين من كورنوال حيث أقيم - ولكنني رحبت بأن يعتمدوا على قولتي بأن الكتاب لم يكن من نوع الأدب الداعر، وأنه من الممكن أن ينشر علناً في إنكلترا. وأشارت إلى أنني مستعد لأن أكتب خطاباً بهذا المعنى. وحينما بدأت كتابة الخطاب، اكتشفت صعوبة المهمة الملقاة على عاتق الدفاع. إن كتاب "حياتي السرية" ليست له أية قيمة أدبية. وحينما نشرته دار نشر "جروف بريس" في أمريكا، قال المسؤولون عنه أنه وثيقة اجتماعية ثمينة عن العصر الفيكتوري، ولكن هذا أيضاً غير صحيح. إن عالم الاجتماع يستطيع أن يعرف من عشر صفحات من كتابات تشارلز بوت أو هنري مايهيو أكثر مما يمكن أن يعرفه من الثلاثة آلاف صفحة التي يضمها كتاب "حياتي السرية". إن مؤلفه لم يكن سوى الصورة الذكورية لامرأة مصابة بالفلمة الجنسية nymphomaniac ولم يكن الجنس عنده سوى نوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة. لقد جرب كل نوع ممكن من أنواع التجارب الجنسية لما يزيد عن أربعين سنة أو نحوها، ثم قرر أن كل ما فعله كان شيئاً ساحراً فائتاً وأنه ينبغي أن يكتب عنه. فمن الذي يستطيع أن ينكر أنه كان على حق؟ من الصحيح أنه لن يقبل على قراءته كل الناس، ولكنني أقول أنه ليس كل الناس يقبلون على قراءة الزاجم الذاتية التي يكتبها جنود أو سياسيون أو رحالة. وليس هذه حجة تؤخذ ضدهم.

بل إن المرء لا يستطيع أن يقول أن كتاب "حياتي السرية" قد كتب دون نية بذينة ودون قصد الإساءة إلى الأخلاق، أو أياً كانت العبارة التي استخدمت ضده. كان الرجل قد استمتع بالجنس، ولقد استمتع بالكتابة عنه. وكان الرجل شخصاً مضجراً فطر العقل، طالما أنه كتب كل تلك الصفحات عن الجنس مدافعاً عن فراغ العقل بصورة كاملة. ورغم كل شيء فإن الكتاب واقعي، إنه حياة رجل، إنه "حقيقة"، تماماً مثلما كانت "حقيقة تلك المجلدات الهائلة التي قرأها ويب وزوجته ودرساها من "الأوراق البيضاء" من أجل كتاب

مؤلفهما في التاريخ. إنني أوافق الآن - رغم هذا - على أن هناك شيئاً ما يقف ضد نشر أنواع معينة من الحقائق غير السارة - على سبيل المثال، تفاصيل هجوم جنسي قد تظهر في أثناء محاكمات جرائم القتل، فإن نشر تلك التفاصيل قد يؤدي إلى ارتكاب جرائم مماثلة يقلدها فيها المجرمون، ولكن أي شخص يمكن أن يقلد ما قام به مؤلف "حياتي السرية" فإنه لن ينزل بأحد ضرراً حقيقياً ولن يقترب من إلحاق مثل هذا الضرر، وبذلك فإن اعتراضني لا ينطبق عليه، إنني لا أستطيع أن أفكر في أي أساس يصلح لأن أستند إليه من منع الكتاب - وبالتأكيد لا أجد ما يبرر الحكم على من باعوه بقضاء عامين في السجن - مثلما حدث لبائع الكتب في برادفورد.

ولكن حجة "الحقيقة" يصعب أن تطبق على أعمال دي صاد و"فاني هيل" Fanny Hill التي يمكنني أيضاً أن أدافع عن نشرها وخاصة إذا كانت أسعارها مرتفعة، حتى تعمل الأسعار للترفعة عمل "الرشح" بالنسبة لصغار السن من القراء. إنني لا أحب دي صاد. وأنا لا اظنه "هاماً" أو ذا دلالة خاصة، بالطريقة التي تظهر بها أهمية ودلالة جان بوليهان والأنسة دي بوهوار^(١). إن الروح الأساسية السائدة في كتبه هي روح تمرد يقوم به تلميذ - يشبه كتابة الكلمات القذرة على الجدران. ولكنني لا يمكن أن أفهم في صف منع نشر كتبه. أما بالنسبة لكتاب "فاني هيل" فإن كليلاند يعترف بأنه كتبه لكي يحصل على المال، وهذا الكتاب مثال نموذجي للكتب التي دعاها سانت يوف بأنها "الكتب التي يقرأها المرء بيد واحدة". إنه كتاب مسل، كتب بشكل جيد، وليس فيه شيء لا يعرفه بالفعل أي قارئ تجاوز سن الرشد. إننا لا بد أن نعرف بأن منع إصدار أي كتاب - وأن نعلن أنه ليس صالحاً لأن يستهلكه الجمهور - هو الشبيه الأدبي لعملية إعدام مجرم، أو إحراق ساحرة، أو إلقاء معارض سياسي في السجن. وإنه لمن الصعب أن ندافع عن مثل هذا الإجراء دون تحيز - وفي تباعد أو انعزال موضوعي. إنه لا يمكن الدافع عن مثل هذا الإجراء إلا على أساس من التعصب الفكري وضيق الأفق، مثل الأساس الذي قام عليه "فهرس الكنيسة الكاثوليكية" أو إحراق النازيين للكتب، أي على أساس تقديم عقائد جامدة لا بد من القبول بها. يمكننا أن

(١) سيمون دي بوهوار، زميلة سارتر ورفيقته، مؤلفة العديد من كتب الفلسفة والأدب والإبداع والنقد. مثل سارتر بدأت مدرسة للفلسفة متأثرة بوضعية هيوم وبوجودية هيدغر وباسيرز، ولكنها سبقت سارتر إلى التأثر بالماركسية.

نهاجم عملية بيع العقاقير المخدرة دون رقابة، أو مزج عصير الفاصكهة بالكحول لكي يشتره صغار السن، على أساس نفعي وعملي، فإن هذه الأعمال يمكن أن تنتج تدمير الأجساد. ونحن نعرف كل شيء تقريباً عن إمكانيات الجسد، ولكننا لا نعرف شيئاً عن إمكانيات العقل. فهذا النوع من الحجج "النفعية" لا يستطيع أن ينتقل إلى مجال الكتب.

إنني أوافق على أن كل هذا يبدو في صورة التماس خاص - مثل التماس يقدمه محام ماصر يعرف أن قضيته لا يمكن الدفاع عنها، فيقرر أن يحاول خلط الصفوف المستقلة ومزج القيم التي لا تمتزج. يجتاحني هذا الإحساس وأنا أقرأ عدداً كبيراً من آراء معارضي الرقابة. ولكنني حينما أنظر داخل نفسي، أجدني مالكا لنوع بالغ الوضوح والتحدد من الجنس الذي يندلي على ما يكون الأدب الداعر وعلى ما لا يدخل في تكوينه. فاسمحوا لي بأن أحاول توضيح طبيعة هذا الجنس.

وقد يمكنني أن اتخذ نقطة انطلاقي من فقرة جاءت في ترجمتي "الذاتية"، "رحلة نحو البداية":

إن بطل رواية "طقوس في الظلام" يسيطر عليه الإحساس بأن "ثمة" معنى في الوجود الإنساني، وأن هذا المعنى يمكن أن يصل إليه العقل - فقط إذا عرف العقل الطريق المؤدي إلى العنور عليه. وأن واحد من أكثر "تجارب المعنى" شيوعاً تأتي عن طريق الجنس، ولهذا فإن الجنس يقدم "نقطة بداية" ثمينة في سبيل البحث عن المعنى. وإنني أضع خطأ تحت عبارة "نقطة بداية" لأنه يبدو لي أنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر عمقاً من الجنس إذا مارسه الإنسان كنوع من التنفيس عن الطاقة - مثلما فعل كازانوها أو فرانك هاريس.

"يمكن" أن يكون الجنس نقطة بداية "للبحث عن المعنى"، إنكار ما أنكده سارتر من أنه، "لا معنى لأن نحيا ولا معنى لأن نموت". ومن الواضح أن هذه الحجة تنطبق على د. ه. لورانس كما تنطبق على كتبي التي كانت التلغراف تعنيها في مقالها. إن الدفاع عن دي صاد أيضاً أمر ممكن لأنه هو الآخر رأى أن الجنس يحتوي بشكل ما على معنى الوجود الإنساني. من الحق أن ثمة أخطاء جوهرية في تفكيره - الفشل في التفكير في "قانون رمود الأفعال المتلاشية"، هذا الفشل الذي يفسد عمله ويخيب مسعاه في التحليل الأخير، وهذا أثر عجيب من آثار الأخطاء الشهيرة، مثل نظرية الكون التي تقول بأن الأرض هي مركزه، أو نظرية عنصر الفلوجيستون الذي قبل يوماً أنه أساس الخليقة، ويبقى هذا الخطأ في صورة

رمز نافع للخطأ الذي يمكن أن يكتسب شيئاً من الأهمية. والجنس يقدم أيضاً نقطة بداية ممتازة لفلسفة وجودية. يقول "كيريلوف" أحد أبطال دستوفسكي أنه إذا لم يكن هناك إله، إذن فإن الإنسان إله، وعليه أن يثبت هذا، ثم ينطلق بهذا المنطق حتى يصل إلى الانتحار. لما دي صاد فإنه ينطلق به حتى يصل إلى الدفاع المطلق عن اللا أخلاقية. وفي كلتا الحالتين يستطيع المرء أن يبدأ في مناقشة مثمرة.

إنني أحس بأدب الدعارة الحقيقي حينما أقرأ كتباً معينين لن يفكر أحد مطلقاً في منعها - كتب من نوع، "لا زهور أوركيد من أجل ميس بلانديش" أو "صانعو الأيسطة" أو حتى بعض روايات جيمس بوند. يتهم فورستر جيمس جويس بمحاولة تغطية الكون كله بالوحل. ولكنه كان مخطئاً. إن ما يبدو في رواية "يوليسيز" من عنف وقذارة وضع عمداً وقد قصد به أن يؤثر تأثيراً عكسياً، مثل دواء قابض، ويعترف جويس نفسه بقريته للكاتب سوفيت. أما جيمس هادلي تشيز وهارولد روبينز فقد مارسا الكتابة لكي يمتعا القراء فقط ولكي يربحا النفود عن طريق الإمتاع. إن الجنس والعنف والعنف بشكل خاص - يقصد منهما أن يجعلوا ألحجية أكثر لذة وشهية. إنهما مثل حراس بيوت الدعارة وملاكها الذين يبنون استعدادهم لخدمة أي شخص مستعد للدفع. فإذا جرأه حججهم إلى ضوء المناقشة، يجعلها نسخاً أخرى من حجج دي صاد، مثل هولتير أو أي وضعي منطقي حديث آخر، الذي كان يهاجم الأفكار "الليثايزيقية" عن الطيبة والخير. إنه يقول قولة مؤثرة، "يقول الناس أن الفضيلة، وإنكار الذات، والتضحية بالنفس، والروح العامة والشرف والشجاع، كلها خير. أما أنا فأقول أن هذا ليس سوى تفكير مختلط مشوه. فاللذة وحدها هي الخير بالنسبة لأي واقعي معتدل التفكير". إن ما يوشك حينئذ أن يفعله هو أن يرفض نفسه بمحاولة توضيح فكرته في أقصى امتداد له. والشئ الوحيد الذي يدهشنا هو أنه لم يصب هو نفسه بالضجر إلى حد الرض قبل وقت طويل من إكمال روايته "كوليت". على أنه من الواضح أنه كان يدرك القيم التي كان يحاول أن يفرسها وأن يبعث فيها الحياة.

لا أحد الآن ينتقد ككونان دويل^(١) أو رايدر هاجار^(٢) لأنهما لا يتمتعان بالتعمق الذهني الذي تمتع به توماس مان أو الدوس هكسلي. فلقد خرجا إلى الناس باعتبارهما "مسليين" أو

(١) سير آرثر كونان دويل ١٨٥٩-١٩٢٠ روائي إنكليزي اشتهر بسلسلة رواياته التي كان "شرلوك هولمز" بطلها. ولكنه انشغل بالأسئلة الروحية وكتب تاريخاً لها، كما كتب عدداً من الروايات التاريخية لشهرها "البريغانتير جيزار" و"البروفيسور تشالنجر".

(٢) سير هنري رايدر هاجار ١٨٦٥-١٩٢٥. كاتب روائي إنكليزي بدأ حياته في البحرية البريطانية واشترك في كشف منطقة الزانغال الأفريقية، واشتهر بروايات الغامضة الأفريقية. أشهر أعماله هي "كنوز تلك سليمان" عام ١٨٨٥ ثم "هي" ١٨٨٧، وكتب عدداً من الروايات التاريخية العاطفية مستمدة من التاريخ الفرعوني.

مسامرين و"القيم" التي دافعا عنها، الشرف والشجاعة وما إلى ذلك، هي من القيم التي لا يمكن الاختلاف حولها بأي حال. ومنذ زمن ظهورهما، أصبح الكاتب السلي أو "السامر" أكثر أهمية، وأكثر تعقيداً من الناحية الثقافية. ولكنه لسوء الحظ لم يصبح أكثر تعمقاً في التحليل الذهني - إنه يرفض القيم الأقدم عهداً - ولكنه لا يفعل ذلك باسم عقل باحث لا بكل عن طرح الأسئلة، وإنما فقط باسم تسلية، "إعطاء الناس ما يريدون". ولكن رفض القيم - إذا كان لهذا الغرض أن يكون نشاطاً مفيداً - يجب أن يكون واعياً تمام الوعي بطبيعته الخاصة. إننا حينما نلتقي بأناس يؤمنون بآراء لا يريدون التفكير فيها، فإننا ندعوهم بحق أغبياء أو متعصبين. والاعتراض على مثل هذا النوع من الغباء أو التعصب، هو أنه بشكل ما نوع من "إنكار الحياة". إنني أملك جهازاً هضماً ومخارجاً للتعامل مع الطعام الذي احتاجه لكي يبقى على حياتي. وأملك أيضاً جهازاً هضماً عقلياً ومخارجاً للتعامل مع تجاربي. ونموي باعتباري كائناتاً إنسانياً إنما يعتمد على هذا الجهاز مثلما يعتمد نمو الجسدي على الجهاز البدني. فإذا ما انغلق أو انسد أي من الجهازين، فإنني سأكون عرضة للتسمم البطيء. إن كتاباً من نوع إيان فليمنج^(١) أو هارولد روبينز لا يملكون أجهزة هضمية ومخارج للتعامل مع القيم التي يرفضونها. والنتيجة هي أن تفوح رائحة التعفن والتحلل، رائحة جهاز تسده فضلاته التي ينتجها بنفسه. فإذا ما قرأ شخص ما أعمالهما لمدة طويلة، كانت النتيجة هي الإحساس بالصنع، بتسرب الدم من الدماغ، بالعقم، هذه هي نتيجة الإمساك القاسي.

وهذا القانون ينطبق بالطبع على عدد كبير جداً من الأعمال الأدبية. يشعر المرء بنفس الإحساس بالعقم إذا قرأ طويلاً رواية رومان رولان "جان كريسستوف" أو رواية بوديس "الذنب المنفرد" أو حتى "الحرب والسلام" هذه الكتب تمتلك جهازاً هضماً، ولكنه ليس كبيراً إلى الدرجة الكافية للتعامل مع مثل تلك التجربة الكبيرة. ومن الجدير بالملاحظة أن الجهاز الهضمي ليس - ببساطة - هو القدرة على التفكير المجرد. إن أمثال هكسلي أو مان الذكياء وعلى عمق ذهني كاف، ومع هذا فإن كتبهما تتصف بجمود غريب. إن الشئ الهام هو قدرة الكاتب على "مهاجمة" تجربته، وليس مجرد أن "يعانيها"، وإنما أن يتجاوزها. لا يمكن أن يبعث دستوفسكي على الضجر، على الرغم من أسلوبه الوعر الثقيل وإطلاته

(١) إيان فليمنج - أشهر كتابات القصة البوليسية المعاصرة، بدأ حياته في أوروبا ثم في الشرق الأقصى حتى تركها بعد الحرب العالمية الثانية. خلق في أعماله شخصية "جيمس بوند".

المسببة، بسبب ما نشعر بما لديه من هذه النيران الملتهبة التي تحاول أن "تأكل" مادته، مثل أتون يصهر خام الذهب...

هذا هو ما يحدد ما قلت عنه إنه حدسي لطبيعة الأدب الداعر. إنه مرتبط بمسألة الجهاز الهضمي، إننا لا نطعم طيور البط بالأرز، ولا نرضع الأطفال الصغار بالحلوى الثقيلة، لأننا نعرف أن أجهزةهم الهضمية لن تصمد لمثل هذه الأطعمة، فإذا فعلت هذا وأنا أعرف ما ستكون عليه النتيجة، فإني أكون مداناً بتهمة الإهمال الإجرامي. وهذا هو ما ينطبق على كاتب ينتج خليطاً لزجاً رديء الطهو من الجنس والعنف، هادفاً بذلك إلى الوصول إلى "أكثر الفئات الهابطة شيوعاً" من القراء.

وهذا هو أيضاً ما يفسر السبب الذي يجعلني لا اعتبر كتاباً من نوع "حياتي السرية" و"فاني هيل" أو أعمال دي صاد من الأدب الداعر الحقيقي. والمحك الحقيقي هو التساؤل عما إذا كانت تحتوي على هذا العنصر السام، عنصر إنكار الحياة. إن كتاب "حياتي السرية" بالغ الكآبة مليء بالتكرار بعد عدد قليل من الصفحات الأولى، ولكنه ليس أكثر تسميماً من كتاب "هانسارد"^(١) أو "سجل المؤتمر". فالقاص، أو الروائي في هذا الكتاب خشن وغبي، ولكنه ليس قاسياً ولا وضيقاً. وقد يعترض المرء على قيمه الأساسية: على شعوره بأن الجنس هو أكثر التجارب الإنسانية أهمية، ولكن يستطيع المرء أن يؤمن بهذه القيمة أو أن يرفضها. وليس هناك شيء يمنع القارئ من أن يضع إحدى رباعيات بيتهوفن على الحاصي بعد أن يقرأ اثنتي عشر صفحة أو نحوها، وينطبق نفس الشيء على رواية "فاني هيل". أما بالنسبة لدي صاد، فإن قراءته تثير رد الفعل الذي يمكن بالفعل أن يوسع من اتفاق رباعية لبيتهوفن. أما المشكلة التي نواجهها مع هادلي تشيز أو هارولد روبينز، فهي أنه بعد قراءة عدد قليل من الصفحات، فإن المرء لا يعود قادراً على الاستمتاع بسماع بيتهوفن. فإذا حاول المرء سماعه مع ذلك، فإن بيتهوفن سوف يبدو شيئاً غير متناسب مع هذا العالم الفارغ الشرير الخطير العنيف الذي نعيش فيه، سوف يبدو في صورة "ملاك جميل لا فاعلية له"، يعيش في عالم أحلامه الموسيقي السخيف.

(١) الإشارة هنا لـ "هانسارد" الأسبوعية التي يصدرها البرلمان الإنكليزي والتي تضم النص العربي لـ مناقشات مجلس العموم واللوردات.

باختصار، يتضمن الأدب الداعر إحساساً بالتحقير من شأن القيم ومهانتها. وإذا كان الفن معركة بين عقل الإنسان والعالم المادي، إذن فإن كاتب أدب الدعارة يقف إلى جانب العالم ضد عقل الإنسان. ومن المهم أن نلاحظ أن كلاً من فليمنج وهارولد روبينز وهادلي تشيز يستغلون الجريمة مثلما يستغلون الجنس، وكثيراً ما يبدو عليهم أنهم يساوون بين الاثنين باعتبارهما نوعاً من النشاط الهدام للمرء.

وقد أشار برناردشو إلى أننا نحكم على الفنان من خلال أعلى ذروة يبلغها، ونحكم على المجرم بادنى قاع يهبط إليه. وهذا يعني أن الفن قد ينظر إليه باعتباره دفاعاً عن أعلى ذروة يمكن أن يبلغها الإنسان ضد أدنى قاع يمكن أن يتدنّى إليه. والكاتب الذي يستغل الجريمة والجنس، لا شيء إلا لأن يثير القارئ ويستفز مشاعره إنما قد أصبح مدافعاً عن أدنى تلك القيعان المظلمة. أما إذا مضى إلى معالجة الجنس بالطريقة التي تجعله في سلة واحدة مع الجريمة باعتباره لحظة من أكثر لحظات الإنسان انحطاطاً، فإن اتهامه يصبح اتهاماً مركباً.

ولكن، فلننتقل الآن إلى المرحلة التالية من المناقشة. سوف نلاحظ هنا أن كلاً من توماس مان والدوس هكسلي قد انشغلا أيضاً بالعلاقة بين العالم المادي وبين العقل، وأن كلاً منهما قد اتجه إلى أن يكون انهزامياً، مؤمناً بانهزام العقل في تلك المعركة. وأنا شخصياً كثيراً ما أشعر بأن هكسلي كاتب مقبض مثل جراهام جرين^(١) لأن العالم المادي عندما يبدو دائماً قادراً على أن يكسب السباق بمقدار طول رأس واحد. إنه يتحدث عن تأكيد الحياة، ولكن شيئاً من هذه الحياة المؤكدة - بشكل ما - لا يستطيع أن يصمد حتى النهاية في كتبه، إن كانت "لوكسين" أو الإيجابيين يبدون دائماً غير مبتهجين وأغبياء. وأصحاب الحساسية من شخصياته دائماً ضعفاء. ونفس الشيء يصدق أيضاً على توماس مان، ولكن "موضوعيته" تجعل تلك السمات أقل في تأثيرها المقبض.

(١) جراهام جرين (١٩٠٤-...) أحد كتاب الرواية الإنكليزية الكبار في هذا القرن. عرف بمعالجته للشخصيات ذات التكوين النفسي الشاذ واليالة إلى الشر أو إلى التمرد الاجتماعي. ويعتبر أحد أساتذة أدب التوتر. أهم أعماله كانت "القوة والجد".

إذن، فإن إنكار الحياة، بينما يكون عنصراً أساسياً من عناصر الأدب الداعر، فإنه ليس مقصوداً على هذا الأدب. وهذا ينثر التساؤل عن المدى الذي يصل إليه صدق العكس. هل يكون الأدب الداعر ممكناً إذا لم يكن إنكاراً للحياة قائماً؟

وهذا السؤال أكثر أهمية من مجرد مظهره، فإن هذا التساؤل عن الأخلاقية واللاأخلاقية، عن الصحة والانحلال قد ظل يشغلنا لمدة تقرب من قرن كامل، منذ أن بدأت مناقشات إيسن^(١) وزولا^(٢) في ثمانينيات القرن الماضي. وقد كانت حجج كل من الجانبين هي نفس الحجج تقريباً على الدوام. فقد كتب توماس جيفرسون منذ عام ١٧٨٢، يقول: "هؤلاء الذين يعملون في الأرض هم شعب الله المختار... إن فساد الأخلاق بين جماهير الربيين والهنديين لهو ظاهرة لم يخل من بعض نماذجها عصر ولا أمة من الأمم". إن تلك المجتمعات البسيطة البدائية شبيهة بالجسد القوي الصحة. وإن رفض "الفساد" هو وظيفة الية من وظائف الصحة. وحينما يبدأ الشيء "الريب"، غير الصحي، الفاسد، في العثور على موطنه قدم، فإن هذا يعني - بحكم الأمر الواقع - إن الانحلال قد بدأ. إن جسدي العضوي إذا ما بدأ يصبح أكثر سرعة في التأثر بالجراثيم، فإنني جدير باتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجته، لكي يستطيع أن يلفظ الجراثيم، ومن المؤكد أنني لن أقبل تلك الجراثيم على اعتبار أنها تقدم فرصة لإحداث تغيير ممتع بديل لحالة الصحة الثابتة الدائمة المضجرة. وهذا هو الخط الذي يتبعه ماركس نوردوف في كتابه "الاضمحلال" عام ١٨٩٣. فلماذا أن نعرف الانحلال بصفاته الحقيقية، فلا نتسامح معه أو نشجعه، إن كتاب شو الهجومي المضاد "صحة الفن" كان

(١) هنريك جون إيسن (١٨٢٨-١٩٠٦) شاعر السرحي والكاتب النرويجي العظيم، خالق تيار الدراما الواقعية الاجتماعية الحديثة. واحد أعظم الكتاب السرحيين في كل العصور. كان له تأثير فني وفكري كبير، تتبعه كتاب كثيرون في أشكاله الفنية ومضامينه، خاصة منذ كتب جروج برنارد شو كتابه عن "الإبستية" حيث كشف عما تحتويه أعماله من قيم فنية واجتماعية عظيمة. ومن ناحية أخرى اعتبره أصحاب الاتجاهات السيكلولوجية الصوفية في الفن من أعظم روادهم بأعماله الشعرية الرمزية الكبرى وخاصة مسرحيته "بيرجنت" و"براند" حيث تجلت حساسيته النفاذة في دراسة النماذج البشرية ومطامح الإنسان في التمرد الروحي الشامل.

(٢) إميل إيوارد تشارلز انتوان زولا (١٨٤٠-١٩٠٢) الروائي الفرنسي الكبير، أشبه بريانته للمدرسة الطبيعية في الأدب الفرنسي (وخاصة في الرواية) في القرن الماضي. تميزت أعماله بدقة غير عادية في رسمها للخلفية الاجتماعية، واللهجات والخصائص النفسية وبخضوع الشخصيات الفنية لنوع من الحمية القائمة على الورادة وتأثير البيئة.

يحمل عنواناً فرعياً يقول: "كشف وفضح للهرء الشائع عن كيون الفنانين من عناصر الاضمحلال". ومن الممكن أن نلخص الحجة التي ساقها في الكلمات التالية: "ليس اضمحلالاً، وإنما هو تطور". أما توماس مان، الذي كان يكتب أولى أفادته في تلك الفترة، فقد اتخذ موقفاً أقل إيجابية (وهو الموقف الذي تسمك به طيلة حياته) يقضي بأنه، بينما يصبح الفن أكثر حساسية ورفقة، فإنه "يتطور" و"يضمحل"، فالتطور هنا يعني الاضمحلال، إذا ما مضى إلى وراء نقطة معينة. وقد قال شبنغلر نفس الشيء في كتابه "الاضمحلال الغرب".

ولا يتفق شو مع هذا الرأي بصورة أساسية. لقد كان جديراً بأن يقول: "بالطبع، أن التطور "يمكن" أن يعني الاضمحلال، إذا ما زالت الحساسية على الحيوية. ولكن هذا لا يتبع ذلك بالضرورة". ومن الواضح أن هذا شكل آخر للسؤال الذي أثارناه نحن بالفعل، لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية، فإنها يجب - في النظرية - أن تكون قادرة على أن تزيد الحيوية إلى الدرجة المناسبة لها. ولكن لم يؤمن أحدهما بإمكان ذلك. ولكن هل هذا صحيح؟ ولنفترض أن لدي رأياً فحياً وبالعالب البساطة عن شيء ما، إن النتيجة هي أن يصطدم رأسي بالحقيقة صدمة تجعلني أكثر حكمة - أي أكثر حساسية - ولكنها صدمة ستجعلني - في لحظة وقوعها - أقل ثقة وأقل قدرة على اليقين والتأكيد. فهل ينبغي أن أظل على هذه الحالة طوال ما بقي من حياتي؟ من الواضح أن لا. إنني أبذل مجهوداً عقلياً، إنني "أتمثل" التجربة أو أهضمها، وأتأملها حتى أمتص كل معانيها ودلالاتها، أي حتى يمكنني السيطرة عليها. حينئذ تعود الثقة وتفيض ينابيع الحيوية مرة أخرى. وهذا يعني القول بأن الأمر يعتمد على نفس عملية "الهضم" التي ناقشتها بالفعل أثناء الحديث عن الأدب الداعر.

وهذه النظرة تقدم بديلاً للموقف الجيفرسوني: إن البساطة والصحة والشباب تمضي كلها معاً وتصبح إحداها الآخرين. إنك إذا قلبت ميزان الشباب، فسوف تقلب ميزان البساطة والصحة، ولكنك عن طريق مجهود معين وقدر معين من التفاؤل، فإن هذه الموازين يمكن أن تستعاد في مستوى أكثر سمواً، وسوف تكون النتيجة تطوراً حقيقياً وأصيلاً، إن البدائل ليست محافظة أشبه بانغراس الإقدام في الوحل أو اضمحلال سريع لا مناص منه.

قد تبلى النتيجة مجردة أو مطلقة، ولكنها بالنسبة لي كانت ذات أهمية عملية مباشرة، فإنني حينما بدأت كتابة روايتي الأولى، في أواخر سنوات العقد الثاني من عمري،

كانت تسيطر علي المشكلة التي دفعت جويس إلى اختيار ملحمة الأدوية لكي يستمد منها بناء روايته التداخلات الأطراف والتي تسودها الفوضى والتي نتجت عن ديلين الحديثة، وقد عبر بيتس^(١) عن هذه المشكلة في الأبيات الثلاثة التالية:

سمكة شكسبيرية تسبح في البحر، بعيداً عن اليابسة،

سمكة رومانتيكية تسبح في الشباك لتتقرب من يد الصياد،

ولكن، ما كل تلك الأسماك الراقدة تشهق على رمال الشاطئ؟

ومعنى هذا هو أن الفن الشكسبيرى قد رفع مرآة في مواجهة الطبيعة، أو ربما كان على الراء أن يقول أنه رفع في مواجهتها عدسة مكبرة، وكانت وحدتها الأساسية هي الحدث أو القصة. الشخصية مهمة، ولكنها مهمة فقط "في إطار" القصة، فإن الأمر - على أي حال لن يهم حقاً - سواء إذا كان هاملت هو الذي استهدت به القيرة فقتل زوجته، أم أن لير هو الذي أصبح أمير كودور، أما شخصية فيرثر عند غوته، أو "أوبرمان" عند سينانكور، أو هيرتون عند هولدرلين^(٢) فإن أحداً لا يستطيع أن يحل محل أي منها، لأن كل واحد منهم "هو" القصة. إن العدسة المكبرة تقترب أكثر، حتى لا يعود الحدث هو الوحدة الأساسية، وتصبح الوحدة الأساسية هي الشخصية.

إن قصة ما، سوف تحكي نفسها لك إذا أنت سمحت لها بذلك. أما الشخصية فلا بد أن يعيشها المؤلف. لقد كان على غوته أن "يصبح هو" فيرثر أو ويلهلم مايسر بطريقة لم يعرفها شكسبير في مطابقة نفسه مع هاملت أو الملك لير. ومع هذا، إذا ولج المؤلف الروائي "داخل" الشخصية، فإن الأحداث سوف تتطور حينئذ بشكل طبيعي، فيصبح ويلهلم مديراً لفرقة مسرحية، ويصبح فاوست محسناً عاماً ومشرفاً على مؤسسات خيرية.

(١) ويليام شيلر بيتس (١٩٦٦-١٩٢٩)، شاعر وكاتب درامي، بل إنه رائد حركة الإحياء الإبرلندية، تأثر بكل من ويليام بليك وشيللي وبنزعة الإيمان الهندي بالقوى الخفية وبالرمزية الفرنسية، وبيتس أحد مؤسسي حركة الأدب والمسرح الإبرلنديين في أواخر القرن لاطفي، فاز بجائزة نوبل عام ١٩٢٢م.

(٢) جوان كريستيان فريدريش هولدرلين (١٨٢٣-١٧٧٠) أحد كبار الشعراء الألمان. كان صديق شيللر وتلميذ حتى تخلص من تأثيره وخلق لنفسه موسيقاه وأبنته الشعرية والفكرية. ولكن تم استكشافه متأخراً كشاعر عظيم في القرن العشرين على أيدي الناقد هيلينجرات وبيستر. مزج بين ثقافته الإغريقية وتصوره الوثني عن الطبيعة في البداية، ثم تحول إلى التصورات المسيحية وعبادة المسيح لكي يصبح واحداً من أهم المعبرين عن روح الثقافة الغربية المسيحية وتجسيد الفكر التأمل في الشعر.

هذا، مع ضرورة أن تكون الشخصية واضحة الملامح محددة القسمات. ولكن جوهر النزعة الرومانتيكية كان هو انقسامها الذاتي، إحساسها بالافتقار إلى هوية محددة وواضحة. وببساطة، يخلي فيرثر السبيل لكي يأتي ستيفن ديدالوس. ولكن يأتي "مالي لوريدس بريجي" عند ريكلمه، ولكن يأتي روكانثان عند سارتر وميرسو عند كامو، ثم يأتي أخيراً البطل الاستاتيكي الكامل - "ك" عند كافكا، فالسمكة لم تعد تملك قوة تعينها على السباحة، ولا حتى على التقلب على جانبها، فهي لا تفعل عند بيكيت أكثر من أن تشهق وهي تضرب بذيلها. هناك كسب تحقق في التفاصيل - فالعدسة المكبرة الآن أصبحت على بُعد بوصة واحدة من انف السمكة - ولكن لم تعد القصة ممكنة القيام. وبدون "القصة"، كيف يمكن أن تكون هناك رواية؟

لم يكن الحل الذي تقدم به جويس قابلاً للتطبيق بشكل عام، وفي الحقيقة، وبقدر ما أعلم، كان هو الشخص الوحيد الذي حاول استخدام "النهج الميثولوجي". لقد كشفت الرواية عن محاولة حل المشكلة، وقد ارتدت إلى مرحلة أحدث عهداً، وتصلحت مع ما حدث لها من خسارة في وضعها ومكانتها.

وقد عبرت الدراما بأزمة مشابهة في القرن العشرين. عندما انجرفت هي الأخرى نحو النزعات الذاتية والرمزية والتعبيرية، بل وإلى نوع من الكابوس التعمد في مسرح القسوة عند أرثو. ولقد كان بريخت^(١) هو الذي حاول أن يقيم اتصالاً جديداً مع البدايات، مع منبع الجري ومصدره. لقد بدأت الدراما بوصفها استعراضاً، بوصفها قصة تروى على جمهور من الشاهدين يعرف أنها ليست حقيقة من الواقع. إذن فلماذا تحاول أن تتنافس مع السينما؟ لماذا لا تحاول أن تحصل من طاقها المحدودة على أفضل ما فيها، أي في الحقيقة أن "تؤكد" وجود الفجوة القائمة بين النظارة والممثلين؟ كان بيتس يداعب نفس الفكرة - فكرة مسرح الطقوس - ولكن بريخت كان يملك عبقرية للزج بين مسرح الطقوس وبين منصة المحاضر، بين صالة الموسيقى والرقص وبين صندوق الصابون.

(١) برتولت بريخت (١٩٥٦-١٨٩٨) الشاعر والكاتب السرحي الألماني الكبير. وأحد الشخصيات البارزة في المسرح للعاصر إن لم يكن أبرزها جميعاً، لا بأعماله المسرحية الغنية فقط، وإنما بأفكاره الأصلية عن فنون التأليف والإخراج والتعبير المسرحية هذه الأفكار التي بلورت شيئاً مسرحياً جديداً معارضاً للتيار الأرستقراطي الذي ساد في الدراما الأوروبية منذ القرن الخامس ق.م. من أهم أعماله المسرحية هي: "الأم شجاعة" عام ١٩٤١ ثم "حياة غاليليو" عام ١٩٤٨ ثم "دائرة الخطابين الشوقازية" عام ١٩٤٨، ثم "السيد بونتيلا وتابعه ماثي" عام ١٩٤٢.

كنت قد كتبت عدداً من الروايات قبل أن يخطر لي أن ما كنت افعله هو أن ادفع تأثير "التغريب" الريختي إلى مجال الرواية. لقد بدأت روايتي الأولى "طقوس في الظلام" ببناء ميثولوجي مستمد من الكتاب المصري، "كتاب الموتى"، حتى طرأ لي أنني إذا لم يكن في نيتي أن أستخدم إطاراً نابعاً بشكل طبيعي من المعاني الداخلية في القصة، فإن الأحذر بي أن أستخدم إطاراً يمكن أن يقبله القارئ العادي وهكذا اخترت قصة جرائم قتل جاك الخناق. وبينما القصة السيكلوجية المثيرة، ولكنها كانت ما تزال بشكل أساسي رواية واقعية تقوم على تقاليد دستوفسكي في الواقعية. وفي الرواية الأخيرة، قصصت إلى "عامل الغريب" بشكل واع أكثر عن طريق اختيار أشكال تقليدية، هادفاً في نفس الوقت إلى تأثير قريب جداً من تأثير الاستعراض. ففي رواية "ضياء في سوهو" كان الإطار هو إطار الرواية التصويرية، وفي رواية "الشك الضروري" كان الإطار هو إطار "الرواية البوليسية"، وفي رواية "عالم العنف" كان الإطار هو إطار "الرواية الكبيرة" الألمانية مع نغمات كوميدية مصاحبة تتخلل البناء، وفي رواية "طفيليات العقل"، "حجر الفلاسفة" كان الإطار هو القصص العلمي الخيالي، وفي رواية "الحجرة العتمة" كان الإطار هو رواية الجاسوسية، وفي رواية "القصص الزجاجي" عنت مرة أخرى إلى إطار الرواية البوليسية.

أما الآن، فإن الخطاب الذي دافع عني ضد اتهام كتابية الأدب الداعر قد اثار في ذهني سؤالاً: هل يستطيع المرء أن يستخدم شكل الرواية الداعرة التقليدية، بطريقة كليلاند أو أبولونير، باعتباره الإطار الأساسي لإحدى الروايات، ثم يصل إلى نفس التأثير التغريبي؟ لقد حاولت شيئاً مشابهاً في رواية "رجل بلا ظل"، التي تم تغيير اسمها فيما بعد دون استشارتي إلى "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" وقد لاحظت في ذلك الحين أن الكتابة عن الجنس تميل إلى تدمير التأثير التغريبي لأن القارئ يصبح منغمساً وداخلاً فيما يقرأه. ولكن "اليوميات الجنسية" لم تستخدم "شكل" الرواية الداعرة، وإنما شكل المذكرات الاعترافية، لقد كانت رواية أفكار لا تأخذ الجنس إلا باعتباره نقطة انطلاقها. ولكنه نوع من التحدي الممتع، لأن رواية الأدب الداعر أكثر صراحة من الناحية الكلية من أي نوع روايتي آخر يمكنني أن اذكره. إنها تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي يتصف بها الباليه. وهذا شيء أفضل ما يكون من أجل إنتاج التأثير التغريبي. والتحدي الوجود هنا بالطبع، هو أن تضفي الحياة على البناء. والمشكلة القائمة في رواية الأدب الداعر التقليدية - ورواية "جوستين" يمكن أن تؤخذ هنا كمثال - هي أن المرء يعرف أنها سلسلة من "القطع المستقلة" يربطها خيط قصصي

معتف مفروض عليها، مثل إحدى أوبرات مونتفيري. وأنا أكثر اهتماماً بكثير بالقصة والأفكار مني بالقطع المستقلة المتعلقة الارتباط. ولابد لي أيضاً من الاعتراف - ونحن بصدد الحديث عن الشكل - بأن هذا الكتاب (إله اللتاهة) لا يخضع لقواعد رواية الأدب الداعر بقدر ما يخضع لقواعد القصة البوليسية - وبوجه خاص لقواعد القصة البوليسية الأدبية من النوع الذي شاع في روسيا على يدي الكاتب إيراسكلي أندرونيكوف. وحكاية "جماعة العنقاء" همت بتطويرها اعتماداً على إشارة عابرة وردت عند جورج لويس بورجيس. وفي الحقيقة، إذا صح أن يقال أن روايات "طفيليات العقل"، "حجر الفلاسفة" قد استعارتا الميثولوجيا التي وضعها "هيب. لوفركرافت"، فإن هذا الكتاب يمكن أن يقال عنه أنه قام على أساس من إشارات بوجريس ذات الطابع الميثولوجي.

إن نجاح هذه الرواية أو فشلها باعتبارها تمريناً في المعالجة التغريبية، لا ينبغي أن ينظر إليه كمقياس لقيمة هذا النوع من المعالجة. وأنا مقتنع بأن حل مشكلة السمكة الشيكسبيرية، ومشكلة السمكة الطروحة على الشاطئ إنما يكمن في تطبيق طريقة التأثير التغريبي على الرواية، سواء نجحت هذه الطريقة أو فشلت في هذه الحالة بعينها أو تلك، ولكنني يمكنني أن أقول - محتجاً - بأنها إذا "مكن" أن تنجح في هذه الحالة، فإنها يمكن أن تنجح في أي مكان آخر.

هناك نقطة أخيرة، أثيرها بشيء من التردد، طالما أنها تبدو لي واضحة. فنحن حينما ننمو لكي نخرج من طور الطفولة إلى الرجولة، فإننا نجد مجالات جديدة من التجربة يمكن ألا تكون عملية أو غير مرغوب فيها بالنسبة للطفل، من شرب الكحوليات والتدخين، إلى تسلق الجبال والاستماع إلى الرباعيات الوترية. إن الجنس يقف خارج كل أنواع التجارب الأخرى باعتباره تجربة لابد أن تعالج في شكل سر من الأسرار، كما لو كانت طقساً قديماً غريباً يتضمن اسماً لا يصح أن ينطقه اللسان.

وقد يكون هذا أمراً جوهرياً بالنسبة لبعض القبائل البدائية أو المجتمعات الأبوية (البطريكية)، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكون أمراً مرغوباً فيه بالنسبة لحضارة مثل حضارتنا، ههنا الأساسي (مهما كانت كتابة وتشاؤمية ما يقوله المؤرخون) هو "الحلاوة والنور"؟ لقد كان تطور الحضارة الغربية هو تطور العقل، رفض العنصر القطعي الجامد والسلطوي المتعسف في الدين، وأيضاً (فيما نرجو) في السياسة، وهذا التطور لم يتوقف حينما

رفضت إنكلترا سيطرة البابا - أو حيسماً رفض فونتينر المسيحية، وحتى رسالت نيو مان وأوكسفورد ينبغي أن ينظر إليها باعتبارها تطوراً لنفس الاتجاه، إصراراً على مطالب عقل أكثر رقة وتهذيباً وعمقاً متعلقة باحتياجات الإنسان الميتافيزيقية. وقد كان على فرويد أن يخوض نفس العرصة، وكان عليه أن يكبح سيطرة الحركات الاجتماعية والقيود الضاغطة وأن يقهرها بمطلب الصراحة وانفتاح العقول، وكذلك فعل د. ه. لورنس. ويمكن أن ننظر إلى معسكرات الإبادة النازية باعتبارها محاولة للعودة إلى شكل للمجتمع أكثر بدائية، وغير معقد - حيث تحل الشاغل عن طريق القوة والعقائد الجامدة القاطعة، ونبس عن طريق العقل.

يبدو لي أن هذا التطور يفترض بشكل مسبق فرضاً إنسانياً هاماً: إن "التحريم" رديء في حد ذاته، رغم أنه قد يؤدي في بعض الأحيان إلى الخير في مجال محدود. فعلى سبيل المثال، فإن جرائم القتل الجنسية لا يرتكبها أناس يفكرون في الجنس ويتحدثون عنه دون حكمة، وإنما يرتكبها أناس تصاعد عندهم الإحباط حتى وصل إلى درجة الشيء المحرم الشديد الإغراء. ولذلك لا ينبغي أن نخلط بين "التحريم" والنظام الذي هو بشكل أساسي عنصر محرر. إن جيشاً جيداً يشبه آلة جيدة التشحيم، ونظامها هو العنصر الذي يسمح لها بأن تدور دون عوائق أو عقبات.

وإذا كان شكل هذا صحيحاً - وأنتي لأجد أنه من الصعب أن أتصور أي شخص عاقل يمكن أن ينكره - إذن فلا بد أن يتلو ذلك أنه ينبغي للراشدين الناجحين أن يكونوا قادرين على التفكير في التجربة الجنسية مثلما يفكرون في أي شكل آخر من أشكال التجارب - في الفن أو العلم أو الرياضة أو الغامرة. حينما قرأت رايدر ها جارد في طفولتي - شعرت بالانفصال والمشاركة في وقت واحد. جاء الانفصال من الجلوس على مقعد وأنا أقرأ كتاباً جامداً الحركة، ولكن الاستنارة جاءت من السير عبر الأحرار اللينة بالنعابين مع البطل آلان كاترمين. وهذه هي الخاصية الجوهرية للتجربة المنحصرة، "الانفصال" و"المشاركة". ولكن حيث يتعلق الأمر بالجنس، لا تزال هذه الفكرة بعيدة عن القبول. فمن المفترض حينما إما أن نكون مشاركين بشكل مباشر - في الفراش مع شريكنا في الجنس - أو بعينين منفصلتين بشكل كامل، أي مثلما يحدث حينما نقرأ عن خالتي في مكتب هاقلو غ أليس كم أعظم فناناً، "يا له من أمر ممتع!" هنا يبدو عنصر سخيف ولا معنى له، لقد عاش معظم القراء

الراشدين التجربة الأساسية التي وصفها كليلاند أو د. ه. لورانس. وعلى العكس القسوة أو الجريمة، لا ينظر إلى هذه التجربة باعتبارها شيئاً غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية. فهل هناك حقاً مثل هذه الهوة بين موضوع الجنس وموضوعات من مثل التاريخ أو الغامرة أو الرياضة؟ هل هناك أي سبب يمنع الراشدين، إذا كان هذا هو احتياجهم العقلي، من القراءة عن الجنس مع الإحساس بالانفصال، أو التفكير - أو حتى مع قدر معين من الإحساس بالمشاركة؟ إننا إذاً كان بوسعنا أن نقول عن شيء ما إنه "صادم" دون أن تعني أنه فيبيع أو شرير. إذن فإنها تبدو لي كمفكرة ممتازة أن استخدم هذا الشيء لكي أصدم أكثر عند ممكن من الناس، حتى يفقد تأثيره الصادم، وحتى يمكن أن ننظر إليه بهدوء ومون تشويه. في مجتمع متحضر حقاً - ونحن ما نزال بعينين عنه - لن تكون هناك كتب محرمة، ولا أفكار محرمة.

توطئة

■ كان إيزموند دونيللي في الرابعة والثمانين من عمره حينما داهمه الموت في شهر ديسمبر عام ١٩٣٢، وكان في أواخر حياته مولعاً تماماً بعلم الأرقام، حتى أنه تبادل عدة رسائل مع العالم الرياضي كارل جوس^(١). وفي إحدى رسائله إلى جوس يتحدث إيزموند عن الخصائص "السحرية" للرقم ١٣٧ - وهو رقم - بالطبع - لا يقبل القسمة. وبشكل غابر، صادفت نسخة من هذا الخطاب في اليوم السابق، وكانت موجودة في محفوظات مسر إيكسلايد، نوري، وقد تارت خواطري حينما تبينت أن هذا الكتاب سوف يطبع ويصدر بعد ١٣٧ عاماً بالضبط من موت إيزموند. واعتبرت هذه الصادفة علامة قال حسن.

لا أستطيع أن أحدد بدقة متى بدأ اهتمامي بالبحث عن إيزموند دونيللي، ففي أحد الأشهر، واعتقده شهر يناير ذهب بالطائرة إلى نيويورك مقتتحاً جولة طويلة ومرهقة من الحاضرات، أخذتني من فلوريدا إلى مين، ومن نيومكسيكو إلى سياتل. وكنت قد اصطحبت اسرتي معي: زوجتي ديانا وابنتي مورين التي تبلغ الثالثة من عمرها.

إلا أنني أترسكت سريعاً بعدم جدوى اصطحابهم معي في جميع تلك المدن والأماكن التي تنقلت إليها خلال تلك الفترة، ولذا فقد ابتغيتهم مع بعض الأصدقاء في نيوهافن، وكنت

(١) كارل فريدريك جوس (١٧٧٧-١٨٥٥) عالم رياضي وفلكي ألماني. ولد في برنزيوك ولكنه عاش أكثر حياته في غوتتهين حيث شهد مرصدة كبيراً ونشر أغلب أعماله.

أعود لهما لقضاء عطلاتي الأسبوعية إذا ما كنت قريباً من نيوهافن، أو وجدت متسعاً للرحيل إلى نيوهافن. وبعد شهرين متواصلين من التنقل والاستقرار في مكان واحد، بدا لي مثوئراً جداً، وكان علي أن أخفف من ذلك التوتر، وأن اكافح من أجل الحصول والحفاظ على درجة بسيطة من العزلة لكي أتمكن من كتابة مذكراتي الشخصية اليومية في كراسي التي أعدتها لذلك، وحينما شرعت أخيراً في إعادة قراءة تلك المذكرات، كان واضحاً لي أنه لن تكون هناك بداية أكثر بساطة وسهولة لكتابي هذا من أن أقتبس تلك المذكرات بذات الصورة التي كتبتها تماماً.

- ١ -

١٠ أبريل ١٩٦٩...

■ كنت متكنة على فراشي في غرفة الضيافة بالحرم الجامعي، الشرب الشاي وأكمل كعكاً صغيراً مصنوعاً من دقيق القمح، عندما تطلعت إلى الساعة، وكانت تقارب الثامنة والنصف صباحاً حسب توقيت الساحل الشرقي، والخامسة والنصف بالنسبة لي، وكان علي في التاسعة والنصف أن أتحدث في اجتماع.

لقد قالوا لي أن ديلان توماس^(١) قد نام في هذه الحجرة، وأثار فضيحة حينما سمع لأعضاء فريق كرة القدم من جامعة كويوكول - وهي جامعة الشبان على الناحية الأخرى من المدينة - بالنوم على الأرض وبأن يتقبوا في حوض الاغتسال. ولابد أن نشاط هذا الرجل وطاقته كانا خياليين.

بعد تسعة أسابيع من التجوال عبر أمريكا وإلقاء المحاضرات أصبحت في حالة من الإجهاد أشعر معها بأنني عيني قد تحولنا إلى زجاج بارد متجمد. إنني أستطيع دائماً أن أشعر مقدماً بما سيحدث حينما أكون على وشك الانتهاء، كان الأشياء تكتسب هجاء خاصة

(١) ديلان توماس (١٩١٨-١٩٥٢) شاعر إنكليزي حبيب، يتميز شعره بامتزاج التصويرات السريالية مع عناصر من الخيالات الأسطورية الكلية القنينة، وخاصة تلك المتعلقة بهواجس النفوس وتلبس الأرواح للأجساد.

عجيبة ذات أعماق غامضة. كانت ديانا قد وضعت في حقيبتي قطعة كبيرة من صابون الطبخ العادي الآخر - فالغنادق الصغيرة لا تهين لك سوى قطع صغيرة تنزلق من بين يديك تحت النش - . وعندما ذهبت هذا الصباح لكي أأخذ قطعة الصابون من الحقيبة كان علي أن ألق في مكاني لكي أحقق في الأشياء. من الصعب أن أشرح ما شعرت به. ان قطعة الصابون لم تبد لي ببساطة مكانها قطعة من حجر المالاخيت الأخضر، ولكنه بدت أيضاً رخو، بزخرفة، غائمة كما لو كانت تريد أن تختفي عن الأنظار. إن الأشياء التي أراها في مثل تلك اللحظات تبدو حكماً لو كانت قد اكتسبت بعداً إضافياً أو معنى جديداً، سوى ما يتعلق بالصلاية واللون والرائحة والطعم... ثمة شيء آخر أيضاً، يختلف تماماً عن تلك الخصائص. لا بد لك أن تدعو هذا الشيء - بالنسبة للإنسان - الشخصية، أو الروح.

وكانت أدور حول الغرفة وأنا في تلك الحالة الأقرب إلى الحلم. شاعراً كأنني طفل ولد لنور، عاجزاً عجزاً غريباً، ومع ذلك أنا سعيد سعادة غريبة. حينما بدأت بصب الماء الساخن في صوب الشاي الذي أرسلته إلينا محلات "فيندلاتر" في دبلين - التاباني إحساس عابر للحظة واحدة بأنني ألوب في البخار للتصاعد، وأصبحت رائحة الشاي غريبة، تكاد أن تكون مخيفة أيضاً.

تلك الجولات قاتلة. يريد وكيلي أن أقوم بجولة أخرى في العام القادم، ولكن هذه الفكرة تثير ثائرتي. إن أفضل ما يمر بك من اللحظات في أكتافها هي لحظات الجلوس في الطائرات، وتناول شطائر الهامبرغر وشرب عصير الفاكهة أو عصير البرتقال الطازج. وأحياناً في مثل تلك اللحظات، أتمكن من الوصول إلى حالة جميلة من التبعاد والنظر إلى الأمور في تفصيل كامل عن اللحظة الراهنة، فأحس بالحجم المجرد لتلك البلاد، وأشعر فجأة بالرضا والسعادة. لقد وصلت إلى تلك الحالة أيضاً منذ ليلتين، حينما كنت أجلس في مشرب الفندق الصغير في بورتلاند، انظر إلى السيارات والحافلات العامة تمر سريعة عبر خيوط الطر السوداء، ممزقة انعكاسات إعلانات النيون محبلة إياها إلى مرقق حمراء مثل شظايا القنابل لحظة الانفجار. ولم يحدث أبداً أن غاب عني ذلك الشعور الخاص بالابتهاج عندما كنت أقرب من محل بيع الكتب في أحد الطائرات، حتى ولو لم يكن لدي أكثر من خمس دقائق لتغيير الطائرة، وفي نفس الوقت يكون لدي من الكتب ذات الأغلفة الورقية (من الطباعات الرخيصة)

ما يزيد على ما أستطيع أن أحمله. وفي مطار أوهارا بالأمس، اشترت كتاب أبو تليمر "السيد الفاسق" وهو مؤلف سرياني من الأدب المكشوف، ورحلت أقرأ عن حياة الشيطان السكين التعيسة بينما كنت أنتظر الطائرة. وحينذاك أدركت الحقيقة بوضوح كبير: إن عملي وعمل كل الكتاب هو أن ترفض أن تكون جزءاً من الحياة اليومية العادية، أن تقف جانباً بعيداً عن تياراتها. حتى لو تطلب ذلك أن تتخذ موقفاً مشبعاً بالقسوة أو القومية. يجب ألا تمنعنا هذه الحياة ولا تفرق نحن فيها. هناك علاقة بسيطة كاملة بين العقل وبينته. البيئة تحملنا معها وتضعنا مثل التيار في المجرى السريع، والعقل يشبه الآلة التي يمكن أن تنفع القارب في اتجاه معاكس لاتجاه التيار، أو على الأقل فإنها تساعد على البقاء في نفس المكان. فإذا استمرت الآلة في العمل، كان الإنسان صحيح الكيان بشكل جوهري، أما إذا توقفت الآلة، فإنه لن يكون في وضع أفضل من وضع قطعة الخشب الطافية فوق التيار.

■ مضت الاجتماعات والمحاضرات في سبيلها بشكل جيد بصورة مكافئة - وتحدثت كثيراً عن طبيعة الشعر والزعة الصوفية. وكان أن جرتني ست فتیان، بعد انتهاء إحدى المحاضرات ورحن بطرح علي الأسئلة. كن جميعاً قد قرأن كتاب بومياني الذي أصدره الناشر الأمريكي تحت العنوان المفرز "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" (وقد كتلفني القضية التي رفعتها بهذا الصدد في بوسطن كل ملیم لعین أخذته من حقوق النشر). وكانت الفتيات الست يحملن الكثير من الأسئلة عن كتابتنيها. وكان من الغريب أن أرى أن شخصية كتابتنيها ما زالت تخلق الباب الفتيات رغم الصفحات غير المسلية التي كتبتها عنه. كنت أحب أن أراهن بتجول حراً في إحدى الكتيبات الأمريكية للفتيات، وأحس أنه كان سبيلتي هناك بكثرة الحفقي. إن أكثر الدوافع الجنسية بدوانية في العالم، يمكن أن يعرف

١١ - حيوم توليمير: الاسم الذي للشاعر الفرنسي ويليم، صم سورميهنسي (١٩٨٨-١٩٨٠)، كان من أهم شخصيات حركة الصلحة في الأدب والعلوم النفسية أو قبل القرن الماضي. تميزت شخصياته بالعموم والبراعة الجنسية والجنسية الحرة العادية على أكثر من بضع المرات السوفياتية التي يشهد بها تيريت بريون عندما تعد في ألبان سرياني

في هذا البحر من العنصرية الأمريكية غير الناضجة. ففي جامعة ولاية بورتلاند، عندما كنت أعقد ندوة، أحصلت تجمع من الطالبات حتى أنني لم أعد أرى سوى هذه الشائسة العريضة اللأى بالسيقان الطويلة، والتنانير البالغة القصر. وحينما أخذتني مجموعة منهن لتناول الغداء، تبين أن الفتاة الأمريكية لم تتغير منذ كنت هنري جيمس عن شخصية دبزي ميلر. إن التفاحات تبدو شهية بما فيه الكفاية، ولكن المرء يكتشف أنها قد صنعت من الخشب.

وفي وقت لاحق، وعندما كنت أتناول الغداء مع ميرفين ديلارد، رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة ولاية بورتلاند، سألني إن كنت أعرف أي شيء عن إيزموند دونيلي. ومن الواضح أن هذا كان شخصاً إيرلندياً اشتهر بفسقه وخلاعته. وكان معاصراً لشيريدان. أمضى حياته كلها في صحبة الأوغاد في منطقة "جال واي". وقد نشرت بعض مراسلاته مع روسو في برن حوالي عام ١٨٠٠ تحت عنوان "افتراع العذارى" رغم أنه يبدو أن أسرته قد أعلنت أن هذا الكتاب ليس إلا نتيجة نوع من التزييف وكان سبب سؤاله، أن مؤسسة (غروف بريس) للنشر تحاول إصدار الكتاب في أمريكا، مع مقدمة يكتبها ميرفين ديلارد. وقد أخبرته بأنني أقيمت في "جال واي" لمدة سبع سنوات ولكنني لم أسمع أبداً باسم دونيلي هناك. فاما أن يكون قد نسي تماماً، وإما أن تكون ذكراه قد أهملت عن عمد.

وحينما عدت إلى غرفة الضيافة، كان هناك مظروف (غلاف مغلق) جاني من وكتيلي مملوءاً بالبريد. وكان يتضمن خطاباً من بعض الناس يدعون "مؤسسة ليندن للنشر"، جاء فيه،

مؤسسة ليندن للنشر، ٥٦٥ الشاعر الخامس،

نيويورك. ن. ي. ١٠٠١٦٦، في إبريل ١٩٦٩.

عزيزي مستر سورم.

عرفت من اللقاء معك الذي نشر في باب عرض الكتب في صحيفة نيويورك تايمز أنك تقوم بإلقاء بعض المحاضرات هنا ويقول اللقاء المنشور أنك تنوي أن تعود قريباً. ولذلك أرجو أن يصلتك هذا الخطاب سريعاً.

لقد كنت من المعجبين بكتابك "اليوميات الجنسية" منذ صدوره. وقد تذكرت بالأمس أنك نشرت في المقدمة إلى "موي كويلان" وفي كتاب "مذكرات هاسق إيرلندي"

الذي نرزع أن نشره في الخريف. يصف إيزموند دونيلي عملية إغواء لكل من ابنتي القسيس غير شرعيتين في مدينة موي كويلان. وهو الأب ربوردان.

وبالنظر إلى معرفتك بالكان الذي دارت فيه تلك الأحداث، أتساءل إن كنت ترغب في كتابة مقدمة للطبعة التي نرزع إصدارها؟ وأحب أيضاً أن أضيف أنني سأكون سعيداً إذا اتفقت معك على تأليف كتاب عن دونيلي إذا شعرت بأي ميل إلى القيام بمثل هذا العمل.

إذا حدث أن تسلمت هذا الخطاب قبل مغادرتك البلاد، أتساءل إن كان يمكنك الاتصال بي في الرقم المذكور على الفور، حتى يمكننا أن نناقش في أمر لقائنا؟

ولا أنتظر بشوق أن أسمع صوتك فأنني أنقل إليك تحياتي.

الخلص لك

هوراد هليشر.

ولما كنت املك ساعة فراغ قبل أن تقلني السيارة إلى المطار، طلبت بالهاتف الرقم الذي أعطاني إياه. بدا لي الرجل - من صوته - ودوداً بما فيه الكفاية. ولم يبد عليه الاستياء من أنني لم أسمع أبداً عن دونيلي قبل اليوم. وشرحت له أنني لن أصل إلى نيويورك قبل يوم الجمعة المقبل، وفي وقت متأخر، فقال أنه سيقابلني في مطار كنتيدي لكي يأخذني إلى بيته في "لونغ آيلاند". واثرت في هذه المصادفة المتعلقة بدونيلي. أن مثل تلك الأشياء تحدث أحياناً بكثرة مضحكة. فقد حدث بالأمس أن سمعت اسم الشاعر الروسي لومونوسوف في مذياع السيارة. وبعد عدة ساعات رأيت الاسم أمامي في إحدى دور المعارف حينما كنت أبحث عن شيء آخر. وتركتني هذه المصادفة وأنا أتعجب. ولذلك فهي أول مرة ذهبت فيها بعد ذلك إلى محل لبيع الكتب في الحرم الجامعي. سألت المديرة إن كان لديها أي شيء عن الشاعر لومونوسوف. فقال لي،

"من الضحك أن تسأل عن ذلك. فقد وصلني كتاب يضم الكثير من قصائده بالأمس"

واشترت الكتاب. وفترات المقدمة، وعلى الفور أدركت بأنني قد شععت بشيء على شخصية رائعة تصلح لبناء رواية. ومنذ عشر سنوات، كنت جديراً بأن أنظر إلى مثل تلك

العملية نظرتي إلى السحر والأعمال الخرافية. وأما الآن، هايتي أفتني أثر سبيل المصادفات بلهفة زائدة.

- ٢ -

١١ إبريل، مطار ويلكس ، بار

□ كان قد بقي عشرة دقائق على بداية محاضرتي في هذا الصباح، عندما سلمني ديلارد البريد الخاص بي. كان هناك خطاب من جيم سميت من سان فرانسيسكو يخبرني فيه أن هيلغا نايزي قد انتحرت - ففزت من فوق برج بيركلي، بعد أن تسلقت بطريقة ما فوق الأسلاك الواقية التي وضعوها هناك لمنع حدوث مثل تلك الأشياء. كنت أشعر بالغضب، وقد تملكني الضجر بعض الشيء حينما وصلني الخطاب، ولكن، حالاً فراته، بدا لي أنني استيقظت، وأصبح الإجهاد مكانه لم يكن إطلاقاً.

شعرت أيضاً بالغضب، رغم أنه إنه لا أساس له ولا معنى. كنت قد التقيت هيلغا من خلال جيم الذي كان يقيم حفلات للعرافة يتناول فيها الجميع عقاقير منشطة وترسم الغنيات على أجسادهن أشكالاً مختلفة. كانت طويلة القامة، سوداء الشعر على شيء من الكسل، وكانت قد أمضت الليلة السابقة مع جيم. أمضينا معا ساعتين، نأكل السمك وشرائح البطاطس القلبية ونشرب أقداحاً من نبيذ قلعة بريمنقهام بينما راح جيم يتحدث عن التنجيم والفلك. قال إن الحرب في فيتنام سوف تستمر على الأقل لمدة عام آخر لأن الهجوم تتصارع وتتصادم، وحماسة قالت هيلغا، "راك تهتم بتأثير النجوم على الوجود الإنساني، وكان الأحذر بك أن تعلم بأن الوجود الإنساني - بصورة أساسية - لا معنى له" ألا يكون من الأفضل أن نترك كل شيء للصيغة؟ وحينما قلت أنا أنني سألقي محاضرة في بيركلي في منتصف نهار الغد، عرضت علي أن تأخذني بسيارتها إلى هناك.

وفي صباح اليوم التالي جاءت إلى فندقني وقالت أنها أمضت الليلة الماضية في قراءة كتابي، "وسائل وأساليب الإيهام الذاتي"، ومن المؤكد أنني لاحظت عليها إمارات السهر طوال الليل. وأنا أتقن مناقشة كتابي. كان هناك شعور يملكني بأنها كانت على وشك الانهيار وأن من وجبني أن أحاول مساعدتها. كان ما أدهشني - وخذعني - هو أنها كانت تسلم

تسليماً مطلقاً بأن الحياة لا معنى لها. وقد قالت لي ذلك كما لو كانت تقول إن الله ميلل بالخطوبة. وحينما حاولت أن أشرح لها أنني لا أشاركها هذا الرأي، قالت أن المعنى الذي استخلصته من كتابي هو، أن البشر عاجزون عن أن يكونوا صادقين أو أمناء مع أنفسهم، ولذلك فإن كلاً منهم يحول حياته إلى مسرحية صغيرة يصبح هو فيها الشخصية الرئيسية، إنهم يخترعون الخيالات والأوهام التي تدعى الأديان والفسافات وما إلى ذلك. وحاولت أن أوضح لها أنها حتى تلك النقطة فإن تفسيرها كان دقيقاً بما فيه الكفاية، ولكنني إنما كنت اتخذ هذا الموقف التدميري بحسب لكي أمهد الأرض أمام التفكير الحقيقي. إن ما يمارسه المتصوفون ليس هو الدين ولا الفلسفة، وإنما الحقيقة، فاطعتني بنعمة يائسة تكاد تكون مفعمة بالضيق، "ما هي الحقيقة؟". فقلت، إنها ما كان لها أن تسأل هذا السؤال لأنها تعرف الإجابة بالفعل. إنك إذا كنت ضئلاً ثم شربت مشروباً بارداً كبيراً، فإن إحساسك بالشروب وهو ينزل على حلقك هو الحقيقة. وهذا شيء يختلف تماماً عن الحديث عن الشراب، أو التفكير في مشروب آخر. والبشر أيضاً يملكون قدره غريبة على ممارسة نوع من الحقيقة الوجدانية (متميزة عن الحقيقة الجسدية - المادية - ومقابلة لها)، إنها من ذلك النوع الذي حيرته بالأمس مع قطعة الصابون، أو ما أجريه مرة واحدة على الأقل في كل عام حينما أشم رائحة الربيع لأول مرة. ففي تلك اللحظات كلها الحواس هدوءاً شديداً، ويجتاحك شعور بأنك ترى الأشياء حقاً، بالطريقة التي رأى بها ووردزورث جسر وستمينستر^(١). وثمة إحساس آخر يتمثل تماماً مع مذاق الحقيقي للماء البارد وهو ينزل على حلقك. وقلت لها إن إحساسها بالعقم واللامعنى لم يكن سوى نوع من الجوع إلى الحقيقة، يولد نفس النوع من الإجهاد والبؤس الذي يولده الإجهاد الحقيقي أو البؤس.

والتقيت محاضرتي في بيركلي، واخففتي مجموعة من الطلبة لتناول طعام الغداء، وجاءت معي هيلغا أيضاً. وبعد ذلك أخلونا إلى قمة برج الساعة، وأخبرنا مرافقنا بأن عددنا كبيراً من محاولات الانتحار قد حدثت من هذا المكان خلال العام الماضي - وأن هذه المحاولات

(١) ويليام ووردزورث (١٧٧٠-١٨٥٠) شاعر إنكليزي. كان إلى جانب صديقه كولنريدج من قادة حركة الرومانتيكية في إنكلترا. عرف عنه أنه كان عابداً للطبيعة، متعاطفاً مع الديمقراطية الليبرالية، واهتمامه بفناني حياة الناس والحياة اليومية العادية. واستخدام التهجيات التحلية للناس العاديين، وإيمانه بفكرة وحدة الوجود على أساس أفلاطوني.

تزيد بمحاولة واحدة عن مثيلاتها التي وقعت في برج ستانفورد. واعتقد أن هذا الكلام هو ما اعطاهم فكرة الانتحار من ذلك المكان.

لم نتوقف هيلفا عن الكلام طول طريق عودتنا بالسيارة إلى البلدة، وبعد أن وصلنا إلى المدينة، أخبرني بأنها تريد شراء بعض الأشياء من السوق، طالبة مني مرافقتها إلى السوق. تحدثت لها بأنني أريد الرضكون إلى الراحة، بعد الساعات الطويلة من الكلام والحاضرات، التي أجهدها حقاً، ووعدها نياية عن ذلك بأننا سنخرج معاً في وقت لاحق لتناول وجبة من الطعام في (تشينا تاون). فترأت بعض أعمال هولدرلين ثم استسلمت إلى النوم حتى الساعة. وجاءت هي إلى الفندق في الثامنة، فاحتسبنا بعض النبيذ في غرفتي ثم خرجنا فسرنا على الأقدام حتى الحي الصيني. قالت لي أنها أمضت فترة ما بعد الظهر في التجول حول المتاحف، فادركت سبب الإجهاد الواضح عليها. احتسبنا شيئاً من نبيذ كاليفورنيا مع وجبتنا، فبدأ عليها الاسترخاء، وراحت تتحدث عن مشاكلها وفشلها عن (إصلاح) زوجها المصاب بالشلل الجانسي، وعن تجاربها العاطفية مع عدد كبير من الدعين الزنوفين - فإنها لا تستطيع أن تقاوم أي شخص يشبه الشاعر أو الرسام أو الفيلسوف. وحينئذ بدأت في رؤية المشكلة الحقيقية: الكسل، والضعف، والرغبة في أن "تحدث" لها شيء ما، أن يظهر حكيم ما لكي يمنحها الإجابة. وحينئذ بدأنا في شرب الزجاجات الثانية من نبيذ "الميدان" أصبحت فجأة رقيقة رقة بالغة ومجاملة للغاية، وقالت لي أنها كانت تحاول أن تتلقى بي منذ أن كنت هنا في شهر يناير الماضي. وقالت أنها لا تطلب مني شيئاً أكثر من أن أكون صديقاً لها، أكتب لها الرسائل من حين إلى آخر، وما إلى ذلك. وأخبرتها بأنني سأبذل أقصى ما أستطيع. فقالت: "ليس، للسؤال أنني أريد أن أنام معك، فانا أنام مع الكثيرين"، وكان شعوري هو أنني لا أجد ما أشغل رغبتني فيه عن النوم معها. كنت في مساء اليوم الماضي قد ظننتها جذابة. بل وحسنت جيم على الليلة التي قضاها معها، ولو أنني قابلتها منذ عشر سنوات لكنت قد نمت معها على أية حال، دون تفكير في النتائج. أما الآن فقد كنت أدرك بوضوح أنها كانت تحاول أن تعقد معي صفقة، بأن تعطيني شيئاً ما "في مقابل" شيء آخر أستطيع أن أمنحها إياه. ولم أتنا أن أكون دائماً لها.

أضينا ساعة في "مكتبة أضواء المدينة" وقابلنا عدداً من أصدقائنا، ثم انتقلنا إلى مقهى يقع عبر الطريق لشرب المزيد من النبيذ. وفي منتصف الليل، قلت لها أن علي أن أعود

إلى غرفتي. فقد كان علي أن أستيقظ في الصباح التالي لكي ألقى محاضرة في "بائو التو" فقالت أنها تود أن تسمع معي حتى حي "ساتر" لأنها بحاجة إلى استنشاق الهواء النقي. وعند ناحية شارع ساتر، حاولت أن أقنعها بأن تستقل إحدى سيارات الأجرة، فقالت أنها بحاجة إلى فصح من القهوة لكي تنتعش. وهكذا دعوتها إلى حجرتي وأنا شغيد الامتناع. (كان الكاتب الليفي في الفندق صديقاً لي، ولم يفعل أكثر من أن غمز لي بعينه. ولم أعرف في أنها تحمل في ذهنها فكرة إغوائي - فإنها لم يبد عليها أكثر من أنها تعاني من الشعور بالوحدة، ولكنني كنت مصمماً على أن لا يحدث شيء مع هذا على أي حال). أمضت عشر دقائق في الحمام بينما كنت أعد القهوة، ثم ذهبت إلى الحمام. وتركتها لكي تحسب القهوة، فوجدت الحمام يسبح في رائحة العطر - وحتى اللحظة لم يكن يوسخي أن أخيل ما كانت تفعله بهذا العطر. لأنها لم تكن تحمل منه شيئاً. وحينما خرجت من الحمام، كانت رائدة على أحد السريريين الثقباليين وقد أغمضت عينيهما وبدأ عليه الشحوب الشديد. سألتها إن كانت تشعر بأنها على ما يرام، فقالت أنها ليست كذلك، ولكنها ستتحسن في لحظات. وضعت القهوة على المصدة الصغيرة المجاورة للسرير، فمضت يدها تبحث عن يدي حتى أمسكت بها وقالت:

"هل تسمح بأن تقبلي مرة واحدة، من فضلك؟"

كنت ما أزال أشعر نحوها بتلك العاطفة الأيوية. فرحت أريت على رأسها قائلاً: "أجل، أجل، بالطبع". وانحنيت فوقها. كان همها ليناً وجذاباً، رغم أن شفها السفلى كانت مشققة قليلاً. كان تقبيلي لها نوعاً من الصدقة - شعور يشبه ما كنت أحدثها عنه من قبل عن ابتلاع مشروب بارد ومجرد التفكير فيه. أنت هي بعد أن قبلتها، ورفقت في مكانها دون أن تفعل شيئاً، وحينما حاولت أن تراجع عنها، سمعت في خلفها صوتاً يشبه الأنين من جديد. ولم يكن هذا الوضع مريحاً. كانت رفعتي تؤلمني - ولذلك فقد وضعت ركبتي واحدة على السرير. وفجأة بدأت تتنفس بعمق وبانتظام، كما لو كانت قد استراحت راحة هائلة. وبدأت يدها تمسح سروالي، كما لو كان هذا بالمصادفة، استقرت في مكانها هناك. وحدثت الاستجابة الحتمية، وكنت اتسائل طول النهار إن كانت ترتدي حواير أو سراويل ضيقة. وكنت أعرف أن هذه هي فرصتي الأخيرة. فلو أنها كانت ترتدي السراويل الضيقة، وحتى إذا كانت ترتدي حمالة حواير مشدودة إلى سروالها الداخلي، لا يمكنني أن أعيب قليلاً بأدب، ثم أطلب منها أن تحسني فهورها، بينما تخبئ رغباتي الطارئة وتعلمن جذوتها، أما إذا لم

بكن ذلك.. تباعد فجاءها حينئذ لمست يدي ركبتيها، وحينئذ لمست اللحم العاري فوق الجورب. وبعد لحظة، وصلت يدي إلى ملتقى الطرق، فوجدت أنها لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً. ولابد أنها قد خلعت في الحمام... وفي خلال لوان قليلة سكنت قد أصبحت داخلها ولابد أن أعترف بأنه كانت هناك دفعة غامرة من البهجة الخالصة. وكان هذا نوعاً من الامتزاج الجرد بين الذكور والأنثى، دون وجود لشخصية كل منهما. وبدأ لي أن دفننها. حينما احاطتني بساقها، كان دفننا طال إعداده من قبل. ولكن امتزاجنا لم يستغرق سوى وقت قصير. كان كل منا مستثاراً بشدة لردة أننا بلغنا ذروة نشوتنا في لوان معدودة. ركبنا وأنا في داخلها للحظة أخرى، وأنا أنظر إلى وجهها، فبنت لي مسألة تماماً وهائلة. وحينئذ قالت:

- "فلنخلع ملابسنا وتدخل إلى الفراش".

وكان هذا الاقتراح معقولاً، فنحن على الفور. ولكن ما تبقى من الليل لم يشبه تلك اللحظة الأولى. وكانت قد حصلت على ما أريدت الحصول عليه، وكانت أنا قد وصلت إلى ما كنت حريصاً على أن أتجنبه. ولكن أكثر ما أزعجني هو أنها بنت لي عاجزة عن التعاطف. كانت تستمتع بالجنس في ثمان جسدي لم يتح لي أن أعرف مثله كثيراً - وكان هذا برهاناً جديداً لي على أن النساء اللواتي لا يميزن كثيراً في علاقاتهن الجنسية لسن بالضرورة باردات أو قاترات. ولكنها في اللحظات التي تخللت دورات امتزاجنا، كانت تريد أن تتحدث عن مشاغلها، وعني وعن علم النفس، وعن محاضرتي... وكان عليهما أن يتبادل الحديث بالهمس حتى لا نزعج الزلاء في الغرف المجاورة.

في القطار انتجه إلى "بالو التو"، لعنت نفسي لأنني لم أجلب معي كراسة مذكراتي. لزمكم الأشياء التي أود تسجيلها فيها، لم أكن أرغب في النوم مع هيلغا لأنني كنت أعرف مقدماً أن هذه التجربة لن تختلف شيئاً وراءها. إذن فلماذا لا أحصل بالفعل على مثل تلك الشعة من ديانا رغم أنني تزوجتها منذ سبع سنوات؟ لقد مضت علي عدة سنوات حتى الآن، وأنا أحاول تحديد أسس الدافع الجنسي. ماذا "ينبغي" لرجل ما أن يرغب في إيلاج عضوه بالتنصب داخل امرأة ما؟ لابد أن ثمة سبباً ما، والقول بأن هذه "غريزة" ليس جواباً حقيقياً. حينئذ كان موبسي (مستي) طفلة صغيرة. كنت أتساءل دائماً، لماذا ترضع داما إبهام يدها بينما تمسك أنفها بيدها الأخرى. ثم لاحظت أطفالاً آخرين يفعلون ذات الشيء. وأنني

لأتساءل إن لم يكن هذا مرتبطاً بالرعاية من الثدي - وما إذا كان الطفل يمد يده بصورة أوتوماتيكية لكي يمسك بالحلمة الأخرى بينما يكون مشغولاً بتناول طعامه من الحلمة التي في فمه. فهو يعامل أنه معاملته للحلمة؟ وهكذا لابد أن يكون هناك تفسير مشابه للدافع الجنسي.

قصت علي هيلغا قصة عريية، فحينئذ ذهبت إلى الكلية لأول مرة. وكانت سيدة شابة مكبونة ككتاً شديداً قد جاءت من الغرب الأوسط وتحمل أراءً متشددة حول ممارسة الجنس قبل الزواج، خاصة وأن أمها كانت قد أخبرتها بأن الرجل يستطيع دائماً أن يخمن إن كانت زوجته عذراء أم غير عذراء. وأنه من المحتمل أن يهجرها على الفور. وطوال ستة شهور أو نحوها، ظلت تخرج مع أولاد عريين، وتسمح لهم ببعض التلامسات القليلة، ولكنها كانت توفقهم عند حدهم إذا حوّنوا أن يخلعوا سروالها. وفي بداية عامها الأول، انتقلت لكي تسكن مع فتاة أخرى. أخبرتها بأنها حدثت مشكلة باستخدام عضو أنثوي صناعي، وببنت هذا الشيء حول الفخينين بواسطة حزام، وكان شيئاً يزيد قليلاً عن أنثوية صنعت من نوع ما من المطاط تثبت فوق العظم العاني، ويجب أن يربط مدخل الأنثوية ببعض من زيت الزيتون. وقالت هيلغا أنها لا تظن أنه يمكن أن يكون عملياً، ولكن صديقها كان قد قال لها بالفعل أنه سوف يقطع علاقته بها إن هي لم تتنازل عن رأيها. ولكنها جربت هذا الجهاز بعد أن استعارته من صديقها، ولشد ما دهشت حينئذ وجدت أن فولد لم يهتم أقل اهتمام بذلك. كانا ينمان سوياً في الفراش الصغيرة أثناء عطلات نهاية الأسبوع. وكانت هي تصر على الإبقاء على سروالها دون أن تخلعه، خذراً من أن تشعل شهوة الفتى. ولكنها قالت أنه حتى لم يحاول أن يقوم بمصاحبتها بشكل طبيعي، فقد كان يجد أن يبلغ نشوته، بلاطفها قليلاً ثم يتركها. وبعد ذلك استخدمت هي نفس الجهاز مع صديقين آخرين. معقدة أنها بهذا الشكل سوف تكون فاضلة بصورة رائعة، حتى جاءت ليلة ما فاشتعلت نار عيبة وطلبت من صديقها أن يمارس معها الجنس بشكل عادي.

تذكرت حينئذ أن ديانا كانت قد أخبرني بشيء مشابه لذلك حول تعانها بالجنسية الأولى. فقد حدث مرة أن تشجرت مع صديقها، فذهبت إلى الفراش مع رجل كانت قد قابلته عصر ذلك اليوم نفسه، لكي تفيظ صديقها ولكنها قبل أن تنسحب إلى غرفة

الرجل قالت له انها عذراء وانها تود ان تظل كذلك. فوافق على الفور، وظل طوال الليل يربت أحدهما على الآخر وبلاطفه، ولكن دون ان يمارسا العملية الجنسية بشكل طبيعي.

خطر في ذهني في تلك اللحظة بان هذا يمكن ان يكون مفتاحاً هاماً، إن الرجل "طبعاً" لم يكن رزانياً ولا محتشماً، كان هناك ديانا، وهي فتاة جميلة، من الطبقة المتوسطة ذات حسد رشيق وأخلاق محتشمة، أما هو فريد أن "يعرفها" أنها بالنسبة له مثل شيء وضعت في صندوق زجاجي داخل الخنف وكتب عليها، "ممتوع الشمس". وهناك قصة لوياسان عن سجرم هرب من سجنه وتذكر في ملابس النساء، وعمل كخادمة في منزل إحدى السيدات، وظل يساعدنا على خلع وارثاء ملابسها طيلة شهر. "هذه" هي كعبية رغبة الرجل في معرفة المرأة التي تجلس أمامه في مترو الأنفاق، أو تقف أمام قسم العطور في أحد المحلات التجارية. إن الإيلاج الفعلي في عضوها هو أقل أجزاء المسألة أهمية بالنسبة إليه، إنه ليس سوى درمز النهائي للاستسلام. إنه يستطيع أن ينتظر إليها فيقول لنفسه: "كم أود أن أحصل عليها". لكنه يكون قد حصل عليها بطريقة تكاد تقترب من حصوله عليها إذا ما قضى معها ليلة كاملة في حجرتها، فظل يراها وهي تخلع ملابسها، وراح يتجول بينه فوق جسدها مكنتها، ويشعر بيديها فوق بطنه، ويراقبها وهي ترتدي ملابسها وتمشط شعرها، ويرى الأساليب التي تستعمل بها أدوات ومواد التجميل، ونوع معجون الأسنان الذي تستخدمه (إن جوع الذكر للأنثى هو جوع لأنوثتها، أنوثتها القريبة عنه. وإلى كل شيء فيها).

مرة أخرى أحب أن أقول أنني كنت شديد الإعجاب على الدوام بقصة ككلايست^{١١} عن التاركيز هون، وفيها أن بعض الجنود الروس بغزوة بلدة صغيرة فيأخذون الكونتيسة الشابة لكي يختصموها. وينفذها صابط روسي، فبعضها عليها بسبب ما شعرت به من الرعب. وبعد شهر قليلة تدهش عندما تكتشف أنها حامل، ولكنها وثقة من راءتها ثقة كاملة للدرجة أن تعلن في الصحف مطالبة والد طفلها بأن يتقدم ليعرفها بنفسه. وبعد قليل، يتقدم

^{١١} برنارد هاريس ويظهر فوق ككلايست (Kleist) (١٧٧٤-١٨٠١) شاعر وكاتب ألماني. يعتبر واحداً من رواد حركة "العاصفة والانتفاخ" التي طرقت الرومانتيكية الألمانية بختيها وقتاً طويلاً. ورغم قصر حياته وقلة ما كتبه فقد كانت لغضبه أهمية كبيرة للدرجة قبل معها أن تاتيه على فراش ضاحكاً مكان قوبا للفاية وتكن حياته نفسها كانت بعد أنراً. فبعد أن وصل إلى حافة الجنون أطلق النار على حبيبته "كهربيت" بوحول دم القنجر.

الوالد بالفعل - إنه الضابط الشاب الذي أنقذها. وكان ككلايست من حسن التقدير بحيث حاول أن ينهي القصة نهاية سعيدة، ولكن أكثر الرومانتيكيين كانوا جديرين بأن يجعلوها تنتحر هاراً من العار، ثم يدخل الضابط النير بدافع الندم لكي يصبح راهباً فيكفر عن ذنبه. ولكن غوته تحدث بخشونة واضحة عن قصة ككلايست، مصرحاً بأنها من السخف بحيث لا يمكن أن تغرب من الحياة الحقيقية. الأمر الذي يوضح أن ككلايست كان يعرف عن الطبيعة البشرية أكثر بكثير مما يعرفه غوته - أو على الأقل فيما يتعلق بالجنس. ليست هناك حاجة إلى إظهار أن الضابط كان أخلاقاً لا أخلاق له. إنه ينقذها بروح فارس من فرسان لاندو لتستدجراً. وحينما يخشى عليها، يرقدها برقة فوق أريكة ناعمة، وترتد هي بسكون كما لو كانت نائمة، ويشعر هو بنوع من الفضول إلى معرفة كيف يبدو النصف الأسفل من جسدها إذا خلعت ملابسها، وهو يعرف أن ليس عليه سوى أن يرفع ذبل ثوبها إلى وسطها لكي يراها عارية - فقد كانت تلك هي الأيام السابقة على اختراع السراويل الداخلية، ويقوم هو بهذا العمل في حذر، خشية أن تستيقظ، ويدس يده بين فخذيها لكي يباعد ما بين الساقين. ثم لا يكون من المهم أن تستيقظ أو لا تستيقظ، ففجأة يصبح كل ما يهمه حقاً هو أن يخلع بنطلونه الضيق وأن يلمس عريها بعريه. ويقوم بذلك ويكتشف أن الإيلاج سهل، ويصل إلى ذروة نشوته على الفور. ثم ينسحب، شاعراً بالخجل، متوقفاً أن يراها تقفز في مكانها مفزعة، ولكنها تظل رابدة في مكانها في سكون. ويعيد ترتيب ملابسها، ثم يرتب ملابسها، ويخرج بحثاً عن بعض الماء لكي يفتسل. حينما يعود، يجدها جالسة، تنظر إليه بامتنان. هذه هي الغظة، هل سنعلم أن غريباً قد زار أكثر اعماقها ظلاماً؟ ولكنها مليئة بالكدمات تشعر بالرجفة نتيجة لهجوم الجنود. لدرجة أنها لا تشعر بشيء من فعلته، أجل، لقد أدرك ككلايست فضول الذكر الثائر الذي يتلظى إلى معرفة الأنثى كما تتمطش الأرض الجافة إلى ثاء. ولابد أن غوته قد أدرك شيئاً من هذا هو الآخر. وإلا لأي شيء آخر دفع فاوست إلى إغواء مارغريتا إليها فتاة ريفية عادية، ليس فيها ما يلمع أو يخطف الأبصار بصورة غير عادية، ولو أنه كان طبيعياً الذي يعالجها لشعر إزدها بنوع من عاطفة الأبوة. ولكنها أجنبية عنه، غريبة، إنه حتى لا يعرف ما ترتديه الفتاة الريفية تحت تنورتها الواسعة التي لا تلبسها إلا في أيام الأحاد، وهو بحاجة ملحة إلى أن يعرف.

وهذا ما يفسر لا مبالاة النفسية إزاء هينغا في صباح اليوم التالي، كانت قد سلمت نفسها عارية إلى بالفعل. سلمت هزيمتها، وكسلها، واشتياها إلى الاهتمام واستعادة الثقة

بالنفس. ولم يكن هناك سوى شيء واحد آخر ينبغي اكتشافه: هل كانت ترتدي جوارب ضيقة أم سراً داخلها؟ وكان الإبلج الأول فيها مجرد جنس محض. ذلك النوع من الجنس الذي تعارسه الحيوانات بالقطع حينما تتساقد فيما بينها، ولكن بعد ذلك، برز عقلنا لكي يقطع الطريق على ذلك الجنس ولكي يضلله...

وقد كنت لي بعد ذلك مرتين، المرة الأولى لكي تصف انغماسها في علاقة مع مدير متوسط العمر لإحدى الشركات، والمرة الثانية لكي تعلن لي خطبتها إلى طالب من ولاية سان فرانسيسكو. ولم أكن قد تمكنت بعد من الإجابة على خطاياها الثاني حينما سمعت بانتهارها.

جعلني أجد انتحارها أشعر بقوة الاصطدام بالحقيقة. ثبتت أن إجهاد هذه الجودة من الحاضرات كان إجهاداً زائفاً. إن نتيجة الافتقار إلى الاحتكاك بالحقيقة هو ما أدى بها إلى الانتحار. كانت آخر مرة رأيتهما فيها في ثقة جيم سميت، فقد غادرت سان فرانسيسكو على طائرة الليل في نفس اليوم وكان قد وضع اسطوانة تسجيل على جهاز الحافض لديه وقرب منه إبرة اللافتة. ولم يحدث شيء في تلك المرة. ليس سوى الصمت. وأخير مكبرات الصوت بأن وضع أنبذه عليها، وحدث جيداً في إبرة اللافتة لكي يتأكد من أن شيئاً من الرغبة لم يعلق بها. ثم اسقط ذراع اللافتة مرة أخرى. ولم يحصل أي صوت. ثم لاحظت أن الذراع كان يسقط على جزء من الآلة صمم بحيث يمنع الإبرة من خدش الاسطوانة فقلت له أن هذا الجزء ربما يمنع الإبرة من الالتصاق بالاسطوانة بشكل كامل. وحيط جيم على يديه وركبتيه ونظر إليها من أسفل وقال أن لا، فالإبرة تلمس الاسطوانة بالفعل، ومع هذا فقد عدل من وضع الجزء الصغير بعض الشيء، وعلى الفور امتلأت الحجرة بالموسيقى. كان قد لقط الإبرة مسافة إضافية لا تزيد عن جزء واحد من مئة جزء من البوصة لكي يلمس الاسطوانة. فكانت فريسة منها للدرجة أن العين المجردة لم تكن تستطيع أن تلاحظ المسافة الدقيقة التي تفصل بينهما. ومع هذا فقد كانت المسافة كافية لكي تخلق الفارق بين الصمت والموسيقى.

إن ما يشغلني حقاً هو المسافة التي تفصل بين العقل والحقيقة، إن الضجر السرف بوسع من هذه المسافة، وكذلك إزهاق. ولكن هذه المسافة الفاصلة يمكن أن تكون ضئيلة إلى الدرجة التي تجعل شكل المدارك والجوارب تنوّه أنها تحدث بالحقيقة احتكاكاً مباشراً.

ثم يحدث أن تقع صدمة مفاجئة فيمتلئ الوجود الداخلي بالموسيقى، فتعرف أنه لم يكن هناك احتكاك حقيقي. كنت مخدوعاً. كنت وحيداً في فراغك الخاص، تختنق ببطاء حتى الموت.



فيما بعد - في الطريق إلى نيويورك.

أشعر بأنني مدين بشيء من الامتنان لهيلغا. لقد اختطفتني انتحارها أو انتزعتني بقسوة لكي أخرج من حالة الافتقار إلى الإرادة التي كنت أترك نفسي لكي أساق فيها. إن الكائنات البشرية تشابه إلى حد كبير مع إطارات السيارات، فلكي تحصل منها على أحسن النتائج، ينبغي أن تحتفظ في حالة من الامتلاء المناسب. فإذا كان إطار سيارتك فارغاً من الهواء، وقعدت السيارة لمسافة ميلين، فإنك سوف تدمر تماماً. ويحدث ذات الشيء إذا كانت الإرادة خاوية. كنت اتعمد ترك إرادي تزداد خواءاً بانتظام طوال الأسبوع الماضي أو نحوه، وكنت أتساءل لماذا كنت أشعر بالإجهاد إلى هذا الحد.

يقول دي صائد أن الناس ساميون، فحتى أفضل الناس يحصلون على نوع معين من الإشباع من تأمل ما أصيب به الآخرون من خيبة أمل أو صدمات قاسية، وإنه أعلى حق، ولكن ليس لهذا أية علاقة بالسانية. إنه لسبب غريب ما، يجعلنا الضجر نفقد كل ارتباط بالحقيقة، إنك قد تظن، على سبيل المثال، أن رجلاً ثم إنقاده من خيمته النائية الباردة في القطب الجنوبي، قد لا يكون قادراً على الضجر طوال ما تبقى من حياته، لأنه في كل مرة يبدا فيها في التسليم بالآشياء، على ما هي عليه، فإنه، ببساطة سيستعيد اللحظة التي كان فيها قريباً من الموت بكل القرب، ثم يرى كيف أن ظروفه الحالية جميلة إلى أقصى حد، بصرف النظر عن قناعتها، ولكن في الحقيقة، فإن مثل هذا الرجل حبيب بأن يشعر بالضجر بنفس القدر الذي يشعر به رجل انشغل بجهل حياته في مزرعة ريفية، وربما كان ضجره أكبر. إن سوء حظ الآخرين، أو ما يقابلهم من قسوة الحياة، قد يوفظنا من سباتنا الغريب.

هذا الجريان السائب في الطبيعة البشرية هو ما يسحرنى - إذ يغرسه في قلوبنا وجود الضجر. أحيث هذا الضجر وهذا التسبب، وسوف تحصل على السوبرمان.

السبت، ١٢ أبريل، جريت فيك، لونغ ايلاند.

□ الإجهاد يجعل من عملية اتخاذ أيأ من القرارات الجيدة أو المحافظة على تلك القرارات أمراً في غاية الصعوبة. وصلت إلى مكينيدي في وقت متأخر من الليلة الماضية. وقابلني هوارد هيلنر، كان ضئيل الحجم، إيطالي اللامح، مثبناً بالحمام والرجعية في الافتخام. قادني إلى منزل جميل على قمة تل صخري، يقول انه اشراه من ارملة رجل مشهور من رجال الملاهي قبل في جريعة لم تكشف الغازها. إن هيلنر هذا واحد من أولئك الناس الذين توحى طريقتهم في التصرف بانك لابد ان تحبهم، فانت تشعر ببساطة بانك وهو تشرى كان بالكثير من الأشياء... ظلت أتوقع منه أن يضع ذرائع حول مكيني وان يناديني "يا ولد". ومن الواضح انه يشترك في عدد كبير من الأعمال الضخمة خلاف النشر - وفي الحقيقة، لقد راودتني الشكوك في أن دار ليندن للنشر ليست سوى عمل جانبي أنتجه لأغراض ضريبية. وبينما كنا عاندين بالسيارة، قال بوفاز بأنه قد عرف فور اطلاعه على مكيني "اليوميات الجنسية" أن هذا الكتاب ليس نوعاً من الأدب المكتشف الداعر، وأني شخص مخلص يحمل أفكاراً ويريد أن يعبر عنها. وقد انكمشت أنا وحافظت على صمتي. وعدا إلى المنزل في حوالي الحادية عشرة والنصف، وفتح الباب، فوجدت فتاة سوداء ذات جمال مذهل قدمها إلي باعتبارها سكرتيرته. وكانت هناك أيضاً فتاة أصغر سناً، اسمها بيفرلي، بدت خائبة الجمال بالمقارنة إلى الفتاة الأولى، وقال أنها تشترك في السكن مع سارة (السكرتيرة) وأنها تدرس في إحدى مدارس السكرتارية. ووضعت الفتاتان على المائدة عشاة بارداً ممتازاً، تضمن سرطانات البحر وجراد البحر أيضاً. وبعد أن تناولت الطعام، وشربت فودجين من البيرة، شعرت بأني أقل عدا، نحو مضيق، ولكنني كنت متعباً لدرجة أنه كان من الصعب أن أحتفظ بعيني مفتوحتين. ولكن هوارد (وقد أصغر علي أن نتخاطب بالأسماء الأولى على الفور) أصبح في الحقيقة أكثر تقحماً وحامساً بعد منتصف الليل. تحدثت عن الحرية الجديدة في الأدب، وعن التمرد في الجامعات، وقال ان هناك جيلاً جديداً لابد من البحث عن ملامحه ودراسته، وأنه جيل جانتع إلى الأفكار، وإلى حرية التعبير. وإلى الحبث المباشر المخلص. وحاولت ان اكشف ما يعنيه بالأفكار وحرية التعبير، ولكنني لم استطع ان اكشف إلا أنه كان يعني حرية التعبير عن النواهج العلوية دون قيود ومن خلال التعبير الداعر الذي لا يكبته شيء.

كان علي أن أؤدي اهتماماً وحامساً بكلام هوارد الذي استمر في الكلام دون انقطاع إلى ما بعد منتصف الليل. وفي حوالي الثالثة صباحاً، قادني إلى غرفتي وبينما كان ينهياً لغادرتي، غمز لي بعينه وأشار إلى باب الغرفة المجاورة وقال: "بيفرلي في هذه الحجرة إن كنت تريدنا". وغففت بكلمات عنيت بها أن هذا تعطف شديد منه علي، ورحت بعد هذا في سبات أشبه بالإغماء. وقبل أن أغرق في النوم مباشرة تذكرت أنني نسيت أن أطلب دياتنا بالتليفون في نيويورك.

في الصباح التالي، أبقتني بيفرلي في حوالي الساعة التاسعة وهي تحمل طعام الإفطار وسألني إن كنت قد نمت جيداً. ظننت أنني رايت تعبيراً خاطئاً على وجهها يدل على السخريه. وتساءلت - في داخل عقلي - إن كانت باردة متحفظة كما تبدو. وكنت أشعر بالانقباض. كان الإصفاء لهوارد طوال ثلاث ساعات في الليلة السابقة قد دفعني إلى حالة لم أكن أريد إلا أن أخرج منها لأفقت من قبضته. كنت أريد أن أصرخ: "أتركني وشأني. إنني أكره كل شيء لعين تدفع أنت عنه". ولا أظن أن هذا كان من الممكن أن يغضبه أو يجبره على السكوت. كان من الممكن أن يقول: "كلا إنك لا تكره شيئاً من ذلك. إنك فقط تظن أنك تكرهه..". ثم يمضي فيتحدث بسرعة أكبر مما كان يتحدث في البداية.

دخل إلى حجرتي بينما كنت أتناول طعام إفطاري - إغطاراً إنكليزياً يضم البيض ولحمًا من فخذ من خنزير ومرس بالزبدة - فتأوتني مخطوط كتاب دونيللي. ولم يكن حجمه يزيد على ستين صفحة كتبت بخط اليد. سأنته عما حدث لبقيّة الكتاب فقال:

- "أجل، حسناً، إيه.. هذه هي المشكلة".

وبعد نصف ساعة من التفسيرات الكثيرة المضاعفة، والتأكيدات بأنه يقف دائماً إلى جانب أهدافه، بدأت في إدراك ما كان ينبغي علي أن اتبينه في الليلة السابقة. إنه يشعر بالفيرة من دار "مكرووف للنشر" لأنها نشرت بعض كتب دي صاد، وخاصة كتاب "حياتي السرية" قبل أن يفكر في هذا الكتاب أي شخص آخر. ولكنه لم يكن يرى ما ينبغي أن يمنعه من التقدم إلى ما هو أفضل من ذلك بأن ينشر كل كتاب جاء ذكره في القائمة التي وضعها اللورد أشي عن "بيلوغرافيا الكتب المتنوعة". وهو يبدأ هذا المشروع بالفعل بنشر ترجمة

لاعترافات الأخ، أخازيوس من مدينة دورين، وهو راهب من طائفة الكابوتشان^(١) Capucin تكون جمعية كان يجلد بناء على تعاليمها تابعاته من النساء قبل أن يضاعفهن. واعارشي هوارد مخطوطة الكتاب التي كتبت على الآلة الكتابة، ومن المؤكد أنه كان واحداً من تلك "الكتب التي تقرأ بيد واحدة". وكان قد شرع أيضاً في طبع كتاب يدعى "القساوسة الفاضلون" وإن كان لم يوضح لي من أين حصل على مادة الكتاب.

وأخيراً وصلنا إلى الهدف من كل هذا الحديث، إنه مستعد لأن يدفع لي خمسة آلاف دولار مقابل مكتابة بحث حول "مويكولان وباليكاكين" - مسقط رأس دونيللي - وهو مبلغ يكفي لتغطية تكاليف المقدمة. فإذا كان باستطاعتي أن أنتج "مادة" إضافية للكتاب نفسه - أي إذا كان باستطاعتي أن أكتشف مزيداً من الكتابات التي تركها دونيللي نفسه، أو أن أزورها بنفسي - فإنه سيدفع لي عشرة آلاف إضافية من الدولارات. ومن الواضح أنه لم يكن بمالي كثيراً بما إذا كنت سأكتشف هذه الكتابات أم سأقوم بتزويرها. وأشار إلى أن اليكس تروشي قد كتب بقلمه أكثر من خمس الكتابات المنسوبة إلى فرانك هاريس تحت عنوان "حباتي وتجاربي في الحب" وأنه منذ ذلك الحين كان يصعبه باسمه هو لا باسم هاريس، والسؤال الرئيسية هي أن تكون مستعداً لأن تحمل أي نقد يوجه إلى الكتاب، إذا حلت ووجه إليه مثل هذا النقد.

كان الحصول على مثل ذلك ثأل كله أمراً مقرباً، وكنت سأعثر نفسي سعيد الحظ لو تبقى لي خمسمائة دولار من مجموع المال الذي وصلني مقابل تلك الجولة من الحاضرات. وقلت لفليشر أنني سأفكر في الأمر، فغادرني مع المخطوط بين يدي.

امضيت ما تبقى من فترة الصباح في الفراش، بينما كان يشايد انقياضي كلما توغلت في قراءة دونيللي. إنني لا أفهم كيف استطاع أن يحافظ على صداقته لأشخاص مرموقين مثل شريدان وروسو. إنه يبدو في صورة لا تزيد عن صورة متشرد فطر العقل، والأسوأ من هذا، هو أنني أشك في ألا يكون ببساطة، كاذباً. فالتساءل اللواتي أغواهن - بدءاً من شقيقته وخادمة المنزل - يبدون جميعهن كما لو يكن نسخاً مختلفة من نفس الصورة الخيالية للرغبة في التحقق. إنهن يبدن جميعاً بالقاومة بشكل يوحي بالفضيلة وهن يقنن،

(١) طائفة من رهبان الفرنسيسكان انتشرت عليها، وكونت جماعة جديدة للرهبنة في عام ١٥٢٨.

"نواد، يا للعار!". وحينما بلغ أصبعه إلى داخل "الشق الرجائي للاستطيل"، يتنهدين، بينما أخاذهن: "منفرج كما لو كان ذلك يتم بصورة تلقائية". ومنذ تلك اللحظة، تمضي كل قصة إلى الأمام دون انقطاع واحدة حتى تثلج شكل امرأة منهن منتشية في الفراش. إن فليشر إما أن يكون أبلها غيباً أكثر مما يبدو عليه، وإما أنه يعلم تماماً بأنه قد خدع ولا يبالي بذلك أدنى مبالاة.

جاء إلى غرفتي وقال إننا نتوقع وصول ضيوف يتناولون معنا طعام الغداء، وكان ذلك أشبه بالقشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل - لم أكن أشعر أبداً بأنني على استعداد لاستقبال الناس في ود لطيف. ذهبت إلى الحمام، وفتحت "البدش" فوق رأسي. فجاءت شعرت بلوار، وكان علي أن أتعلق بهامود ستارة الحمام. جلست على مفعد المرحاض، وحدثت في مفرش الحمام للزركش بالورود، شاعراً بموجات الانقباض تتلاحق فوق وتراكم. فكرت في هيلغا، في ذلك الصباح الأخير، بينما كانت قد جلست على حافة الفراش، ترندي حوارها وتجنّبها إلى أعلى ساقيها. قالت حينذاك: "إنني سعيدة لأننا نلنا معاً، ربما كان علينا أيضاً أن نأخذ أي منعة نستطيع أن نحصل عليها". ولم تزد على ذلك حرفاً، ولكنني فهمت ما كانت تريد أن تقول. كانت تعني أن الحياة لا معنى لها. كنا قد صعدنا إلى الفراش معاً، ونضاجعنا مثل حيوانين، وغرقنا في النوم وصحونا من جديد، ولكننا كنا غريبين، أكثر امانة من أن تراودنا أية أوهام عن الحب أو العنان - كل منا غريب عن الآخر وعن الكون. وفجأة أدت أن أشرح لها ما يدور برأسي. أدت أن أقول لها أن العالم يبدو لها بلا معنى لأن "لا وعيها" قد غرق في سبات عميق. وحينما نكون سعداء، نظل فقاعات المتعة تتصاعد من أعماق اللاوعي - ذهكريات وروائح وأمكنة. وحينما يتملك الإجهاد، يكف اللاوعي عن القيام بعمله، وتكون النتيجة هي الحالة التي يدعوها سارتر: "الفئيان". ساعثها ترى الأشياء دون ظل المعنى القصير الذي يلقيه على الأشياء في أعماق العقل. يقول سانت أوغسطين: "ما هو الزمن؟ حيثما لا أسأل نفسي هذه السؤال، أعرفها الجواب". تماماً إن عزل شيء ما في داخل الوعي يتزع عنه معناه. إن حقيقة أن الوعي يرى العالم خالياً من المعنى إنما هي حقيقة لم تبلغ شيئاً من شيء. فليس من المفروض في الوعي أن يدرك المعنى، المفروض فيه أن يدرك "الأشياء"، للوضوعات الخارجية المستقلة عن الذات. ولكن كيف كان لي أن أشرح ذلك لفتاة سقطت تخبط دون مهرب في حالة من الإجهاد العصبي الكامل؟ وكان للمفروض - من أجل إخراجها من هذه الحالة - أن يتم إقناعها بأن تبتذل شيئاً من الجهد. وهي لن تبتذل أي مجهود

لأنها تقول أن كل جهد لا معنى له ولا هدف ولا نتيجة. لقد وقعت في شرك دائرة مغلقة، مفرغة.

كنت مصمماً على ألا أقع في نفس الخطأ أخرجت نفسي من هذا الجمود كما لو كنت أصحو من غمادة، وخطوت إلى تحت مياه "الدش" الساخنة، ورجحت أفكر في أنني سوف أرى ديانا غداً، وإن بإمكاننا العودة إلى بيتنا بعد عشرة أيام.

لم أتفاجأ من زياة طعام الغداء فقد كنت أتوقع ذلك. كان من الواضح أن الضيوف جيران أغنياء، وكان فليشر قد دعاهم إلى مائدة لا شيء إلا لأنهم جيران أغنياء. وفكرت في كثرة ما يحدث في أمريكا من مثل هذه الأشياء - أناس بشريون ويتبادلون الأحاديث دون أن يكون بينهم أي شيء مشترك - وغرقت مرة ثانية في حالة من الانقباض للزعج. شعرت بأن فليشر لا يملك الحق في أن يصب على رأسي كل هذه الصور العينة من أنواع الضجر، رجال الأعمال السمان وزوجاتهم البلهاء وثرثرتهم عن "الفيلا" المخصصة للعطلات والتي اشتروها في فلوريدا أو على هضبة الكارميل، وكانت بيقرلي جالسة في الطرف البعيد من الحجرة، مع شاب سمين من النوع العملي النموذجي، كانت زوجته قد رحلت بعيداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وأزعجني هذا أكثر من أي شيء آخر لأنني شعرت أنها لم تكن موجودة هنا إلا لكي تسليني - حتى ولو لم أكن راغباً في النوم معها، إنما أردت أن يكون هذا "اختياراً" مني أنا.

خرجت إلى الشرفة القائمة إلى جوار بحيرة السباحة الصناعية الساخنة والقيت ناظري عبر الأصوات المتصاعدة إلى أراضي كونيكتيكان. كان الهواء دافئاً ومعتدلاً وهجاء قررت أن علي أن أدلي برأي لفليشر. أنني لا أريد أن أفعل أي شيء في كتابتي العين. بل أنني حتى لا أستطيع أن أحمل مسؤولية كتابتي المقدمة دون نوع من عدم الأمانة، لأن دونيللي بداني في صورة شريرة مملعة. لا بد لي من مفادرة هذا للكان بعد الغداء مباشرة لكي ألق الحق السيارة العاصة بعد الظهر فأذهب إلى نيويورك...

كنت على وشك الخروج لكي أقول لفليشر كل شيء حينما خرجت بيقرلي إلى الشرفة حاملية لي صباحاً من سمك السالون الدخن وقدحاً من البيرة. قالت:

"بيدو عليك الضجر"

قلت - بشيء من الغضب كما لو كنت ألومها - "إنني ضجر حقاً. إنني أشعر بالفتيان من كل هذه المسألة العينة". وقلت لها أنني نويت أن أغادر المنزل بعد الغداء مباشرة. وادشني اهتمامها. قالت:

"كلاً. ليس لك أن تفعل هذا. انتظر حتى يذهب الآخرون".

أثار انتباهها لي غموري. فوعدها بالانتظار وبعد خمس دقائق، جاء هوارد وسألني عن حالتي وما أشعر به. فقلت إنني بخير وإنني أفكر في الرحيل في اليوم نفسه، ونار اهتمامه جداً هو الآخر، وهرع إلى داخل المنزل.

أكلت السالون وبعض اللحم البارد. وصعدت إلى حجرتي. كنت جالساً على الفراش أقرأ في مخطوطة دونيللي حينما دخلت بيقرلي. بدلت غير وافقة تماماً من نفسها. وقالت: "جئتك بشيء من قطرة التوت البري".

شكرتها، فجلست إلى جوارتي على السرير. قالت:

"يقول هوارد أن علي أن أقتنعك بالآلة رجل".

"لماذا؟"

ترددت، ثم قالت: "هذا يعني الكثير بالنسبة لي. أريدك أن تبقى".

قلت ثانية، "لماذا؟" وقد ازدادت دهشتي

تكلمت بكلمات غامضة عن أنها لم يبق لها سوى عام واحد في الدراسة. قبل أن تتمكن من الحصول على وظيفة ذات راتب جيد، وأنصح لي بالتدريج أن فليشر كان يوقع لها مصروفات دراستها، وأنها بدورها، كان عليها أن "تسلي" ضيوفاً منلي. واقترضت أن كل شيء يتفق مع هذا الاستنتاج. كانت سارة سكرتيرة فليشر وعشيقته. وكانت بيقرلي تشارك في شقة مع سارة. ثم أدركت أن فليشر قد غضب منها لأنها لم تمنح الليلة معي. قلت: "ولكن ألم توضحي لي أنني كنت غافلاً في نوم عميق؟"

قالت: "جل، أعرف ذلك. فقد جئت إلى حجرتك في الليل".

صككت أصكل فطيرة التوت البري - رغم أنني لم أكن أريدها - إنما أكلتها بدافع
الخرج. كان الموقف واحداً من تلك المواقف المحرجة الغريبة. لم يكن بمقدوري أن أقول:
"حسناً، أخلي ملايسك. وسوف نخوض ما فاتنا من الوقت".

قلت: "ولكنني وضعت لهوارد أن زوجتي وإبنتي ينتظراني في نيويورك".

قالت في تعاسة: "أجل، أعرف هذا".

قلت: ولكن ما الفرق بين أن أكون قد قضيت الليلة معك أم لا؟"

ولكنني في الحقيقة صككت فامراً على تخمين الفارق. كان فليشر واحداً من أولئك
الرجال الذين يصممون على أن يمضوا في طريقهم إلى غايتهم. وكان قد قرأ صكتاسي وقرر
أنني الشخص الذي كان بحاجة إليه لتقديم كتاب دونيللي في صورة نبعث على الاحترام.
فإذا صككت قد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في منزله. مع فتاة جليها من أجلي، فإني أكون
تحت نوع من الالتزام نحوه بشكل ما.

قلت: "اسمعي. لا أظنني قادراً على قبول هذه المهمة. إن هذا الكتاب مجرد مؤلف من
الأدب المكشوف. وهو حتى ليس أدباً مكشوفاً ككتب بطريقة جيدة. إنه لا يقنعني". قرأت لها
الشهد الذي يمضي فيه إلى الفراش مع شقيقته وهي في فترة الطمث، وتسمح له شقيقته بأن
ينال عذريتها. ثم قلت: "فتاة إيرلندية في ثمانينات القرن الثامن عشر ما صككت لتسمح
لأخيها حتى بأن يعرف أنها في فترة الطمث".

ومع هذا فقد وجدت أن قراءة هذا الشهد بصوت مرتفع قد أنتجت إحساساً قلقاً في
أعلى السافين جعل من السير أمراً لا يبعث على الارتياح، ولذلك فقد جلست على حافة
النافذة العريضة بشكل مكافئ. واعتزيت هي على أساس أن الأخلاق صككت أكثر مما
ظننت حرية في القرن الثامن عشر، وإنه من المحتمل أن يكون دونيللي ببساطة صككتاً مهملاً
أغفل الخطوات الهامة في عملية الإغواء. قلت:

- "حسناً، فما رأيك إذا في هذا الشهد؟"

تحوّلت إلى الشهد الذي يصف فيه إغواءه لزميلة شقيقته في المدرسة تحرصت مبغضلي
لتقريب من صكتي، وترصت نهديها بضغط عليه. كان الشهد يصف كيف صككت الفتاة

تقف معه. تشاهد استعراضاً يسير أمامهما. ويجل هو رباط ثوبها العلوي وبعض حلمتها. ثم
يبدس إصبعه في "الشق الرجائي المستطيل". وينتهيان بأن ينضاجاً وهي جالسة على
ركبتيه؟ قلت أنني أظن في هذا الشهد نوعاً من الاستحالة للناحية للعقل، ولكنني صككت
أشعر بأن صوتي فابضاً متوتراً. كان ارتباط الشهد الداعر، بنهديها الضعفا بقوة على صكتي
قد دفعني إلى حالة من التوتر. كان من الممكن أن تظهر واضحة للعيون لو أنني لم أكن قد
وضعت المخطوطة في حجري. صككت ترتدي صدره من الصوف. أكت الفر مزي. تكشف عن
صكتيها. وصككت الصدره تتناسب جداً مع بشرتها الذهبية. وحينما انتهت من القراءة،
بللت إصبعها الأوسط بلعنها. ودارت بدراعها حول رأسي، فوضعت يرفة في أنفي. لا أعرف أين
تعلمت هذه الحيلة، ولكن تأثيرها كان مروعاً. فجأة أصبح الموقف ملكها هي. وصككت هي
تعرف ذلك. وكان الحرج الذي ساد الموقف في البداية قد اختفى. مددت يدي وجلبت
صدرها ليكشف عن صكتيها، ثم جذبت دثرتي حمالة صدرها إلى أسفل. وصككت الدثرتان
صغيرتين، لا تزيدان عن "بقعة" ضئيلة من مادة ناعمة. صككت حلمتها منتصبين
وشلبنتي الاحمرار، أخذتهما في فمي واحدة بعد الأخرى، ورجحت أفكهما بلساني، انزلت
لتجلس على ركبتني، ودفعت المخطوطة لتقع على الأرض. جلسنا كذلك في هذا الوضع،
وقد ثقل تنفس كل منا. تساءلت بيني وبين نفسي إن صككت تريد أن تنتقل إلى الفراش،
ولكن أصابعها راحت تربت علي بنوع من الهارة جعلني أرتعب في البقاء ساكناً في مكاني،
لأترصها تمضي في عملها. كان يوسعي أن أرى ما وراء صكتيها. ما خارج النافذة، المخطوط
الخارجية السوداء للأشجار على صفحة البحر، بينما فروعها فقط تنطلي براعم أوراق
خضراء صغيرة. بلغت الأوراق والأغصان صلبة صلاية رائعة، كما لو صككت قد صنعت من
خشب ما، مزاج بين القضي والأسود. حينذاك بلغت ذروة نشوتي، وتماليت الأشجار، وتصلب
في داخلي شيء ما صلاية لا حد لها. حتى لقد صكان كل ما نظرت إليه يمثل هذه الصلاية،
صلباً وجميلاً جمالاً خارقاً، جميلاً كما لا يتخيّل لغير الصلب أن يكون. انحنت فوقي، ودست
لسانها في فمي، وترصت في مكانه حتى تراخيت بالتدريج في يدها. جلبنتني من يدي،
فتحرصنا إلى الفراش. وببساطة رفدنا عليه، بكامل ملايسنا، صككت على وشك أن تحرق في
النعاس حينما سمعت صوت إضاءة مصباح ما ففتحت عيني في البراءة، رأيت صورة الباب وهو
يفتح. خطف فليشر نظرة إلى الداخل، وأنا، ثم انسحب ثانية على الفور. صككت ببغضلي
باتمة، وقد انفرجت شفتاها. وهجاء شعرت بالإشفاق عليها، وغمرني إحساس دافق، كان

هو "الحب" بشكل أساسي. وكان فليشر قد أمرها بأن تأتي إلي لكي تمنحني نفسها. وقد بدت أفضل ما في وسعها. حاولت أن تمنحني النعمة دون تفكير في منعها هي، ومنديلي يحمل النتيجة. قبلت شفقتها النفر جتين، وحينما جففت قليلاً، قبلت حبيبتها:

عندما هبطت إلى الجديق السفلي، قلت لفليشر أنني أريد أن أرحل على الفور، ولكنني سأقبل التعاهد معه. قال:

"بالتأكيد يا رجل. هذا هو رجلي". ووكزني في كتفي يود.

✱ ✱ ✱

نفس اليوم، فيما بعد.

تركت (جريت نيك)، مسافراً إلى نيوهافن لتلحق بديانا، وقضاء بضعة أيام معها، في سقري هذا شغل ذهني تعذر وتلعثم بيرجسون^(١). وهو يحاول الإجابة على إحساس هيلفا باللامعنى. ففي إحدى مقالاته، وصف كيف أن ساحراً من سحرة الامتعضات السرحية (هاودين)، كلما أظن قد درب ولده الذي كان يبلغ الخامسة من عمره، على الملاحظة الفورية الخائفة. حيث هاودين يطلع ولده على قطع لعبة "الدومينو" ولكنه لم يكن يسمح له بأن يحصى عند ما رسم عليها من نقاط سوداء. ثم يسانه بعد هذا أن يتذكر كم كان عدد النقاط، أي أنه كان عليه أن يحصى النقاط "في خياله". ثم كان يطلعه على مجموعتين من قطع الدومينو، ويأمره بالآحصى النقاط، ومرة أخرى، كان عليه أن "يتخيل" تلك النقاط بعد أن تبعه عنه القطع ويطلب منه أن يتذكر عدد ما كان عليه من نقاط سوداء. كان الصبي - بهذا الشكل - قد درب على أن يلتقط صوراً فوتوغرافية منظرة (مرئية) بذاكرته. وفيما بعد، كان يؤخذ لكي يقف لمدة ثمانية واحدة أمام واجهة لجل من

(١) هنري بيرجسون (١٨٥٩-١٩٤١) فيلسوف فرنسي معاصر حاز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٧، عرفه عنه اعتماده على الجنس البشري كوسيلة للحصول على المعرفة بدلاً من وسائل العلم القائمة على التجربة والملاحظة والاستدلال. من أهم أعماله كتاب (الطور الخلاق) عام ١٩٠٧، وكتاب (الثابة والناكرة) عام ١٩١٦، وكتاب (الضحك) عام ١٩٠٠.

محلات بيع دمي الأطفال. ثم يطلب منه أن يكتب أسماء أربعين أو خمسين من تلك الدمي. من الذاكرة. كان هاودين يدرب الصبي على التظاهر بأنه يملك حاسة سادسة، وكان على الصبي أن يصعد إلى السرح، فيختطف لوحة سريعة على الثفر حين لدة دقيقة واحدة أو نحوها بينما يقدمه والده إلى الجمهور. وفي تلك اللة القصيرة، يكون الصبي مشغولاً بـ "تصوير" كل الأشياء الثمينة التي يستطيع أن يراها - سلاسل الساعات وما إليها، ثم تغطي عبثاً بقطاء محكم، وبإشارة ما من والده، يكون قادراً على أن يتبين الشيء - أو يتعرف عليه - بشكل عام. كان يمكنه - بالطبع - أن يسمع صوت الرجل الذي ناول الشيء إلى أبيه، فيكون قادراً على تقدير موضع جلوسه في صالة السرح.

ويشير بيرجسون إلى أن جوهر هذه الطريقة هو "عدم" السماح للصبي بأن يحصى النقاط السوداء، وبدلاً من أن "يفسر" ما رآه، مثلما يفعل نحن جميعاً في أثناء استيعابنا اليومي لما يحيط بنا، لم يكن يطلب منه سوى أن يسمح للمستوى الأعلى من عقله بأن يصور هذا الذي رآه في لحة خائفة. وأصبح المستوى الأعلى من عقله منفصلاً ومستقلاً عن حواسه، ووجدسه، وأحكامه.. الخ. وأصبح قادراً على أن يتحرك بسرعة أكبر بكثير. كان أشبه بـ "الضوء المتحرك".

إن الصفار من الناس - ولهرة منهم بالتحديد - سرعان ما يتعلمون هذه الحيلة - خاصة إذا كانوا يتعرضون لنوع من الامتحانات. إنهم يتعلمون كيف يفصلون بين مستويات العقل. ولكن لاحظ ما يعني هذا. إنك تعلم نفسك أن تصور "الحقائق" دون معناها. فإنني لو منلت أن أتذكر محتويات واجهة لأحد محلات بيع لعب الأطفال لقلت: "هناك آلة إطفاء في الوسط، وعمبة غروس في ذلك الركن، ودب أسمر في الركن الآخر..". ثم لا أكون قادراً على تذكر أكثر من شيتين أو ثلاثة أشياء في عدة ثوان.

ومن السهل أن تصبح عادة، إدراك الأشياء دون معناها. ويصبح من الصعب أن تعيد ربط مستويات عقلك العليا بفراتك وحواسك. إن الجواد سرفاض أن يعاد لكي يربط إلى تجربة مرة أخرى مثلما كان في البداية. إنك تمضي فلا تفعل أكثر من أن "تري" الأشياء دون أن ترى معانيها. ثم تقول: "إن العالم لا معنى له".

الاثنين ١٤ إبريل - شارلستون - س. س.

□ إن يوماً من أيام الأحد فضيبته مع ديانا وموبسي جعلني أشعر بأنني أكثر عقلًا. قضيت يوم أمس في مباحبة فكرة تمزيق الشذرات التي كتبها دونيللي وكتابة كتاب كامل - لفلپشر - عن مذكريات دونيللي، ولكن حدث هذا الصباح. وقبل أن أغادر نيويورك مباشرة أن اتصل بي فلپشر تليفونياً. وكان قد تذكر لثوبه أنني كنت ذاهباً إلى "باتون روج" وأراد أن يقول لي: إن واحداً من سلالة دونيللي - الكولونيل منيرو دونيللي - يعيش في مدينة "ديتهام سبرينغز". وسوف أكون هناك لمدة ستة وثلاثين ساعة، على أن أحاول الاتصال به.

ظللت أفكر في بيشرلي، لم أكن أفكر فيها فقط، وإنما فيها حدثت للأشجار حينما حدثت فيها. حاولت التعبير عن ذلك بالكلمات. وكان ذلك شديد الشبه بما يحدث حينما تشعر بالنعاسة، فيبدو كل ما تنظر إليه ممتزجاً بتهاسلك - يصبح نوعاً من "الرمز" لتهاسلك، مثل السماء الرمادية أو تساقط أوراق الخريف - كذلك هو الأمر في اللحظة التي تلوي فيها التيشوة شكل جزء من أجزاء الجسد، إذ يصبح شكل شيء رمزاً للإحساس بالقوة. وهذا ما يفسر السبب الذي جعلني أرفض دونيللي. إن لحظات نشوته الفاترة الخالية من أي طعم، لا تؤدي إلى أي مكان. إنه لم يحاول أبداً أن يقتفي آثارها بحثاً عن منبعها في ذاته.

(يوميات الأسبوع التالي تم حذفها)

□ في صباح يوم السبت الماضي، ومرة أخرى في مساء اليوم نفسه، أقيمت محاضرة في جامعة ولاية لويزيانا - وكانت محاضرة جيدة رغم هذه العبادة من التعب التي تفرمني دون أن أستطيع خلعها أو التخلص منها. (إنني لا أستمتع كثيراً بالقاء المحاضرات. إنني أصر على تذكر ذلك التعليق الذي قاله ماركيز هالبفاكي: "إن الفرور الذي تبعته عملية

تعليم الآخرين في النفس، ليفري الرجل دائماً بأن ينسى أنه صاحب عقل مغلق". وفي ساعة باكورة من صباح يوم الأحد، تناولت إيطاري في غرفة الفندق الصغيرة واستأجرت سيارة لنقلني إلى منطقة "ديتهام سبرينغز"، التي تبعد مسافة عشرة أميال (وكان فلپشر قد عرض عليّ أن يلحق هو أية تكاليف). ولذا فقد استأجرت سيارة لهذا الغرض وقد صممت أن تكون من سيارات "ديتهام سبرينغز" نفسها. وكان سائق السيارة زنجياً متوسط العمر. سألته إن كان يعرف أين يسكن الكولونيل دونيللي. قال: "أوه، نعم". وكان يعرف الكولونيل بالفعل. وقال إن الكولونيل يسكن على بُعد ميل واحد خارج المدينة. وسألني إن كنت صديقاً للكولونيل، فقلت له إنني لم أقابله من قبل أبداً، ولكنني أمل أن أجدّه في بيته. فقال:

- "صليب، اسمع، في هذه الحالة قد بقايلك وقد لا تسمح لك بمقابلته. فإنك لا تستطيع أبداً أن تتنبأ بما سوف يفعله الكولونيل".

وأذهبت الرجل لي أنه فراراً بدرجة لا تقل عن تردد أكثر سائقي سيارات الأجرة في أمريكا، وفي خلال عشرين دقيقة كان قد أخبرني بالكثير عن دونيللي، ولم يكن فيما نقله إليّ من المعلومات ما يمكن أن يهمني كثيراً. كان قد جاء إلى ولاية لويزيانا قادماً من ولاية مكسيكو بعد الحرب بفترة قصيرة، فاشترى مساحة من الأرض خارج البلدة. وقد حصل على الأرض بثمن بخس لأنها كان سبخة مليئة بالنعابين. فاستأجر بعض المعدات الثقيلة، حتى جفف الأرض ونظفها، ثم بدأ في الزراعة، فاستنبت الأرز، وقصب السكر وغرس أشجار البرتقال. كان يدفع أجوراً طيبة، عرف عنه أنه كان يقسو على نفسه وعلى عماله. فقد كانت الأيدي العاملة - ومعظمها من الزنوج - تعيش في أبنية خشبية كانت ككتات الجنود القديمة. وكان دونيللي طاغية تماماً، رغم ما عرف عنه من هوس بالعدالة والحق. كان يقضي في المنازعات بنفسه، وكان أحياناً يأمر بجلد بعض العمال، بل كان يقوم بعملية الجلد بنفسه. وكان يوسع من مريد الرحيل أن يرحل. كان يسكن بمفرده، ولم يعرف عنه أبداً أنه نام مع امرأة. وكان خادمه الوحيد رجلاً مكسيكياً كوثماً، هائل الجثة. وكانت هناك شائعات تقول بأنه يضرب الرجل - فقد كانت أصوات الضربات واللعنات تسمع أحياناً من داخل مبنى المزرعة - ولكن الخادم لم يشك الأمر إلى مخلوق على الإطلاق. ثم مات بمرض التيفوئيد بعد عدة سنوات.

وفي عام ١٩٦٢، اكتشفت شركة "ستاندارد أويل"، التي كان لها مركز كبير في "باتون روج"، البترول في أرضه، فعرضت عليه تمناً كبيراً لها. ولكن دونيلي وافق على أن يؤجر لهم قسماً من الأرض. ورغم أنه احتفظ بقسم كبير منها يصلح للزراعة، فإنه ألقع عنها، وصرف عماله، وعاش حياة ناسك وحيد. وكان يعيش بمفرده منذ ذلك الحين، يرمي نواورثيانز. وزعم أحد سكان "دينهام سبرينغز" أنه رآه هناك في بيت للسعادة، ولكن لم يصدق ذلك إلا القليلون.

كنا قد أصبحنا على بعد أميال قليلة من "دينهام سبرينغز" ونصحي السائق بأن أرفع رجاج نافذتي. وفسر لي الأمر بأننا كنا على وشك أن نمر بعمل لتفريخ الدواجن ونبحثا كان قد احترق منذ فترة قصيرة، وأن أجساد الطيور الميتة لم تكن قد دفنت بعد أو نقلت من المكان. وعمر بالمكان عن يميننا - ولم يكن "العمل" أكثر من سقيفة خشبية كبيرة، بقدر ما كنت قادراً على الحكم من خلال ما رأيته من بقايا تعلوها آثار الحريق. ورغم إغلاق النوافذ، فإن الرائحة الكريهة تسللت إلينا. وأخبرتني السائق بأنهم يواجهون الكثير من الحرائق في المنطقة، فإن مساكن العمال في مزرعة دونيلي قد احترقت، كما احترقت حظيرة ملاي بحزم القش المضغوط.

لم يدهشني هذا. فإن الشيء الوحيد الذي يدهشني في القسم الجنوبي من أمريكا الشمالية، هو أن المنطقة نفسها لا تلتهم مشتعلة بالنار في منتصف الصيف. ورغم أن الوقت لم يكن قد تجاوز الحادية عشر صباحاً، فإن الهواء كان ساخناً مثل القرن.

سارت بنا السيارة عبر شوارع البلدة الصغيرة الناعسة، حيث بدا كل شيء خالياً تماماً ومكتمل الهواء في صباح يوم الأحد، ثم دارت السيارة إلى اليمين هابطة منحدرًا مشبهاً كان يتعرج أسفل للينة. وبعد نصف ساعة من القيادة المحاذرة البطيئة - بهدف تجنب لفزات السيارة - وصلنا إلى أبنية مزرعة خشبية تقاوم القدم، وقد بدت كالكهجرة. ذهبت للسائق أجرة وخرجت من السيارة. فقال،

- "أفضل أن أنتظرك لأرى إن كان سيسمح لك بالدخول أم لا؟. فإنه قد يقرر ألا يستقبلك".

وهكذا عبرت الفناء البزب، ماراً بمعدات المزرعة التي علاها الصدا. متجها نحو البني الرئيسي. نبح في وجهي كلب ضخم أصفر اللون. ولكنه لم يبذل أية محاولة للنهوض من رجليته.

فتح الباب قبل أن أصل إليه، ووقف دونيلي على عتبة. عرفت أن هذا الرجل لابد أن يكون هو دونيلي - فقد بدا أوروبياً إلى درجة أكثر من أن يكون أي شخص آخر. إنه رجل من النوع الذي اعتاد أن يرى الإعلانات القديمة في الصحف عن شاي "بلاتر" وقهوة "كامب"، نحيل القائمة، لوحات الشمس جلده، يحمل وجهاً تظهر من خلال بشرته كل عضلة من عضلاته. راقبني وأنا ألتزم دون أن يتكلم، ثم قال،

- "أنت مستر سورم؟"

وكان هذا باعناً على الراحة. فقد كنت أتوقع أن يقول: "من أنت بحق الجحيم؟" أحبه بأنني أنا سورم. أو ما أيماء مختصرة للغاية، ثم فتح الباب على سعته لكي يسمح لي بالدخول.

كانت الحجرة عارية ونظيفة ومرتبعة، مثل فمرة ضابط في سفينة. ولم يكن دونيلي قد ارتسم أو حاول مصافحتي. ولكنني التفت حينما دخل خلفي من الباب - وكان قد وقف قليلاً يراقب السيارة وهي تبتعد - فخيّل إلي أنه كان يرمقني وقد بان على وجهه تعبير غريب. وراح يتأملني مثل فطة تراقب قنفذاً برياً. قال:

- "أيمكنني أن أقدم لك الشاي؟"

قلت نعم بحماس، خرج. وغادرتي بمفردي. كان من الواضح أنه يعيش في تلك الحجرة الوحيدة، كان هناك سرير من أسرة العسكرات، ومقعد ذو مسندتين غير مريح ومقعد آخر عادي مصنوع من الخشب، ومائدة صغيرة يمكن طيها. وكانت أرضية الحجرة عارية ونظيفة، وهناك خزانة خضراء قديمة في ركن الحجرة، وست صور طباعية على الجدار، تمثل عنداً من الملاكسين يتبادلون الضربات بالقبضات العارية، وتمثل أيضاً حياداً جميلة. ولم تكن هناك مكتب.

عاد دونيللي يعمل الشاي، وصحناً ملاء بشطائر صغيرة مقبدة دهنت بالزبدة، راودني احساس بأنه يريد أن يتحرر قليلاً من تخشبه، وأن يقول شيئاً ما بطريقة ودية، ولكنه كان قد نسي كيفية القيام بمثل تلك التصرفات. وبينما كان يصب الشاي سألني إن كنت قد قمت برحلة طبية حتى منزله. فأجبته: نعم. قاومت الإغراء بالكلام لكي أملاً فراغ الصمت. وبينما رحت أرشيف الشاي - الذي كان قد صنع بطريقة جيدة - تذكرت عبارة هايمي في تعريف الصمت باعتبارها الحوار بين الإنكليز؛ فوجدت أنه من الصعب ألا ابتسم. وأخيراً، توقفت عن مقاومة الإغراء بالابتسام. نظر إلي دونيللي في تلك اللحظة، فحولت ابتسامتي إلى تعبير ودي، وقلت: "حسناً، إنه لمن المتع حقاً أن يعثر المرء على سيد إنكليزي في هذه البقعة القاحلة".

قال بصراحة: "إنني أيرلندي".

- "إنهما شيء واحد على هذا البعد". هكذا أجبته. وأنا اتساءل إن لم يكن قد فطنني بشيء ما. ولكنه ابتسم ابتسامة باردة كالكالنج وقال:

- "أجل، أظن هذا".

ولسبب غريب ما، تحطم الكالنج، قال:

- "وهكذا فانت تقبع في موي كوكولان؟ أين بالضبط؟"

لوصفت له الكوخ الذي استأجرناه، وللتزل الذي انتقلنا إليه. فسألني إن كنت أعرف شيئاً عن جريمة قتل "دومينيك". الفتاة التي كانت جنتها قد وجدت عند قاع مرتفع (موهير) الصخري منذ عامين. وكنت أعرف ككل ما يتعلق بهذه القضية، فوصفتها له بالتفصيل. كانت فتاة أمريكية قتلها عاشقها لكي يحصل على ما كانت تحمله من تحويلات مالية تصرف للمساكين. وكنت أعرف صياد الأسماك الذي عثر على الجثة، وعضو الحرس المحلي الذي استدعي لكي يلقي عليها نظرة لعله يتعرف عليها، ومن الواضح أنه لم يمكن التعرف على وجهها، ولكن القاتل كان قد ارتكب خطأ الوحيد بتركه قطعة ثياب واحدة على الجثة - وكانت هذه القطعة سروالاً من النايلون الأسود. وكان السروال يحمل علامة واسم الصانع الأمريكي، وبالتالي فاد هذا إلى معرفة هويتها. وكنت أيضاً قد بادلت الحديث مع مفتش الشرطة السري في دبلين الذي كان قد حمل مسؤولية تحقيق

القضية، فأخبرني ببعض التفاصيل عن الأساليب التي لجأ إليها في التحقيق. وسحرت ككل هذه المعلومات المباشرة دونيللي. هبات أمل في أن يتعرف بطريقة ودية فيما يتعلق بموضوع أسأله.

وعندما انقصف النهار كانت حرارة الجو قد أصبحت قاتلة لا تقاوم، فخلع دونيللي صدره الصوفي وجلس أمام المائدة لا يرتدي غير القميص - الذي كان مفتوحاً حتى وسطه - وأبسطون. وخلصت أنا سرتي. واقترح هو أننا ربما كان علينا أن نتناول مشروباً، فوافقت وجاء دونيللي بـ زجاجة من الروم الأسود. وكنت أعرف أنني لن ألقى أي محاضرات حتى يوم الثلاثاء، ولذلك فقد وافقت دون شعور بالحرج. وجاء دونيللي بالزبد من شطائر المائدة الشهوة بالزبد، وفتح بعض علب السردين المحفوظ. وبعد أن تبادلنا كلمة "صحتك"، اندفع إلى موضوع إيزموند دونيللي. قائلاً:

- "أظن أن هذا الولد الناصر قد أخبرك بأنني قلت له أن يذهب إلى الجحيم؟"

- "كلا، لم يخبرني".

كان هذا هو تصرف فليشر النموذجي - أن يقترح علي الذهاب إلى دونيللي دون أن يوضح لي أنه قد تلقى استقبالا عذائياً. وربما كان هذا تصرفاً حسناً من جانبه، فإني ما كنت مبتلي إليه لو أنه أخبرني بذلك.

سألني: "هل رأيت تلك المخطوطة؟"

- "أجل. وقد جئت بها معي". أخر جتها من الجيب الداخلي لسرتي، فتناولها بلهفة.

وبعد أن قرأ نصف صفحة. القي بها على المائدة مع إشارة تدل على الاهتمام:

- "تماماً كما كنت أظن. تزوير. مجرد تزوير غبي لعين".

دهشت كالمصعوق. سألته: "أنت متأكد؟"

- "أنا متأكد طبعاً. ألم تقرأ يوميات إيزموند؟"

- "أخلى أن أصارحك بأنني لم أقرأها. بل إنني لم أتمكن أعرف بوجودها قبل الآن. هل

نشرت؟"

• "إنها منشورة بالطبع، نشرت في دبلين عام ١٨١٧".

خرج من الحجرة. وبعد دقائق قليلة عاد ووقف على السرير محملاً صغيراً ذا غلاف من الجلد وكان العنوان: "يوميات إيزموند دونيللي". وكان الناشر هو "دار تيلفورد" في دبلين وكان الإهداء الرسمي موجهاً إلى اللورد تشسترفيلد. وهذا نصه:

"سيدي اللورد، لقد كان لدي دائماً من الأسباب ما يدعوني إلى أن أتذكر قولك بأن أسوأ الرجال تربية في أوروبا، إذا سقطت مروحة إحدى السيدات، لجدير بالتاكيد بأن ينحني فيتناول المروحة ليعيدها إلى صاحبها، وإن أفضل الرجال تربية في أوروبا لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا. ولقد كانت هذه الفكرة الناقية، حول تشابه اللواهب بين العظيم والوضيع في إطار مجالات محددة للنشاط، هي ما دفعني إلى أن أقدم إلى سيادتك هذا المجلد الخالي من الادعاء...".

ولم تكن هناك حاجة إلى الخشي في القراءة بعد هذا، فإن الرجل الذي كان باستطاعته أن يكتب هذا الفتر الأنيق الجيد الصياغة لا يمكن أن يكون هو ذلك العصبي الأبله الذي كتب يقول: "وفي خلال ثوان قليلة كان خنفسائي الكبيرة الحظوظة، قد اندست داخل محرانيها العذري، وسألني النوي يجعل خصيتي تنفخخان كالبالونة". وهذه العبارات الأخيرة التي اقتطفتها هنا تشير بوضوح إلى جوهر أسلوب الخطوطة التي قدمها لي فليشر. وإنني لحاجز عن المجادلة دفاعاً عن فكرة أن رجلاً واحداً هو الذي استطاع أن يكتب الإهداء الرسمي إلى اللورد تشسترفيلد والجملة الأخيرة. ولكن حسناً طارئاً تصاعد إلى مستوى اليقين جعلني أشعر بأن الأمر لا يصح أن يكون على هذا النحو. قلت،

• "استطيع أن أرى ما تعنيه، إنك لا تظن أنه من الممكن أن يختلف أسلوب مذكريات خاصة اختلافاً شديداً - بالضرورة - عن يوميات يكتبها المرء أثناء السفر؟".

• "إنه أسلوب يختلف أيضاً عن أسلوب يومياته غير المنشورة".

• "هل زليت أنت تلك اليوميات إذن؟" كذلك سألته وأنا أحاول ألا تظهر في صوتي رنة لهجة الشليدة.

• "أوه، أجل" قالها بطريقة عابرة، وصب لنفسه مزيداً من الشراب استكت سناً من أسماك السردين، وصعكة جافة مدهونة بالزبد قبل أن أشرب المزيد. وفكرت في أنني أستطيع أن أمضي ما بعد الظهر والنساء نائماً في غرفتي بالفندق الصغير.

وحينئذٍ أخبرت دونيللي بلغاتي مع فليشر. ووضعت له أنني لم أكن قد سمعت باسم جده أبداً قبل تلك القابلة. ووافقني هو على أن ذلك لم يكن بالأمر الفاجئ بالنسبة له، فإن يوميات دونيللي لا تزيد في قيمتها عن العشرات من أمثاليها في ذلك العصر الذي كتبت فيه. يوميات أشخاص مثل توماس ترير، وماري كاوپر، وإيرل إيجمونت، وهي ببساطة لا يمكن أن توضع في نفس الكئة التي توضع فيها يوميات ثاني برني. كان إيزموند دونيللي معروفاً نطلبة الأدب الإيرلندي، ولكن ذكره لم يرد حتى في مجلد "تاريخ كامبريندج للأدب الإنكليزي".

وبدافع من رغبتي في الكشف عن دوافع فليشر نشرت إلى أنه من النادر أن يكون هناك دخان من غير نار، وإنه إذا كانت هناك شائعة تقول بأن دونيللي كان يدوم على كتابة "يوميات جنسية"، فمن المحتمل جداً أن يكون ثمة أساس لهذه الشائعة. حديق في وجهي بعينييه البارمتين. وليس على وجهه أي تعبير، وقال لي:

• "أفترض أن لهذه الشائعة بعض الأساس، فهل تفترض أن أحفاده يتلهفون على رؤية مثل تلك الأشياء مطبوعة منشورة على الناس؟ أنت تعرف إيرلندا".

أدركت ما يرمي إليه فالإيرلنديون لا يتساهلون فيما يتعلق بأمور الأخلاق. من المؤكد أنهم يتمتعون بشيء من الرونة. ولكن مرونتهم تقف عند أمور الأخلاق ولا تستطيع تجاوزها على الإطلاق. وهناك الكثير من حواشٍ منع الكتب، والفهرس ما يزال شيئاً لا بد من التفكير فيه. وكان يوسعي أن أدرك أن عائلة دونيللي القاطنة في بلدة "بالي كاهين" قد تحد نفسها فجأة ذات سمعة سيئة محرجة، حتى ولو كانت مريحة.

وحينما انترست الساعة من الواحدة، حكيت مقهوراً بشكل واضح، وقلت أنه أصبح علي أن أرحل. ونشد دهشتي أعترض على ذلك قائلاً:

• "لا، لا، يمكنك أن تتناول طعامك هنا سأطهو بعض البيض ولحم الخنزير. فإذا لم يعجبك هذا، لدي بعض القمح الطازج الأخضر". وذهب إلى المطبخ، ورجت أنا أقرأ بعض

بتكلم لم ينم عن أية نوابها ساذجة، وتذكرت فجأة حكاية أنه قد عاش وحيداً لمدة طويلة. كان جاعاً إلى الجنس معزولاً في وحدته عن البشر، ولا شك أنه استمتع بالحصول على من يبادل له الحديث، ولم يكن في هذا أي شيء غير طبيعي.

ولكنني بدأت أتمنى لو أنني كنت قد اخترت موعد زيارتي إلى وقت متأخر من هذا اليوم. لقد بدأت أشعر بأنه بنوي أن يحتفظ بي هنا طوال فترة ما بعد الظهر ونساء. كان بوسعي أن أرحل، بالطبع، ولكن دونيلي كان هو المصدر الوحيد للمعلومات عن جده بالنسبة لي، وكنت سأحصل على خمسة آلاف دولار إذا كتبت عن هذا الرجل. كان بوسع الإحساس بالنسب وحده أن يبقيني جالساً في هذا المكان، طالما أنني كنت ألقى أثر حبيب.

وحيثما انقضت فترة العصر وأقبل المساء، بدأت أتأهب مرة كل دقيقة. لكن يبدو أن دونيلي لم يلاحظ ذلك. كان قد أتى بمقعد لا يظهر له ولا مساند. وجلس عليه، ورفع ساقيه على القعد الخشبي. وأصر على أن أجلس أنا على المقعد غير الريج ذي السنتين، ورفع ساقي على السرير. وكذا في تلك اللحظة نشرب البيرة - من نوع المادوايزر النعابة في غلب من الصفيح. وكان يدخلن سيجاراً من نوع الشيروت. وحاولت من حين إلى آخر، أن أعيد الحديث إلى موضوع دونيلي، ولكنه كان يتجنبه. وأخيراً في حوالي الساعة الرابعة، سألني إن كنت بحاجة إلى بعض المشي. فوافقت على اعتبار أنها محاولة تكسر هذا الدور الشبيه بالنوم العنطيسي. كنت قد بدأت أشعر بالانزعاج في صغبرته. وكان بوسعه أن يرى أن النعاس بدأ يسيطر عليّ، وربما كان من واجبه أن يقترح عليّ أن أنام لمدة نصف ساعة على الأقل، أو أن يتركني لكي أقرأ مذكرات إيزموند دونيلي، ولكنه كان يريد أن يتكلم، ومن الواضح أنه لم يكن يهتم بما إذا كنت أريد أن أنام أم لا.

ورغم حرارة الجو، ارتدي دونيلي قميصاً نظيفاً ووضع ربطة عنق، وارتدى سرة رياضية. أما أنا فحملت سرتي على كتفي. وأصبح هو في هيئة من يتخذ طريقه إلى نادي الخيول في لندن ليحتسي سكاساً في فترة ما بعد الظهر، أما أنا فشعرت بالاحلال الإزادة، وأنا عاجز عن اتخاذ قرار ما، غارفاً في عراقي. ولما كنت قد أصبحت واعياً لأنه يتحدث بتدفع داخلي فاهراً، فإني لم ألد التفت إلى ما يقول إلا نادراً، وإن كنت مصت في سري إلى جانبه على أرض الحقول المهجورة التي تصلبت تربتها. وتبعنا الكلب الأصفر الضخم، وكان ساقاه من الطول بحيث بدا لي كلما لو كان صورة سينمائية تعرض بالحركة البطيئة. وسار

دونيلي بخطوات واسعة، مشيراً بعصاه إلى أشياء مختلفة تثير الاهتمام. "هذه الشجرة تعرف باسم شجرة الإعدام الفوري. لقد أعدم عصاة "الكلان" ثلاثة من الزوج هنا منذ سنوات فلائل".

- "ماذا كانوا يفعلون؟"

- "كانوا يشعلون النار في مخازن القنن".

كانت بعض المناطق الغريبة التي سرنا فوقها جميلة، ولكنني ذهبت بسبب كمية الصفائح الصغيرة المصدخة وزجاجات الكوكاكولا الفارغة التي كانت ملقاة في كل مكان. تكاد على سور قائم للرقب حفارات البترول، وفجأة لاحظت أن دونيلي كان يحمل مسدساً في حزام معلق بكتفه تحت سترته. سألته:

- "لماذا تحمل هذا السلاح؟"

- "بسبب الأهاعي".

ومن الواضح أنه شعر بأن ضخمة الحفارات كانت تغطي على الحديث، لأنه سارع باجتماعي بعيداً. ولاحظت أنه ظل ينظر إلى ساعته من حين إلى آخر سألته:

- "أنت ذاهب إلى مكان بعيد؟"

توقف طوفان الكلام للحظة ثم قال: "صكلاً"، وبدأ أنه كان صادقاً. بدأت أشعر بالعطش، وكان ثورته ينتقل إلي بالتدريج، قلت:

- "إلى أين نحن ذاهبان؟"

- "أوه، ظننت أنه من المستحسن أن نسير مسافة ميل آخر أو نحو ذلك، ثم نعود إلى البيت".

وكانت كلمة "نسير" غير مناسبة على الإطلاق للتعبير عن سرعة مشيته حتى أنني استسمت. وقلت: "ينبغي أن أفكر الآن في العودة". ولكنه تجاهل ملاحظتي. وإن كان قد عاد فنظر مرة أخرى إلى ساعته. وكان الكلب الأصفر الضخم ينبج ويرمجر أمام دغلة كثيفة من الحشائش في إحدى الحفر الكبيرة، نظرت في الحفرة. فإني أرى حشرة سوداء تتلوى

حول نفسها وتفتح، وحينئذ رأيتني انتصبت برأسها واقفة. وتوقعت من دونيلي أن يطلق عليها النار. ولكنه اكتفى بأن قال، "هيا بنا".

تسلقتا سوراً واطناً فتخطيناه إلى طريق ضيق فلز. وكانت هناك أبنية لمزرعة على بعد عدة مئات قليلة من اليارات، ورايت صندوقاً للريد أشار إلى أننا الآن نسير فوق أرض شخص آخر.

هجأة قال دونيلي:

- "بينو أن هناك حريقاً".

- "أين؟"

أشار إلى حقل مجاور لمبنى للمزرعة، ولكن كان ككل ما استطعت أن أراه خبيطاً وهذا من الدخان يتصاعد من حظيرة مفتوحة ملأى بالنش. ولكن بعد دقائق قليلة، كانت السنة الذهب تتصاعد بعنف في الهواء. والدخان الأسود يتكاثف ويتلوى مثل جني يوشك أن يتجسد خارجاً من قممعه الصغير. هجأة كان دونيلي يجري ومسده يثار جح ليرطم بمؤخرته، والكلب الكبير يجري إلى جواره وقد لوى رأسه نحو سيده مثل جواد السياق الأصيل الصغير إذ يجري إلى جوار أمه. تسلقتا جداراً واطناً آخر وعبرنا حقلاً تناثرت فيه الخنازير التي تحفر الطين بأقدامها بحثاً عن غذاء. وكان هناك أيضاً رجال يجرون من اتجاه مبنى المزرعة.

اندركت سريعاً بعدم جدوى جرينا بهذه الصورة، فقد أصبح واضحاً أنه لم يكن بوسعنا أن نفعل أي شيء، ومن المؤكد أن النار ما كان يمكن أن نخمد قبل وصولنا إليها. وهكذا خففت من سري وبدأت أسير بيدي، عبر الحقل، وبدأي في جيبتي وبعد خمس دقائق كنت قد لحقت بدونيلي، ومن المؤكد أن الحريق كان ضخماً. كانت السنة الذهب من القوة بحيث كانت تحمل أجزاء كبيرة من أعواد القش المشتعلة التي بدأت تمطرنا بأجزائها الصغيرة المتساقطة، أو تضرع مع الهواء في بقع رمادية. وكان من المستحيل أن يقترب أحد من الحظيرة المشتعلة لسافة تقل عن خمسين ياردة، فقد كانت الحرارة قلبية. انفجر شيء ما - ربما كان بر ميلاً - وسقط جزء من السقف، تصاعدت دفقات الشرر كما لو كانت نوعاً من الألعاب النارية. فلت شيئاً ما لدونيلي، ولكنه تجاهلني. نظرت إلى وجهه، ثم صرخت نظري بسرعة. كان هناك الأسمل بارزاً ومتصلباً، وكانت عيناه تحدقان في جمود كما لو

كانتا مصنوعتين من زجاج أزرق. كانت حالته أقرب ما تكون إلى من يضلح بطوفان الضجة والدخان الذي نشاهده أمامنا. وحشي عندما هب الدخان ناحيتنا، ودمعت عيني من دمه، ظل هو يحلق كما لو كان منوماً. كانت قبضته متصلبتين داخل جيبتي بتلونه. كان هناك شيء ما في برور وجهه جعلني أنحفق من أن عاطفة مروعة تجتاحه من الداخل. ويتكلم ما. كان يوسعي أن أفهم هذه العاطفة. كانت النيران حليمة وهائلة، وكانت هناك سمة موسيقية متناغمة تجمع بين أصوات التشقق والحرارة وطوفان الشرر

شعرت بأن بعض المتفرجين الآخرين كانوا ينظرون إلينا بشيء من التفور. كما لو كنا لا نملك الحق في الوقوف في ذلك المكان. ولذلك فقد تراجعت نحو السور وجلست فوقه وبعد نصف ساعة، حينها لم يكن قد تبقى شيء من الحظيرة سوى بعض القوائم المعدنية. وصلت سيارة الإطفاء.

قال شخص ما من خلعتي: "اتسمح ياخباري باسمك؟" ووجدت شرطياً ضخماً الجنة ينظر إلي بطريقة تنم على الرفض الكامل. وكان رجلان يقفان خلفه، يحملان البنادق، وبدأ عليهما انهما من عمال المزرعة، أعطيته اسمي، وقلت أنني كنت مع الكولونيل دونيلي. عندها قال أكبر الرجلين الواقفين وراء الشرطي:

- "أوه، فلتك مع دونيلي، ليس كذلك؟"

دهشت للغممة العدائية في صوته. تجمهر الشرطي في وجهه، ثم قال لي:

- "اتسمح بأن تخبرني كم من الوقت ظللت هنا؟"

- "بعد بداية النيران بقليل. كنا نتمشى".

ادهشني الأسئلة التالية، ولكنها بدت أكثر سهولة. سألتني:

- "من أنت؟" وحينئذ وصحت له أنني احاضر في جامعة "باتون روج" أصبحت لهجة

أكثر تهديداً. كان عقد قيامي بالحاضرات في جيبتي، وبضاقة هوية كنت أحملها في أمريكا على الدوام. وكنت على وشك أن أسأل إن كان من الأمور الخارجة على القانون أن أتوقف لأراقب حريق، ولكن بدائي أن هذا السؤال لا جدوى منه. فحص الشرطي أوراقي، وشكرني باناب، ثم سار بخطوات واسعة نحو دونيلي، يتبعه الرجلان. وقف الكلب الأصفر الضخم إلى

جوار دونيللي، وحينما القرب منه الرجال بدأ ينيح نباحاً خافتاً، كما لو كان يتهايا للفرار. أمسك دونيللي بحزام رقبته كلبه. وكانت المحاوره قصيرة، ورأيت بشير نحوي. ثم جاء إلي وهو يتنأب وقال، "حسناً، اعتقد أنه من الفضل لنا أن نعود".

كانت البه الإطفاء قد راحت أخيراً نصب الماء فوق البقايا الملتهية. وتضاعفت سخايات البخار حاملة ذرات الرماد وشظايا صغيرة من الخشب المتفحم

"فهم مكان كل هذا؟"

"أوه، فهم يشكون بشدة في الإغراب في هذه المنطقة".

"ولكن ما كان يوسفهم أن يشكوا في أننا نحن الذين أشعلنا الحريق".

هز كتفيه ثم بدأ يصفر بفمه لحناً إيرلندياً. سار عائداً بنفس الخطوات الواسعة. ولكن بدا لي أنه لم يعد متوتراً. كان خلال القسم الأول من مسيرتنا يتكلم ويسر وكانسان إلي. أو مثل رجل تركز عقله بنبات على شيء آخر سوى ما يتحدث عنه. أما الآن فكان بشراً سوياً، مستريحاً. وحينما دخلنا المنزل، بالغ في سروره وبهيمته، فوضع يده فوق كتفي وقال، "حسناً، اظن أننا نحن الاثنين نستحق مشروباً بارداً كبيراً".

جاء بزجاجات من الجعة الإنكليزية - من نوع "وورثينغتون". وبينما كنت أرقبه وهو يصب الجعة في الكوبين، وبختم لنفسه بلحن ما، طرأ شيء ما إليه، على رأسي. كان الإجهاد قد غمرني بإحساس من اللامبالاة. أظن هذا الدافع للتخلي الغلاب وقلت،

"لا اعتقد أن لك علاقة بهذه المسألة، اليس كذلك؟"

للحظة سألت نفسي إن كنت قد أسرفت في السجوح بما شعرت به. ولكنه قدم إلي سكاس الجعة وهو يبتسم بتسامية التلميذ اليرينة السعيدة، وقال،

"يا له من سؤال غريب. كيف كان يمكنني ذلك؟"

ولجأة، وبيقين لا يمكنني أن أشرح أسبابه، عرفت أنه كان على علاقة بالحريق. ربما كان السبب هو طريقة تفكيره لإجابته على سؤالي. أو فهمه الفوري للسؤال. إن رجلاً بريئاً كان جنبراً بأن يحدد قليلاً، وإن يتساءل إن كان قد فهم السؤال على النحو الصحيح.

جلست في القعد ذي الستينين. وشربت الجعة باستغراق ونهم. وحينما نظرت إليه مرة أخرى كان ذلك اليقين قد اختفى. وكان شكّي مبعثه أن الرجل كان معي طوال اليوم... سمعته يقول،

"أشرب في صحة إيزموند دونيللي".

شربت. وبدأ لي هذا النخب دون مناسبة.

نשב إلى الطبخ وسمعت أصوات إعداد الطعام. كان قد أدار مفتاح الباب - وهذه علامة أخرى تدل على الارتياح. هبت نسمة باردة من خلال النافذة المفتوحة. وكلما أمنت في التفكير في المسألة، كلما زاد ميلي إلى تصديق أنه كان على علم مسبق باستعمال النار في ذلك النوع. كل شيء يتناسب تماماً مع هذا الافتراض، محاولته بإفناعي بالبقاء، الحديث الميكانيكي الخالي من الرغبة الحقيقية، السيرة الطويلة الخالية من المعنى في عصر يوم حار. السدس الذي حملته، والكلب الضخم الذي اصطاحه معه، تزايد اتساع خطوته حينما أخرجنا من دغلة القش وتطوراته المتلاحقة إلى ساعته، إن الرجل ولا شك مصاب بهوس الحرائق. ومن المحتمل أن يكون هو الذي أشعل النار بنفسه في مباني مزرعته. وربما كان هو الذي أحرق معمل تفريخ اللواجن أيضاً. ولجأة شعرت بصدمة باردة حينما قلت لنفسي إنه من المحتمل أن يكون هو الذي أشعل الحريق الذي أعدم من أجله الزنجيان. ولكن كيف استطاع أن يفعل ذلك! كان شريكاً له هو من أشعل النار حينما أخرجنا من المبنى. إن في هذا خطراً عظيماً، بالتأكيد. إذن أكانت وسيلته أداة للاشتعال ذات توقيت. لابد أن هذا هو الجواب.

انتهيت من سكاس الجعة وبدأت أشعر بالنعاس. صحت حينما جاء بالطعام - بطاطس مشوية بالطريق الفرنسية وسجق من لحم البقر، صب لنفسه مزيداً من الجعة، وأكلت على صينية وضعها فوق ركبتني. كان من الواضح أنه شديد الجوع ولم يكن يشبه الكونت دراكولا في شيء، وهو حريص على سره المرعب وإنما بدا مثل رجل متعب انهكتة سنوات الخمسون، اعتاد أن يقسو على نفس بشدة ولم يكن يهتم بأن يتناول وجبات من الطعام الجيد. وعرفت أن من واجبي أن أدلي بشكوكي إلى شخص ما - ربما إلى رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة لوزيانا، ولكنني كنت أعرف أنني لن أفعل هذا. لقد كان مضطرباً. ولم يكن لي إلا أن أمل أن يقبض عليه في وقت قريب.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حينما انتهيت من تناول الطعام. ثم قلت:

- "لقد كنت شديد المعطف حقاً، ولكن لا بد لي بالفعل من التفكير في العودة..."

كان يجمع الصبحون فوق صينية، قال بطريقة عابرة،

- "ماذا تر حل قبل ان ترى مخطوطة دونيللي؟"

كنت عاجزاً عن تصديق أنني سمعت بطريقة سليمة، سألتها: "مخطوطة؟"

- "هذا هو ما جئت لأجله، اليس كذلك؟"

- "أملك حقاً شيئاً من مخطوطاته؟"

أوما براسه وهو يحمل الصينية ويخرج بها، وحينما عاد، أخرج مفتاحاً من جيبه.

وفتح الخزانة الخصرء في الركن، قال،

- "ليست هذه للذكورات للنشر، بالطبع."

كان هناك صندوق خشبي في القسم العلوي من الخزانة، وعلى الرف السفلي عدد من الظاريف المنتفخة، تناول احد تلك الظاريف وناولني إياه. كان يحتوي على ملف ضخيم من الأوراق ربطت بخيط شمعي. كان الخط متميزاً شديد الخصوصية، ولكنه سهل القراءة إلى الدرجة الكافية،

"فالوث، ٦ مارس، ١٧٨٧"

الزحاجة تفرق. الرياح الغربية تهب برهق فوق المياه، والدخان يتصاعد يهدوء إلى سقف الحجرة، والبحارة يتشاءمون بضجر على باب كل حانة من حانات الجعة. لقد غادرني بيكفورد لكي ينهب للبحث عن سيدة قلبه فوق التل. وبقيت أنا هنا، يداعب النعاس جفوني وأنا في هذه الحالة من السكينة الهادئة، أرقب هاتين شابتين، جميلتي التكوين، شرتديان برشافة أنواعاً جميلة من الثياب المحلية، وتسيران على حافة البحر، يا لتلك المخلوقات اللتيذة

المحبدة! من الذي يستطيع أن يجادل فيما أكده زوزيموس الباتوبولييتاني^(١٩) من أن المرأة لم تثبت من نفس الجذر الذي أثبت الرجل، وإنما خلقت للناس من كوكب آخر بعيد، ثم سمح لها بأن تعيش في كوكبنا هذا، كوكب الذكور. فكما لو كانت خاضرة من خلبرت الخيال! ليست المرأة هي لغز الخلق الجليل، الحضور الرئي للسحر في هذا العالم للتحلل البيوضي^(٢٠)؟

قال جودوين أن أسقف كامباري الشهير كان أفضل وأكثر قيمة من خادمته، ولكنني نلت على استعداد لأن أبادل الجميلة الصغيرة التي شاركتني الفراش في الليلة الماضية بعشرة من الأساقفة. كانت الغادة - التي تسمى ككلارا - قد خدمتنا على العشاء ليلة الفصح، وقال بيكفورد - الذي لا يروق لنوقه نوعها - أن لفظة مؤخره كمؤخره الصبي. وفلت أنها مؤخره مستحيرة بأكثر مما يمكن لفتى، على الأقل، إذا كان لي أن أحكم بناء على النهج الصغير الذي كان يوسعي أن أراه حينما التحنت على المائدة لكي تصب الزبد اللذائب على قطعة اللحم أمامي. وحينما اقربت مني همست لها بأنني على استعداد لأن أتنازل عن تاج ملكة في مقابل قبلة منها، فضحكت وأحمر وجهها. ولم أكن قد أوليتها إلا القليل من الاهتمام حتى تحلت بيكفورد عنها. ولكن تركزت الآن افكاري عليها، وتسلل إله المتعة الشتافة الصغير إلى صدري وجعل قلبي وسادة لرأسه. في كل مرة كانت تدخل قلبها إلى الحجرة كنت أنظر إليها فكما لو كنت قد وقعت في الحب منذ برهة وجيزة. ومن المؤكد أنه لا بد قد لاح لي أن الزواج بها ليس بالثمن الباهظ في مقابل أن اتفحص مغائتها فحسباً أكثر دقة. ورغم أنني اعتقد أنني أتمتع بقدر من صفات الأنوثة أقل مما يتمتع به بيكفورد،

(١٩) زوزيموس الباتوبولييتاني، مؤرخ يوناني عاش تحت رعاية الإمبراطور سيبو ديسيموس الثاني وألف عدداً من الكتب عن انهيار روما من سيطرة أوغسطس حتى عام ٤١٠م متجاهلاً الفترة من حكم بروبروس حتى عام ٢٠٢ م. لم يكن كتابه الأخير قد اكتمل حتى عام ٤٢٥م. واعتمد في كتابته على مصادر موثوق بها مثل المؤرخين ديكسيوس وأونانيوس ولم يكن عمله يخلو من أحكامه التاريخية ولا من الحس الأسلوبى، وإن لم تكن دقيقاً في ذكر التواريخ وكثيراً ما تناول عصوراً طويلة بطريقة عابرة.

(٢٠) البيوضي نسبة إلى "بيوضيا" مملكة مدينة سيرطة الإغريقية القديمة التي كانت مهد رجالها الأساقسة هي الزراعة والحرب.

فإنني متين لفضول بانثورا^(١) لثلك بقدر يستطيع أن يدفعني إلى تجاهل كل الاعتبارات الأخرى. وحينما أقرت مني لكي تعيد ملء مكاسي، مدت ذراعي من حولها وسمحت ليدي بأن تستقر فوق فخذيها، عارفاً بأنها إذا اعترضت على هذه الخطوة، فإننا لن نتقدم إلى ما هو أبعد منها، ولكنها هفتت بهدوء، مثل جواد أحسن تدريبه، ثم دخل صاحب البيت بمزيد من خمر الليمون والسكر، وسحبت يدي، ولم تتح لي فرصة أخرى للاطقتها خلال تناول الطعام ولكنني عندما غادرت الحجرة، دسست في يديها جنبها ذهبياً، وهمست لها، "هذا لك يا عزيزتي. وهناك خمسة أخرى تنتظرك إذا أنت جئت إلى غرفتي حينما يأتي كل من بالبيت إلى فراشه". ولم تقل شيئاً وهي تخفض عينيها، ولكنها أخلفت النقود. وقال لي بيكفوردي فيما بعد أنه قد اكتشف أنها متزوجة من صياد، وأنني ربما أكون قد أضعت نقودي سدى. فأجيبته بأن النقود التي تعطى لفتاة جميلة لا تضيع أبداً سدى، إذا ما كانت هائلة، لأن هذه النقود لابد أن تعتبر قريانا يقدم إلى أفروديت، التي سوف تعترف بهذه الصلاة وهذا الثناء، حينما يطيب لها، وفي أي وقت تشاء.

لم تمضي على مقولة بيكفوردي بأنني أضعت نقودي سوى عدة ساعات حتى تهدمت تماماً، وثبت بالدليل على خطأ تصور بيكفوردي، لأن العروس الجميلة انزلت تحت غطائي في الساعة الثالثة من الصباح، بعد أن مكنت قد نخلت عن كل أمل، ولم تنكسر علي شيئاً بعد ذلك. سألناها هامساً عما كان من أمر زوجها، فقالت إنه كان قد خرج مع أسطول الصيد. كانت ترتدي دوبياً فضفاضاً من التيل الخشن، سرعان ما رفعته إلى ما فوق رقبته، فبيلتها ودعوتها بالكثير من الكلمات الرقيقة، لأنني ما كنت أبداً أصليق صبراً مع الأصدقاء الذين يسلبون فتاة فضيلتها، ثم يعاملونها بعد ذلك كما لو كانت عملية السلب قد حرمتها من كل حق في التفسير والحنان. يضاف إلى هذا، إنني عرفت أن الفتاة كانت هبة من هبات الربة التي ولدت من زبد البحر^(٢)، وأنها تستحق فسما من الصلوات الواجبة لقاء عطيتها

(١) بانثورا - في الميثولوجيا اليونانية هي شبيهة حواء، أم البشر التي خلقها زيوس ككثير الآلهة لكي يفتد حياة الإنسان (الرجل) الذي خلقه برونينوس بأن أرسل معها مسدوداً هدية للرجل وأمرها أن تفتحه ولكن فضولها (الذي زرعه فيها زيوس) دفعها إلى فتح المسدود فانبثقت منه خفافيش الآلام والعيذابات مع قرصنة "الأم" البهية الوحيدة.

(٢) هي "هيدوس" أو "أفروديت" ربة الحب والجمال والروح في الميثولوجيا اليونانية التي خلقها أبوها زيوس من زبد البحر وأخرجت من صندوق لؤلؤة في البحر قريب قبرص.

التمينة. وهكذا فقد لاطقت أذنيها بالكلمات الناعمة وبطرف لساني، ثم سمحت لفصاحة هذا اللسان بأن تتحدث إلى نهديهما، بل وبأن تتحدث حتى مع الجدران القضيضية للعبد نفسه. وفي ذلك الحين، كانت تقلصات ردفها تنطق بالرغبة، وحينذاك، نقلت لساني إلى مستقره الصحيح في فمها، وأخذتها بنعومة تسلل الرجل إلى فراشه (...) وظللت الليل شفتيها كما لو كانت أعوض ما فات من عمر باكملة من الإمساك والزهد، وقد صعب علي أن أصدق أن هذه الكاهنة البيضاء كاللبن كانت هي ككلارا ذاتها التي صبت الدهن على قطعة اللحم للشوية أمامي ومنعتني لمة خاطفة من حلوتين لاحقاً لي وكانا نشكلتا منذ لحظة وجيزة. ورغم أن ردفها كانا ساكنين الآن - هذان الردفان اللذان كانا مستديرين بأكثر مما ينبغي لأفلام - فقد ارتعش جوادي في داخلها، كما لو كان عاجزاً عن أن يصدق أنه آمن في داخل مثل هذا المسكن اللذيذ. ومضينا في رياضتنا حتى أبلج الصبح حينما غادرتني. رفعت في مكاني ورحلت أفكر في اللالشة التي تارت بيبي وبين بيكفوردي في العربة بالأمس، حول الأسلوب الإغريقي في الحب أكثر روحانية وجلالاً من ذلك النوع المعروف بين الرجال والنساء. وفي خلال طوفان إخلاصي كان يوسي أن أتمنى لبيكفوردي صحبة زوج ككلارا، صياد السمك - على أن يحملته معه في عرسته ذات الجياذ الأربعة. ولكن أما كان من الممكن مثل هذا اللقاء أن يكون لقاء نافر العروق مشبعاً بالشهوة، كما لو كان أستاذ الفرسان يتصادمون بحرب من اللحم؟ إن مثل هذا اللقاء قد يكون جزءاً من عالم سيد الشمس الذين الفضلات^(١)، وليس جزءاً من عالم ثناء السحري الأخضر الذي تحكمه أرتميس^(٢).

كنت أفرا ناسياً وجود دونهيلي. وقد جعلتني ملاحظته عن أن هذا المخطوط لم يكن للنشر. جعلتني أقيد ما شعرت به من توتر في إطار ضيق، ولكنني شعرت بأنني قد مارست مثل ذلك من قبل. في لحظات حرجة أخرى من حياتي (مثلاً حينما قابضت أوسترين في معرض أعمال ديجليفا) كان شعوري أن يكون إحساساً بتكرار مشهد كنت قد حرته من قبل.

(١) هو هينوس (أبوللو) رب الشمس والفتون، عالمه الحساسية والاستخدام الكوس.

(٢) أرتميس ربة القمر، أخت هينوس أو أبوللو وسبها الروماني ديانا وهي ربة الصيد والغاية المجتة بالصياد. غالها هو الليل والضباب، عذراء لبدية لم تنجح في أي حب رعه جعلها

كان دونيللي قد عاد إلى زجاجة الشرب. ورفضت الكأس التي عرضها علي منه، ولكنني قبلت كعباً من حمة البادوايزر. وحينما بلغت نهاية الشهد، وضعت المخطوطة المجلدة على المائدة. سألته،

- "أنت واثق تماماً من أنك لن تكون رغبياً في نشر هذا المجلد؟"

- "أظن هذا".

قلت، "سيجعل هذا الموقف من النشر كله مجرد هراء. إنني أهتم الآن ما عنيته من أن نسخة فليشر كانت من قبيل التزوير. ولكنني لا أتبين كيف استطيع أن أوصي فليشر بأن ينشر نسخته. سيكون هذا نوعاً من العبث".

- "أوافقك على هذا".

- أتيت هناك فرصة للالتقاء في منتصف الطريق؟"

اشعل سيجاراً جديداً. قال،

- "ستغضب الأسرة للغاية إذا نشرت هذه الأوراق".

- "ولكنك قلت أنك لست على علاقة طيبة بالأسرة".

- "كلا. لست على علاقة طيبة بهم. ولكن لا أريد أن يكون هذا سبباً لإثارتهم.

لم أستطع احتمال هذا الموقف، خاصة أنه جاء من نفس الرجل الذي أحرق مخزن شخص آخر منذ وقت قصير، ولكنني تعالكت نفسي واستطعت جاهداً أن أغير أسلوب معالجاتي للموقف، وسألته كيف وصلت الأوراق إلى حوزته. ولاح عليه أنه يفكر في الإجابة على السؤال اللحظة، ثم قال،

- "أجل، اعتقد أنه لا ضرر من إخبارك بهذا. حينما قام دونيللي بزيارة روسو في نيوشاتل عام ١٧٦٥ - وكان دونيللي في نحو السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت - أهدى

إليه مقالة مكتوبة بالفرنسية، يرفض فيه فلسفة هيوم^(١) ودالامبير^(٢) وقد ورد ذكر هذا اللقاء وما دار فيه، في كتاب جون مورلي عن "حياة روسو". وأصبح دونيللي وروسو صديقين، رغم هارق السن بينهما. ولكن روسو كان بحتار في تلك الفترة مرحلة صعبة من حياته. فقد كان ككل الفسافسة في نيوشاتل يملأون عظامهم بالهجوم عليه، وجرى اتهامه بأنه سحر رجلاً وكان قد مات بالتسمم الكحول. وذات صباح، اكتشف دونيللي أن شخصاً ما قد وضع صخرة ضخمة على باب منزل روسو من الخارج في وضع متوازن بحيث تسقط فوقه لحظة خروجه - ومن المؤكد أن الصخرة لو سقطت عليه لقتلته. وأزاح إيزموند الصخرة، وفي الليلة التالية نصب بنفسه الفخ القاتل خارج منزل الحداد - الذي كان عدواً بارزاً لروسو، وكان أيضاً الرجل الوحيد الذي تسمح له قوته العضلية بأن يرفع الصخرة فيضعها في مكانها الأول دون معونة من أحد. وحطمت الصخرة ذراع الحداد وعظم ترقوته. ولكن هذا الأمر لم يكن ذا جدوى بالنسبة لروسو السكين ومن ككل الوجوه، فقد كان عليه أن يغادر البلدة على أي حال - وكان الناس قد وصلوا إلى مرحلة قنقه بالأحجار في الشوارع. وبعد ذلك بعامين، حينما كان روسو يعيش في لندن ككضيف على ديفيد هيوم، سأل دونيللي عما كان من أمر مخطوطته، فقال روسو أنه ترك مخطوطة المقال وراءه في باريس، وأنه سيعيدها حينما يعود إلى هناك، ولكنه ثم يفعل ذلك أبداً.

"وقد حلت بعد الحرب بفترة قصيرة، إن كنت مقبهاً في مدينة لوزان وتعرفت ببائع كتب يدعى كنوزو كان له عمل ما في نيوشاتل. وأخبرته - بقصة مخطوطة مقال دونيللي فقال لي أنه قد يكون قادراً على مساعدتي. وبعد ستة شهور، كتب إلي خطأياً وعرض علي أن يبيعني المخطوطة - بسعر معتدل إلى حد كبير - وهذا ما ينبغي علي أن أضيفه هنا. وأظن أنه عثر عليه في منزل الرجل الذي كان روسو قد استأجر منه منزله، في

(١) ديفيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦ - فيلسوف اسكتلندي ومؤرخ. مؤسس النزعة الوضعية التجريبية في الفلسفة الحديثة، عرف عنه تقبده للمعرفة الإنسانية بممارسة التجربة والانطباعات ممارسة جزئية وفردية، وكان ذا تأثير بالغ المخطورة في الفكر الليبرالي الحديث.

(٢) جان لوروند دالامبير ١٧٣٣ - ١٧٨٣ - عالم رياضي وفيلسوف فرنسي، اشترك مع ديدرو في تحرير "دائرة المعارف" وكان من مؤسسي النزعة المادية العلمية الحديثة، التقمص بالفهم التاريخي والجنلي لعرضة الكون والتجمع.

صندوق قديم للأشياء المهمة والثاقفة وقد عثر أيضاً هناك على مكراسة لمذكرات الرحلات
كان دونيللي قد كتبها.

"وبعد ذلك بعدة سنوات، كتب إلي كلورو ليسألني إن كنت ما أزال مهتماً
بمخطوطات دونيللي، وكان قد عثر بالصدفة على مخطوطة أخرى في جنيف. وكنت
أعرف أن إيزموند قد استأجر منزلاً في جنيف فأضى هناك الجانب الأكبر من العشرين
عاماً الأخيرة من حياته. ولكنه كان قد انتقل عائداً إلى إيرلندا قبل عام واحد من موته في
عام ١٨٢٠، وأخذ معه معظم ممتلكاته الشخصية. وليست لدي أية فكرة عن كيفية تركه
لهذه المخطوطة بالذات في جنيف عند رحيله عنها، رغم أنني أملك بالفعل نظرية لتفسير
هذه الواقعة قد تكون على شيء من الأهمية. كان بايرون قد زار إيزموند في جنيف -
وكان قد التقى به عن طريق شريدان. وبعد هذه الزيارة ببضعة أسابيع، كان بايرون
يكتب لصديقه "جوب هاوز" من مدينة بيرث الإيطالية، ليقول له أنه يقرأ الآن "كنز
المخطوطات التي راها عهراً وتشويقاً بقلم إيزموند العجوز". وأنا افترض أن "إيزموند" المذكور
في رسالة بايرون كان هو دونيللي - وفي هذه الحالة، يكون بايرون قد استعار المخطوطة من
إيزموند دونيللي ونسي أن يعيدها".

كان علي أن أعجب بالطريقة الحاذقة التي روى بها دونيللي قصته، ورغم أنه كان
قد شرب معظم زجاجته الناقبة من الشراب، فقد كان يتحلى ويتناقش مثل كاهن
محترف يتناقش في موضوع بحث الجسد والروح بعد الموت.

ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت قد بدأت أشعر فجأة باللامبالاة الكاملة بالموضوع
كلية. وقد أقول أنني رفضت أن تكون لدونيللي مثل هذه السيطرة علي. وكنت بالفعل قد
قررت أن أعيد إلى فليشر مبلغ خمسة آلاف دولار وأن أنسى الموضوع كلية، وهكذا لم اهتم
أدنى اهتمام بما إذا كان من الممكن إقناع دونيللي بأن يغير رأيه أم لا. وحالاً قررت ذلك لم
أعد اهتم، شعرت بالحرية واللامبالاة. وقررت أنه مهما حدث، فإنني سأرحل عن هذا المكان في
خلال نصف ساعة فأعود إلى هنتلي الصغير. سألت دونيللي عن كيفية بداية اهتمامه
بجده الأول، فقال أنه كان قد اكتشف مذكرات الرحلات المنشورة في بيت الأسرة في بالي
مكاهان. سألته كم من السنوات من عمره قضاهها هناك.

- "سنوات قليلة جداً. لقد انتقلنا إلى دبلن حينما كنت في الخامسة من عمري،
ورجعنا إلى اللابيو وأنا في التاسعة".

- "هل فكرت في كتابة يوميات لرحلاتك؟"

طرح هذا السؤال من دون أدنى اهتمام حقيقي. فقد كان السؤال مجرد سؤال
توفت بأي شيء، مهما يكن، وكانت النتيجة طويلاً من البوح والكشف عن الذات لا يكاد
يصدق.

قال وهو يتنفس بصعوبة:

- "لم أداوم أبداً على كتابة يومياتي، لأنه كان هناك الكثير جداً من الأشياء التي لم
أجرؤ أبداً على تسجيلها".

- "ولكن هذا السبب لم يمنع إيزموند من كتابة يومياته".

ابتسم ابتسامة غريبة، مقتضبة، وقال:

- "كانت حياة إيزموند الجنسية من النوع الذي كان يوسع أن يكتب عنه. أما
حياتي أنا الجنسية فليست كذلك".

ظننت أنه كان يشير إلى إحراق مخزن القش. أو مات بتعاطف وقلت أنني أدركت ما
بمنه وفهمته. فقال بنوع من التخابث الذاتي المجهد:

- "أشك في أنك قد فهمت ما عنيته تماماً. حينما كنت في الثامنة من عمري، كانت
لدينا مربية اعتادت أن تضربنا على مؤخرتنا وأن تعص بأعضائنا الجنسية".

- "من تعني بصيغة الجمع هذه؟"

- "آخي إيزموند، وأنا. وكان إيزموند يكرمني عام واحد. كانت هذه الفترة
اسكتلندية من مدينة كلاسكو. واحدة من أولئك الخدمات ذوات الأجساد الضخمة
والصحة الجيدة. لقد أحبها كل منا إلى حد العبادة منذ اللحظة التي رأيناها فيها. كنا
نتبعها أينما ذهبت مثل كلاب الراعي. وذات يوم كنا نجري ويطارد أحداً الآخر حول
مائدة وضعت فوقها مزهية من اليورسلين الثمين. ووقعت للمزهية وتحطمت. كان والدنا

بالخارج، ورجونا بريدجيت ألا تخبرهما بالامر - هو افقت على أن تقوم بإخفاء الشظايا، ولكن سترط أن تعاقبنا هي بنفسها، فابتهجنا ككلانا، لهذه الفكرة، فأمرتنا بأن نصعد إلى حجرتنا وأن يخلع كل منا بنطلونه، وحينما عادت بالعصا كنا عاريين بالفعل. جلست على السرير وأمرت كلاً منا بأن ينحني على ركبتها، ثم ضربت كلاً منا عشر ضربات ردفية”

- “هل اذراك هذا جنسياً”

- “ليس بصورة حقيقية، على الأقل لم تثرني العقوبة البدنية، أما ما أثارني فهو صكوني عارياً اضبط بجسدي على ركبتها”.

لن أحاول أن أسجل هنا بقية قصته بكلماته نفسها، لأنه راح يرد كل التفاصيل الصغرى التي لم تكن ذات أهمية حقيقية، وكان ما قاله، أنه وأخيه اتفقا على أنها استمتعا كثيراً بذلك العقاب، وأنهما قررا أن تبقى تعاقبهما بريدجيت لرات عليلة، ولذا عندما انفردا معها في المنزل في المناسبة التالية، تعمد أن يكسرا شيئاً ما، ثم قاما بنفس العملية بكاملها مرة أخرى. كان هذا في عام ١٩٢٨ - عصر الملابس القصيرة. فكان يستطيع أن يضبط بعضوه التناسلي على ركبتها أثناء ضربها له - وقال أن إحساسه بهذا الوضع كان بالغ الحد لدرجة أنه كان يغشى عليه بعدها، وفي هذه المرة، رأت بريدجيت أن عضوه كان منتصباً وهو يتعد عنها، فعمت يدها إلى أسفل ولسته... وقال دونيلي، أنه منذ تلك اللحظة، لم يكن يفكر - هو وأخوه - في أي شيء آخر إلا في كيفية إقناعها بضربهما مرة أخرى. وبعد أسبوع أو نحوه، لم يعد من الضروري أن يحظما شيئاً لكي ينالا منها ما يريدان من الضربات. فعلا كانوا ينفردون في المنزل، كان - هو وأخوه - يقترح أن يلعبوا لعبة المدرسة، فنقوم هي بدور المدرسة، ويحيبان على أسئلتها إجابات خاطئة عامدين، فتأمرهما بعد قليل بالتوجه إلى غرفتهما. وهناك يخلعان ملابسهما، ويهزمون جميعاً بالاستعراض كاملاً مرة بعد أخرى...

وانتهت هذه المرحلة حينما بلغا التاسعة، فقد نقل والده إلى اللابو. حيث كان يعمل مديراً لأحد مناجم الصفيح، وحينما كانوا بعيداً عن إنكلترا سمعوا بأن بريدجيت قد تزوجت، فغمرهما اليأس، وكان كل منهما قد راهن الآخر على أنه سوف يتزوجها عندما يكبر.

بعد ذلك بعامين، كانا قد نسيا ذكرى بريدجيت أو كندا، وفي أحد الأيام، سألتهما والتهما عن رأيهما فيما إذا جاءت بريدجيت لكي ترعاهما مرة أخرى. كان زوجها قد تركها، وكانت هي تريد أن تبعد عن اسكتلندا. ولحقت الفتاة بهما حينما كانوا يقضون إحدى إجازاتهم في لندن، ثم عادت معهم إلى اللابو. وقال دونيلي أن جسدها كان قد ازداد ضخامة وثقلاً، وأن كلاً منهما قد وجدها أكثر جاذبية مما كانت من قبل، وحالا اتبحت الفرصة للانفراد بها في المنزل، سألها شقيقه إن كان سنضربهما إن أساء سلوكهما فقالت: “بالطبع” وقال دونيلي أنها اهتزت من البهجة لهذه الإجابة.

وطوال الأسابيع الأولى بعد عودتهم إلى اللابو، لم يحدث شيء، فقد كان لديهم خد من الأهالي، وخشيت هي أن تبتذل نفسها أمامهم. ولكن الطقس الحار ولافتقار إلى التنفيس الجنسي سرعان ما جعلها تصرّف النظر عن حرصها.

كان الرجال من الأهالي يتجولون عراة تقريباً فرعت أن تنشئتها كانت، تنشئة دينية وأنها تشعر بأن هذا الوضع يصدم مشاعرها، وكان الصبيان يستمتعان بإغاضتها وأحياناً بـ “فرصها” فكانت تصفعهما، وكان يوسعهما أن يشعر أن نزايد قوة الضربات أنها كانت متنفساً لشيء آخر إلى جانب الضيق، وحدث أن رأتها عاريين ذات ليلة بعد الاستحمام، فصدت عنها ملاحظة عن تطور عضو دونيلي الجنسي. وثار غيرة إيرموند، وفي تلك الليلة، تعارك هو وشقيقه عراكاً مريراً، انتهى بكدمات سوداء في عيني كل منهما.

وذاث يوم، ضيقتهما مختبئين في كوخ في الحديقة بدخان السجائر، وقالت لهما أنها سوف تعاقبهما على الفور، وكان هذا هو ما ينتظرته منذ زمن طويل. وكان من المستحيل عملياً أن يخلعا كل ملابسهما، فأنزلا بنطلونهما فقط وضغطا نفسيهما على ركبتها. وقال أنه حينما انتهت هي من “العقوبة” إن كل منهما قد احمر وجهه وراح يتنفس بصعوبة، وكان هو وثقاً من أنها قد بلغت ذروة نشوتها (رغم أنه بالطبع لم يدرك هذا في ذلك الوقت).

وبعد ذلك بعدة أيام، صادف أن اصطليحت والته شقيقه إيرموند إلى البلدة القريبة لتسري له بعض الملابس. فصعد هو إلى حجرة بريدجيت ووجدها خالية، ففتح خزانة ملابسها، وعثر على الثوب الذي اعتادت أن ترتديه حينما كانت تضربهما في دبلن، وهو ثوب بني اللون صنع من مادة صلبة. خلع ملابسها كلها، وهرد الثوب على الفراش، ورفد

فوقه، وراح يتنصم رائحته للتميزة، وهجاء سمع صفقة الباب، وعرف صوت خطوات بريدجيت في الطابق السفلي. ونهبت هي عبر للنزل إلى المطبخ. وأردت أن تراه راقداً فوق ثوبها، فقلب شيئاً ما واستطاعه على الأرض بصوت مرتفع. هتفت: "من هناك؟" ثم صعدت إلى الطابق العلوي. تظاهر بأنه نائم. وفتح عينيه متظاهراً بأنه جفل، أمامها وهي تحديق فيه. وكانت في حالة شديد من الضيق كونه عبت بخزامة ملابسها، ونظراً إلى ما بداخله. وقالت: "سيكون علي أن أعاقبك - قم". وحتى قبل أن ينحني فوق ركبتها كان عضوه قد انتصب، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ ذلك. التقطت هرشاة شعرها وأمرتته بأن ينحني فوق ركبتها. وفي هذه المرة، لاحظت أن ركبتها كانتا متباعدين أكثر من المعتاد، وأنه عن طريق الضغط بحذر على أعلى ثوبها، يستطيع أن يجعل الثوب يرتفع إلى خنكها. وحاول أن يحديق إلى أعلى ساقها، ولكنهما كانا يواجهان الباب، ولم يكن هناك ما يكفي من الضوء. وهجاء قالت:

"هذا المكان ليس مرتفعاً بما يكفي. تحرك حول الفراش، إلى الجانب الآخر".

ثم انتقلت إلى حافة الفراش الأخرى - لتواجه للنهضة. انحنى فوقها مرة أخرى. ودون مقدمات جذب ثوبها إلى الأعلى. وفتحته هي ركبتها أكثر، ورفعت إحداها مسنداً إياها على مسند للأقدام. واستطاع أن يرى كل شيء إلى قمة فخذها. كانت ترتدي سروالاً داخلياً غير محكم له فتحات سيقان واسعتان. ومع انفراج ساقها لم يكن "حجر" السروال يغطي شيئاً. وبدأ يحرك عضوه للتنصب على ركبتها وهي تضربه. ثم غيرت وضعها، وبدأت يدها الأخرى تحك عضوه، ثم أطبقت يدها حوله ببطء. وهجاء بدأت تضربه بغضب. وتخبط بكل ما تملك من قوة. وفي نفس الوقت شعر بلذة حادة بين خديه جعلته يشعر كما لو كان سيفشى عليه. وكاد يضغط بين ساقها، بينما استمرت هي تضربه. وأخيراً ارتجفت وألقت بفرشاة الشعر. قالت: "أوه. لقد جعلتني أشعر بالمرض". ثم رفعت على ظهرها فوق الفراش، ولقد أغضبت عينيهما. وراقب هو الآخر على الفراش. وقال لهما كانا مجتهدين، ولم يحدث شيء آخر في ذلك اليوم. وحينما سمعا صوت الأم، وقد عادت إلى المنزل، أسرع إلى حجرته. وقال لشقيقه فيما بعد: "سوف أتزوج بريدجيت وأجعلها تضربني بكل يوم".

استمر هذا الوضع طوال سنوات ثلاث، وفي خلال هذه الفترة، خطبت بريدجيت إلى مهندس من مهندسي الناجم، وبدأت تمارس معه الجنس بصورة طبيعية. ولكنها ظلت تؤجل زواجها منه لأنها قالت أن مسر دونيللي لن تستطيع أن تسريح دون معونتها في المنزل. ولكن السبب الحقيقي هو أنها أرادت أن تظل قريبة من الشقيقين وأن تستمر في عمليات الضرب. وأخيراً، فاز المهندس، فتروجته، وانتقلت معه إلى أمريكا الجنوبية.

ولمدة أسبوع أو نحوه، شعر الشقيقان بالوحدة، وبأنهما مهجوران. ثم حدث ذات يوم أن قال إيزموند: "تظاهر أنت بأنك بريدجيت"، وراقب على وجهه وفي السرير. وراح أخوه بضربه بحزام جلدي. وبلغ إيزموند نشوته. وبعد ذلك، تسلم إيزموند الحزام، وتحيل دونيللي أن بريدجيت هي التي تضربه، وبلغ نشوته هو الآخر.

وحينما عادت الأسرة إلى إنكلترا، وكان دونيللي في الرابعة عشرة، أرسل هو وأخوه إلى مدرسة عامة صغيرة. وأصبح دونيللي تابعاً لأحد التلاميذ الصغار (حسب الأوضاع التي كانت سائدة في المدارس الإنكليزية). أما إيزموند، الذي كان يكبره بعام فلم يصبح تابعاً. ولم يكن دونيللي تابعاً مريضاً حتى أنه كان يستمتع بأن يضرب مرة كل أسبوع. وذات يوم، وبعد أن ضربه التلميذ الكلف بحفظ النظام، جعله هذا التلميذ يطلع بتطولونه ثم اغتصبه. ولما كانت مؤخرته ما تزال تؤلمه من الضرب، فإن التجربة كانت مؤلمة إلى مزدوجاً، واستمتع بها دونيللي استمتاعاً يفوق كل متعة شعر بها من قبل. ولكنه اكتشف أن اللواط دون الضرب المصاحب للعملية، لم يعطه أية لذة.

وليس من الضروري هنا أن أقول أنني لم أرحل بعد نصف الساعة الذي كنت قد حددته لنفسى. بل أنني قبلت مزيداً من الضرب. وظل دونيللي يتحدث ويتحدث، شارحاً بالتفصيل كل تجاربه في كل مبخى زارد في أرجاء العالم. وكان الرجل مصاباً بالكثير من العاهات النفسية والكويح والثوابت حتى أن الأمر ليتطلب عشرين صفحة أخرى لسردها هنا بالتفصيل - كان متعلقاً بشعر النساء، وأخذية النساء الجلدية الرقيقة، وقمصان التنس، أخذية للطر ذات العنق الطويل والمصنوعة من اللطاط والعاطف الواقية من المطر، والبنادق، والسيارات، والعصي، وشفرات الحلاقة.. وفي حوالي منتصف الليل، أطلعني على مجموعته من البنادق، والصور المأضجة، والسيارات والعصي. وناولني سوطاً مصنوعاً من تسعة من ذيول

القطط وسألني أن أجريه. فزفمت بالسوط في الهواء، فاعمضي عينيه فكما لو كان يصفي إلى موسيقى ممتعة. ثم قال بلهجة حائلة:

- "أحب أن تستلخمي؟"

- "على جسدك أنت؟". كنت قد خمنت أن هذا هو ما يسعى إليه.

- "أجل".

- "كلا. سأشعر بالالاهة".

قبض على ذراعي وقال:

- "حتى ولا في مقابل الخطوطة؟"

- "أسمح لي بأخذها في هذه الحالة؟"

- "يمكنك أن تنسخها ثم تعيدها إلي".

- "وهو كذلك".

أصبح صوته نوعاً من "التحنحة" وهو يقول:

- "تعال إلى الداخل، هنالك".

دخلنا الحجرة الأخرى، لم يكن هناك شيء سوى سرير ضخم، من طراز قديم، لشخصين، مزود بوسادة كبيرة لأحت لي غير مريحة فكما لو كانت لوحاً من الخشب. وفي كل ركن من أركان الحجرة علفت أحزمة جلدية تنتهي إلى فاضات يمكن أن تعسك بالأيدي.

خلع ملابسه ببطء، ودون ما علامة توحى بالحرج، لاحظت أن السائر على النوافذ كانت ثقيلة جداً، وعرفت الآن السبب الذي جعل دوشيلي يشعر بالسعادة للتخلص من عمال مزروعة. ففي مبنى خشبي من هذا النوع، كان صوت الضربات حتماً سبسمع ومن مسافة بعيدة، وخاصة في الليالي الجنوبية الساكنة، حيث يمكن أن يسمع صوت مكروان صغير على بعد ميل مكامل.

زقد على الفراش عازياً، ووجه إلى أسفل، ونظرت إليه نظرة مباشرة طويلة لأول مرة منذ دخولنا هذه الحجرة. كان ظهره، ورفاهه، وفخذه تحمل أكثر قليلاً من مجرد آثار وتلها السباط. بدا جلده في هذه الأجزاء، فكما لو كان طريفاً غطاء الصقيع ثم مرت عليه ست عربات جيئة وذهاباً عدة مرات. وكان من الدهش أن يستطيع أن يشعر بشيء ما تحت كل هذه الندوب القديمة، ذات الجلد المدبوغ.

كان علي أن أحكم القوابض فوق معصميه، ثم فوق كاحليه. وإن أشد الأحزمة الجلدية شداً محكماً حتى يتمدد جسده تماماً في البداية تركت الأحزمة الجلدية دون إحكام، ولكنه صرخ بي نافذ الصبر "أكثر إحكاماً"، وبعد ذلك، أدار وجهه ناحيتي مغمض العينين تحشرج صوته وهو يقول، "الآن".

كنت أعرف أنه لا فائدة من التراجع، وكان ما تسألته عنه في داخلي هو ما إذا كان باستطاعتي أن استمر في ضربه حتى أجعله يسألني أن أكف مكتفياً بما ناله من الضربات. وهكذا رفعت الشيء الذي أعطاني إياه فوق رأسي - وكانت له قدرة فائقة على الارتداد والتلوي - ثم هويت عليه بأقصى ما أملكه من القوة. أصدر السوط هسبسا مثل صاروخ ينطلق. ودهشت حينما رأيت العلامة الحمراء العميقة التي صنعها علي ظهر الرجل. ترددت للحظة، فقال من بين أسنانه للبطيخة: "استمر، استمر، لا تتوقف".

وهكذا، وقد تذكرت نصيبي من الصفقة، هويت مرة أخرى عليه بكل قوتي. ولو أنني كنت أتوي ابتداءه لكان هذا مستحبلاً بالنسبة لي. ولكن كان من الواضح أنه يحصل على أكثر ما يمكن من البهجة للريجة الفشولة من هذا الضرب. انزعجت حينما بدا الدم يتصيب من التدمات التي تركها السوط. فكما بدأت قطرات دم تصبني في وجهي مع طرف السوط فكما رفعتني إلى أعلى. ولكنني فكما توقفت كان يصيح في آتني، "أرجوك". وعند لحظة معينة قال: "كف". وظننت أنه قد نال كفايته، ولكنه قال: "والآن، العصا". وكان علي أن أبجث عن عصا مروعة لشرطي مغطاة بالجلد، وأن أضربه بها على رقبته وساقيه. وفي البداية، حاولت أن أجعلها "تفرقع" بأن أضرب بكل ما أملك من القوة - وكانت ذراعي قد بدأت تكل - ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف. فإنها قد تحنت فقط. وبعد عشر دقائق، جلست متهاوياً على مقعد خشبي وقلت:

"لا فائدة، يجب أن استريح".

ورقده هو في مكانه ساكناً، وتبينت أنه كان قد فقد الوعي، وحاولت أن أهره من كنفه، ولكن أجفانه لم تصدر أية حركة. وسررت عندما رأيت أنه ما زال بنفس حاله مات، لكان من الصعب عليّ أن أفسر موقفني بأنني كنت أعمل ما فعلته في سبيل قضية الأدب.

علقت إلى الحجرة الأخرى وصببت لنفسي قدحاً من الميرة، ثم ذهبت فأخذت مفتاح الخزنة من جيب بنطلونه وفتحت الخزنة. لم أجد أي شيء ذا أهمية يتعلق بدونيلي الكبير، سوى بعض الظاريف التي لا تحتوي إلا على بعض الخطابات والأوراق المختلفة، وكان هناك صندوق في الجزء العلوي من الخزنة، أخذته ونظرت ما فيه. أثار صليب أحمر على أحد جوانبه إلى أنه صندوق للمواد الطبية، وعند النظرة الأولى أكتكت محتويات تلك الإشارة، لفافات كبيرة من الضمادات، وعلمة معدنية تحتوي على إشارة لاحقة معقمة، وزجاجات من المواد المعقمة والخففة، خاطرت في ذهني فكرة أنه إذا استطاع دونيلي أن يحصل على من بضربه مرة واحدة ككل عام فقط، لكان في حاجة إلى مخزون كبير من الضمادات والمواد المعقمة. وحينما فحصت الصندوق بمزيد من الدقة، لاحظت أن هناك بعض الأشياء التي لم يتضح لي الغرض من وجودها بشكل فوري، كان هناك عدد من الأنايب الخضراء، وقد ألصق عند ككل من أطرافها غطاء مستدير صغير نذلت منه أسلاك تعرفت عليها أنها لنفسي باعتبارها فتائل تفجير، ثم كانت هناك زجاجة من مسحوق بني اللون خشنة القوام، فحصت أحد الأنايب، وكان مصنوعاً من البلاستيك، ذا غطاء من البلاستيك عند ككل من طرفيه ويمكن تحريكه. فزعت الغطامين، وحاولت أن أنظر من أحد أطرافه فكانتظر في التيسكوب، ولكنه كان مسدوداً عند منتصفه من الداخل، كان الأنبوب مقسماً إلى جزئين وتحت ضوء الصباح المعلق في السقف، لاح لي أن السداة التي تقسم الأنبوب كانت مصنوعة من العن.

فتحت زجاجة السحوق وشممت ما فيها، كانت لها رائحة متميزة، ولكن لم أعرف عليها. تناولت زجاجة أخرى تحتوي على سائل أصفر، وأزاحت غطاءها الزجاجة. تعرفت على هذه الرائحة حين تذكرتها في أيام مدرستي، حامض مركز، إما أن يكون حامض الهيدروكلوريك أو حامض الشيريك. عثرت في المطبخ على وعاء صغير يستخدم لتقديم اللبيلات. ونظرت إلى دونيلي في غرفته حين مررت على بابها. فصببت كمية ضئيلة من

السحوق البني في الوعاء، ثم صببت بخذر كمية ضئيلة من الحامض في الجانب الآخر من الوعاء نفسه، حتى تكونت منه بحيرة صغيرة. رفعت جانب الوعاء بخذر حتى سال الحامض غيره. وحالاً التقى الحامض بالسحوق، حدث تفاعل عنيف بصوت قوي، وقفزت أنا إلى الخلف. تناثر شيء ما على وجهي في قطرات صغيرة، وحرق مكانه، اندفعت إلى المطبخ وتعدت وجهي بقطعة مبللة من القماش، وكان الدخان ما يزال يتصاعد في الجانب الآخر للحجرة ويندفع إلى الممر الموصل للمطبخ. وكان السحوق في الوعاء ما يزال يقطط ويصدر حفيفاً مسموعاً، وتنطلق منه شرارات ملتهبة، فتحت الباب الأمامي للممر، ثم مددت يدي بخذر إلى الوعاء. وحينما أسته انشقت إلى تصفيين. ولكن التفاعل كان قد انتهى وتوقف الصوت. وكانت قد استخدمت كمية ضئيلة للغاية من السحوق. وضعت نصف الوعاء في صحيفة قديمة، وأدخلتهما إلى الخارج، كانا ما يزالان ساخنين جداً لدرجة أن أوراق الصحيفة اسودت ونجعت. وتطلب تنقية هواء الحجرة من الدخان أكثر من عشر دقائق بعد أن تركت الباب مفتوحاً.

وهكذا حلت مشكلة حريق مخزن القش. كانت الطريق بسيطة وتبينت نوعاً من الخداع ولكن كان المفروض أن يوضع للسحوق البني في أحد قسمي الأنبوب، ثم يحمل الحامض إلى موقع الحريق في زجاجة صغيرة - وكانت هناك زجاجات صغيرة كثيرة في الصندوق. ثم يفرغ الحامض هناك بعناية في النصف الآخر من الأنبوب، على أن يصنع ثقب صغير في غطاء هذا النصف لكي يسمح للهيدروجين للتصاعد من الحامض بالخروج، وبعد ذلك يوضع الأنبوب بجر من على طرف الجزء المحتوي على السحوق، لكي يظل الجزء المحتوي على الحامض مرتفعاً إلى أعلى، في وسط الحظيرة أو مخزن القش. ومن المفترض أن دونيلي كان يعرف بالتحديد الوقت اللازم لكي يأكل الحامض الحاجز المعدني الفاصل بين جزئي الأنبوب، وإذا خفف الحامض قليلاً لا يمكن أن تستغرق عملية التماثل ما يقرب من أربع وعشرين ساعة. وربما كان قد وضع قنبلة الحامض الصغيرة في مخزن القش في الساعات الظلمة الماسكرة من صباح يوم الأحد. فلا عجب إن بدا عليه السرور وهو يراقب النار. فقد كانت النيران انتصاراً للتوقيت الدقيق.

أعدت الصندوق للخزنة، إلى جانب الأوراق الأخرى، ثم أغلقته، وأعدت المفتاح إلى جيب بنطلون دونيلي. تملكني شعور قوي بأن عليّ حل مشكلة دونيلي الأخلاقية مع

تهوسه بإشغال الجرائق عن طريق صنع واحدة من قنابله الحمضية، وأتركها في الحزانة وسط الأوراق، حتى يمكن تدمير مخزن سلاحه السري. ولكن مثل هذه القنبلة يمكن أن تصرق المنزل دونيللي في داخله. وربما كان في هذا نوع من العدالة الشعرية التي تحدث عنها أرسطو. ولكنها ستكون عدالة قاسية قسوة لا ضرورة لها (إم أنه قد يستمتع بها؟).

غضبت دونيللي المراقب بأغطية الفراش، ولكنني تركته مربوطاً إلى أركان السرير. فإني إذ كنت أنوي أن أنام في هذا المنزل، فإني جدير بأن أفضل الشعور بأمان، وكانت مجموعته من البنادق والسفريات الماضية تصيبني بالتوتر. بعد ذلك أغلقت الباب ونعت على السرير الصغير. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ذهبت إلى حجرة دونيللي، فوجدته نائماً. كان نفسه منتظماً. حللت الفوايض عن ساعديه وكاحليه، فقلب وأن. وعندما كانت الساعة السادسة والنصف، كنت أسير متجهاً إلى البلدة، عثرت على مقهى على جانب الطريق مفتوحاً، فأكملت بيضاً مقلياً، ولحم خنزير، وجنود خضروات طازجة، ثم اتصلت بسيارة الأجرة التي جاءت بي إلى هنا. وفي الساعة الثامنة كنت قد عدت إلى الفندق الصغير. وكتبت أكثر هذه الملاحظات قبل أن اغادر الفندق لكي أتحقق بذاكرتي بعد الظهر. وقد أرسلت بالبريد مخطوطة دونيللي إلى ديانا، حتى يمكنها أن تنسخها بالآلة الكاتبة قبل أن تظهر إلى "شانون" يوم الخميس. وإذا وضعت في اعتباري كمية ما شربته من الكحول في الليلة واليوم السابقين، فإني أشعر بأنني في حالة جيدة إلى درجة ملحوظة.

- ٦ -

٢٢ إبريل، دالاس، تكساس.

□ وحينئذ أتساءل هذا الصباح، عن السبب الذي جعلني أحصل على متعة من نوع معين من خلال ضرب دونيللي. وهل هناك مركب سادي خفي في داخلي، لسة من شخصية "أوستيه"؟ ولكن، خطرت الإجابة على ذهني بعد محاضرتي هذا الصباح. فبشكل غريب، تقدم عاهات دونيللي دليلاً على حرية روح الإنسان. الحيوانات كلها تجفل من الألم وتتكس أممه. أما دونيللي فقد "حصل" عامداً على الموقف المعاكس. لقد اختار الموقف الذي يقول بأنه ينبغي أن تكون للألم قيمة، وقد جعل هو من الألم قيمة - شيئاً يستمتع هو به. أنا

أعرف أن هذا التفسير يقوم على أفكار من نوع معين، وما إلى ذلك - مثل بريدجيت والجنس والألم - ولكن هذا لا يؤدي إلى أي اختلاف. فإذا استطاع رجل أن يختار ممارسته المتعة عن طريق الضرب، فإنه يستطيع أن يختار ممارسة النشوة الصوفية لمرأى شجرة أو ورقة ساقطة من شجرة. إنه ليس بالضرورة ضحية عواطفه المقلبة أو احتياجاته الجنسية. و"هذا" هو السبب الذي جعلني غير قادر على خيانتته. إنه بشكل مشوه، يحمل سمة من سمات القديسين. إنه قديس لا هدف له ولا غاية.

في يوم الجمعة، الخامس والعشرين من إبريل طرنا عائدين إلى لندن، ولم يعد لدي المزيد من الوقت لكتابة فقرات طويلة من المذكرات، لأسباب سوف نتضح فيما بعد.

كان في نيتنا أن نعود عن طريق البحر. ولكن اللغز الأدبي، الذي جسده إيزموند دونيللي جعلني اتجهل العودة. كنت أخشى أن يصل باحث آخر إلى "بالي كاهان" قبل وصولي أنا إلى هناك. ولكنني أردت أن أمضي يوماً في مكتبة المتحف البريطاني، لكي أبحث عما يمكنني العثور عليه عن دونيللي. وقبل مغادرتنا "نيوهافن" (حيث كانت ديانا تقيم مع بعض الأصدقاء) كانت مخطوطة دونيللي قد أعيدت إلى "ديتهام سريبنغر" عن طريق البريد المسجل. وكانت ديانا قد نسخت منها نسختين. وكانت رحلتي بالطائرة من كينغدي إلى لندن هي فرصتي الأولى لدراسة المخطوطة.

كانت المخطوطة قصيرة بشكل فظيع. ولم أكن قد تبينت حين أطلعني عليها الكونونيل دونيللي، أن المخطوطة كانت تحتوي على مقالة دونيللي عن "رفض نظريات الدكتور هيوم". مع بعض الإشارات إلى "الحجالات الأولية" التي كتبها "دالامير". وكانت قد افترضت أن دونيللي قد نشرى المخطوطة وقد ضمت أجزاءها وألصقت بعضها إلى البعض، ولكن اتضح أن الأمر لم يكن على هذا النحو، كان "الرفض" يقع في نحو ثلاثين صفحة. أما مذكرات دونيللي فلم تزد على العشرين.

كان أكثر ما أدر في من جانب إيزموند دونيللي هو حادثة عقله. كانت اللغة هي لغة والبول^(١) أو كيراي^(٢). أما الفكر فكان دائماً أكثر قرباً من غوته أو حتى ويليام بليك.

(١) هوراس والبول (١٧٧٧-١٧٩٧) اللورد الرابع لارهورد - سياسي ومخالف إنكليزي شتهر بروايته "قلعة لوتورنتو" عام ١٧٨٤ التي تعد نموذجاً لقرواية القوطية.

(٢) توماس كيراي ١٧٦١-١٧٩١ شاعر إنكليزي وصديق هوراس والبول وأحد رواد الحركة الرومانسية الإنكليزية تتميز أعماله بمقتطع الطبيعة والذمات الكتيبة والخيال المرص الحزين.

وكانت النقطة المركزية في مناقشته ضد هيوم ودالامير باللغة البساطة، هو أنه حينما يشب الإنسان عن طوق السلطة الدينية، فإنه يصبح في العادة ضحية لتفاهته الخاصة. متى يمارس الإنسان الإحساس بالحرية، هكذا يسأل، ثم يجيب: حينما يشعر بالضجر... "الضجر هو أن يكون الإنسان حراً، ولكن دون أن يشعر بدافع معين يدفعه إلى الانتفاع بالحرية". وبعد ذلك يستكر صورة لاجتماع خرافي، على طريقة سويقت^{١١} لكي يصور ما يقصده من فكره. يقول أن بين قعم الجبال العالية في بلاد التتار، يقع واد يسكن فيه شعب ينتمي إلى جنس ضئيل الأجسام ولكنه قوي ويتمتع بصحة جيدة. "منذ بداية تاريخ هذا الشعب في الأزمنة السحيقة، كان من الالتزامات الدينية لهذا الشعب أن يحمل كل فرد منهم حملين ثقيلين. على شكل زحاجئين تملأن بالماء. وتعلق كل منهما على أحد جانبي وسط الإنسان. ولم يكن بمقدورهم أن يفكروا في السير إلى ما وراء بلادهم على طول الهوبيت هول. فكانوا يعلقون هذين الحملين في خصورهم من الليل إلى ليل، وكانت هناك عقوبات صارمة لكل من يخلع حمليه. ولكن أعظم متعة عند هذا الجنس كانت هي تمارين اللي. وفي إحدى الفترات أعلنت مجموعة معارضة أن القصور من وضع هذين الحملين هو جعل السر صعباً وغير مربح. وبعد ذلك أعلن أكثر هؤلاء المتمردين حسارة، أن الإنسان ينبغي أن يكون قادراً على الطيران مثل الطائر أو أن يطفو مثل البالون، وأن تلك الأحمال إنما فرضت عليهم بغرض منعهم من الاستمتاع بالحرية التي خلفوا من أجلها. وتشعل الثورة، ويعدم الملك (وهذا تنبؤ جدير بالملاحظة بإعدام الملك لويس السادس عشر) ويمزق الناس أحزمة أحمالهم ويخلعونها عنهم. ولشد ما يدهشون حينما لا يحدث شيء. باستثناء أنهم يجدون السير صعباً من دون تلك الأحمال. وأن المحافظة على توازنهم تصبح مستحيلة. ولكن الأشخاص الأكثر تعظلاً ومحافظة يستمرون في حمل أحمالهم. أما الأكثر جساراً فيتدربون على السير من دونها. وسرعان ما يعلنون أن الأمر ليس سوى عادة، وأن العادة هي مرجعه الوحيد. وتستبد بهم البهجة بهذا الإنجاز الجديد حتى أنهم في البداية، يمعنون في السير ليلاً ونهاراً، ويترعون الوادي

(١١) جوليان سويقت (١٨٦٧-١٨٨٠) شاعر ومكاتب تهكمي إنكليزي «عرف بكرهاته وحساسيته، من شهر أعماله مجموعة "رحلات جاليفر" التي استلهمها في خلق عوالم ومجتمعات خيالية وشكاريات كثيرة يجسدها جانباً من فهم ديورجوتز في صناعة والتفكير في عصره.

من القصاد إلى القصاد. بل إنهم يحاولون تسلق الجبال، وسرعان ما يكتشفون أن الجبال ليست سوى جدران جرداء من الصخور لا يمكن الوصول إلى منتهائها أو اختراقها. ثم حدث أن سقط بعض ممن تخلصوا من أحمالهم فريسة لغضب جنوني. فيندفعون متهوسين من طرف الوادي إلى طرفه الآخر حتى ينهاروا من الإجهاد. ويحاول آخرون أن يخترقوا الجدران الصخرية للسواء ليخرجوا من الوادي، فإما أن يسقطوا من مرتفع عالٍ حينما ينال منهم الإعياء والكلال، أو ينفذوا بأنفسهم بسبب الرعب أو اليأس. تكن مع مرور الوقت، يفضل العدد الأكبر ممن تخلصوا من أحمالهم أن يجلسوا في بيوتهم، وقد نملتهم الضجر تماماً، طلالاً أنهم عرفوا مكل شر من الوادي. وكانوا يهاجمون الآخرين الذين احتفظوا بأحمالهم. فيسفنونهم بالخنازير التي تؤمن بالخرافات. ولكن بعد أجيال قليلة، يموت هؤلاء الذين تخلصوا من أحمالهم، لأن انتشارهم إلى الحركة وتدريب عضلاتهم يجعلهم يسمنون إلى درجة هائلة فيموتون في سن مبكرة. وأخيراً لا يبقى على قيد الحياة سوى أولئك الذين حافظوا على أحمالهم. فيقومون بانتخاب ملك جديد عليهم. وطوال أجيال عديدة لا تعود "الثورة العظمى" سوى ذكرى مرعبة. حتى تظهر فئة من الشعب تعلن أن الإنسان قد خلق لكي يطير كالطير...

تبدو القصة متشائمة إلى حد كبير، وأنها استعارة رمزية من قصة الخطيئة الأصلية. ولكنني أميل إلى رهض هذا الرأي لأن دوتيلي يقول: "لقد كان هناك نفر من بين أولئك الذين حاولوا تسلق الجبال، لم تقع عليهم أبصار أحد بعد أبداً. ومع ذلك فإن عنداً من الرعاة الذين ترعى أغنامهم تحت ظلال الجدران الصخرية العظمى التي تحف بالوادي، اكتدوا أنهم سمعوا أصواتاً تنادي وتلفظ من فوق ارتفاع شاهق فوق رؤوسهم، حيث كانت قعم لجبال تختفي وراء السحب". وبكلمات أخرى، فربما استطاع عند قليل من أولئك المتسلقين أن يصلوا إلى الأراضي الوعرة الواقعة فوق الجبال.

إن مايقوله دوتيلي - وهذا تصور جدير بالاحترام إذا كان صادراً عن جانب صبي في السابعة عشرة من عمره - ليس هو أن "الناس يحتاجون إلى أثقال". وإنما يقول أن الناس "في الوادي" يحتاجون إلى أثقال. إنهم اصحاء، قوياء يحيون القامرة (أي يحيون المشي) والوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها أن يحافظوا على تلك الميزات في وديهم الضيق الصغير هي أن

يحملوا انتقالاً على الدوام. ولكن ثمة عند قليل من بينهم، عند قليل جداً، يولدون وهم يحملون روح منسلفي الجبال الجسورين.

وقد كان دوتيلي متسلفاً جسوراً للجيل بالفطرة، منذ ولادته، وكان هذا واضحاً وهو ما خدعني. لقد عاش هذا الرجل حتى بلغ الرابعة والثمانين (طبعاً لما قاله الكولونيل دوتيلي)، وكان مكاناً موهوباً، ومفكراً أصيلاً، وصديقاً لروسو وويلتز. فلماذا إذن لم يترك سوى هذا الأثر الضئيل على التاريخ؟ فإذا كان "رفض فلسفة هيوم" ومذكرات الرحلات المنشورة، هي كل ما أمكنه لكي أبداً عملي، فإنني قد أجده لزاماً علي أن استنتج أن أمامنا موهبة أضاعت نفسها مبكراً، مثل رامبو أو وولف، ولكن المذكرات غير المنشورة لا تترك مجالاً للشك في أن موهبته ظلت دون أن يلحقها الفساد. إذن، فماذا حدث؟

ولابد لي أن أشير وأؤكد، في شكل جملة اعتراضية، أن الجزء الفلسفي من "الرفض" والذي يضم بعضاً من أكثر صفحات هذا القال أهمية، يتميز بنوع من العمق والرصانة النفسيتين سبقتا زمانهما بقرن كامل على الأقل - ولا يمكنني أن أفكر في وجود شيء مماثلها ظهر قبل ظهوره. هـ برادلي^(١)، إنه يقتطف مقالة كاملة لهيوم هي "تجريد لرسالة في الطبيعة البشرية" بنيت فيها أن فكرة العلة والنتيجة عند هيوم مرتكزة على عاداتنا، وأنها لا تمثل "علاقة ضرورية". يقول هيوم: "نفترض أن رجلاً مثل آدم قد خلق وهو يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم، ولكن دون تجربة" أفلا يكون من المستحيل بالنسبة له أن يرى ضرورة الارتباط بين العلة والنتيجة؟ وعلى سبيل المثال، إذا كان يراقب مكررات من مكررات البليارد وتصلبدهم إحداها بالآخرى، فإنه من المحتمل ألا يستطيع أن يظن - اعتماداً على ذكائه وحده - أنهما سوف يصدران صوتاً كالفرقة الصغيرة عند اصطدامهما، ثم يندفعان في اتجاهين متضادين. إنه سيظن، اعتماداً على معرفته الضئيلة، أنهما قد يلتصقان أو ينفجران في الهواء، أو يقفان ببساطة جنباً إلى جنب".

وينقض دوتيلي بسرعة على العبارة التي تقول "يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم" ويشير إلى أنها زلة قلم. "يتضمن كلام هيوم أن إدراك آدم لمكررات البليارد سوف يكون إدراكاً بريئاً وغير متحيز، بينما - في الحقيقة - لا يمكن لإدراك كامل البراءة - مثل إدراك

(١) فرانسيس هيربرت برادلي (١٨٤٦-١٩٢٥) فيلسوف إنكليزي مثالي ارتبط فكره بفكر هيدل

طفل حديث الولادة - أن يستوعب المكررات على الإطلاق - أو بالأحرى - قد يدرك وجودها ولكن دون أن يستوعبها، مثلما قد انظر إلى خطاب كتب بلغة لا أعرفها. فإذا كان آدم قد سمح له بالقدرة الكاملة على الفهم، وبقدر كافٍ لكي يراقب مكررات البليارد وياهتمام، إذن فلماذا أيضاً أنه قد سمح له بشيء من القدرة على معرفة العلة والنتيجة. إنه ربما لا يعرف أن كانت المكررات سوف تقفز من منفصلتين أو تمرحجان مثل قنطريون من الماء، ولكنه يعرف أن شيئاً ما سوف يحدث، الأمر الذي يعني أنه يعرف أن نتيجة ما ينبغي أن تتبع السبب".

إن رجلاً يتمكن من إيجاد هكذا فلسفة أو تصور وبهذا الشكل التميز، كان حرياً من جانب آخر أن يخلف وراءه صورة دقيقة عن الفترة التي عاش فيها، إذن فكيف تحول الأمر إلى أن لا يعرفه أي شخص حتى إنني لا أكون قد سمعت به مطلقاً قبل تكليفي بهذا الأمر؟ وحتى إذا كان هو نفسه لم يكتب إلا القليل - فلا بد أن يكون الآخرون قد ذكروه - يوزويل^(٢) على سبيل المثال أو حتى كراب رومبسون^(٣). إن الإضلال الكامل الساقط فوق مثل هذا الرجل شيء لا يمكن فهمه.

كنت قد كنت لصديق يعمل في التحف البريطاني من دالاس، أسأله إن كان يستطيع أن يعثر لي على أي مادة ممكنة حول دوتيلي. وأسرع إلى هناك فور وصولي إلى لندن في التاسعة والنصف من صباح يوم السبت. ودعاني نيم موريسون - الذي يعمل في إدارة الكتب للطباعة - إلى شرب الفجاجة من القهوة في غرفة الموظفين. وهكذا قد أخبرته بكل ما دار بيني وبين فليشر - وحتى عن الفراعنة أن القوم بتزوير بعض المخطوطات باسم دوتيلي، إن نظرة نيم إلى الحياة وقورة ومحاذرة - وهو يعطيني دائماً انطباعات رجل يصدق بحذر من فوق حافة هاوية وهو يعالج موضوعاً ما بطريقة المتريفة الموقفة. قال،

- "أعتقد أنك تعرف ما فعله. أعني أنك لا تريد أن تنتهي إلى السجن بسبب الاحتيال على القراء..."

(٢) جيمي يوزويل ١٨٤٥-١٩٢٥، أشهر كتاب التراجم في إنكلترا. اشتهر بكتابه عن (ساموئيل جونسون).

(٣) هنري كراب رومبسون (١٨٧٥-١٨٨٦) كاتب يوميات ومذكرات (أثبه بالتراجم) إنكليزي.

وامكنت له ان ليس ثمة خطر في ذلك، وبرزت له المخطوطة المنسوخة على الآلة الكاتبة من مقالة "رفض لفلسفة هيوم". راح يقرأها بعناية لمدة عشر دقائق، بينما رحت ان احتسي قهوتي واتطلع إلى عناوين صحيفة "المجاريان". وأخيراً قال:

"ككاد أجزم ان هذا يبدو أصيلاً، وليس هناك ما يزعجني سوى شيء واحد. لماذا أعطي هذا المال لروسو؟ إنه يارثه تلك لابد كان يظن أن روسو أبه كامل البلاءه".

"تست وثقاً من السبب. ثمة عنصر من التماؤل في شخصية دونيللي وفكره ربما تتجانب مع روسو. هذا إلى جانب أن روسو ليس بسيط الفكر كما يبدو أن معظم الناس يظنون. إنه في الحقيقة لم يثقرح أبداً أنه ينبغي للناس أن يعودوا إلى الطبيعة".

قال "ككلا، ككلا". وبدأ عليه الشرود. سألته إن كان قد عثر لي على أي مكتب عن دونيللي، فطلب جيبته وهو ينظر إلي داخل قديم قهوته ثم قال:

"من الأفضل ان تأتي لكي ننظر بنفسك".

عندما إلى مكتبه، الذي لا يصل إليه المرء إلا بعد مقاهة من الثمرات وعدة مجموعات من الدرجات الحزونة، كانت غرفة المكتب مرتبة بطريق توحي بخلوها من أي خطأ أو عيب. وعلى المكتب نفسه كانت هناك ستة مجلدات برزت من خلال صفحاتها فصايات من الورق. قال لي ان اجلس امام المكتب، ثم جلس هو على القعد الكبير المواجه لي، واشغل سيجارة، ثم عاد إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم".

كانت الكتب التي عثر عليها مخيبة للآمال. وكانت هناك طبعة من مذكرات الرحلات التي كانت قد رآيتها بالفعل من قبل. مطبوعة في لندن عام ١٨٢١ في دار النشر المملوكة لشخص يدعى جون موراي، وهو الناشر الذي كان يصدر مجموعاً بايرون الشعرية، وكانت الطبعة مزودة بمقدمة قصيرة بقلم الناشر يصف فيها دونيللي أنه، "سيد ومارس إيرلندي" ولكنه لا يقدم أية معلومات أخرى متعلقة بحياته. ولا حتى ان كان دونيللي ما يزال على قيد الحياة عام طبع الكتاب. (وقد كان حياً بالفعل يومها، فقد كان في الثانية والسبعين عام ١٨٢٠)، وكانت هناك إشارة قصيرة إليه في كتاب جيلبين، "يوميات إنكليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر" الصادر في عام ١٨٧١، ثم اقتباس من مذكرات رحلاته في كتاب عن مدينة البندقية ألفه كاتب نسبت اسمه. وجاءت الإشارة الهامة

الوحيدة إلى دونيللي في خطاب مكتبه بايرون لفرانسيس هودجسون في شهر يونيو عام ١٨١١ (وجاء الخطاب في أعمال بايرون الكاملة، التي اشرف عليها بروتيرو وكولريدج، المجلد التاسع من ١٢)، ويقول فيها، "قال لي شيري (شيريدان) إنه لم يعرف أبداً شخصية أكثر وحشية من والذي ("جاء الجنون" بايرون) رغم أنه كان قد عرف ويلكيز ودونيللي في أيام شبابهما" ويقول بايرون في خطاب آخر إلى ويليام جيفورد (المجلد ١٣ ص ١٩٢): "لقد أدهشتني وصدمتني جداً تأكيدت إيزموند دونيللي والتي أشار فيها إلى ان خلونا وخلو عالنا نسبياً من المعنى. حينما نوضع في مقارنة مع الكل الفهارة، الذي لسنا فيه مع عالنا سوى ذرة ضئيلة، هو ما دفعه لأول مرة إلى تخيل ان ظموحنا إلى الأبدية والخلود يجب أن يتضاعف عدة مرات".

وبينما كنت أسجل في مذكرتي مختلف المواد التي حصلت عليها - فقد كان لابد لي ان أجهز مقدمتي على نحو من الإنهاء - كان تيم يفحص بعض الأوراق في خزانة قريبة. وحينما انتهيت من الكتابة، وضع أمامي ورقة واحدة. كانت الورقة صورة مكررة لصحيفة من أحد المخطوطات. ولم تكن قراءة الخط مستحيلة، رغم ما كان هناك من تكرار لخطأ كتابية حرف "ف" بدلاً من حرف "س". وكان نص المکتوب في الورقة:

"... كان مقتنعاً بأنه قصد إلى الوفاء بالتزامه..

وحينما ذكرت عادة أكل الكلاب في أوتاهايت، قال جولد سميت أن هذه العادة شائعة أيضاً في الصين، وأن جزار الكلاب شائع جداً مثل أي نوع آخر من القصابين. وإن مثل هذا الشخص إذا رحل إلى خارج بلاده، تهاجمه كل الكلاب.

جونسون، ليس هذا راجعاً إلى قننه للكلاب يا سيدي. تخي أذكر قصاباً في بلدة لينشيلد، كان معرضاً على الدوام لهجمات الكلب الموجود في المنزل الذي سكنت أسكنه. إن رائحة الدم والقتل هي ما تثير هذه الحالة وتستفز الكلب للهجوم، مهما كان نوع الحيوانات التي قتلها.

جولد سميت، "أجل، فإن الحيوانات عموماً تفيض أي علامة تدل على الذبح أو شير إليها وتنفر منها. هناك إذا وضعت وعاء صغيراً مليئاً بالدماء في حظيرة للجباب، أصاب الحيوانات ما يشبه الجنون".

جونسون، "أنتي أشك في ذلك".

جولد سميت، "كلا يا سيدي إنها حقيقة يعترف بها العارزون".

وتلت هذه الفقرة عدة سطور مكشطت بحبر أسود وثقيل وبغاية دقة ثم تسير السطور بعدها تقول:

تريل، "كان الأفضل لك أن تهرن على هذا قبل أن تضمنه كتابك عن التاريخ الطبيعي. إنك قد...".

نظرت إلى تيم وقد اشتبه علي الأمر، وظننت أنه قد أعطاني صحيفة أخرى غير ما أرد أن أعطيتني، ولكنه وضع أمامي صحيفة أخرى مصورة، غير أنها صورة لسطور كتبت على الآلة الكاتبة وكانت تقول:

جولد سميت (مستمراً)، "لقد قبلت لي هذه الحقيقة على لسان إيز موند، دونيلي الذي قال لي أنه حاول تملك التجربة".

جونسون (وقد بدأ يسخن)، "أه، يا سيدي، إنني لا أشك في أن هذا الرجل يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه".

جولد سميت، "إنه لا يفتقر إلى صفات محب للرح والعريضة".

جونسون، "بالناكيد. إنني أعتقد أنه من جماعة العنف ذوي اليول العربية الضعفة بالشر، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الشيطان".

جولد سميت، "ومع ذلك فإنه يعرف الجياد".

تريل، "كان الأفضل لك أن تهرن على هذا...".

قال تيم،

"كان من عادة بوزويل دائماً أن يكشط بالحبر الأسود كل الفقرات التي يريد أن يلغيها حتى لا يمكن قراءتها. وهذه صفحة من كتابه "حياة جنسون". وقد سمعت لنا جامعة بيل بالحصول على صورة من غالبية مجموعة لينام. وقد استطاعوا أن يصلوا إلى حفيظة أكثر ما كان مكتوباً في الفقرات المفقدة".

"ملهش. كيف عثرت عليها؟"

"لم أعثر عليها أنا. وإنما حدث أن ذكرت اهتمامك بدونيلي للرجل الذي كان يصنف الصور، وبالصديقة البحتة - كان قد رأى اسم دونيلي في اليوم السابق".

"وإن فريما تكون هناك إشارات أخرى إلى دونيلي في مخطوطة بوزويل؟"

"هذا محتمل، سأتصل بك إذا وجدت أية إشارة".

أمضيت بقية اليوم في قاعة المطالعة، ولكنني لم اعثر على شيء آخر له قيمة. وعندما عدت إلى ميدان كينسينغتون (حيث كنا نقيم مع جيرمي وورينغتون، أحد مديري شركة جون جامبسون لإنتاج التوبسكي) ناقشت ما أنجزته اليوم مع ديانا ومع سو وورينغتون. واتفقنا على أنه من الواضح أن جونسون كان يكره دونيلي، الأمر الذي لاح لنا أنه يشير إلى أنه كان يعرف شيئاً عن شهرة دونيلي كمصمم كبير. ولكن لماذا كان من الضروري أن يثور غضبه بهذه السرعة لدى ذكر اسمه؟ لقد كان بوزويل هو الآخر صعلوكاً كبيراً، وكذلك كان ويلكيز. الذي كان جونسون قد وصل إلى نوع من الاتفاق معه. فلماذا السخط على دونيلي والهجوم عليه؟ ماذا كان يعنيه حينما قال: "إنه يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه؟"

وقالت سو أنه من المحتمل ألا يكون قد عثر شيئاً بالتحديد على الإطلاق، فقيم عدا أن جونسون كان منزعجاً من سذاجة جولد سميت وسهولة تضلعه. وكنت ميالاً إلى الموافقة على ذلك، وحينئذ قالت سو،

"يجب عليك أن تسأل جيرمي عن بوزويل. إنه يعرف شخصاً اكتشف مخطوطة ما لبوزويل".

وكانت هذه أخباراً هامة. كنت قد أمضيت جانباً من اليوم في قراءة مذكرات بوزويل، وقصة اكتشافها، التي كانت قراءتها من الأمور الخالصة. ولما كانت هذه القصة عل علاقة ما بما أسرده الآن، فسوف أخصها باختصار.

مات بوزويل في عام ١٧٩٥ في منتصف العقد الخامس من عمره، ربما بسبب إصابته بتليف في التسجة الكبد، وعين دلائل من أصدقائه مشرفين على طبع تراثه الأدبي. الكاهن

ويليام تمبل، وصير ويليام هوريز ولدموند مالتون، وكانت تعليمات بوزويل تقول أن هؤلاء الأصحاء الثلاثة ينبغي أن يقرأوا مذكراته الخاصة وأوراقه وأن ينشروا كل ما يظنونهم هاماً ويستحق أن ينشر. وأقرأ الثلاثة ما وجدوه من أوراق، ولكن من الواضح أنهم قرروا أن المادة كانت إما شديدة الإملال، وإما أنه تصدم الشاعر والأدباء إلى درجة أنها لا تستحق أن تنشر. وبعد مقالة ماسكولي الفائزة ضد بوزويل (١٨٤٣) هبط رصيده الأخير هبوطاً شديداً حتى لقد نسي تقريباً. وكانت السيدات الفيكتوريات من أسرته. اللواتي كن من حين إلى حين يلفين نظرة سريعة على الأوراق، يشعرن بالصدمة إزاء ما رآين، حتى أنهن شعرن بما يمرر لهن ترويح إشاعة تقول بأن مذكرات بوزويل قد أحرقن ويستطيع الثراء أن يترك تأثير الفقرة مثل الفقرة التالية من المذكرات، (مكتبت في نوفمبر ١٧٦٢)،

"التقطت فتاة من شارع ستراند، وذهبتا في عربة وفي نيتي أن أستمتع بها مثل عراً (أي باستخدام مانع للحمل)، ولكنها لم تكن تحمل مثل هذا النوع فهووت بها قليلاً. وتعبت هي لحجم عضوي، وقالت إنني لو كنت قد فضضت عنديرة أبة فتاة لجعلتها تنزف. أعطيتها شيئاً ثم أجبرت نفسي على أن أتركها تذهب دون أن أمسها".

وفي منتصف سبعينات القرن الماضي، ذهب بيركيبيل هيل، ناشر كتاب بوزويل عن جونسون إلى بيت الأسرة في بلدة أوتشينليك - لكي يطلب إلقاء نظرة على المذكرات، ولكنه لم يلق سوى الطرد تقريباً.

وفي عام ١٩٠٥، تلاشى آخر خيط من ذكرى بوزويل ومن أسرته، وانتقلت ملكية المنزل وما يحيط به إلى اللورد تالبوت من مالاهايد، بالقرب من دبلن، وكان من بين ما انتقل إلى حوزته، الفقرة للخلقة الصغيرة التي تحتوي الأوراق التي ذكرها بوزويل في وصيته. وظهر أستاذ أمريكي، ينسب شوننس تينكر، قائمته بوزويل وأعلى في الصحف الأيرلندية خطاباً أي مادة منسية له. وتسلم الأستاذ خطاباً من مجهول يقترح عليه أن يحاول البحث في قلعة مالاهايد. فأرسل خطاباً إلى مالاهايد لم يكن له تأثير، فقرر تينكر أخيراً أن يذهب بنفسه إلى هناك، وكان سعيد الحظ في هذه المرة. وسمح له اللورد تالبوت بأن يرى خطاباً صغيراً من مجموعة أوراق بوزويل. وبعد ذلك، ظهر ضابط أمريكي برتبة ليونفانت كوثونيل. ويدعى رالف إيشام، وقد سمع عن الأوراق، ونجح في شرائها من لورد تالبوت في عام ١٩٢٧. وشرع إيشام من أبحاثه، هما البروفيسور جيوفري سكوت، والبروفيسور هارديريك بوتل، شرعاً في عملية

نشر تلك المادة الهائلة الحجم - التي تزيد على مليون كلمة وعند ذلك الحين استمرت مخطوطات بوزويل في الظهور. فقد تم العثور على صندوق قديم للملابس في قلعة مالاهايد وكان يحتوي على المزيد من خطابات بوزويل، بالإضافة إلى مخطوطة كتابه "رحلة إلى جزر الهيريدز مع الدكتور جونسون"، وفي عام ١٩٣٠، كان البروفيسور أبوت من جامعة أبردين يعمل في تحقيق أوراق السير ويليام هوريز، وهو أحد منفذي وصية بوزويل - فاشتكف بحمية كبيرة أخرى من الخطابات والمخطوطات. وكان من الواضح أن هوريز قد استعار بعضاً من الأوراق لكي يفحصها، تنقيداً لما جاء في وصيته، ثم نسي أن يعيدها إلى أوتشينليك. وفي عام ١٩٤٠، تم العثور - مرة أخرى - على المزيد من أوراق بوزويل في حظيرة قديمة للأبقار في مزرعة مالاهايد، وكانت هذه الأوراق تتضمن كتاب "حياة جونسون". وقد جاءت الصفحة التي رأيتها في المتحف البريطاني من تلك المخطوطة. ولم يحدث أبداً أن قسر أحد كيف وصلت بعض أوراق بوزويل إلى حظيرة للأبقار.

من الواضح أن أوراق بوزويل كانت قد بعثرت وتفرقت في أماكن متناثرة. وفي الحقيقة، فإن أول ما اكتشف من أعماله ظهر في عام ١٨٥٠ على يدي اليجور ستون في بلدة بولوني، وكان قد اشترى شيئاً ما من دكان يقال، فوجد بضاعته قد لفت في ورقة مكتب عليها خطاب موقع باسم "جيمس بوزويل". وكان في مقدور ستون أن يشترى حكومة كاملة من الخطابات التي كتبها بوزويل إلى القس ويليام تمبل، وهو كاهن كان بوزويل قد اعترف أمامه بأفقر أعمال حياته - ثم قام ستون بنشرها بعد ذلك بعد أن نجحها وهدبها وحذف ما كان فيها من فحش. ويبدو أن تلك الخطابات كانت قد وصلت إلى بلدة بولوني على أيدي ابنة تمبل التي كان زوجها القس قد انتقل إليها في عام ١٩٣٥. وحينما ماتا، بيعت أوراقهما - أو أعطيت إلى تاجر من تجار ورق الف باعهما بدوره للتقال.

إن الغناء أثار التاريخ لتعقد لأوراق بوزويل جعلني أترك المصاعب التي قد أواجهها في طلب حقيقة إيز موند دونيللي. فمن الواضح أنه ما لم يكن الحظ جليفي فإن أي قدر من الصبر والإصرار والتشابة لا يمكن أن يكون منمراً على الإطلاق. ولكن كان من الغريب أنني كنت أملك إحساساً غريباً بالثقة، ربما كان ببساطة راجعاً لاهتمامي العميق والبالغ بدونيللي وبأدب الرحلة التي ينتمي إليها. فلو استعدنا إليك وغوته، فإن كتاب القرن

الثامن عشر عموماً مكانوا لا يرتفون إلى أن نصفهم بالكاتب، وهو وفقاً السبب الذي يقف خلف عدم درستي لهم، فقد كانوا مخبرين للأمال بشدة.

وعلى أساس ما أخبرني به سو وورثينغتون، افترضت أن جيرمي يعرف أحد أفراد أسرة تالبوت، أو ربما كان يعرف الشخص الذي اكتشف الأوراق في حفرة الأبقار. وحالما ظهر جيرمي علي باب المسكن، سألته:

"ما اسم صديقك الذي عثر علي بعض أوراق بوزويل؟"

"أوي، إنه لم يعثر عليها بالفعل في الحقيقة. وإنما عثر عليها شخص يدعى اورورك في بلدة بورتارنوك."

"لم يعثر عليها في مالاهايد؟"

"كلا، ليس في مالاهايد، رغم أنه من المؤكد جداً أنها جاءت من مالاهايد، فعلى قدر ما استطع أن استنتج، كان فاس متقاعد يدعى اورورك قد استعار بعضاً من أوراق روزويل في أثناء الحرب العالمية الأولى. ولكن هذه الأوراق لم ترد إلى مكانها أبداً. وقد عثر عليها ابنه بعد وفاته."

"فماذا حدث لها؟"

"حسناً، سمع، إنها تحت يدي شخص عجوز غريب مجنون يدعى إيزاك هينكينسون بيتس، ويعيش في ديلين. وابن أخيه هو أحد طاقم الاختبار في مصنع التخمر عندما وقد أخبرني ذات يوم بامر تلك الأوراق."

"هل رأيت هذه الأوراق بنفسك يوماً؟"

"كلا، إن الولد العجوز شديد الحرص عليها. ومن الواضح أن هذه الأوراق مملوكة في الحقيقة لزراعة مالاهايد. أو ربما كانت من حق تلك الجامعة الأمريكية التي اشترت الأوراق."

"ولكن ألا نعرف أي شيء عنها؟"

"ليس الشيء الكثير، فيما عدا أن بعض محتوياتها ذاعرة إلى درجة كبيرة."

"هذا يبدو غريباً. أعني، ماذا يمكن لقسيس أن يفعل بمثل تلك الأوراق؟"

"ربما كان رجلاً عجوزاً سيئ الخلق أو فذر التفكير."

"هل تعرف عنوان تلك الشخصية" التي تدعى هينكينسون؟"

"العنوان ليس تحت يدي الآن، ولكن علي أن اطلب دليلين بالتليفون يوم الاثنين -

وسوف اسأل هيرد - وهذا هو ابن أخيه."

وتوقفت العملية عند هذا الحد في عطلة نهاية الأسبوع. وكنت أعرف أن الفرص الشاحنة لي لرؤية الرجل العجوز محدودة، إذا ما كان حريصاً بالدرجة التي ذكرها جيرمي، ولكن لم يكن هناك سوى أمل واحد، وهو أن يمارس ابن أخيه عليه نوعاً من الضغط.

- ٧ -

□ لم تكن تنقضي عدة أيام حتى اتصل بي جيرمي من مكشيه، وكان قد تحدث لتوه مع ابن أخيه الرجل العجوز. وقد أكد هيرد أن هينكينسون بيتس كان بالغ الحذر والحرص في مسألة اطلاع أي مخلوق على المادة التي يملكها. ولكنه من خلال المجادلة، كان قد ذكر شيئاً لاح أن فيه شيئاً من الأمل. كان بيتس شديد الاهتمام والتعلق بجرائم القتل. ولذلك فإنه قد لا يستبعد أن يكون قد قرأ كتابي "سوسيولوجية الجريمة العنيفة". والفرح جيرمي أن اكتب إليه رسالة حول موضوع جريمة القتل في أيرلندا في القرن الثامن عشر، وأن احاول التعرف عليه عن هذا الطريق. وأعطيني جيرمي عنوان بيته في شارع باجوت في ديلين.

ولم يكن لدي ما أفعله أكثر من هذا في لندن. فأمضيت هناك يومين آخرين، قابلت خلاتهما بعض الأصدقاء، وناولت الغداء مع أحد الناشرين، وشربت الكثير من "الكوكتيلات". ونو كنت في ظروف عادية كنت قد استمتعت بالتغيير الكامل للجو الذي عشته أثناء جولة المحاضرات، ولكنني كنت عاجزاً عن التفكير في أي شيء باستثناء دويللي. كتبت خطاباً إلى "ملحق التاييز الأدبي" حول اهتمامي بدويللي، وأمضيت أمسية عقيمة في التحف البريطاني محاولاً أن أعرف إن كان إيزاك هينكينسون بيتس قد كتب في حياته أي

كتاب حول جرائم القتل، ولو أنه قد كتب مثل هذا الكتاب، فإنه ليس موجوداً في مكتبة المتحف. وفي صباح يوم الأربعاء، اصطحبنا مو وورثينغتون في سيارتها إلى مطار لندن لكي نلحق بالطائرة المتوجهة إلى شانون. وقبل أن نغادر المنزل لحظة واحدة، اتصل جيرمي بالتلفون وطلب أن يكلمني. قال:

"كنت أتكلم الآن نتوي مع جيم هيرد مرة أخرى. وذكر شيئاً ربما أعانك في محاولة إقناعك من بيتس العجوز. من الواضح أن الرجل العجوز يؤمن بأن قاتل "جزيرة إي" الإيرلندي كان بريئاً، فهل تعرف أي شيء عن تلك القضية؟"

"تذكر عنها القليل. ثمة رجل يدعى كيروان".

وكانت هذه المعلومات ثمينة للغاية. لحقنا بطائرتنا في منتصف النهار، وهبطنا في شانون بعد ساعة واحدة بالضبط. وكان نوم مكثف المسؤول عن ماوى السيارات الذي نحفظ فيه بسيارتنا، قد قاد السيارة القديمة إلى المطار لكي يقابلنا. وبعد ساعتين صكنا قد علنا إلى موكوللان.

ثمة إحساس هائل بالراحة في العودة إلى البيت بعد رحلة طويلة. إنني أحب إيرلندا. الطرق الضيقة، والحدود الصغيرة القديمة، وخضرة الحقول التي لا تصدق، والسحب المنخفضة والبحيرات الغائمة، بدأت أشعر بشيء مثل الكراهية إزاء دونيللي، لأنه كان يمنعني من الاسترخاء الكامل لمدة أسبوع أو نحو.

يقع منزلنا على بعد نصف ميل خارج موكوللان. على ناصية حارة ضيقة مبلطة بالأحجار تنحول إلى مجرى مائي في فصل الأمطار. والنزل مسكن خوري بني في منتصف القرن الثامن عشر، وشيد من الحجر الجيري الرمادي اللون، وقد غصبت الجدران بنباتي الحزاز واللبالب المتسلقين. صكنا قد اشتريناه في عام ١٩٦٢، ودفعنا ثمنه من مستحقاتي من كتاب "تومسية الجنسية". وفي أثناء غيابنا، كان زوج ديانا السابق، روبرت كيرستين، يرعى المنزل بدلاً منا. والذي كان قد أصبح منذ عام ١٩٦٠ "مؤلفاً موسيقياً مقيماً" في عدد من الجامعات الأمريكية، وكان قد حقق نجاحاً هائلاً. وفي الخريف الماضي، قرر أنه بحاجة إلى فترة طويلة من الوحدة لكي يؤلف موسيقاه. ولذلك فقد دعونا للإقامة معنا، وكان يسكن عندنا منذ شهر يناير، وكانت مسز هيلي، زوجة الراعي الذي يسكن إلى جوارنا،

تظهروا له طعامه. وكان كيرستين قد رحل إلى دبلن قبل وصولنا بثلاثة أيام، فقد كانت الشبان من موسيقاه تعرضان هناك وكان عليه أن يقود الأوركسترا. وكان المنزل خالياً ومفعماً بالهدوء. وكان مسز هيلي قد أشعلت النار في مداخن حجرة الطعام وحجرة نومنا، فانضمت النار على الحجرات يريقاً مراحاً. كان منزلنا قريباً من العتمة على الدوام، لأن الأشجار العالية تحيط به من ثلاثة جوانب كما كانت جدران بعض الحجرات مغطاة بحشب التاهوجني الأسود، ولولا الأضواء الكهربائية، لكان صالماً لأن يكون مسرحاً لإحدى روبيت نواتو^(١).

وقفت وراء نافذة حجرة نومنا - وكانت موبيسي تتقافز على السرير، فتجعل نوابه تنثر - ورجحت أنظر إلى غابة "لوف ككوريب". كان هناك غيم واطق قليل بدا أثقل قليلاً من الصباب، ولاحت الأشجار، ببراعمها البازغة، دسكنة مبلولة. إن الجزء الذي تعيش فيه من إيرلندا، يتمتع بخاصية "تنويمية"، حتى أن زوار منزلنا يجدون أنفسهم قادرين على النوم نذ اثني عشرة ساعة يومياً على الأقل، ثم يظلون يتنامون حتى الساعة الرابعة عصراً. بينما كنت ألق وراء النافذة، وضوء النار يراقص على الجدران، شعرت بأسرءاء هائل، يناسب أو يفوق وحجم الإجهاد الذي تملكني في جولة المحاضرات التي قمت بها أخيراً، حتى بدت لي مشاعري كما لو كانت تفرق في فراش عميق من الري، وطفى علي إحساس عظيم من السكينة والشعور بالعزلة. وخطر لي فجأة أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيلي قد أطل على هذا المشهد، منذ ما يقرب من القرنين، فراك الكثير مما أراه أنا الآن، ثم فكرت ما أكدته لي فليشر من أن دونيللي قد اغوى ابنتي القسيس المحلي غير الشرعيتين، وهو الأب ريبوردان، فشعرت بأنني اضطرب وأعجز عن التفكير. لو أنها كانت بنة واحدة - فتاة واحدة - لكان الأمر مفهوماً، إنها فتاة ريفية بريئة جميلة. ربما يكون قد قام على تربيتها مزارع من الجيران أو راع للأغنام أو ربما يكون هذا الراعي من أسلاف سين هيلي)، ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة قد رأت دونيللي واقفاً في دكان البقال في القرية يطلب حاجة من الويسكي أو الحين فسحراها وطلب لبتها السيد الثوب الذي يرتدي ثياباً أنيقة، وربما يكون دونيللي قد نظرت إلى الخدين الثوردين المتفجرين بالصحة، وفكر في اللذة التي يمكن أن يحصل عليها لو أنه رفع طرف الثوب الطويل المصنوع من التيل وجري بيده على

(١) جوزيف شيريدان لوفانو ١٨٩٤-١٨٧٢، كاتب روائي إيرلندي. أشهر بردياته "العم سايلاس" عام ١٨٦٢.

الجسد الجميل كما لو كانت الفتاة جواناً أحسن تدريبه. لو كانت الحكاية قد جرت على هذا النحو لكأنت قد أصبحت طبيعية ومبهجة، ولكن إغواء هاتين إنما يدل على نوع من النزعة الحسية، وخضوع مطلق للرغبة في التملك والانتصار.

هجة قالت موبسي: "باب. أيمكنني أن استحم الآن؟" فقصت سلسلة تفكري. خلعت لها ملابسها، ووضعتها في حوض الاستحمام. ثم هبطت إلى الطابق الأسفل لكي افتح زجاج نبيذ بورجوندي التي جئت بها من كاليفورنيا والتي كنت قد وضعتها إلى جوار النار. كنت قد احتفظت بها طوال مدة طريق العودة حتى أتمكن من الاستمتاع بشربها في حجرة الجلوس الخاصة بي. وضعت اسطوانة موسيقية على الحاكي - كونسرتو الكمان والأوركسترا - لليلوس - ثم تركت نفسي لكي أغرق في حالة من الكابة الناعمة الغامضة. كان النبيذ دافئاً دهنأ خفيفاً للغاية. ويقول أكثر الخبراء في شؤون النبيذ أنه لا ينبغي للمرء أن يعرض النبيذ مباشرة لمصدر الحرارة، ولكنني أجد أن تعريض النبيذ العادي للنار المباشرة لمدة عشر دقائق لا تؤدي إلى أي ضرر - سببت لنفسي كاساً كبيراً، وجرعت نصفها مرة واحدة - وهذه هي طريقتي في شرب أول كاس من النبيذ في المساء، فهو - بهذه الطريقة - يلطف الظلم، ويمنح حاستي التذوق والشم أفضل ما في نكهته ورائحته، وينتج على الفور ومضة من الدهشة. كانت حقائبنا لا تزال مثبثة إلى جوار الباب، دون أن تفتح، ولكنني أردت أن استمتع بميزة العودة إلى بيتي. تتمتع حجرة جلوسنا برائحة متميزة ليست سيئة - تماثل إلى حد ما رائحة الكتب القديمة. وكانت ديانا هي من اشترت معظم أثاثنا في الزادات العلنية المحلية - وهي تحب حضور عمليات البيع بالجملة وبالأزاد - وليس في هذا الأدوات قطعة واحدة يمكن أن توصف بالحدادة. إذ نظرت حولي، خطر لي أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيلي قد جلس في حجرة تماثل هذه تماماً، وأنه رغم كل ما أعرفه، ربما يكون قد جلس في هذه الحجرة نفسها. ملدت يدي ففتحت إحدى حقائب السوق التي كانت ديانا تحملها في الطائرة، وعثرت على المخطوطة المكتوبة على الآلة الكاتبة لقال دونيلي "رفض لفلسفة هيوم" وفتحتها فكيفما اتفق. قرأت..

".. إنني لا انتقد منطق مسر هيوم، وهو منطلق مفحم من مختلف جوانبه، وإنما أزعج أن مزاجه من نوع يمكن أن يخفي عن صاحبه صوراً معينة من الأحاسيس. يستطيع منطقته أن يزيل من الوجود مطامح السيمبائيين وأمالهم، ولكن، ما الذي يعرفه عن رؤاهم؟..."

توقفت عن القراءة لكي أفكر في تلك الجملة. كان من الواضح أنها تستحق "هامشاً" نقدياً، يشير إلى التشابه بينها وبين فكرة بليك^(١)

كيف لك أن تعرف أن كل طائر يقطع طريق الهواء والريح

إنما هو عالم هائل من البهجة، مغلق أمام حواسك الخمس؟

عند ذلك بدأت أتساءل مرة أخرى متعجباً، كيف أمكن لمثل هذا الرجل أن يكون صورة ممسوخة من (كازانوفا) يتباهى بغزواته النسائية، ويطارد النساء، وأن يكون كما وصفه جونسون (واحد من جماعة العنقاء ذوي اليول العريضة للعبة بالشر)، وأن يكون من جانب آخر يمثل هذا الفكر والفلسفة التي تشير إليها مقالة (رفض لفلسفة هيوم).

انتهت الاسطوانة الموسيقية، وذهبت لقلبيها على وجهها الآخر، وللحظة نظرت إلى الخارج من النافذة التي تطل على الغرب. كانت السحب المنخفضة معلقة فوق تلال "باركونت"، ولكن السماء وراء التلال كانت مشرقة. وعلى الجانب الآخر من التلال، انتصب صف من أشجار الحور مرتفعاً على صفحة السماء. للحظة عدت إلى غرفة النوم في لونغ آيلاند، اتذوق النكهة الدخانية اللطيفة التي عرفتها في حلمتي بيفرلي الصغرى وما شعرت به بعد ذلك من انفجار الدفء بين الأخلاق، بينما كنت أنظر من فوق كتفها إلى الأشجار الباسقة فوق قمة التل الصخري. أزحت جانباً كتابتي الغامضة، وتمسكت بعطر الصلابة الذي كان يقوم ويهوم فوق أشجار الحور، وعرفت مرة ثانية في تبصر داخلي مفاجئ شامل أن الكائنات البشرية لا ينبغي لها "بدءاً" أن تقبل مقومات أو مكونات الوعي للباشر الناشء عن اللحظة القائمة، وأن الأفاق الأعظم والأرهب تقع دائماً هيباً وراء حدود الأحكام والتفجيرات الفورية المباشرة. للحظة كنت أنا إيزموند دونيلي، أنساءل عما عرفه هيوم عن رؤى السيمبائيين. اختفت التناقضات، وهجة فهمت دونيلي. فبالنسبة له، لم يكن السيمبائي هو من يحاول تغيير طبيعة المعادن، وإنما هو من يحاول تغيير طبيعة الوعي، وكان الجنس هو حجر الفلاسفة الذي كان يوسعه أن يغير المعادن للوضعية للوعي العادي فيحولها إلى رؤيا.

(١) وينيام بليك ١٧٥٧-١٨٢٧ شاعر ورسام صوفي إنكليزي. درس الرسم وفن الحفر، تميز بأسلوبه الرمزي الذي عزله عن معاصريه. إلا أنه بات من أهم بناء النزعة الرومانسية في الفلسفة والفن الغربيين في العصر الحديث.

صبرحت موبسي، "بابا، أريد أن أخرج." ناديت ديانا فأخرجتها من مطبخها وأرسلتها إلى الطابق الأعلى. كنت أريد أن أثبت هذا الإدراك المتبصر الداخلي وأن أكتشف فضائته لأنه كانت هناك - لا تزال - مشكلة واضحة. لا يستطيع أحد أن ينكر أن الجنس يملك هذه القدرة على رفع الوعي إلى درجة أعلى من العدة. فمنذ لورنس، أصبح هذا شيئاً عاماً ومعروفاً من ضمن الأشياء الشائعة في القرن العشرين. ولكن لورنس عرف أيضاً سرّاً آخر من أسرار الدافع الجنسي، "إن ما تعجز نساء كثيرات عن إعطائه. تستطيع امرأة واحدة أن تعطيه". ومنذ أن بدأت حياتي مع ديانا، اضمحلت اهتمامي بإغواء النساء، حتى أصبح مجرد نوع من الفضول وحُب الاستطلاع. بوسعي أن أنظر إلى فتاة جميلة فأتساءل بيني وبين نفسي عن نوع حمالة الصدر والسراويل الداخلية التي ترتديها، أو عما إذا كانت ترفد في سلبية على الفراش أم تتحرك بعنف. ولكن هذا الفضول لم يكن من القوة بحيث يمكن أن يؤدي إلى المتابعة العملية. بل إنني في الأعوام الأخيرة، كنت أدهش دائماً إذ أكتشف مهلاً متردياً إلى رفض تلك الأشكال غير الضرورية من الإشباع المتبادل التي تقدمها إليك علاقة ما ولكن دون تدنية أوتار". وقد حدثت في إحدى الحفلات أن قالت لي فتاة ما بصراحة، "لماذا لا ترفد ممّاً في فراش بعد ذلك؟ هذا أفضل من ممارسة العادة السرية في فراشين منفصلين" ولكنني في الصباح، أدركت أن عدم وجود أية أوار لم يكن صحيحاً صحة مطلقة. لقد تدخلت حسنان، وبالتالي فقد تدخلت عالماً أيضاً. إن عالماً لم يرق لي بشكل خاص، فقد كان عالماً شديد الغموض والعقم. ومثل كوكيبن تقارباً أكثر من اللازم، كان كل منا قد تسبب في نوع من الاضطرابات الأرضية عند الآخر. وأنا لم أعد قادراً على أن أتذكر، كيف كانت تبدو في الفراش. ولكنني أستطيع أن أتذكر بوضوح حكايات معينة سردها علي، حول فشلها في زواجها، وهي الحكايات التي ما زالت تزعجني. ولقد كان من الأفضل لي لو أنني تركتها تدور في فلكها الخاص.

وهذا هو ما يجعلني أشك في صديق كازانوف. إنه لم يكن غيبياً ولا محروماً من الإحساس - وهذا واضح إلى حد كبير. ولكن ليس هناك سوى القليل من الأدلة في "المذكرات" التي توحي بأن تلك الاضطرابات المتبادلة قد حدثت. إن فتاة ما، شابة و"مقبولة"، ترفض الحريات التي يحاول أن يمارسها معها، حتى تستطيع مجاملاته وملاطفاته أن "تبدل غضبها إلى أفعال أكثر رقة". وبعد أن تجعله يحدّها بالأهجرها بعد ذلك، تسمح له بأن يحلّ أربطة مشدّها الداخلي. وحتى إذا كانت الفتاة عذراء في السابعة عشرة من

عمرها خرجت لتوها من مدرسة الديور، لا تلمح هناك أي إحياء بالصعوبات المعتادة. الجسدية والقصية، لا نجد سوى تلميحات غامضة عن تمضية "عدة ساعات لطيفة" أو "نسلم أنفسنا لسنة من المتعة تدوم حتى الصباح". هناك جو أشبه بجو الحلم يخلق حول جو هذه "المذكرات" بأكملها.



■ لم يكن دونيلي صورة من "السنينورجالت كازانوف دي سينكالت". وكان هذا واضحاً. وكان الاحتياج إلى اكتشاف المزيد عنه قد أصبح شبيهاً بالتوتر الجسدي. ذهبت إلى حجرة الطعام، حيث أحفظ يكتبي التي تبحث في القانون وعلم الإحرام، وبحثت أبحث حتى عثرت على القصة الكاملة لقضية "قاتل جزيرة ألي" الإيرلندي. وكانت قضية عادية بقدر كبير. كان ويليام بورك كيرون فناناً عاش في بلدة "هوت" مع زوجته في عام ١٨٥٢. وفي عصر يوم من أيام سبتمبر، استأجر ملاحاً يقاربه، لكي يجلب بهما إلى جزيرة "ألي" الإيرلندية، وهي الجزيرة الجذابة الصغيرة التي تقع على بعد ميل من ميناء "هوت"، وهي على مرمى البصر من مالاهايد. كان يوماً هادئاً الجو. وفي الساعة السابع من مساء، سمعت صرخات صادرة من الجزيرة. وفي الساعة الثامنة، وصل الملاح يقاربه مرة أخرى إلى الجزيرة. فوجد كيرون ما زال مشغولاً برسومه - وهذه واقعة تثير الشكوك، طلالاً أن الظلام كان قد غبط بالفعل. وقال كيرون أنه ليس وفقاً من المكان الذي ذهبت إليه زوجته - وفرض أنها كانت في مكان ما على الجانب الآخر من الجزيرة، لا تزال تسبح. وبعد بحث عثروا عليها في سكة صخرية صغيرة ضحلة، وقد امتلأ وجهها بكدمات كثيرة، وامتلات رنتاها بلللاء. ورغم وضوح البينة على أن موته كان نتيجة لحادث عارض. فإن الظروف كانت مثيرة للشكوك للدرجة التي دفعت إلى تشريح جسدنا. وأدين كيرون بتهمة قتل زوجته على أساس الأدلة المستمدة من الظروف نفسها، وكان قد زعم بأنه لم يسمع الصرخات التي كان من الممكن أن تسمع من الشاطئ. وكانت له شقيقة وضعت له طفلاً في بلدين. وقد اعتقد كثير من الناس أنه بريء، لم استبدل حكم الإعدام الصادر ضده بحكم بالسجن مع الشغل الشاقة. وأخرج بعد هذا من السجن لكي ينزوج عشيقته، ثم هاجر إلى أمريكا.

ذهبت إلى غرفة مكتبي، وأشعلت للدفأة الكهربائية، وكتبت على الآلة الكاتبة خطاباً إلى إيزاك جينكينسون بيثس، لأقول له أنني أنوي أن أكتب عن قضية قاتل جزيرة "أي" الإبر للندبة في مكتب عن الجريمة وتساءلت إن كان في مقبوره أن يشرح لي سبب اعتقاده في براءة كيروان، ثم خرجت فهبطت النزل وأرسلت الخطاب بالبريد. وبعد ذلك، شعرت بما يكفي من الأسخياء لكي أقرأ لويبي قصة عن الأرنبه بيتر.

-٩-

■ استيقظت مبكراً في صباح اليوم التالي، وتعميت طويلاً حول بحيرة "روس" وحينما عدت أخبرني ديانا، (اتصلت بك مبس دونيللي من جروم وتريدك أن تتصل بها لاحقاً).

"هل مكانت لهجتها ودية؟"

"بشكل ما، تقول إنها كتبت لك خطاباً".

كان هناك صندوقان كبيران من الورق اللقوى، مليئين بالرسائل التي وصلت في أثناء غيابنا، ولم تكن لدي حتى تلك اللحظة أية طاقة لفحصها جميعاً، وبينما راحت ديانا تعد لي إقطاري، من البيض والباكون، أفرغمت أنا الصندوقين على أرضية غرفة المكتبة، فلت لويبي أن تخرج بنفسها ككل الرسائل التي وصلت إلى ناشرتي أولاً ثم أعاد توجيهها إلي - فإن مثل تلك الرسائل يمكن أن تنتظر. فتحت صندوقين صغيرين من التسجيلات الموسيقية، وعدة مكتب من ناشرين يأملون لو أنني اقتطعت منها فيسخدمون ذلك في إعلاناتهم (ولأسف، فإنهم نادراً ما يرسلون إلي الكتب التي أتمنى أن أحصل عليها مجاناً، لا يرسلون سوى الكتب التي تنعرض لها القالات الصحفية بشكل سين) وأخيراً عثرت على الخطاب الذي يحمل خاتم بريد "لايم ريك"، وقد كتب عليه العنوان بخط دقيق واضح.

ولابد لي أن اعترف بأنني لم أكن صريحاً معها صراحة ككاملة في الخطاب الذي أرسلته إليها في نيويورك. فإني لم أر فائدة من أن تصفق الأبواب في وجهي منذ البداية. ولهذا

لقد أخبرتها ببساطة بأنني سمعت عن إيزاموند دونيللي في أثناء جولة محاضراتي - وتركت لها أن تستنتج أن شخصاً ما من بين المستمعين إلى إحدى المحاضرات قد ذكر الاسم أمامي - وبني أدلت أن أكتب عنه مقالاً أو فصلاً في كتاب سائمه في المستقبل. ثم خاطرت بذكر أنني قد تبادلته حديثاً مع الكولوسيل دونيللي وأنني رأيت عنده نسخة من مذكرات رحلات دونيللي الكبير.

جعلني ردها أشعر بالخجل من نفسي. فإنها - بشكل وفور وإن لم يكن ودياً - تقول إنها كانت سعيدة عندما سمعت بأن حديثاً الأكر لم يكن قد نسي بعد شيئاً كاملاً، وإنها قد أمضت عدة سنوات في محاولة إقناع أحد الناشرين لكي ينشر طبعة جديدة من المذكرات وفالت أنها وشقيقتها ستغنيان لرويتي في أي وقت أذهب فيه إليهما، وفي نفس الوقت فإنهما ستكتبان للمحامي الذي يحتفظ بأوراق دونيللي في خزانة خاصة لكي يأتي بتلك الأوراق إلى المنزل...

ومرة أخرى شعرت بوخزات الضمير، واجتاحني إحساس بالليل إلى تجاهل الأمر كله ولكنني تدبرعت بتظرة إلى الخطوط الذي كانت قد نزعته عنه غلافه بالفعل، وقررت أنه سيكون من السخف أن تخلى عن مغامرة كانت بدايتها مثمرة إلى هذا الحد. اتصلت بمركز التحويل الهاتفية وطلبت منهم أن يوصلوني برقم الأنسة دونيللي. أجابني صوت فاطم جافدون كان إنكليزياً بقوله.

"أه، مسر سورم. مكان عطفاً منك أن تتصل بي. لقد أخبرتني زوجك بأنك لم تعد من أمريكا إلا بالأمس، وفي وقت متأخر لابد أنك مجهد تماماً".

قلت أنني أشعر بأنني بخير، وسألتها متى تتوقعان وصول الأوراق من مكتب المحامي.

"أود، إنها هنا الآن. لقد كان سريعاً جداً. وكنا نقرأها الآن، إنها مادة أخاذة ببساطة.

كيف تتوقع أن تسافر إلى هنا؟ بالقطار؟"

وحينما قلت أنني سأسافر بالسيارة سألتني لماذا لا أعود سيارتي (أنا فوراً لكي أتناول معهما طعام الغداء. نظرت إلى ساعتني وقلت لها أنني إن فعلت هذا فلن أصل قبل العصر. وقبل أن أنهي للكالة قالت،

"أمل ألا تستاء إذا سألتك سؤالاً واحداً" وغاص قلبي في صدري بينما قالت: أمل ألا تكون مهتماً بأية قصة من الأقاصيص البردنية التي تخكي عنه؟

"أقاصيص رديئة؟" هكذا سئلت وأنا أشعر بيفسي واقعاً في شبكة عنكبوتية من الدورات واتصاف الحقائق، ولكنها قالت:

"لقد رأيت شقيقتي واحداً من كتبك في المكتبة، إنه كتاب عن جريمة القتل، فأمل ألا تكون مهتماً بالشائعات البلهاء عن دونيللي واللادي ماري جيني؟"

وكنيت قادراً على أن أقول: مع إحساس هائل من الارتياح، بأنني لم أسمع أبداً شيئاً من تلك الشائعات. قالت في صوت يشبه صوت رجال الأعمال:

"حسنًا، إنني سعيدة بأن أسمع هذا."

سمعت فرقة صغيرة، ثم سمعتها تصبح: "ثينا، هل تسمعين على الخط الآخر؟"

"أجل، يا عزيزتي."

"لا أريدك أن تفعل ذلك، فهذه عادة تبعث على الضيق."

وهذا العقل الخطأ، نظرت في السماع لعدة لحظات متسائلاً، ثم وضعته في مكانها.

- ٩٠ -

■ قبل أن أعاد المنزل، اتصلت بصديق قديم من جامعة غالواي، وهو البروفيسور كليفين روش، وقال لي مساعد أنه في بيته، فالتصت به هناك.

"هل تعرف شيئاً عن إيزموند دونيللي؟"

"الشخص الذي كتب كتاباً عن اقتضااض العذاري؟"

"أعتقد حقاً أنه كاتبه؟"

- ٩١ -

"لا أرى سبباً يمنع من الاعتقاد في ذلك، الصفحة الأولى من نسختي تحمل اسمه."

"هي لديك هنا؟" لممكنني أن اتى لكي أراها؟

"بالطبع، متى تحب أن تأتي؟"

قلت: الآن. وفي خلال خمس وأربعين دقيقة كنت في غرفة مكتب كليفين للطلبة على خليج غالواي، والتي يمكن أن أرى منها مشهداً جميلاً لغابتي إينيشمان وأينيشمور.

كنت قد قررت أن أمضي في سياستي القالمة على الصراحة، لأن الأخبار تنتقل بسرعة في أيرلندا، وهكذا، بعد أن تبادلنا التحيات، وقبلت كتاباً صغيراً من نيبث "باشميل"، ناولت كليفين مخطوطة "رفض فلسفة هيوم" وقلت له أنه قد طلب مني أن أعدها للنشر وأن أكتب لها مقدمة. قال:

"إنها قصيرة، اليس كذلك؟"

"أمل أن أعثر على أشياء أخرى، خطابات ومذكرات. إنني ذاهب الآن لكي أزور الأنسين دونيللي في بالي كاهان."

ناولني الكتاب ذا الغلاف الورقي الذي كان موضوعاً على مكتبه، وكان صادراً عن دار "بوليسك" للنشر في باريس، بعنوان: "عن اقتضااض العذاري، تأليف إيزموند دونيللي". وكانت هناك ملاحظة تمهيلية صغيرة موقعة باسم "هنري قد. ميلر" تكرر الحقائق التي عرفتُها بالفعل عن دونيللي - تاريخ مولده ومكانه، وإشارة إلى مذكرات رحلاته، ثم يقرر حقيقة أن هذا الكتاب كان قد نشر باللاتينية وصدر عن دار نشر "بروكهوس" في لايبزيغ (وهي نفس الدار التي نشرت مذكرات كازانوفا) في عام ١٨٢٥، ثم قام ناشر هولندي مجهول بنشر نفس الكتاب - في ترجمة عن الألمانية - بالإنكليزية في عام ١٨٦٢، فتحدث الكتاب على فصل عنوانه: "حول خرافة أن كل النساء متشابهات في الظلام".

رومين، أتوسل إليك يا سيدي أكمل تعاليمك، لأنني متعلق بكلماتك تعلقي بمعرفة مصري.

- ٩٢ -

لورد كويبالد، إنك شير غروري، يا ولدي العزيز، ولكنني أجد جزائي الحق في اتفاق معي على أهمية الحصول على هذه المعرفة الرقيقة. علينا الآن أن ننظر في أمر الخرافة، التي روح لها كلود دي كيريبيون ومستر كليلاند، والتي عبر الناس عنها بالكلمات التي تقول "كل القطط في الظلام رمادية اللون". يمكنك أن تصدقني في هذا الأمر، حينما نفقت إلى الوراء نحو حياة بأسرها في معرفة النساء، ثم أتمكن من أن أتذكر أن امرأتين منهما كانتا متشابهتين حينما تنفرج السيقان، إنني لا أتحدث الآن فقط عن مناطق البهجة المنخفضة التي قد تكون ممثلة أو بارزة العظام، لحيفة أو نحيفة، غائرة أو نافرة. ولكنني أتحدث عما ينبغي لي أن أعود بالروح التي تقيم في هذا المكان. وليس هناك رجل طيب الذهن يمكن أن يخلط بين نبيذ بروكسواندي الناصن ونبيذ بورديو الأصهب، ويستطيع حتى الطفل أن يذكر الفرق بين التفاحة والكمثرى. رغم أن ثمرة قد تكون ناعمة كثرة العصارة، وقد تكون أخرى صلبة جافة. هكذا الأمر مع النساء. تماماً مثلما تحكم على مذاق النبيذ من خلال الجربة الأولى، فإن النكهة المتميزة لفتاة ما يمكن أن تدرك بوضوح في حركة اللامسة الأولى حينما تستقبل الشفتان الورديتان الطوليتان الراس القطيحي بينهما. لقد عرفت خدمات صكن حداث وطازجات، مثل تفاحة ناصلها تحت ضوء القمر، وأخرى بات صكن رطيبات ناعمة مثل كمثرى أو ثمرة خوخ. وأخريات ملمسون صلب تستثير أجسادهن لحظة العناق، ولكن داخلهن كان حلو المذاق، مثل ثمرة شمام ناضجة...

وضعت الكتاب جانبا، ونظرت عبر الكتب إلى كيرفين، الذي كان ما يزال مستغرقا في قراءة مقالة "رفض لفلسفة هيوم". لو أنه قد رفع يده إليه، لكنت جديراً بأن أقول، هذا شيء مزيف آخر. ربما يكون دونيللي هو كاتب الصفحة الأولى، لأنها تتميز بذلك الافتحام السيكونوجي الذي أصبحت أعرفه وأتوقعه عنده. ولكن الفقر، الكثوبة عن الشقيقتين تحمل نسبة من تأخير كتاب دي صاد "فلسفة في حجرة النوم". أما الجملة الأخيرة فتحمل أثراً قوياً عن القسوة التي لا يبررها حتى ما تتميز به من تبصر سيكونوجي واضح.

إلا أن كيرفين رفع بصره عن المخطوطة بعد قليل، وصكت قد غرت رأيي وهررت ألا أتكلم. فلو أنني وضعت الأسباب التي تدفعني إلى الظن بأن ما قرأته الآن كان عملاً مزيفاً لكان علي الاعتراف بأذني أعرف المزيد من أعمال دونيللي، والتي نتيجة لقارنتي بأعماله التي أعرفها فإني اعتقد بأن هذه المخطوطة كانت عملاً مزيفاً. وهكذا، فقد أبدت - بدلاً من

هذا - بعض الملاحظات حول ما في هذا الكلام من جاذبية. أما كيرفين نفسه فكان مقتبطاً بمقالة "الرفض" وسألني إن كان له أن يأمر بنسخها، لكي يكتب مقالاً حول تطور أسلوب دونيللي.

ووعنته بأن أتيح له فرصة الحصول عليها بعد أن أطلع الأستيتين دونيللي على الموضوع، ثم تركته واتصرف. كان النهار قد جاوز منتصفه، وكان علي أن أذهب إلى "ليمريك". وبعد أن جاوزت أورانمور فقط تذكرت أنني قد نسيت أن أسأله إن كان يعرف أي شيء عن فضيحة ذكر فيها اسم لادي ماري جليبي.

تركزت ديانا ومويس في ليمريك حيث كان بإمكانهما أن يقضيا بضع ساعات في شراء الحاجيات والتجول بين البضائع. ثم ركبت السيارة عن طريق كورك، عبر ريف مسطح ناعس كانت خضرة كثيفة ساخنة قد جللتها تحت شمس إبريل الساطعة. توقفت في بلدة "باللي كاهين" لكي أسأل عن قلعة دونيللي، فقيل لي إنني قد توغلت في الطريق إلى أبعد مما كان ينبغي لي، وإن علي أن أعود ثانية صوب بلدة "انير" لكي أدور مع الطريق من ناحية معاكسة. وعلى هدي هذه التعليمات، تمكنت من التوقف عند باب قلعة دونيللي حوالي الساعة الثالثة.

ولم يكن البيت قلعة بالطبع. وإنما منزلاً من الطراز الذي ينسب إلى عصر الملكة آن، وقد شيد بأحجار فضية، وأحاطت بمدخله أعمدة كورينثية من صخور حمراء. وكانت الجدران مكسوة بالسجاج، واكتسى المنزل بجو من الإهمال الشائع في المنازل الإيرلندية العظيمة، وبشكل خاص في مقاطعتي "ككونوت، مونستر". قادني السلم اللطيف ذو الدرجات الحلزونية الأربع عشرة إلى الباب الأمامي. كانت سلطوح الدرجات المنحوتة غير مستوية حتى إنني تعجبت كيف يستطيع أي إنسان أن يصعد أو ينهد دون أن يلتوي كاحله. كان نهر "ماي" يجري إلى جانب المنزل، وإطلال دير أبي تثنصب عند الأفق. وشعرت بالصدمة حين خطرت لي فكرة أن هذا المنزل كان يبدو جديداً وجميلاً حينما ولد فيه دونيللي. لأنه كان قد شيد حوالي ١٧٠٠، وأن الجنان لم تكن مكلفة بالسجاج كما هي الآن حينما كان هذا. كانت هذه "الذكري" أشبه بالقفز إلى الوراء نحو الماضي، تولد عنها إحساس مزعج بجريان الزمان السريع.

وقبل أن ابلغ قمة الدرج، فتح الباب، وبدت وراءه سيدة قوية تشيطة في ثياب ركوب الخيل، وكانت قد جمعت شعرها الرمادي بلون الحديد فوق رأسها، ووقفت مباعدة ما بين ساقيها مثل صورة لواحد من سادة الريف في لوحة من لوحات رولاند سون، وكانت مصالحتها قوية وثابتة مثل مصافحة الرجل. قالت،

"أنا لين دونيلي، سعيدة لقابلك".

كانت لهجتها تتطابق ولهجة الطبقة العليا من الإنكليز، مع لجة من اللهجة الإيرلندية تبدو في مخارج الحروف، ثم أضافت تقول، "يسعدني، أنك جئت بالفعل".

كان المكان مقبضاً وبارداً، وبدا في مؤخرته سلم ضخم كثير الدرجات يؤدي إلى الأقسام العليا من المنزل التي يبدو أنها لم تعد تستعمل. كان هناك قدر كبير من الرمر الذي يتناقض بغريبة مع ورق الجدران الفيكتوري النشار في كل مكان، ولكن غرفة للكتابة الواسعة التي قادني إليها كانت تضم ناراً كبيرة في المدفأة، وكانت هناك سيدة أخرى، تعمل بإبرتها إلى جوار النار، وإن لاحظت عليها سمات الرجولة هي الأخرى، قدمتها إلى السيدة الأولى باسم "ميس تينا". كانت ضئيلة الحجم، حلوة الوجه، ولابد أن الثياب النسائية كان يمكن أن تناسبها أكثر. وخمنت أن سرابويل الركوب النفضة كانت بهذا الاحتماء من البرد. عرضاً علي أن اشرب الشاي، ومضت ميس تينا لكي تعدّه. وقفت ميس لين أمام النار، وقد باعلت ساقها، ووضعت يديها وراء ظهرها، ودخلت معي في محادثة عامة حول الطقس والريف وما إلى ذلك، ثم تكلمنا حول أمريكا. وبدا عليها أنها شديدة التطلع إلى معرفة كل شيء عن أمريكا. وبعد عشر دقائق أو نحوها، قالت بطريقة عابرة أنها سمعت أن هناك من الأمريكيين من هو على استعداد لدفع مبالغ ضخمة من المال لقاء منازل من هذا النوع، قلت إنه من المحتمل أن يكون الأمر كذلك فعلاً، سألت، كم يدفعون؟ حاولت أن أخمن قيمة المنزل بسرعة ثم قلت أن الشخص العادل من المحتمل أن يدفع خمسة وعشرين ألفاً لقاء هذا المنزل، سألت بسرعة، "جنيهاً أم دولارات؟"، قلت، جنيهاً. وعند هذا بدا عليها أنها تفكر بجدية وباستغراق كاملين، وبينما كانت ميس تينا تصب الشاي، مستخدمة طاقم شاي جمياً من القرن الثامن عشر من المحتمل أن تكون ككريستينا شقيقة روبن قد استخدمته بنفسها، تبينت فجأة لماذا كانتا مهتمتين إلى هذا الحد، بعملية إحياء ذكرى إبراموند دونيلي وإنعاش شهرته. لم يكن لهاتين الرأتين أي أطفال، فلماذا لا يبيعان هذا المنزل الضخم

عن الريح، ثم يشتريان شقة جميلة في لندن، وبدا شعوري بالثقب - بسبب هذا البحث عن دونيلي - يتناقص. إن نشر كتاب، "مذكرات أفاق إيرلندي" يمكن بالتأكيد أن يزيد من شهرة جديهما أكثر مما يمكن أن يزيدها كتاب مذكرات الرحلات أو مقالة "رفض لنفسه هيو".

سألتني ميس تينا عن كولوئيل دونيلي، فأخبرتها بالقليل عن أطوار حياته في سنوات الأخيرة، وبدا عليها الحزن الشديد، قالت أختها،

"يا للرجل المسكين، علينا حقاً أن نكتب إليه يا لين".

"ربما، يبدو أنني أتذكر أنه كانت هناك بعض الشائعات حوله، هل وجدته غريباً أو شاذاً يا ميس سورم؟"

قلت، "كلا، بأي شكل من الأشكال".

قالت ميس لين وقد غرقت في التفكير ثانية: "بالطبع، إنه ليس سوى ابن عم من الدرجة الثانية".

كان يوسعي أن أرى أنها تفكر في الزواج - ربما من أجل تينا. وخطر لي أن الكولوئيل دونيلي ربما أعجب بالين، فقد بدت كما لو كان تملك بدأ ماهرة في الإمساك بسوط الركوب القصير، وسجلت ملاحظة باطنية لكي أتذكر من بعد ضرورة خلق اتصال من نوع ما مع دونيلي.

قالت ميس لين، "حسناً" إذا كانت زوجتك في ليمريك، فإنك بالتأكيد لا تريد أن تقضي كل فترة ما بعد الظهر هنا فيما اعتقد. إن ليمريك هذه بحق مكان مخيف، هناك الكثير من لئوسين لللاعين. لقد أحرقوا أحد أجدادي قديماً في عام ١٥٠٠، إنه الأسقف دونيلي المعروف باسم جو القفس، لم ترق لهم موافقه وأرأوه السياسية".

قادتني وهي تتحدث إلى حجرة صغيرة ملحقة بالكتابة. كانت هناك مدفأة كهربائية ذات قضيب معدني متوهج واحد، ولذلك فإن الغرفة لم تكن شديدة البرودة، كذلك فإن الحجرة كانت قد نالت شيئاً من دفء الشمس التي مالت إلى القرب، على مائدة صغيرة كانت هناك مجموعتان كبيرتان للأوراق من النوع الذي يصنع بحيث يتخذ شكل

الكتاب. فتحت إحدى المجموعتين، فتسارعت نبضات قلبي وأنا أحاول التعرف على "الخط" الذي كتبت به الصفحة الأولى من الأوراق الصفراء الكبيرة الحجم. قالت مسن إيلين:

"لقد وضعت قصاصات من الورق في الأماكن التي ظننت إنها قد تثير اهتمامك أكثر من غيرها. إنه يصبح في غابة الإبداع والجمال عندما يبدأ بالوصف. حسناً، سوف أتركك الآن مع المخطوطة، وسوف نخلل ثبنا في المكتبة لكي نناديها إذا احتجت إلى شيء ما".

تركتني بعد هذا بمفردي، وبدأت أنا القراءة - بسرعة - على الفور.

"شارع جرانف شومير، ١١ سبتمبر ١٩٦٦.

(أي حينما كان دونيللي في الثامنة عشرة على الأرجح)

"بابا العزيز

كان خطاب التوصية الموجه إلى مسيو بليريو مفيداً للغاية، وقد تناولت العشاء مع أسرته في الليلة الماضية. وهو يبحث إليك بأرق تمنياته وأفضلها. لقد عانى عمله من بعض الانعكاسات في الأعوام الماضية، ولكنه ما زال يعين طيفاً لما تفرضه التقاليد والأوضاع المقررة تماماً. إنه يعتكف في حجرته في ساعة مبكرة بسبب إصابته بمرض النقرس، وقد اصطحبني مدام ليزيو وبينماها اللطيفتان في نزهة على الأقدام على طول الحديقة الزكية التي تبدو مقاهيها مناظر مذهشة ومتفردة إلى أقصى حد. هذه المقاهي لا تزدهم بالداخل فقط، إنما توجد حشود أخرى خارجها وذاتية تطل من النوافذ المرتفعة أيضاً، يستمعون جميعاً في "فضول دون مبالاة" إلى مغنين وعازفين من نوع معين يطلون على جمهورهم من فوق المقاعد التي يحتلونها...

عبرت ما تبقى من الخطاب بنظرة سريعة. كان في مجموعه ممتازاً، يحتوي على مادة إخبارية من النوع الذي يمكن أن تنفذه في كتابات هوراس والبول أو آرثر بوتغ. كان من الواضح أنه خطاب شاب يرغب بشدة في أن يؤكد أنه لا يضيع حياته ولا أمواله سدى ونظرت سريعاً إلى الخطابات الأخرى، ورحلت أتنقي خطاباً من هنا وآخر من هناك عشوائياً لكي أقرأه كله. ومن خلال القراءة، تعمق لدي إحساس بخيبة الأمل. لم يكن هنا شيء من النوع الذي لم يكن يوسعي أن أجده في "يوميات الرحلات". وفي الحقيقة، لا يمكن أن يكون

- "ليس هناك في هذه الأوراق ما يشير إلى أن دونيللي كان "عضواً في جماعة العنقاء"، مبول شريفة لا نخبو". إنما برزت من خلالها في صورة الشخص المحترم الوقور".

قالت، "أوه، لا أظن أنه كان محترماً إلى درجة شديدة جداً".

- "نعم لا؟"

- "أوه، لا أعرف. كانت هناك الفاصيص - شائعات، لا شيء محدد تحديداً كاملاً. لقد أمضى أوقاتاً كثيراً في سويسرا وإيطاليا، اليس كذلك؟

وأنا أعتقد أن الناس كانوا أشراراً إلى حد ما في ذلك الوقت".

قالت عبارتها الأخيرة في كتابة وحزن وهي تنظر من النافذة إلى النهر حيث كانت أشكال الشجرات وجذوعها الطويلة منعكسة بوضوح. وبعد لحظة إضافية تقول:

- "طبعاً، لابد أن الدكتور جونسون كان يقصد نوعاً من الثورية، فإن غلاف مذكرات إيزموند يحمل صورة لطائر العنقاء".

فكرت في هذا للحظة خائفة، ثم قلت:

- "كلاً، إن هذا مستحيل. لقد قال جونسون ملاحظته تلك في عام ١٨٨٢. وقد صدرت الطبعة الأولى من مذكرات الرحلات في عام ١٨٩١".

- "لا أظن هذا صحيحاً. وأنا واثقة من أن لدينا طبعة تسبق هذا التاريخ. أسمح بأن تأتي لكي تبحث عنها؟ فليمان ليستا على ما يرام.

ذهبنا إلى المكتبة، فقالت بغموض ودود تحديد:

"يبدو أنني أتذكر أن الكتاب موجود على أحد الرفوف العليا هذه..."

كانت الكتب تتصاعد إلى ارتفاع يزيد على عشرة أقدام. أخذت سلم المكتبة التي كان مستنداً إلى أحد الجدران، وتسلفته إلى الرف الذي أشارت إليه. مضت خمس دقائق من البحث قبل أن أضل إلى عند من المجلدات ذات الأغلفة الجلدية وقد طبع اسم دونيللي على "كعب" ككل مجلد. وكان بعض هذه المجلدات نسخاً من الطبعة الصغيرة - بحجم الجيب -

من يوميات الرحلات التي كتبت قد رايتها عند الكولونيل دونيللي. وكانت هناك طبعة أخرى من يوميات الرحلات تقع في أربعة مجلدات، وقد طبعت في لندن عام ١٧٩٢. ووزنت فيها ملاحظة تقول، "الطبعة الثالثة". وكان هناك أيضاً مجلد أكبر حجماً، صنع غلافه الجميل من الجلد الذي ظهرت عليه علامات التآكل حتى بعد قرن من الزمان. وكان عنوانه، "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" تأليف إيزموند دونيللي، طبع من أجل ج. ج. جونسون (ثم قائمة كبيرة بأسماء أخرى)، لندن، ١٧٧١، وكان الغلاف الأمامي والصفحة الأولى يحملان صورة لعنقاء تهب من بين نيرانها. وقد رسمت بالأسلوب النهود لرسم الشعائر الذي يمكن أن يراه على أوراق الرسائل القديمة. وحينما حدثت فيه خطر لي أن الريش المنصب على صدر الطائر يمكن أن يخطر إليه أحد أصحاب مدرسة التحليل النفسي الحديث باعتباره رموزاً للعضو الجنسي للذكر، إن الريش على صدر الطائر العادي، على أي حال، لا بد أن يكون تجاهه إلى أسفل. بينما تكون أطرافه ناعمة مستديرة. أما هذا الريش فكان منتصباً إلى أعلى، وأخذت أطرافه شكل أصابع "السحق". قلت:

"من الغريب أن أحداً لم يذكر هذه الطبعة من قبل، ولا يبدو أن الكولونيل دونيللي يعرف عنها شيئاً".

"هذا محتمل. وأنا اعتقد أن كل نسخ هذه الطبعة قد دمرت".

"لماذا؟"

"لقد شب حريق ما، وسوف تجده مذكوراً في أحد الخطابات. لقد رايت هذا الخطاب بالأمس فقط".

هبطت من فوق السلم، حاملاً معي الكتاب، وذهبت مبسّ ثياباً إلى الحجرة الأخرى، وبعد بحث استغرق خمس دقائق سلمتني الورقة الأخيرة من أحد الخطابات. وكانت الورقة تقول،

"مكارثة! لقد أخبرني توك الآن بأن مطبعة جونسون قد احترقت عن آخرها. وأني لسعيد الحظ لأن هذه الحادثة لم تكلفني شيئاً".

وكان تاريخ الخطاب ١١ سبتمبر ١٧٧١. إذن فإن هذا ما يفسر أن كتاب "ملاحظات حول فرنسا وإنجلترا" ظل مجهولاً دون أن يسمع به أحد. وبالإضافة إلى هذا، فإن حتى هذه النسخة، مثلما يمكنني أن أرى لم تقراً قراءة كاملة من البداية إلى النهاية، لأن كثيراً من صفحاتها لم تكن قد قطعت بعد. رحت أذهب الصفحات حتى توقفت عيناى على كلمة "عنقاء". قلبت ناشر إلى الصفحة السابقة وقرأت الفقرة كلها. في هابيلدج انكسرت العربية التي كان من المفروض أن يستقلها دونيللي في رحلة خارج للجنة. وقال له صاحب الفندق أنه لم يكن من الممكن أن يوفر له غرفة أخرى. ولكنه أخبره بأن الخوري المحلي، النفس كرايزر يملك غرفة بؤجرها أحياناً للضيوف الموقين. وعشر دونيللي على كرايزر في حديقته يتطلع إلى مراعم الزنابق، فأخذه لكي يرى العربية التي كانت موجودة في حظيرة قريبة. وقال الخوري أن العربية لم تستخدم طوال الشتاء وإنها قد تكون مزينة مبلة. ونظر دونيللي إليها وقرر أنها ستكون عربية جميلة بعد خمس دقائق من العمل في تنظيفها. ورفض الخوري أن يأخذ نقوداً يجاراً لعريته. وفي طريق الخروج من الحظيرة، لاحظ دونيللي صورة خشبية لطائر العنقاء ملقاة على الأرض وقد غطى نقش نصفها. وسأل الخوري عن سبب وجود هذه الصورة في هذا المكان. فقيل له إنها كانت ضمن صفقة أثار كان قد اشترها من مزاد منذ أكثر من عام. ولما شعر بأنها شيء لا يتلاءم مع خوري محترم فقد ألقى بها إلى الحظيرة. وفي شيء من الدهشة سأل دونيللي عن السبب الذي يجعلها لا تتلاءم مع نفس محترم.

"بنت عليه الدهشة لجهلي، وسألي إن كنت لا أعلم إن هذا الطائر كان رمزاً لجماعة من الهرطقة المجددين، يعرفون أحياناً باسم "أخوة الروح الحرة" وأحياناً يعرفون باسم "جماعة العنقاء"، وأحبته بانتي لا أعرف إلا أن العنقاء كانت تستخدم أحياناً كرمز يعلق على دكاكين العطارة أو الصيدليات، وأني كنت أفترض أن لهذه الصورة معنى كيميائياً من نوع ما، وهنا راح الرجل العظيم يحاضرني في تاريخ جماعة العنقاء. فقال إنها ظهرت في أوروبا في عصر الطاعون (الموت الأسود)، حينما شاع اعتقاد يقول بأن الإغراق في اللذة الجسدية وشهوتها وفاته مؤكدة من المرض. وكانت الحجة الأساسية لهذا الاعتقاد تقول، إنه لا يمكن أن تكون هناك روحانية أصيلة من دون أن تكون هناك روح داخلية عالية الشفافية. إن الإنسان لا يستطيع أبداً أن يعرف الحقيقة بينما هو يتطلع إلى الخارج نحو ما يحيط بروحه، مغرقاً نفسه في الأشياء الخارجية. إن الروح في ذروة اللذة الجنسية - تكون أكثر تركيزاً منها في أي لحظة أخرى. وقد اعتقد "أخوة الروح الحرة" إن "الله" كامن في

كل مكان وفي كل شيء، وإن شكل اختلاجه من اختلاجات البهجة إنما هي كشف من قلبه، وبتكادراً على هذا الاعتقاد، راحوا يمارسون شكل أشكال الإسراف الشهواني، ويحدث هذا أحياناً فوق المنهج نفسه. وقد انتفعت محاسنكم التفتيش هذه التعاليم من جنودها بقسوة عنيفة، ولكن ثبت أن "جماعة العنقاء" كانت تحمل الطبيعة الأسطورية التي نسبت إلى الماهرة الذي اتخذته رمزاً لها، فبرزت من جديد، مرة بعد أخرى، من وسط رماد عمود الإحراق الذي مات عليه بعض أعضائها. وطبقاً لما قاله هيرودوتس من أن عمر العنقاء يبلغ خمسمائة عام، فإننا يمكن أن نؤكد بثقة أن هذه الجماعة سوف تستمر في الازدهار على الأقل لمدة قرن آخر.

وأحبته بأنني قرأت في رسالة سانت كليرمات الرماني إلى أهل كورننته قوله أن العنقاء رمز للبعث المسيحي، ولكن الرجل الطيب أجابني بأن هذا نوع من الشيطنة البابوية، وإن شكل الناس يعرفون بأن سانت كليرمات قد قيد إلى مرساة سفينة والقي به في البحر كعقاب له على مبالغاته، وحينئذ عرضت عليه أن أخلصه أو أريحه من أمر هذا الرمز للانحطاط البابوي، فاتفقنا على ثلاثة ناليرات ثمناً للصورة الخشبية.

كانت هذه هي نهاية الفقرة، ثم لا أتذكر ما حدث لصورة العنقاء المحفورة على الخشب، نقلت الفقرة شكلها بخط اليد ثم ذهبت إلى المكتبة وسألت ميس ثينا إذا كانت تعرف شيئاً عن وجود صورة محفورة على الخشب لطائر العنقاء في المنزل - فقد بدا لي أن مثل هذه الصورة يمكن أن تكون رمزاً ملائماً لكي يوضع على غلاف المجلد المقترح طبعه من مذكرات دوتيلي. قالت إنها لم تسمع عن وجود مثل هذه الصورة أبداً، ولكنها أبدت استعدادها لسؤال شقيقاتها، وقبل أن تتمكن من إيقافها فكانت قد غادرت الحجرة. جلست على نزع أحد القاعد، ورجحت أنطلع إلى "اللاحظات" دون اهتمام. انزلق الكتاب من فوق رصيفتي وسقط على الأرض، فوقف على حافته وقد انفتحت صفحاته. وحينما كنت أتقطة، أدهشني أن شعرت بأن الغلاف الخلفي كان أكثر سمكاً من الغلاف الأمامي، والأكثر من هذا، كانت الورقة اللاصقة للغلاف غير محكمة الالتصاق، وعلى عكس الورقة العاقبة للغلاف الأمامي، فإنها لم تكن ملتصقة بالورقة الأخيرة من الكتاب. ثبتت الغلاف بخفة، لكي أرى السبب الذي جعله مفتوحاً بهذا الشكل. فتبينت أنه يوجد ثمة جيب بين الغلاف الصنوع من الورق اللقوي وبين الورقة اللاصقة للغلاف نفسه، وكان الجيب قد صنع بالعصا

الأطراف الخارجية لهذه الورقة إلى الورق اللقوي. وفي داخل هذا الجيب كانت هناك ورقة غير مطوية. سحبت الورقة من مكانها وفتحتها. كانت الورقة من نوع ممتاز، شديدة البياض وشديدة الرقة، ولم تكن تحتوي إلا على رسم رفيع لعنقاء طالعة من عنبرها للنهب بالنار، وكتب تحت الرسم *relix qui potuit rerum cogroscere causas* وهي جملة لاتينية استطعت أن أتذكر أنها مقتطعة من المعنى الذي أورده فرجيل: "سعيد هو الرجل الذي استطاع أن يكتشف أسباب الأشياء". أما ما أثر في حقاً فكان الطائر نفسه كان الجناحان وريش الثيل من الذهب. مثلما كان الذهب المتصاعدة من العنق. أما بقية جسد الطائر فكان مرسوماً بالبقعة التي تراها في رسوم بليك. وفي الركن الأسفل إلى اليمين. ويخط إيزموند دوتيلي الذي لا يمكن أن أخطئه كانت جملة تقول:

"تسلمها في ١ سبتمبر ١٧٧٦". ولو أن هذا التاريخ لم يكن مذكوراً لكان من العسير علي أن أصدق أن الرسم لم يكن أحدث عهداً به بكثير، لأن الورقة كانت أكثر بياضاً ورقة من كل ما رايت من أوراق تلك الفترة من التاريخ، ولم يكن يبدو عليها أي سمة من سمات تقادم الزمن.

سمعت خطوات ميس ثينا في عودتها، فدرست الورقة في الكتاب، قالت لي إنه من المؤكد أن ليس ثمة صورة خشبية لعنقاء في المنزل، إلا إذا كانت مخبأة في إحدى الغرف العلوية خلفها. شكرتها واعتذرت لما تسببت فيه من إزعاج، ثم أعدت كتاب "اللاحظات" إلى مكانه على الرف. دخلت ميس ألين وسألتني عن تقدم عملي، ثم بدت عليها خيبة الأمل بوضوح حينما قلت أن علي أن أرحل فوراً. أكدت لها أنني وجدت عبداً كبيراً من المعلومات القيمة بين الأوراق واطلعتها على كراسة مذكراتي لكي أثبت ذلك. اصطبلحتني الشقيقتان معاً إلى باب المنزل، وقالتا لي أن أعود في أي وقت.

قلت سيارتي إلى ليمريك وأنا غارق في أفكار متضاربة، ربما يمكن أن يقال أن هذه الساعات قد طاعت دون هائدة، ولكن هذا القول لا يمكن أن يكون صالحاً ككل الصواب. لقد عرفت أن شخصية إيزموند كانت ذات جانبين، الابن البار المخلص وكاتب يوميات الرحلات اللطوب، ثم "السافر الشيق" إذا حق لنا أن نستعير هذه العبارة من السير ريتشارد بيرتون، ولا يمكن لأي دارس بدرس المادة الموجودة في قلعة دوتيلي أن يخمن وجود السافر الشيق.

ثم لقد كان هناك اللغز الصغير الذي تمثلته صورة العنقاء. تحدثت بشأنه مع ديانا بيلبا مكنّا نعود بالسيارة إلى غالاوي. إن الخطابات تقرر أن ملاحظات حول فرنسا وسويسرا قد نشر في شهر يوليو من عام ١٧٧١. أما حكاية هايدلبرج - حيث اشترى صورة لعنقاء الخشبية - فقد وقعت في شهر أغسطس من العام السابق. وليسيب ما، استخدم دونيلي صورة العنقاء كرمز لكتابه على الغلاف - ربما كانت الصورة التي طبعت على غلاف الكتاب نسخة طبق الأصل عن تلك التي اشترها من الخوري في هايدلبرج. وفي اليوم الأول من سبتمبر "تسلم" رسم العنقاء الجميل الذي رأيته مرافقاً به ذلك الشعار اللاتيني الجميل عن اكتشاف أسباب الأشياء. ومن المفترض أن هذا معناه أنه قد تسلم الرسم عن طريق البريد. وعرضت ديانا قائلة أن المعنى الأقرب أن دونيلي قد تسلم الرسم من الشخص الذي كان هو قد مكلفه بصنعه. ولم توافقها على ذلك بقولي فلو كان هذا صحيحاً فلماذا مكلف نفسه عناء كتابته، "تسلمته في ١ سبتمبر"، ولو أنني تسلمت بالبريد كتاباً كنت قد طلبته، فإني بالفعل قد أكتب عليه اسمي وتاريخ وصوله. ولكنني لا أكتب "تسلمته" لأنه من الواضح أنني قد تسلمته. إننا نستخدم كلمة "تسلمته" ثم تسلمه" لكي نوضح عملية دفع قيمة الفسكون، أو للتحدث عن خطاب أو رزمة. أما نظريتي فهي أن إيزموند قد تسلم رسم العنقاء دون توقيع من جانبه، أن الرسم وصله دون توقيع ودون أن يحمل اسم صانعه - وإلا لكان بالتأكيد قد كتب، "تسلمته من فلان أو فلان" أو حتى لكان قد احتفظ مع الرسم بالخطاب الذي أرفق به.

إذن فمن الذي يحتمل أن يكون قد أرسل الرسم؟ شخص ما مهتم بالعنقاء باعتبارها رمزاً أو - وأنا أعتقد أن هذا قد يكون مقنعاً أيضاً - أحد أعضاء جماعة العنقاء كان الخوري كرايزر قد ذكره؟ كان الاحتمال الأخير احتمالاً متبرأ. رغم أنه لا يمكن إلا أن يكون احتمالاً بعيداً. وقالت ديانا أنه احتمال بعيد بقدر بعد احتمال أن تكون إحدى السيدات قد أرسلت إليه الرسم هدية أو تذكيراً ربما أرفقت به رسالة غرامية. فمنيت لو أنني قد فحصته بدقة أكثر. فربما كانت الورقة تحمل علامة مائية تشير بشكل أو بآخر إلى أصلها. ليس من المحتمل أن ورقة مميّنة من هذا النوع لا يد أن تحمل الرمز الخاص بصانعها مدموغاً في نسجه الداخلي؟ وكان علي أيضاً بالطبع أن أقارن بين الرسم للوجود على الورقة وبين الشعار أو الرمز الذي حملته غلاف الكتاب. ولو أنهما كانا متطابقين، لكان هذا حجة مؤكدة

تشير إلى أن إيزموند قد مكلف شخصاً ما بصنع رسم للطائر الخرافي الذي كان قد شوى صورته من القسيس كرايزر.

وكانت هناك أيضاً تلك الحقيقة العجيبة القائلة بأن إيزموند قد كتب يقول نسخ الطبعة كلها قد دمرت بعد أقل من أسبوعين من تسلم رسم العنقاء. ومن الجدير أيضاً أنه من الأمور ذات الغموض - أو غير ذات الغموض على الإطلاق - إنه ربما كان قد عاد إلى استخدام رمز العنقاء على كتبه بعد ذلك أو أنه لم يستخدمه بعد ذلك أبداً. إنني أعرف عن الأقل أن هذا الرمز لم يكن موجوداً على طبعة مذكرات الرحلات التي رايت نسخة منها في لوزيانا، أو على تلك الطبعة التي رأيته في قلعة دونيلي.

ولم تكن لدي أية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها للمرء أن يتحقق من أن مثل هذا الحريق قد حدث أبداً، كان هناك افتراض البحث عما حدث لمؤسسة ج. ج. جونسون ومحاولة إقناع أثارها. ووجدت أن هذه الفكرة لا تبعث على التشجيع، فإني لا أملك التوجيه اللازمة للقيام بهذا النوع من الأعمال البوليسية. ومن سوء الحظ أن يوزويل كان في لندن يتلقى تدريباً على أعمال العمارة في السنوات بين ١٧٦٩، ١٧٧٢، وإلا لكان بالتأكيد قد ذكر شيئاً عن ذلك الحريق - طالما أن ج. ج. جونسون كان أيضاً هو الناشر الخاص للمكتوب جونسون.

■ هذا هو ما يقدم السبب الذي جعل أياي التالية لزيارتي لقلعة دونيلي خالية من أي شيء ذي أهمية يتعلق بهذه القصة. كانت خطابات دونيلي هي أملي الذي تعلقت به، أما الآن فلم أكن واثقاً مما ينبغي علي أن أقوم به بعد هذا. طلبت بالتليفون أو زرت كل مكتبة عامة بين ملبني كورك وسليكو. كانت بعض هذه المكتبات تملك نسخة من "مذكرات الرحلات" ولكن لم يكن لدى إحداها أي شيء آخر. وحاولت كلفين روش أن يقدم نوعاً من العمون، مقترحاً اللجوء إلى بعض معارفه من الأكاديميين الذين ربما كانوا يعرفون شيئاً عن دونيلي. ولكن لم يؤد أي من هذه الاقتراحات إلى شيء نافع. كتبت إلى تيم موريسون في النصف البريطاني، وإلى كل بائع كتب فتيمة أعرفه. ورغم أن تيم كان

عاجزاً عن اكتشاف مزيد من التراجع التي تشير إلى دونيلتي، فإنه كان قادراً على إضافة فترة واحدة إلى "الملف" الخاص لدي بجماعة العنقاء. وكان ما كُتبه كما يلي:

"لقد تبادلنا حديثاً مع تيد مالتوري، وهو خبيرنا المتخصص في شؤون الكنيسة في تصور الوسطى، ودار حديثنا حول ما أسميته "جماعة العنقاء" وكانت لديه نتف مفيدة من المعلومات، قال لي إنه ليس هناك دليل يثبت أن جماعة العنقاء وأخوة الروح الحرة كانوا شيئاً واحداً. فقد كانت هذه الأخيرة جماعة من الهرطقة المجهين، أسسها رجل يدعى ليريك دي بينما كان قد طرد من جامعة باريس عام ١٣٠٤ ومات في عام ١٣٠٩، وكان أساس تعليمهم أن الإنسان يمتزج في الله عن طريق العشق، وأنه حينما يحدث هذا تصبح الخطيئة مستحيلة بالنسبة للإنسان، ولهذا فقد مارست هذه الجماعة حرية جنسية كبيرة، وأخرق عدد كبير منهم على أعمدة منصات الإحراق، وكانت بين هؤلاء امرأة تدعى مارغريت من هينولن، وهي راهبة مزيفة، يبدو أنها كانت مصابة بداء الشبق أو القلعة".

أما الإشارة الوحيدة إلى جماعة العنقاء التي استطاع تيد أن يعثر عليها فوردت في كتاب سانت نيلس سورسكي (١٣٣١-١٥٠٨) في نهاية مقالته الثالثة حول الصلاة الروحية، وهذه هي ترجمتها عن الألمانية من طبعة عام ١٩٠٢، وهي ترجمة بدائية جداً وخشنة،

"من الأفكار التي شاع اعتناقها في أوقات مختلفة أن العقائد الخارجية على العقيدة المسيحية والهرطقة لا تهدد بالخطر سوى أولئك الذين يعتقدونها. ولا أولئك الذين يتصلون بأولئك أو يقرعون تحت سيطرتهم، ولكن القديس فيودوسيوس يقول لنا إن الله يفضلهم في حد ذاتهم، وأنهم قد يتسببون في عذاب أو معاقبة الأبرياء. وإن حالة جماعة العنقاء في مقاطعة سيمريشيسيك لتقدم أكثر الأمثلة رعباً على ذلك. لقد آمنوا بأنه يمكن للرجال والنساء أن يحصلوا على الكشف الإلهي القدس من خلال اللذة الجنسية بدلاً من الصلاة. وإن قريتهم (معسكرهم) بالقرب من بحيرة أسيكول كانت مليئة بالفسق والدعارة. ثم كان أن أرسل الله العزيز وباء قضى عليهم جميعاً ثم انتشر الوباء من هناك في طول بلاد السكيتيين الشماليين وعرضها، ومن ثم في العالم كله. وكان هذا في عالم الرب ١٣٣٨".

وبهذه المناسبة، قد يكون من الأمور الهامة بالنسبة لك أن تعرف أن الأثري الروسي تشوفولسون يؤمن بأن الموت الأسود (الطاعون) قد بدأ في معسكر بسطوري بالقرب من بحيرة أسيك - كوكول في مقاطعة سيمريشيسيك - وهي مقاطعة في بلاد القزغيز بالقرب من

حدود الصين والهند. وقد دافع عن هذا الرأي وأيده البروفسور ر. بوليتزير في مقاله "الطاعون" في نشرة منظمة الصحة العالمية الصادرة في جنيف عام ١٩٥٤ في الصفحة رقم ٢٧.

كان شكل هذا ساحراً للب بالطبع، ولكنه أثار عدداً من الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها بحيث أنه كان أيضاً دافعاً إلى الشعور بالإحباط والخيبة. من الذي أنشأ جماعة العنقاء ولماذا؟ ماذا كانت تعاليمها؟ كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصراً تأسس فيه كثير من الجماعات الهرطقية، الوالدنيين، والإلييجانيين، والخليسيين - وقد اتهم الآخرون دافعاً بأنهم كانوا يقيمون اجتماعات دينية ذات جو محموم تتحول إلى ممارسة جنسية جماعية مسعورة. فإذا كان ينظر إلى جماعة العنقاء باعتبارها مسؤولة عن وباء الموت الأسود، فلماذا لم يعثر لها على وثائق كافية؟

ولم يكن هذا بعيداً عن موضوع بحثي مثلما يبدو من مظهره. فلو أنني لم أستطع أن أعثر على المزيد من المعلومات عن إيزاموند دونيلتي، فإني قد أتمكن على الأقل من تلبية مقدمتي بمثل هذه المادة. أما فيما يتعلق بالنص نفسه فإنه يمكن أن يتكون من مقتطفات من كتاب "عن اقتضاض العذاري" ومن كتاب قلبش للتحول، "م.س"، بالإضافة إلى المخطوطة التي لا شك في صحة نسبتها والتي حصلت عليها من الكولونيل دونيلتي، بالإضافة إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم". وكان معنى هذا أن مشكلتي الأساسية ما تزال هي العثور على مزيد من المادة لقدمتي.

في يوم السبت التالي لعودتنا من أمريكا، وقعت إحدى تلك المصادفات التي تعلمت منها أن أسلم ببعض الأشياء التي تتضمن أي نوع من أنواع الهواجس أو الأفكار التسلطة، كانت ديانا، وماري التي تأتي يومياً لمعاونتنا في شؤون المنزل، تفحصان صندوقاً قديماً مليئاً بالمخطبات، واضعتين في اعتبارهما أن تلقيا إلى النار بأكثر عدد ممكن منها. والتقطت موبسي خطاباً يحمل علامة خانم على شيء من اللثة تعرقه الأعلى. وتعمل العلامة صورة الحبة ملثفة حول جذع شجرة التفاح. وهي تهمس لهواء. وبالطريقة التي تنصرف بها الأطفال حين يشعرون بأنهم لا يحصلون على ما يكفي من الانتباه، جاءت موبسي إلى حجرة الكتب، حيث كانت جالساً أكتب وقالت، "انظر إلى ما جئت لك به، يا بابا". وظننت أن ديانا هي التي أرسلت الخطاب معها فالتفت نظرة سريعة إلى التوقيع وقرأت: "كلوس دنكلمان" ثم نظرت إلى الخطاب نفسه. كان تاريخ الخطاب عام ١٩٦٠ وكان خطاباً متعلقاً حول كتاب

"اليوميات الجنسية" الذي كان قد صدر في فترة باكورة من ذلك العام، وكان كتاباً لحظاً بسألي إن كنت على علم بأعمال ويلهله رايخ، ثم راج بسجل عناوين كتب ينبغي عني في رايه أن أقرأها. كان خطاباً من نوع مألوف، وحتى بالنسبة إلى الإيحاء بأن كتاب لحظاً يمتلك الكثير الذي يمكنه أن يعلمني إياه لو أنني عنيت بأن أصغي إليه. وإن علينا أن نتبادل الكثير من الخطابات الطويلة، وكانت ديانا قد كتبت عليه بخطة مهوش.

"تمت الإجابة عليه ٦٠/١١/٩" وأعتقد أنني قد شكرته على إقراحاته، ووعدته بأن أقرأ الكتب التي ذكرها، وكنت على وشك أن ألقى الخطاب في سلة المهملات القابعة إلى جداري حينما التقطت عيني اسم "ف. دونيلي". وكانت الجملة تقول: "من الطبيعي أن تكون الأفكار ظوئر قد أثارها كتابات مفكرين متعددين: دي صاد وكروولي و"ف. دونيلي" وكيرارار وديارد سيلون، الخ". من الواضح أن كورنر كان تلميذاً لبريخ الذي اعتقد أن الفثوة الجنسية تحتوي سر الصحة النفسية.

وكان العنوان على الخطاب هو "كوميبلين جاردنز، هامبستيد الغربية". وبدأ لي أنه من غير المتوقع أن يكون كتاب الخطاب ما يزال مقيماً في نفس العنوان بعد تسع سنوات، ولكن الأمر كان يستحق المحاولة، وهكذا فقد كتبت إليه خطاباً أذكر له فيه اهتمامي بدونيلي.

وفي يوم الاثنين التالي، كان علي أن أفكر من جيد في المشكلة المرحجة التي تمثلها الاستان دونيلي القيمتان في قلعة دونيلي. وصل خطاب في ذلك اليوم، يحمل توقيعيهما معاً، ولكن يمكن أن نفترض أن كاتبته هي ميس ألين. قالت أن مقابلتها لي كانت أمراً ممتعاً، وكيف أنها كانت قادرة على أن تثرى من لعبة واحدة أنني كنت جديراً بالثقة وأن سمعة ليز موند سوف تكون في أمان بين يدي، رحت أن نحت وطاً شعوري بالحرج وأنا أقرأ الخطاب. كانت مسرورة من أن كتاباً له مثل سمعتي قد اهتم - في النهاية - بليز موند وشعرت بأنني سأكون الشخص المناسب للقيام بكتابة ترجمة ذات قيمة له.. ألفت بالخطاب على الفراش واحتسيت قدح الشاي. كان عزمي الأول أن ألقى به في سلة المهملات وأن أنساه. رابدتني فكرة أنه ليس سوى نوع لحين من اللصابقة وأنهما يجب أن نرصكاني وشاني، إن لدي أشياء أخرى أقوم بها أفضل من كتابة ترجمة معتمدة لها قيمتها. ومن الطبيعي أن يكون إحياء الاهتمام بليز موند شيئاً في صالحهما إلى درجة عظيمة.

فإنهما سوف تكونان قادرتين على بيع أوراقه إلى إحدى الجامعات الأمريكية بمبلغ كبير من المال.

إلا أن المشكلة ظلت تؤرقني، كنت قد عقلت العزم ألا أعود إلى الاتصال بهما ثانية، وعلى شكل حال، فإني لم أستقد في شيء، بأي جزء من المادة التي تملكها. إنني لست متلبناً لهما بشيء، وعلى الآن أن أضع في الحسبان، أو أن أقوم بعمل من أعمال كبيع النفس بأن أتجاهل خطابها، وهجاة قررت أنه ليس هناك سوى سبيل واحد بسيط، أن أخبرهما بالحقيقة كاملة، أرتببت بسرعة توباً منزلياً وهرعت إلى حجرة المكتيب، منلها على الخلاص من هذه الفكرة بتفخيذها. كان خطاباً طويلاً - وكان لابد له أن يكون يمثل هذا الطول، طالاً أنني كنت مصمماً على التحلل من حملي. بدأت بالإشارة إلى أنها لابد تعرف أن كتاب "عن الاقتصاد العذاري" كان منسوباً إلى دونيلي - بل إنني رايت منه نسخة في بيت أستاذ في غالاواي، وأخبرتها بأمر الناشر في نيويورك، وشرحت لها أنه كان مصمماً على الضي في هذا العمل على أي حال، سواء تعاونت معه أم لا. وبينت لها أن مخطوطة فليشر لم تكن سوى عمل مزور، وأنه في تقديره الخاص، ليس هناك سبيل لتبرئة دعة ليز موند، في ظل الظروف الحقيقية القائمة. سوى نشر أكبر عدد ممكن من أعماله الأصلية الحقيقية، وبصراحة أيضاً أخبرتها بأنه لم يكن ثمة في الأوراق التي تملكها ما يمكن أن يكون ذا نفع لي، طالاً أن خطاباته التي كان يرسلها إلى بيته كانت خالية من كل ما يدعو إلى اللوم، بالفقر الذي لابد لكل إنسان أن يتوقعه.

وفي طريقي إلى صندوق البريد قلت لنفسني أنه من المحتمل أن يكون ما أفعله الآن عملاً غيبياً. إنني لم أذكر ما أقوم به لديانا، طالاً أنني كنت وفقاً من أنها ستبذل جهدها لكي تمنعني له. بل إن ميس دنيلي قد تكتب خطاباً إلى الناشر وإلى هيئة حقوق المؤلفين تستذكر فيه مشروعني فتحجب عني كل مصادر المعلومات. ولكن كانت هذه المخاطرة لابد لي من القيام بها وتحمل نتائجها. أسقطت الخطاب في صندوق البريد شاعراً بإحساس الرجل الذي يسدد مستساً إلى رأسه بنفسه.

وفي الصباح التالي، كنت ما يزال مخدراً من أثر النوم حينما دق جرس التليفون. رفعت ديانا السماعه للوضوعة إلى جوار الفراش ثم قالت،

"ميس ألين دونيلي تريد أن تكلمك".

كانت تملكني حالة من الضجر، وشعرت بما يفريني أن اطلب منها إيلاعها أنني لست في المنزل، ولكن ضميري تدخل وحسب الموقف، وفلت أنها لو اختلفت معي، فسوف أستطيع على الأقل أن امضي في خطتي دون أن أكره نفسي.

جاء صوتها في تليفون، "هيللو. مسر سورم؟"

"هو الذي يتكلم".

"لقد تسلمت خطابك الآن نوا، إنني شديدة السرور لأنك كنت صريحاً معي في هذا الحد. هذا منتهى البرقة والدمائة من جانبك. لقد طلبت الآن لكي أقول لك أنني أقدم ما تقصده تماماً".

"أفهمين قصدي حقاً؟"

كنت مبهور الأنفاس للمفاجأة، وكنت اتساءل متعجباً عما ترمي إليه في النهاية.

"اسمع. استنتج مما نقوله أنه ليس هناك الكثير الذي نستطيع عمله مع ذلك الناشئ".

"أخشى أن يكون الوضع بهذا الشكل".

"حسناً. بالضبط. إذن فإن أحسن ما يمكن عمله بعد هذا هو التأكد من أن الأمور لن تقلت من أيدينا. علينا أن نحرص على مراقبته باستمرار. لقد اتفقت أنا وبنينا انعلينا أن نقدم كل مساعدة ممكنة".

قلت أنني أشعر بالابتهاج بالطبع. ولكنني في الحقيقة لم أكن أعرف ماذا يمكن أن أقوله أو أفكر فيه. كنت بحاجة إلى بعض الوقت لكي أستجمع افكاري ولكنها لم تمنحني الفرصة.

"إننا نود أن نناقش هذا الأمر معك، متى يمكنك أن تأتي إلي هنا؟"

"أي وقت ملائم لكما سيكون ملائماً لي".

"ما رايك في اليوم بعد عدة ساعات؟"

قلت: إنني موافق على هذا، وشعرت بموجبة من الراحة تجتاحني حينما أنهت المكالمات وانقطع خط الاتصال.

في تلك اللحظات كانت ديانا قد أعدت الشاي وكنت قد بدأت ألقمهم ما حدث. إن الشقيقتين دونيللي لا تملكان ما تفقدانه بنشر "اليوميات الجنسية" التي كتبتها إيز موند، وخاصة إذا ما استطاعتا أن شبعا المنزل. وقد أوضحت لهما أن اليوميات لم تكن مجرد أدب داعر مكتشف، وإنما قد تؤدي إلى خطوة حقيقية نحو بحث سمعة إيز موند. وأن في هذه الأيام الحالية حيث تسود الصراحة الجنسية لن يظرف أحد حفته إزاء نشرها. وكنت قد أشرت إلى منكرات بوزويل وما إليها، ولابد أن مهس إين قد قررت أنه من الأفضل لها واختها أن تدخلتا غمار هذه التجربة وأن يكونا في مقدمة المتلفين والسامعين في خوض التجربة، وبكشف عما يمكن الكشف عنه، ومن المؤكد أن الكشف الكامل عن أوراها سوف يكون نافعاً في كتابة الجانب التاريخي عن حياة إيز موند في المقدمة. ولكنها إذا كانت تامل في إقناع فليشر بدفع خمسة عشر ألف دولار أخرى في مقابل استخدام تلك الأوراق وما تملكه من مواد عن إيز موند، فإنها لابد ستنتهي بأمالها إلى الإخفاق والخيبة.

كنت أشعر بكآبة لا حد لها وأنا أعود السيارة إلى ليمريك بعد ساعات قليلة من منتصف النهار، وكنت قبل هذا قد اتصلت بكيفرين روش واستعرت منه نسخة من كتاب "عن التضاؤض العذاري". وكنت أحمل معي الآن الشرائح الأخرى من "اليوميات الجنسية"، ربما في ذلك مخطوط فليشر الأصلية. ولكنه مكان يوماً جميلاً. وكانت رائحة الهواء ملازمة وبدا كل شيء مجللاً باللون الأخضر حتى لقد مكان من الاستحيل ألا يستمتع إنر، به. وحالاً استرخت أعصابي وقررت أن أنسى الشقيقتين دونيللي، أحياناً إحساس عظيم بالنفخ والخصوبة. وبإمكانات واحتمالات العالم الهائلة التي تحجبها ميونما إلى البقاء محسورين في سجون دوافعنا الصغيرة. وتنبؤ هذا الإحساس أكثر حينما جلست لكي احتسي قدحاً من البيرة خارج دكان لبيع البقالة على بعد أميال قليلة إلى الجنوب من جورت، مصغياً إلى خرير المياه وهي تنساب تحت الجسد وتجري نحو "لوف كوتر". وهدة أصبح شيئاً غير ذي مال سوء ذهبت إلى نيمريك، أم بقيت في مكاني. سوف يستمر الماء يسيل في مجراه، وسوف تبقى على حالها هذه الشجرة بأوراقها ذات الألوان الليمونية والتي تطل على إنجري مكانها ترأفبه أو ترعاه. بدا لي واضحاً أنه يكمن هنا واحد من أغرب وأهم ما يتعلق

بالوجود الإنساني، هذه القدرة التي يمتلكها العقل الإنساني على الابتعاد بنفسه عن الناس والأحداث، وعلى التوقف عن تشبيه نفسه بالعواطف الإنسانية أو العنور على ذاته فيها، وعلى محاولة التعرف على ذاته - بدلاً من ذلك - من خلال اللانهائي وما لا زمان له، عالم الطبيعة. ماذا يحدث؟ وفنت على حافة الجسر ورحلت أرقب الماء وهو يعكس أشعة الشمس، وبدأ لي أن شيئاً ما في داخلي يسير مع سريان الماء ويجري معه في مجراه، وينطلق بعيداً في اتجاه البحيرة. وحينما عنت إلى السيارة وبدأت أقودها، أجنأني إحساس غريب وكأنما تحررت روحي من لجسد، وكأنما كانت تطير بمحاذاتي مثل طائر يطبق يحلق أحياناً في الأعلى ثم ينقض فجأة إلى أسفل من حين إلى حين، وحينما عاد عقلي إلى الشقيقتين دونيلي، كان إحساسي بالاختناق والضجر قد اختفى.

حينما رأيت ميس إيلين وهي تهبط درجات السلم لتقابلني، عبرت بي لحظات فهم مفاجئة، ولكنها قبضت على هذا الفهم بأن أخذت يدي في قبضتها الرجولية وراحت تقول: "حسناً، حسناً، من يواغت السرور أن أراك ثانية؟". ثم دخلنا إلى قاعة للكتابة ولم تكن ميس بهذا هناك. اتخذت مجلسي على مقعد مخرب ذي مسندين وكان من مقاعد القرن التاسع عشر. كان معرضاً لأشعة الشمس، تاركاً ميس إيلين تتولى مهمة الكلام. وكان علي أن أعجب بذهنها الوفاء.

كانت تقول:

"حسناً، ليس هناك ممر فيما أرى للوقوف في وجه هذا الكتاب. ومثلما قلت أنت، فإنه كان من القدر له أن يصغر أجلاً أو عالياً. وهكذا فإن أحسن فكرة ممكنة هي محاولة الاحتفاظ به بين يديك. وبهذه المناسبة، في أي جامعة كنت تعمل؟".

أجبتها بأنني لم أكن أعمل في أي جامعة، ولكنها تجاهلت ذلك وأراجته جانباً ثم قالت: "لا نعتقد أن لهذا أية أهمية. من الواضح أنك هتي من نوع كفو ودعني. فلو أنك كنت البادئ بكتابك عن إير موند، فسوف يكون على الآخرين أن يتبعوك حتماً".

كانت تسلم بدهاءة بأنني ينبغي أن أكتب ترجمة كاملة لدونيلي، ولم أكن أحب أن أحيب أملي في هذه الرحلة، وهكذا فقد أوصلت براسي وتم أقل شيئاً، وجاءت ميس تينا بالشاي والشطائر، حبتي كصديق قديم، وحينما أخذ كل منا قسطه وطبقه، قالت:

"يجب علي أن أقول، إنها كانت مفاجأة كاملة لي أن أسمع أن إير موند كان سين السبعة إلى هذا الحد. إنني لم أبدأ بهذا الكتاب الذي تدعوه "بافتراض العذاري". نطقت بهذه العبارة دون أي بادرة تدل على الحرج، فانتبهت أنا هذه الفرصة لكي أخرج الكتاب من حقيبتي أورتني، بالإضافة إلى النسخة التي كتبت بالآلة الكاتبة نقلاً عن مخطوطة الكونونيل دونيلي، وبينما كانتا تلقيان عليهما نظرات عابرة، قلت:

"تري هل يمكنكما السماح لي بأن ألقى نظرة أخرى على كتاب دونيلي؟".

ثم أنزلت "اللاحظات" والمجلدات الأربعة لكتاب "يوميات الرحلات" من مكانها، ثم عثت فالتخنت مجلساً على القعد القريب من النافذة، حتى لا أشعرها بالحرج، ومن حين إلى آخر، كنت أسمع ميس إيلين وهي تقمقم فائلة، "انظري!" ثم تدفع بالكتاب إلى ميس تينا، التي كانت ترمقني حينذاك بنظرة سريعة، ثم تقرأ بتعمق ولسانها يصدر أصواتاً متلاحقة كصعير صغائر.

فتحت كتاب "اللاحظات"، وأخرجت رسم العنقاء. رفعت الورقة لكي أعرضها للضوء، أجل، كانت هناك علامة مائية، أخفى الرسم جزءاً منها. وعندما أمنت النظر جيداً كان علي أن أصيح ما انتابني من رغبة في الضحك بصوت مرتفع. كانت العلامة المائية على شكل عنقاء!

فأرنت بين الرسم الدقيق للذي بالدوائر الدقيقة (أو ما يمكن أن يدعي بالخطوط المحفورة المتلاحقة) بصورة العنقاء المحفورة بطريقة الضغط على الغلاف. كانا متشابهين في خطوطهما الخارجية، ولكن كانت هناك ستة اختلافات. لم يكن الرسم واحداً بشكل قاطع تماماً.

حينما رفعت ميس إيلين عينيها لكي تنظر إلي، أطلعته على رسم العنقاء. نظرت إليه بسرعة ثم قالت: "أم، إنه جميل، إلى حد ما". ثم أعادته إلي. لم تكن مهتمة اهتماماً حقيقياً.

قالت ميس تينا: "هل طلعت مستر سورم على الخطابات، يا عزيزتي؟"

"أه، كلا، لقد نسيت".

ذهبت إلى الحجارة الصغيرة المجاورة، وعاشت بحزمة من الأوراق حزمت بشرائط، قالت: "خبرتني بهذا بأنك أرقت أن تعرف إن كان هناك حصر على الحشيش لطائر العنقاء في الخزانة الملوية، ولذلك قمنا ببحث دقيق، ولكننا لم نعثر على عنقائلك، غير أننا عثرنا على الكثير من الأوراق القديمة - صناديق صغيرة مليئة بها. ولا أظن أن لأكثرها علاقة بإيز موند، ولكن يبدو أن هذه الأوراق كانت خطابات موجهة إليه".

حظت عقدة الشريط بسرعة، وحانا بدأت في فصل الأوراق عن بعضها سقطت على الأرض شيء ما من مظهر مفتوح، التقطت هذا الشيء. كان رسماً دقيقاً محفوراً دون ضار، وقد رسم على قطعة صغيرة نحتت من فوهة محارة ربما كانت من محارات اللؤلؤ. كان الرسم لافتاً شديدة الجمال، وقد تدلى شعرها في حلقات متلاحقة حتى الكثرين، ولم يكتب عليه شيء.

لم تكن الخطابات نفسها بخط يد إيز موند دونيلي، وبدلاً من بعضها كان مراسلاً من شخص يدعى ثوماس والجريفي، وبعضها ممن يدعى ويليام استون، وبعضها ممن يدعى هورس جليبي. ولم يبد على الأوراق أنها كانت خاضعة لأي نظام أو ترتيب. كان بعضها داخل أغلفة وبعضها الآخر دون غلاف، ومن الواضح أن والجريفي كان قساً من نابلي، أما استون فقد عاش في سكوت. وسرعان ما تبين أن جليبي كان زميلاً من زملاء الدراسة رافق دونيلي في غوثينغين، ومن الواضح أنه كان ابناً للورد "جليبي لوف جو لسيكي" في مقاطعة شاتر لاند، وفي وسط هذه الكومة من الخطابات، كان هناك غلاف خاص لم يكتب عليه شيء، وبدخله، عثرت على قصاصة من الورق، فطلعت أطرافها بحيث تتشابه مع الرسم المحفور على المحارة، وكتب عليها بخط يد إيز موند دونيلي، "لادي شارلوت أنجستر. الأبنية الثانية لإبرل فلاكستيد". وفي داخل الغلاف نفسه كان هناك ما ثبت أنه صحيفة من خطاب كتب بخط إيز موند دونيلي. وحينما قرأت هذه الصحيفة عرفت أنني قد عثرت على شيء جديد لكاتبتي. كانت الصحيفة تقول:

"قال فولتير في قاموسه الفلسفي أن التحزب والخطأ مترادفان طالما أنه ليس هناك مكان للرأي المتحزب في الأمور التي نعرف أنها حقيقة صادقة. كما نرى عمل سبيل المثال في الهندسة أو العلم، وهو يقول أن معتقداتنا الدينية ينبغي أن تقوم على أمور تثقف عليها كل العقول. ولكنه يمضي لكي يؤكد أن كل العقول تتفق على عبادة الله وعلى الأمانة

والصلوق. وليس هذا صحيحاً، لأن البوذيين لا يقيمون بالله، وليسوعيين تحفظاتهم على مسألة الأمانة، فهل ثمة إذن أي أساس مشترك للاتفاق الديني؟

إن حجتي أيها الصديق العزيز تقوم على قولتي بأنه ليس هناك رجل ذكي لا يستطيع أن يقتنع بأن هذا العالم لغز غامض. إننا لا نحتاج إلا للحظة واحدة من التفكير لكي نعرف أن كل معتقداتنا التي ترفى إلى مرتبة اليقين ليست سوى معتقدات قامت على أساس من النعود، نطبعها مثلما نطبع قواعد لعبة "البيكييت" أو "الهيويست" من ألعاب الورق، ولكن دون دليل يبرهن أو يؤكد صحتها.

والأدبيات تؤكد أن ما يقع خارج نطاق قواعد الألعاب التي نمارسها مجهول ولا يمكن معرفته، أو أن الله وحده وللآنكة يعرفه ويعرفونه. ولكن العلم قد علمنا أن من الممكن أن نفهم أي شيء إذا كان منهج البحث متكامل بما فيه الكفاية ومنطقياً.

وقد أضيف إلى حجتي أيضاً قولتي بأن معتقداتنا التي تصل إلى مرتبة اليقين - أو أن ما نحن موقنون بوجوده - ليس مما يمكن رؤيته، وإنما مما يمكن أن يحس به، مثلما أحس الآن بلفه الشمس فوق يدي في أثناء الكتابة. وقد أقول أيضاً أن ما تعودنا عليه من محاولة الوصول إلى الحقيقة بوسائل الإبصار أو الاستنتاج العقلي، قد أعمتنا بما تحمله من طبيعتها الحقيقية، مثلما هي حالة الرجل الذي يحاول أن يعرف الفرق بين عصافير الكناري وبين الشاي البارد عن طريق حاسة الإبصار وحدها. إن لغز العالم الغامض يصبح مثلاً أمامنا في تلك اللحظات التي تنحرك فيها أرواحنا حركة شديدة عميقة أو حينما يستبد بها القلق أو يزعجها شيء ما لزعاجاً قوياً، وذلك إذا ما كانت الحركة النانجة حركة منتظمة ومثابرة. في لحظات الغموض تلك نصبح كما لو كنا قد اندرنا وجود تيار قوي يجري تحت الأرض، مثل ذلك التيار الذي سمعت صوته بالقرب من قبري، وربما نشعر أحياناً بشدة قربه منا حتى ليعلمنا حينذاك أن نسمع صوت جريانه.

إنني حينما أشكو من السام، فإنني أصبح مثل من أصابه الصمم بسبب إصابة برد في الراس، حينذاك لا أسمع شيئاً. وحينما أرقع بصري لكي أنظر إلى وجه شارلوت أنجستر، يختفي بالصمم، وأسمع صوت جريان الماء تحت قدمي.

ومن المؤكد أنه إذا كان اثنين هو ذلك الإحساس بعموض العالم والخلقية، وبضخامة
وعتداد ذلك اللغز الغامض، إذن فإنه ليس هناك من شيء يمكن أن يدلنا على الطريق القدس
أفضل من النساء والرجال؟ لماذا لا ينبغي أن يكون.

تنتهي القصاصة هنا، في منتصف الصحيفة، كما لو كان الكاتب قد قاطعه شيء ما.
ولكن كلمات "يها الصديق العزيز" بدت لي كما لو كانت توحى بأن دونيللي إنما كان
يكتب مسودة أولية لخطاب، وأنه قد قرر فجأة أنه قد يكون من الأفضل أن يشرع في نسخ ما
كتب في الخطاب نفسه وأن يكمله بعد هذه مباشرة دون حاجة إلى مسودة. فمن الذي كان
سيتمشى هذا الخطاب؟ كان الخلاف الذي احتوى القصاصة موضوعاً وسط حزمة الخطابات
الواردة من هوراس جليبي، وكانت خطابات جليبي إلى دونيللي تكثر من الاختلاف من
كلمات فولتير وفونتانييل ودالامير، كان الافتراض المعقول إذن أن يكون جليبي - وهو زميل
دونيللي في الدراسة بالكلية العليا في غوثينغين - هو من يلقى خواطر دونيللي الخاصة
وتأملاته الدينية.

كانت ميس إيلين قد وضعت نسخة المخطوطة جانباً، وراحت تنظر من نافذة
نظرة عاتمة. سألتها:

"هل حدث أن سمعت عن سيده نديي اللادي شارلوت أنجيسر؟"

حفظت الأختان معاً لدى سماعهما هذا السؤال. وكانت ميس تينا هي التي قالت بعد
أن رمقت أختها بنظرة سريعة:

"لماذا أجعل. كانت ابنة إيرلي فلاكسفيد..."

ثم توقفت عن الكلام، كما لو كانت قد شعرت بالحرج، ولكن ميس إيلين أنهت
كلام أختها بقولها، "وشقيقة لادي ماري أنجيسر التي أصبحت فيما بعد ماري جليبي".

لم تكن بحاجة إلى من يذكرني بهذا الاسم الأخير، فقد ظل الاسم عالقاً بذهني منذ
الأسبوع الماضي حينما ذكرته ميس إيلين أول مرة في التليفون. قلت:

"هل حدث أن عرفت أن إيرموند كان يحب اللادي شارلوت؟"

قالت ميس تينا، "يقولون إنه كان يحب الثلاث"

"الثلاث؟"

"لادي ماري ولادي شارلوت، ولادي موريس". قالت هذا ثم نظرت إلى أختها بصيق.
هزت ميس إيلين كتفيتها وقالت:

"أعتقد أنه سيكتشف حقيقة الأمر على أي حال"

قالت ميس تينا، "لقد كان جميعاً جميلات جداً بكل تأكيد".

"هل توجد لهن أي صورة؟"

"وه، أجل، إن الصورة التي رسمها رومني" مشهورة تماماً".

"أين هي؟"

بدت عليهما إمارات الدهشة لجهلي. وقالت تينا،

"هنا، بالطبع".

"يمكنني أن أراها؟"

نهضت ككلتاهما دون كلام، وقابتاني خارج الحجرة، وفي البهو، اختفت ميس إيلين
للقائيق قليلة، ثم عادت وهي تحمل مفتاحاً ضخماً. عبرنا البهو نحو بابين كبيرين من
خشب الماهوجني. قالت ميس تينا،

"بصير رجال شركة التأمين على أن نظل فاعة اللوحات معلقة. فإن بعض الصور
تساوي قلراً كبيراً من المال".

فتحت ميس إيلين الباب، فهبت علينا هبة من هواء بارد قوي الرائحة. أضاعت الأنوار،
فدخلنا إلى "العرض الطويل" وكان بارداً كالثلج. كانت النوافذ مغطاة بالضلف الخشبية.

(١) جورج روسي (١٨٠٢-١٨٣٤) رسام إنكليزي رومانتيكي اشتهر بطوائفه التاريخية وبصوره للوجود ولوجه
الشخصيات المعاصرة.

والشاهد والمقاعد مخفية تحت الأقضية. كان من السهل ان تصور ان أحداً لم يدخل هذا المكان منذ سنة واحدة كعائلة على الأقل. فاستني إلى صورة صغيرة نوعاً ما معلقة على لجدار الأخير. كانت الصورة بحاجة إلى تنظيف، ورغم هذا فإن ما علق بها من اترية لم يخف جمال الوجود الثلاثة. كانت الفتيات في وقفة تقليدية تبدو وراءهن خلفية من الأشجار وجزء من نبع ماء حار. وكانت شارلوت - التي رايت صورتها منذ قليل - معروفة لدى سبوتة وعلى الفور. وكان الجمال هو الشيء الوحيد الذي تشارك فيه الشقيقات الثلاث. كان وجه شارلوت بريئاً ذا خلعين وريين. كوجه أركادي أصيل. أما الفتاة الجالسة إلى جوارها مباشرة وهي تلاعب صغيراً صغراً كنف الشعر، فكان من الواضح أنها أكثر نجاة. بوجهها الناعم الرقيق المرتفع على رقبة مثل رقبة البجعة. أما شعرها القصير فكان يشبه شعر الصبيان. قالت لي ميس ثيلاً ان هذه هي ماري، التي أصبحت فيما بعد لادي ماري جليبي. أما موريين. والتي كان من الواضح أنها أصغر هن، فقد كان لها وجه لايد أنه أصبح بعد ذلك بالغ الجمال. وكانت تبدو هي الأخرى رفيقة كريمة. كان من الواضح أنها فاضلة العاطفة ذليلة القلب. من النوع الذي يمكن أن ينفجر في البكاء عند سماع قصة محزنة. استندت إحدى يديها لكي تلاطف الكلب. هذه الإشارة الواضحة الرمز إلى طبيعتها الرقة بالعاطف.

قالت ميس تبناً بكرياء: "لقد دفع إيزموند وحده ثلاثين جنيهًا لرومي في مقابل تلك اللوحة. وقد عرضت علينا خمسة آلاف جنيه ثمنًا لها".

كان يوسعي ان أرى السبب الذي دفع إلى رواج الشائعات عن وقوع إيزموند في هوى الشقيقات الثلاث جميعاً. فبعد التحديق في صورة الوجود الثلاثة لمدة خمس دقائق أصبحت أنا نفسي قريباً من الافتداع بهذا الهوى الثلاثي كحقيقة ممكنة. كانت لكل واحدة منهن مميزات خاصة تلوح على وجهها تبدو كما لو كانت تبرز وتحطفو على سطح الوجه ككلما أطال الرء التحديق فيه. لقد كان يوسعي أن يكتب رواية عن ثلاثتهن.

"الذيكن صورة يبدو فيه وجه إيزموند؟"

"آوه، أجل، لدينا اثنتان. واحدة بريشة ريبورن والأخرى بريشة رسام يدعى زوفاني".

لم توح لي لوحة زوفاني إلا بالقليل. كان الوجه جامداً لا يتم عن حركة. ممتد إلى أي اثر من شرارت الحياة. كان دونيللي في الصورة يرتدي زي الضباط متكناً على شجرة كان من الواضح أنه بالغ الطول نحيف القامة. أما الوجه فكان طويلاً، بارز الفك، مستقي الأنف.

أما لوحة ريبورن فكانت أكثر إجابة. لم يكن فيها أي ادعاء أو تظاهر. ولا تكاد تظهر فيها أية خلفية. ومن بعض جوانبها كانت تبدو كما لو كانت رسماً تخطيطياً سريعاً تهينة لرسم الصورة نفسها. ولكن ريبورن كان قد استطاع أن يقبض على تعبير يعلو الوجه ينم عن اللهفة، حيناً رسمة متطلماً إلى الأمام كما لو كان يصغي إلى قصة ممتعة. لم يكن الوجه من ذلك النوع الذي يمكن أن يقال عنه أنه وجه وسيم. كان الأنف ذو العظمة الناتئة والخدين البارزين قد جعلاني أفكر في صورة شرلوك هولمز. ولما التفت عن هذه اللوحة لأنظر مرة أخرى إلى لوحة زوفاني، رايت مميزات أخرى في تلك الأخيرة: حجم الصدغ الذي يوحي بنوع من السيطرة على وضع الوجه وما يعلوه من تعبير. مثلما يمكن أن نراه على وجه جود أصيل جيد التدريب وفقاً كالتتمثال في ساحة العرض قبل بداية السير.

وبينما كنا نقادر الحجرة - وقد تجمعت أجساد ثلاثتنا - قلت:

"أظن أن إيزموند كان يمتلك ككل المميزات اللازمة لاجتذاب حشود من المعجبين والعلفين".

"هل تظن هذا؟" وابتت على كلتيهما سمات اللهفة إلى الإجابة.

"إن هذه الحكاية عن وقوعه في هوى ثلاث من الحسان تجعله شخصاً ملانماً تماماً للحكايات العاطفية - شخصاً "بيرونيًا" تماماً، إنه شخصية أكثر إثارة للاهتمام من بوزويل نفسه".

"لقد رايت ذات مرة فيلماً عن شويان. كانوا قد صنعوا هذا الفيلم بطريقة جيدة وكنت أبكي طوال العرض" قالت ميس تبناً.

"تخيل أنهم قد يروقي لهم ان يصنعوا فيلماً عن إيزموند".

"ليمكننا أن نرجم الكثير من المال؟"

«تخيل هذا».

قالت ميس تينا، «إذن نقاسمناك الريح معنا».

«هل تعرفين شيئاً عن حكاياته مع الشقيقات الثلاث؟»

«ليس على وجه التحديد، إنه القرب إلى أن تكون حكاية عائلية».

«وماذا عن موت لورد جليبي».

قالت ميس إيلين، «لقد أصيب بالرصاص. ولست أعرف الكثير من التفاصيل، ولكن أبي فراهنا مرة في مكتبة ديلون القومية. ولذلك فإنه ليس من الصعوبة البالغة أن تراجعها. كان هناك همس حول ما أحاط بإيزموند من شكوك، ولكن أبي قال إنه ليس من المحتمل أبداً أن يكون القاتل. أتمنى أن تتولى أنت توضيح ذلك الأمر».

«سوف أبذل جهدي بالتأكد».

قبل أن تغادر المنزل، صعدت معهما لمشاهدة الخزائن العلوية. كانت شديدة الظلام، يملؤها تراب كثيف، مليئة بركام كثير من شتى الأشياء التي تراكمت عبر القرون؛ بطاقات صور مكسورة، ككشل واشكال أخرى من الخشب لا يمكن معرفة الغرض منها، قطع ثياب مخطمة، أنية اغتسال من البروسلين، حزم من الأوراق التي يمكن أن تكون أي شيء، من حسابات النزاع إلى اليوميات المفقودة. نظرت إلى هذه الحزم نظرة عابرة وقهمت ما كان البروفيسور أبوت قد شعر به بالتأكد في الخزائن العلوية في منزل هوربس، عندما أحاطت به المخطوطات، ولكن ذكرى أبوت منحتني فكرة جديدة.

«اليسيت لديكما أية فكرة عن الشخص الذي عينه إيزموند لكي يكون مشرفاً على

تراثه الأدبي؟»

نظرت إحداهما إلى الأخرى نظرة لا تتم عن شيء.

«كلا. سوف نحاول أن نكتشف ذلك».

وقبل أن تغادر المنزل قلت أنني لا بد أن أعود مرة أخرى في موعد قريب جداً لكي أنظر في الأوراق. وحينذاك - ولشدة دهشتي - قالت ميس تينا، «ليس الأبسط إذاً هو أخذها معه، يا

عزيزتي؟» فقالت ميس إلين دون تردد، «أوف، بالتأكيد». وأخذتا في معاونتي في عملية نقل الأوراق ووضعها بشكل فيه بعض الترتيب في مقعد السيارة الخلفي. ورقضنا بشدة قبول ما عرضته عليهما من دفع نوع من التامين. ورحبت أهود السيارة وأنا أشعر بما يشبه النقل يحط علي بسلب ثقتيهما. عندما أخذت أفكر في هذه الثقة، شرعت في فهم السبب. لقد كانتا وحيدتين والقرب إلى الإفلاس رغم أنهما تعيشان في ظل هذه العظمة الفاخرة مع شح الموارد والعين، دون أي احتمال لشيء جديد إلا أن يتقدم بهما العمر نحو الشيخوخة. ومن المحتمل أنهما كانتا تتساءلان أيهما سوف تغيب قبل الأخرى عن هذه الحياة. وحينما تموتان، فمن المحتمل أن يذهب المنزل ميراثاً لأحد أبناء الأسرة البعيدين من الذين يقيمون في كندا أو نيوزيلاند. ولكن كان العالم الكبير يظرق الآن إليهما. كان هناك شيء ما تحلمان به - الناشرون، تعويضات الفيلم، الدارسون التخصصيون وهم يتهاطلون جماعات جماعات لزيارتهم. وقد أرامتا أن تؤمنا بكل ذلك وأن تصدقاه. ولذلك فقد أرامتا أن تؤمنا بي وأن تصدقاني أو تقبلاني قبولاً كاملاً. وأن تنظرا إلي شيء من الود الكئيب. أما ما اعتبرته أنا أعظم العقبات - وهي سمعة إيزموند باعتبارها من كتاب الأدب الداعر المكشوف - فقد تحولت لكي تصبح شيئاً لا علاقة له بالعقبات أو المواقف، منذ أن أعلن لهما عن زيف وصف كتاباته بالأدب الداعر أو عدم معقولية هذا الوصف، وصرحت لهما بأنني أنوي أن أعلن هذا الرأي في الكتاب المنشور نفسه. كانت الأجزاء التي حصلت عليها من مذكرات دونيللي - عن طريق الكونونيل دونيللي - صريحة من الناحية الجنسية، ولكنها لم تكن أكثر صراحة من مذكرات بوزويل، وكانت قبل كل شيء، مكتوبة بأسلوب جيد.

جعلتني هذه الاعتبارات أشعر بأنني في حالة أفضل. كنت قد ظننت أنه ليس هناك فرصة معقولة لإحياء ذكرى دونيللي حينما أعطاني فلبشر مخطوطة «المذكرات». ورغم كل شيء، فقد كانت هذه نظرة مرضية.

حينما فحصت حزمة الخطابات الجديدة، عرفت أننا قد حصلنا على كتاب، سواء ظهرت أم لم تظهر أية مخطوطات أخرى لدونيللي. فإذا استعدينا مخطوطة دونيللي، كانت هذه الخطابات أكثر ما حصلت عليه حتى الآن جانبية وإثارة للتخيل.

من الصعب أن تتخيل ثلاثة أشخاص يتبادلون الرسائل ويكويون ذوي شخصيات أكثر اختلافاً من توماس والجريف وويليام استون وهوراس جليبي، إلى جانب أنهم قد

يكشفوا عن تعقد شخصية دونيللي نفسه. وكان والجريفي رجلاً من ديلين اهتماماته الرئيسية هي الفلك والرياضيات، وكانت خطاباته إلى دونيللي تهتم أساساً بهذين الموضوعين. أما استون فكان يدرس اللاهوت في إحدى المدارس البروتستانتية في عام ١٧٧٧، وهو تاريخ الخطاب الأول، وأصبح فيما بعد قسيساً في بالينكولج، بالقرب من مدينة كورك (حيث كان يقع منزل عائلته). وقد أزعجه إلى درجة كبيرة ما ظهر أنه ميلان متنافسان في شخصية دونيللي، تجاه عدم الإخلاص وتجاه "الحماس" (أي التعصب أو الإيمان الغيبي). حينما كان دونيللي يفتبس من فولثير وبابل ومونسكيو، كان استون يجيبه بحجج مستمدة من مواعظ جورثين وأوجدين، وتيلوستون وسمارليدج وشيرلوك. ولقد وجدت كل تلك حشواً لا لزوم له وكنياً إلى درجة لا تصدق - المناقشات الطويلة الدقيقة دقة من يريد أن يشق شعره بالطول إلى تصميمين. حول موضوعات التناسخ والجيرة ومقدار ما في الانحلال من حقيقة الخ. ولكن كان من الواضح أن ايزموند لم يكن يرى أن هذه المناقشات قد تكون مضجرة، ذلك لأن إجابات استون كانت طويلة مضنية، مما يشير إلى أن رسائل دونيللي مساوية لها في الطول والإطناب.

ولكن خطابات جليبي كانت هي التي تلاءمت مع ما كنت أعرفه بالفعل عن ايزموند دونيللي. فبعد أن تمت ترتيبها طبقاً لتسلسلها الصحيح (مع قدر معين من التحمين - فقد كان الكثير منها غير مؤرخ) اتضح أنها استمرت من شهر مايو، عام ١٧٦٧ حتى عيد الميلاد عام ١٧٧١. كان جليبي وايزموند معاً في غوتيفين أغلب تلك الفترة، ولذلك لم تكن مراسلاتهما مطولة كما كانت الحالة في مراسلات استون ومن الواضح أنهما كانا يتبادلان الرسائل حينما كانا يفرقان لمدة طويلة، ولكن هذا الافتراق لم يتكرر كثيراً لأنهما كانا صديقين إلى حد كبير.

أما قصة علاقتهما، وهي التي أصبحت قادراً على تجميعها من خلال خطابات جليبي فكانت كالتالي: حينما التقى ايزموند دونيللي بروسو وبوزويل في نيو شاتل، انتقل بعد ذلك إلى ميلان حيث قضى عيد ميلاده في عام ١٧٦٤. وفي شهر يناير قضى أسبوعاً في البندقية، ثم قضى أسبوعاً في مدينة غراتس. في طريقه إلى غوتيفين. وهناك تعرف على جورج كريسٹوف ليتشنيرج، الذي أصبح فيما بعد فيلسوفاً بارزاً (ولكنه كان مهتماً في الأساس في تلك الفترة بالرياضيات والفلك) كما تعرف بالفيلسوف هوراس جوردون جليبي. وكان هذا

الآخر شاباً وسيماً ذا كبر البشرة. يكاد يكون يهودي اللامح. وكانت لكنيته اسكتلندية واضحة في نطقه للإنكليزية، وكان أكبر بقليل من دونيللي، ولكنه أقل ثقافة بكثير، وكان الابن الثاني لأحد سادة الريف الاسكتلنديين جاء من المناطق غير المأهولة أو المنعصرة من تلك البلاد. كان هناك شيء واحد يشترك فيه الثلاثة، ليتشنيرج وجليبي ودونيللي، وهو الاهتمام الدائم بالجنس الآخر. وكانت غوتيفين مدينة مفتحة للزوار الشباب المترعات بالصحة والعافية، وهن اللواتي وصفهن ليتشنيرج بقوله "الخلوقات التي تتقافز مرحلة في وديان هارز أو وديان وسلينج واللواتي لم تقع أعينهم أبداً على مبلغ من النقود أكثر من التأثير الواحد. واللواتي ينظرون إلى قبعة السيد النبيل المزينة بباريش نظرة فزع بينما تبدو طلبات أصحاب تلك القبعات كالأوامر الملكية". وكانت غوتيفين بلدة ذات شهرة أكاديمية سامية، على العكس من هال أو بينا أو جيسين وهي المدن التي كانت مدينة بادعاء العلم الذين كان محط اهتمامهم الرئيسي هو البارزات ولكنها مثل أكثر المدن الأخرى في ألمانيا، كانت منظمة تنظيمياً رفيعاً، يسودها انضباط صارم حيث اعتاد الفلاحون أن يطيعوا أوامر سادتهم مع الإشارة هنا أن تلك الأماكن كانت جزء من إنكلترا وكان الملك جورج الثالث دوقاً لهانوفر بالإضافة إلى كونه ملك بريطانيا العظمى، وهو واقعاً ما كان قد دفع والذي ايزموند إلى اختيارها مقر لدراسة ولدهما. وقد ابتهج ايزموند وجليبي حينما اكتشفا أن تلك الخلوقات النخبة لم تكن بحاجة إلى الإغواء مثلما كانت الحالة مع الفتيات في الوطن. ويذكر جليبي في أحد خطاباته أن ليتشنيرج اغضبه باتهامه إياه بأنه كان يسعى إلى اقتضااض ككل عذراء في مقاطعة هانوفر. استعداداً لأن يقضي حياة كاملة من الحرمان حينما يقدر له أن يعود إلى وطنه الطهري المنزمت.

ولكن جليبي كان ليله إذا ما قورن بايزموند، أو أنه كان رجلاً ضيق الأفق، وقد سيطر عليه ايزموند سيطرة كاملة، ومن الواضح أن جليبي قد آثار تأثيره استاذ لهما يدعى كاستنر حينما قال له أن ايزموند واحد من أعظم العقول في أوروبا بعد موسر مندلسون. (وبعدها، اعتاد كاستنر أن ينادي ايزموند ساخراً باسم "الأستاذ الأعظم") وكان ما سحر جليبي في شخصية دونيللي هو ما كان يتمتع به من جمع بين الحيوية الجسدية والسمو العقلي. كان ليتشنيرج شديد الذكاء واسع الثقافة، ولكنه أيضاً كان ضعيف الجسد عاجزاً كالأحجب. كان ايزموند يملك مؤهلات كبيرة وجيدة في استخدام السيف، وكان فارساً جيداً وسباحاً ممتازاً، ومحباً إلى النساء، كما كان أيضاً قريباً من أن يكون شاعراً وفيلسوفاً

ومتمسوها. أما جليبي فكان قد خضع لسيطرة ابوية شديدة الوطأة. وكان مهالاً لأن يكون غنياً مقهوراً. وفي غضون شهور قليلة كان دونيللي بصفة بانه "نموذج للشهامة والشهوانية والإغواء والبناءة والعناد والقدرة على النزاع العذاري". ولكن سرعان ما تملكهما الضجر من خدومات المدينة ذوت الأجساد الضخمة، وسرعاً في توجيه انتباههما إلى بنات الأساندة وغيرهم من المواطنين المحترمين. ومن الواضح أن الدهشة قد تملكتهما وغمرتتهما البهجة لما نقيده من نجاح. وكان ايزموند أن يتعرض لخطر كبير على اثر علاقة كانت تتحول إلى لزواج من الابنة الصغرى لتأسيس في بلدة ثورتين هاردينغ. وهي الآنسة أولريكادوسان. ولكن غنياً لا نفترض أن ايزموند وجليبي لم يكونا يقرقان أبداً. ومن الواضح أن جليبي ما كان يمكن أن ينتهج لوانتهما الفرقا. ولكن ايزموند كان بهتم أيضاً بقراءة كتابات وبنارسة الرياضيات والفلك. ويشير جليبي إشارات عديدة إلى إهمال ايزموند لشأنه. ولكنه كان يعجب بآيزموند إعجاباً حاراً حتى لقد كان على استعداد لأن يقبل أي قدر من انتباه يمكن أن يوليه ايزموند له.

إن الخطاب الذي أرسله جليبي إلى ايزموند في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٦٠ خطاب نموذجي حقاً. أنه يستهلك صفحة ونصف صفحة من الشكوى من أن دونيللي قد أهمل دعوته له لتعضية عيد الميلاد في منزل الأسرة بالقرب من جلوسي، وفي وصف مباحث الرحلة شمالاً في اواخر شهر نوفمبر. ولابد من قراءة وصف جليبي للطعام الذي اتهم في يوم عيد الميلاد حتى يمكن للقارئ أن يصدق أن هذا هو ما كتبه بالفعل. لقد بدأ الطعام في تسابعة والنصف صباحاً بإفطار من شطائر الشجر والسالمات السلون السلوفة، واللحم القلي ولحم سيقان الخنزير. والحلوى والفواكه السكرية. ولكن الموضوع الرئيسي في الخطاب - بشكل حتمي - كان متعلقاً بوصف مغامراته الغرامية في أثناء العطلة. "كنت قد قررت في البداية أن علي أن استعوز على كرم فتاة تدعى ماجي ماث بين. وهي ابنة أحد الفلاحين الذي يؤجرون أرضنا. والتي كانت قد أعربت عن بعض المشاعر الرقيقة تجاهي قبل أن اعاد التوبة، رغم أنها كانت قد أقسمت في ذلك الحين أنها تفضل أن تموت على أن تفقد احترامها لنفسها". وقد ثبت أن الانصاض ماجي كان أسهل بكثير مما كان يتوقع. وقد تم ذلك في أحد مخازن الحبوب بعد حفلة رفص كان السيد الشاب في إثنائها محور اهتمام الفتيات كلهن. (وهي مثل هذه المنطقة النائية، يحتل السيف باجراته ومؤجري أرضه بحرية كافية). وشعر جليبي بنوع من الإغراء يدفعه إلى مواصلة قصة غرامية مع ماجي.

الأمر الذي كنت جديراً بأن أقوم به في الماضي دون أي تفكير. ولكنني في هذه المرة رجعت نفسي على ضوء مبدئك العظيم القائل بأن الهدف الأساسي في الحياة هو تحقيق نوع من طراحة التجربة وجديتها. وكان علي أن أعترف بأن رغبتني في الفناء كانت تفقد حرارتها تدريجياً، وأن رؤية هبته الحريرية الخفيفة وإزارها الملونة لم تعد تؤدي إلى تأثيرها القديم وقد حاولت دون نجاح أن أكرس عقلي للدراسة."

"وفي اليوم الثامن والعشرين عادت شقيقتي ماري (التي قابلتها أنت في بيرث) من تكينكاريين. حيث مكثت قد قضت عيد الميلاد مع فيونا غوتري وهي ابنة صديقة ليليد لامي. وأخني كما تعرف. تحيفة ضئيلة الحجم بالنسبة لسنها (الرابعة عشرة) ويمكنني أن أقول. دون تكرياء لا مبرر له. إنها تحبني بنفسه لم أفعل أنا سوى القليل لكي استحقه. وقد أحسست بما يشبه الصدمة حينما اكتشفت أن فيونا قد تعرت إلى درجة عظيمة في أثناء الثمانية عشر شهراً التي انقضت منذ رأيتهما آخر مرة. إنها تمر بتلك المرحلة الساحرة حيث تبقى أفكار وأساليب الطفلة. بينما يكون الجسد حسداً امرأه. إنها تملك وحياً ساحراً ورياءً وشقة عليها العصر بكثير من رقيقتها الأمر الذي يعطي لقمها شكلاً بارزاً قد يظنه البعض نجماً على سبيل الخطأ. كانت في طفولتها أقرب إلى الصبيان في ألعابها وسلوكها (إنما جردنا هذه العبارة من كل ما تدل عليه من عدم تواضع أو رقة) ولطالما تعاركت معها وصارعنا وأمسكتها من ساعديها بقوة. أما الآن. وطالما أنها أصبحت على مثل هذا الجمال، فقد قررت أنني قد أفعل ما هو أسوأ من اتباع نصيحة مسر شتيرن فأنشئ علاقة عاطفية معها. حتى ولو كانت من جانب واحد إلى حد ما.

(لقد وضعت أنا هذه النقاط في الأماكن التي يبدو فيها من كلامه نوع من الانحصار في نواحيه. طالما أنها لا تؤدي إلى غرض ما. وقد ثبت أن هذا كان أكثر سهولة مما توقعنا. ذلك أن كل ما كان علي أن أفعله هو أن أعاملها مثلما أعامل ماري. باهتمام كثير وبود أخوي. إنني أقول لك في أمانة كاملة أن أفكاري حتى تلك اللحظة كانت برينة إلى الدرجة التي يمكن أن يمتدناها الراعي الصالح جاييس. كانت في حجرتهما مدفاة جيدة. وقد قضيت هناك ساعات طويلة أحسنها أحياناً من الشاي وأصف لهما عادات هانوفر وأهلها. شاعراً بالعالم كله مثلما كان يشعر به عطيل الغربي. ولقد وجدت أن الانتباه الرقيق الصادر عن هاتين الطفلتين أكثر إمتاعاً ومسرّة من دراسة فلاكوس وأقنعت نفسي في لحظة ما بأن

هذا هو ما عناه روسو وما كان يفكر فيه عندما تحدث عن الذئبم الثاني الذي تهبنا إياه طبيعة.

"ولكن للأسف، لقد لقيت مشاعري السامية هزيمتها الأولى في اليوم الثاني من العام الجديد، قبل حوالي نصف ساعة من تناول العشاء. كانت الفتاتين تلعبان حينما دخلت الحجرة، وحينما اشتركت في لهوهما، لم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظة اهتزازات ردي فيوننا حينما هفزت فوق السرير لكي تهرب من ماري، ولا شكل سمائتي سافيتها الجميلتين حينما تحولت إلى الأمام مرة ثانية. وحينما مدحت ما طرا على شكل جسدها من غير، ثم بيد عليها الحرج، وإنما ضحككت على ما قالت، وقالت ماري أن السبب يرجع إلى تناول الكثير من اللحم السمين. وبعد ذلك طلبنا متى أن اقرأ لهما من كتاب "جورنيسون"، الأمر الذي قيمت به تلبية لسؤلتهما، جائساً أما نار اللقاة على البساط السميك، بينما جلسنا إلى حوارتي تحيطان التوبين الأزرقين من الموسلين اللذين كان عليهما ارتداؤهما في حفلة الرقص التي ستقام في "ستراشبيرغري" في شهر فبراير. وبعد قليل، استغرقت ماري تماماً فيما كانت تسمعه حتى لقد ألقى بالثوب جانباً ووضعت رأسها على حجري مائة سافيتها لكي ترفعهما على مقعد صغير قريب. وبعد لحظات قصيرة حلت فيوننا حذوها. ثم تحركت ماري إلى أعلى بطريقة جعلت خلفية ثوبها ترتفع فوق فخذيها، كاشفة عن أجمل سافين رأيتهما في عيد التبلاد... وحينما دق الجرس يدعو أهل البيت إلى العشاء، انتهجت حينما لاحظت ترددها في التهوؤ، وتظاهرت بأن هذا الزيت كان لأنها غرقت في النوم. ولكنني أنا، الذي كان يوسعي أن أرى حركات جفونتها، أعرف الحقيقة.

"في اليوم التالي لم يقع المزيد من التقدم، لأن الوزير كان يريد أن يرد على دعوتنا، ثم اختلما أبي وأخي موراي في نزهة بالعربة لكي يطلعاهما على منظر أبراج قلعة داتروين. ولكن حينما رأيت فيوننا قبل أن نتناول طعام العشاء، قالت، "لقد اقتقدنا قرأتنا اليوم. عليك غداً أن تقرأ ضعف ما قرأتاه أمس". جلبتها قريباً مني وشركت يدي تتجول فوق ظهرها. سألني عما أفعله، فقلت، "أرى حكم من الأوزار غير منبث في موضه".

"كان اليوم الثاني، الأربعاء، مشمساً وبارداً، وكان "اللورد" جلبي بالخارج طيلة اليوم في طلب سيدة عجوز تملك أمر الغنامها، وحينما آخرتني جامي هذا الحبر، قلت له أنني ساستمر في النوم لكي أتناول طعام إفطاري، وأطلب الماء الساخن في العاشرة. وبعد ذلك بقليل،

وبينما سكنت في شباب نومي وألفاً أؤدي تمرينات الصباح، دخلت ماري وسألني إن كنت أحب أن أتجول معهم في غرف القصر الخالية. وسرعان ما جاءت فيوننا للبحث عنها، وأعجبت الاختتان بشماش قميص نومي الذي كان واحداً من تلك القمصان التي اشتريتها في ستراسبورج من سوق الخريف. وحينئذ قصت فيوننا حكاية عن خادم يعمل لدى عمها الذي كان يجري وقد ارتد أكمام قميصه دون قميص حقيقي لكي يعد ثلاثة للضيوف. وقالت له إن يرتدي سترته فأجابها، "بالطاكيد يا سيدتي، ولكن السرة تحمل كثيراً من الأشياء الصغيرة التي تجري هنا وهناك. وقد نزعناها الآن لنوي، وأنا أكره أن أخلع سرتي وصدايري. ولا أدري إلى متى سأظل قادراً على تحمل هذه "الأكمام" الباردة." وضحكنا جميعاً على هذه الحكمة. ولاحظت في رصا وكيف أنها نظرت إلي وأنا في هذه الشياخ الليلية دونما حرج يزيد على ما قد تشعر به ماري، الأمر الذي دلني على أنها تفكر في مثلما تفكر في أخيها الشفيق، وهكذا، قبل أن استاذنهما في الخروج، لكي أرتدي ملابسي، أحطت خصر كل منهما بذراع وضغطتهما إلى صدرتي، ولاحظت أن امتلاء فيوننا قد يحفظ للرجل دفنه دون حاجة إلى قميص للنوم.

"ليس علي هذا، يا عزيزي سيد، أن أصف الصباح وصفاً حكاملاً، وإلا لأصبح هذا الخطاب في مثل طول موعظة من مواعظ مار بورنون. ولذلك قدعني أكتفي بالقول أننا قد فرحنا وضحكنا كثيراً، واشتهزت أنا بكل فرصة لكي أطارد كلامهما، من أجل أن نشعر بالدفء في ذلك الجناح البارد من القصر، ولكي أجعل فيوننا تتعود على أن تألفني. وكان علي بالطبع أن أكرس الكثير من انتباهي لماري، لكي لا أثير الإحساس بالمنافس بينهما ولكي أجعل فيوننا تتقبل لسائي كشيء طبيعي. ولم ألق في هذا المجال أية مقاومة، لأنهما جميعاً كانتا تتمتعان بروح رياضية عالية. لسوف تسجل ملاحظة عن الدرس المستخلص من كل هذا يا سيد، لكي تضمنتها تاريخك. إن المؤلف هنا يكشف عن حقيقة وصدق ما يؤكد ليتسنرع من أن للشاعر والأحاسيس تتداخل وتمتزج مثل المواد الكيميائية. لقد كانت ماري شقيقتي، وقد انتهزت كل فرصة لكي تؤكد ذلك لفيوننا، كما لو كانت شيئاً قابلاً للاقتراض. وقد قبلت فيوننا هذا القرض وما تبعه من أنواع الرعاية والأهتمام الأخوي. وأنا كنت الآن قد حصلت على تصريح بأن أعامل فيوننا مثلما أعامل ماري، فلم يكن علي حينذاك سوى أن أعامل ماري بالألفة التي أريد أن أعامل بها فيوننا حتى أجعل الأمر كله يبدو طبيعياً دون الاعتعال.

"وقد ظهرت ميزة هذا الوضع في وقت لاحق لعصر ذلك اليوم، حينما ذهبت إلى غرفتكما لكي أقرأ لهما من كتاب "جرانيسون". كنت أعرف أنهما يتويان تجربة التوبين الأزرقين من التوسلين قبل القيام بخياطة الأشرطة. ولذلك فقد ذهبت مبكراً. كانت فيونا ما تزال تخطط ثوبها، ولكن ماري وقعت في قميصها الداخلي، تحاول أن تجرب مشداً مصنوعاً من عظام الحوت. وطلبتا مني أن أقدم النصيح من وجهة نظر الرجل، الأمر الذي قممت به بسعادة بالغة، بينما كنت أساعد ماري في شد أربطة الشد. قلت لهما أن نساء باريس في البلاط الملكي، يفضلن ارتداء ثياب ترك صدورهن مكشوفة عارية...

وبعد ذلك ساعدتهما في ارتداء الثوب، وتحدثت مثل مليونير عن الخاسن النسبية لكل من المواد المعدنية أو العظام في صناعة الأزوار، وعن محاسن اتخاذ بعض الفرز المثبتة فوق عروة الأزوار!

"حينذاك، كانت فيونا قد وضعت إبرتها جانباً. فسألتها إن كانت تحتاجني لكي أفك أزوارها، هذه الأزوار التي كانت بين نهديها هذه الشرة. وبدا عليها الخجل، ولكن ماري المخلصة لي أكتفت - مثل تاجر شرقي ذكي - أنها لن تفور أبداً بمثل هذا الخادم للغرب، وبناء عليه، دخلت الفتاة في جو اللعبة، فسمحت لي بأن أفك أزوارها وأن أحذب ثوبها إلى ما تحت الكتفين، وفي هذه المرة لم أسمح لنفسى بمزيد من الحريات مع الكرتين الناعمتين اللتين كانتا مكشوفتين أمام عيني، لأنني شعرت أن ماري قد تجتاحها الغيرة، وبدلاً من ذلك ساعدتها على ارتداء ثوبها الأزرق...

"دخلت الخادمة لكي تزود النار بالخشب، فجلست على مقعد وتظاهرت بالانغماس في قراءة كتاب ما. ولكن حالما أصبحتا وحيدتين مرة أخرى، أقرحت أن نعود إلى قراءتنا قبل أن يسود الظلام (لأن الساعة كانت بعد الرابعة). قالت ماري إنهما لا يبدأن تبدلاً ثيابهما أولاً، ولكني قلت لهما أن الأمر لا يستحق هذا التعب، وأنهما على أي حال يمكن أن تعرفا إن كانت مادة نسيج الثياب من النوع القابل للتكسر أم لا. وأقنعتهما تلك الحجج، فجلسنا إلى جوارى على البساط السمين. وحالما بدأت في القراءة، عادت ماري فوضعت رأسها على حميري، وسرعان ما حدثت فيونا حنوها وتخذت كل منهما وصفاً لا يسمح لهما برؤية الأخرى، لكنني اتخذت إجراءً فإني أضافياً ضد التلصص المتبادل بأن اسندت الكتاب إلى راس ماري بحيث يمكن أن يسقط إذا هي تحركت. وبمكنت أن تلاحظ أن هذه الحيلة تركت يدي

ككثيها حرتين، وفي هذا الوضع شعرت وكأنني مشهود "محتور" بين جرانيسون الفاضل وبين زهرتي الشائنتين. ولما كانت فتحة ثوب فيونا واسعة هابطة إلى أسفل، والظهر مفتوحاً، فلم تكن هناك مشكلة في أن ادس يدي إلى ما وراء الإبط، ثم إلى ثديها الأيمن، ثم حركات جلدها تحت ملاطفتي أن هذا التقدم لن يكون موضع الرقص... وحينما بدأت الصخط على الحلقة اليمنى، لم يكن بوسعني أن أحكم على النتيجة إلا من ترايد محل نفسي شهيقاً وزهيراً، وجئت في ذلك بهجة كبيرة حتى أنني بعد قليل، حرصت يدي إلى فمها وضغطت على الشفة السفلى، ثم لعبت بها قليلاً بين إبهامي وسبابتي، وأطبقت هي شفتيها حول أصبع السبابة، وراحت ترضعه كما لو كان حلقة جلق صناعية تعطي له لكي يها حتى يأتيه الطعام. وحينما تعبت من هذه اللعبة، دس يدي إلى صدرها مرة أخرى، ولكنني توغلت هذه المرة تحت الجانِب الأمامي من الثوب...

ثم قالت فيونا، "لقد ساد الظلام بدرجة تمنع القراءة، حدثنا عن غوتبين"، قلت "ماذا تحيان أن تعرفها؟" قالت: "أحك لنا مرة ثانية حادثة قتل الطفلة مع الرحالة". وهكذا تنفست عدة مرات بعمق حتى أستعيد سيطرتي على نبضات قلبي، ثم أعلنت عليهما الحكاية القديمة العنادة..

"كننا نعرف جميعاً أن الجرس سرعان ما سوف يندق، وأضاف هذا إلى متعنا متعة أخرى... وحينما قلت: "سرعان ما سيحين وقت العشاء" فغمضت فيونا نافذة الصبر. وجعلني هذا أقرر أن الوقت قد حان للتقدم إلى الأمام. سمحت للبد التي استقرت على ردف فيونا أن تتحرك إلى أسفل، وجذبة جانباً فماش الثوب. وبعد لحظة واحدة، كانت يدي مستقرة على مؤخرتها العارية، مبتهجة بنفومتها ورقية استدارتها. ومن المؤكد أنها كانت شيئاً ممتع اللامسة، حتى لقد كان بوسعني أن استمر في ملاطفتها حتى دق الجرس...

"أسرعت هابطاً إلى مائدة العشاء وحينما سألني الوالد عن الفتاتين قلت أنني لم أرها. ثم أرسلت جامي إلى الطابق العلوي لكي يدعوهما. هبطا بعد أن ارتدت كل منهما ثوباً آخر. واعتذرتا بالنوم أمام نار المدفأة.

"والآن يا صديقي العزيز، وأنا اختتم هذه الرسالة الجرانيزونية، يجب علي مرة أخرى أن أتي على التعاليم المهمة التي أدت إلى هذه النتائج المرضية. فإن الرجل الذي

يستطيع أن يمضي ساعتين منكباً على مثل هذه النشوة السامية إنما يكون قد مارس جانباً من حالة الآلهة، ولابد أن تصبح روحه أكبر بعد تلك المادية".

وينتهي خطاب جليبي بصفحة ونصف صفحة في تأملات من هذا النوع. وإن اقتطف هذه التأملات لأن في أسلوبها الكثير من القفزة الناتجة عن التفاخر، ولا تصل إلى مستوى الجزء السابق من الخطاب. وإلى جانب التأملات، يؤكد في النهاية أنه سوف يستفيد مما حققه من نجاحات، وأنه سيعمل على استكمال العمل الذي بدأه. ولكن فشله في ذلك يظهر من خطاب مكتبه في شهر يونيو التالي، حيث يهين نفسه لأنه لم يكمل خطته، "لأن التفكير في التعقيدات التي كان يمكن أن تنشأ يجعلني أعرق وأهتز من الخوف والألم" وأظن أنه يشير بساطلة إلى التعقيدات التي لابد أن تنشأ من وقوعه في هوى فتيات بريئات براءة كاملة ويعيدت بعداً كاملاً عن أي ثقافة. وقد أصبح عتيقاً لفيونا في عام ١٧٨٠، أي بعد تاريخ كتابة ذلك الخطاب بعامين.

- ١٢ -

□ لقد اقتطعت الفقرة السابقة على طولها لأنها توضح أشياء كثيرة، هناك أولاً، الإشارة إلى "النعائم اللطيفة" التي توحى بأن جليبي يعتبر نفسه تلميذاً لأيزموند في مثل تلك الأمور. هل يستطيع أحد، في الحقيقة، أن يقبل كل ما كتب عن عصر ذلك اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٧٦٧؟ كان مهلي الأول هو أن ارفض الكثير منه باعتباره نوعاً من الإعراب عن رغبات كاذبة أكثر منه استعادة لأحداث وقعت بالفعل، وعلى أنه يشبه - بوجه خاص - مجموع تطور الفقرة التي تشير إلى ما كان للأخوين كيريبيون وكليلاوند من نفوذ وثأير. ولكن ظهر لي بعد هذا أن جليبي لم يكن ذلك الرجل الماهر، بل إن بعضاً من التعبيرات اللينة في الخطاب كانت مستعارة من أيزموند نفسه، والحق أنه قد ينسفي للمرء أن يقول أن الأهمية الرئيسية لتلك الخطاب هي أنه يكشف عن مقدار ما تأثر هوراس جليبي بطنج أيزموند وشخصيته. هكذا بل إنني أعتقد أن ما حدث هنا كان أكثر أهمية بكثير. لقد كان جليبي - مثله في ذلك مثل أكثر النبلاء الضبان في أيامه - شديد الميل إلى النزعة الجنسية الشهوانية منذ سن مبكرة، وهو يذكر في مكان آخر أن زوجة أحد الفلاحين قد اغتوه وهو في الحادية عشر من عمره، ويذكر في مكان ثالث أنه قضى أسبوعاً سينا للغاية

- ١٤٣ -

حينما استغرقت الدورة الشهرية لغنائه ولأنه أضلّ مما ينبغي. ولكن كان شهوانياً بطريقة لا حياء فيها، مولعاً بقصر من أرواف الخادومات، وكان سريع الضجر دافع الكفة على الفتيات اللواتي ينتمين إلى طبقته، وكان يحبس لسانه في فمه تماماً مع النساء اللواتي يعجب بهن حقاً. كان أبوه يقسو عليه ثم فرض عليه حمايته من بعد ذلك، كما كان في تعب مستمر مع شقيقه الأكبر (الذي مات في عام ١٧٧٠ بالتسمم الكحولي، بعد أن أخذ يشرب البرندي والمادريا طوال ثلاثة أيام متواصلة في رهان) ولكنه لم يكن يعرف أمه التي كانت قد انفصلت عن أبيه قبل هذا التاريخ بعشر سنوات لأنه ضربها بسوط من سياط الركب. كان هوراس جليبي أحد سادة الريف المتخلفين عاطفياً. ثم حدث أن التقى بأيزموند الذكي المتوقف، الذي ربما كان أكثر منه تضجاً بما يعادل عشرين عاماً من التجربة. ولست أظن أن هوراس جليبي كان شاذاً جنسياً، ولكنني أظن أن الطريقة الوحيدة الثلاثة للتعبير عما حدث في غوتيفين هي القول بأنه قد وقع في حب أيزموند. لقد أخذ عنه أفكاره، وأسلوبه في التصرف، وأسلوبه الأدبي، والأشياء التي يشغل بها نفسه، كان الأمر يشبه الوضع بين "الأسطى" المعلم الكبير. وبين صبيه الذي يتدرب عنده ويتلقى أسرار الصبغة والحرفة. كانت النساء يتنهذن ويستسلمن كما لو كان ذلك بسحر ساحر. وكانت المسألة كلها تحمل طابع خاصية منهشة أشبه بتحقيق حلم من أحلام اليقظة. وعندما عاد إلى "جلوسمي هاوس"، عاملته الفتيات كما لو كان بطلاً مظفراً عائداً من الحرب. وعلى الرغم من أنه كان يعيش على بعد أربع مائة ميل أو نحوها عن "حبيبه" فإنه راح يعيش ويفكر كما لو كان لا يزالان معا في غوتيفين. وبدلاً من أن ينام مع كل فتاة يقع عليها بصره، فرض على نفسه نظاماً قاسياً، وراح يدرس هوراس وأرسطو. ثم عقد عزمه على إقامة علاقة "عاطفية". أي أنها علاقة بصعده وعلى قدر من التباعد - مع صديقة شقيقته الجميلة - وإن كان يقيم تلك العلاقة فإنه كان يستلهم نوافيس وبيو ودوسون وعدداً آخر من الرومانتيكيين الذين وقعوا في حب فتيات في سن الطفولة. ولما ألهمته مثله العليا وأفكاره، أصبح قادراً على تجاوز حدوده الضيقة والارتفاع عنها. ولكنه عاد بعد ذلك - برهاناً على أن الآلهة ما تزال معه، وأن السحر يعمل عمله دون شبهة في الفشل كما كان ابداً - عاد فتيين أن هاتين الطفلتين تعجبا به مثلهما أعجبت به ماضي ماصكبيد والقرويات الأحريرات، وأنه يستطيع أن يلعب بالنار. معرضاً حتى لباب قلبه للحريق، ويظل حلم اليقظة دون أن يقطعه أو يحطمه أحد. لم يكن لديه أي اهتمام جنسي بشقيقته، فقد كان يعرفه جيداً جداً. ولكنهما مثل أوراق الأشجار، سقطا في

- ١٤٤ -

دومة حلم فيقطة. ومن مركزه الساحق كالأللهة. كان باستطاعته أن يختار ما يصلح... ولكن كان من الحكمة - من جانب والده - أن يضع الفنانين في سرير واحد. وانقضت أيام العطلة. وفي منتصف يناير، بدأ رحلة العودة إلى غوتيفين. متخذاً الطريق الطويل والشاق لئلا يشدان من أجل أن يسافرا مع ليزموند بدلاً من أن يسافرا بالطريق الأقصر والأقل مشقة من "ديدي" إلى "سوكسهافين".

.. كان باستطاعة لور أن يدرك من أن طول الخطاب وما حسني به من تفاصيل تلك الكبرياء المتفجرة التي شعر بها جليتي وهو يكتب تقريره إلى معلمه. بأن الرجل الذي كان وجهنا، من دون أن يكون معه من ينصحه أو يوجه خطأ، اجتاز الامتحان بأحسن العلامات الممكنة..

وعلى الاعتراف هنا أن خيبة الأمل كانت هي استجابتي الأولى إزاء خطابات جليتي. كما أن مشاعري إزاء دونيللي عانت - بتأثير تلك الخطابات - فعمرت بأزمة هبوط من تلك الآلام الدورية السابقة. ولكن من الضروري أن أوضح هنا أنني لم أرفض تلك الخطابات في البداية على أساس أخلاقي - مثلما سيعرف ذلك أي قارئ لكتابي "اليوميات الجنسية". لقد كنت دائماً - مثل دونيللي - مسحور اللب بمشكلة الجنس. لأنها تبدو كما لو كانت تحتوي على الفتح المؤدي إلى أسرار نوع من الوعي أكثر عمقاً. ولقد سيحضر علي دائماً شيء كالهاجس للنسل عن الكيفية التي تبدو بها التحررية الجنسية وكأنها تنزلق من بين الأصابع كالزئبق أو الذهب المسحور في الحكايات الخرافية. ولابد لي هنا من سرد - مكرراً - عدداً من التجارب الأساسية التي تبدو لي أنها تحتوي على مفتاح هام يؤدي إلى الكشف عن ذلك الغموض.

في عام ١٩٥٥ كنت قد قضيت بضع أحد تلك الأيام في الفراش مع فتاة تدعى كيارولين. وهي طالبة في أحد معاهد الدراما كنت قد تعرفت عليها عن طريق جيرنود كوينس. وقد كانت كيارولين - ولم أعرف ذلك سبباً حقيقياً - واحدة من هؤلاء الفتيات اللواتي بولدن عندي مستوى جاداً إلى درجة غريبة من مستويات الشهوة. أي من الرغبة الجنسية المجردة من أي شيء آخر. وقد قالت لي ذات مرة، إنني حينما مارست الجنس معها فتأهلت هي أحياناً بأنها كانت تفتصب. وإن هذا قد زاد من متعتها. وقد جعلني هذا أتبين بطريقة تكاد تكون لا شعورية، بأنني كنت أظهار باغتصابها، فأعاملها تماماً مثلما يعامل

وجعل جانح قطعة جيدة الطهو من اللحم، فيقضم. ويتنهم شهية مفتوحة كشهية حيوان وفي عصر ذلك اليوم بالذات، مارست الجنس معها سبع مرات. كان الأمر أشبه بمباراة. وبعد إحدى هذه المرات عبت من الحمام، فوجدتها جالسة بسروالها الداخلي، وهي تحاول أن تربط مشبك حمالة صدرها. دفعتها على ظهرها فوق الفراش. وجنست ساق السروال، وولجتها بحركة واحدة تقريباً. ومرة أخرى فيما بعد. وحينما كانت قد ارتدت كل ثيابها وكنا على وشك الانصراف مارست الجنس معها مستنداً على الباب. كان هناك دائماً عنصر من الصدمة والمفاجأة في التحامنا.

وبعد ذلك شعرت بالإحباط الكامل. والاسترخاء الشبيه باسترخاء المتعب الهادئ النفس. كلما لو كانت كل رغبة جنسية في داخلي قد قضيت تماماً وحقت. حتى أستطيع أن أركز ذهني على أشياء أكثر أهمية. فتحت الباب بعد ذلك وخرجت لكي أتناول زجاجة اللبن من على عتبة الباب، وكنت أسكن في شقة أرضية في أحد المنازل. وكانت هناك فتاة تسير في الطابق الأعلى بمحاذاة سور الدرج الحديدي قريبة منه إلى درجة أنني كنت قادراً على إلقاء نظرة خاطفة إلى ساقها حتى أطراف جواربها العلوية. كان هذه النظرة مثل ضربة قوية على أعلى للعدة. تبينت مصدوماً أن رغبتي الجنسية لم تكن قد قضيت. لم يكن قد قضى سوى قضوي الباسر ورغبتي المؤقتة إزاء كيارولين. كان من الواضح أن السر لا فرار لها

ونحقت من الشيء نفسه بعد عدة شهور. حينما كنت في طريقني لكي أمضي الليلة مع كيارولين والتي كانت في ذلك الوقت تشترك في شقة واحدة مع صديقاتها. دخلت محلاً لبيع حاجيات النساء لكي أشتري لها زوجاً من الجوارب. وفي المكان الذي وقفت فيه من المحل. كانت ورائي مجموعة من تلك "الخانات" ذات الستائر التي تجرب فيها النساء ثيابهن الجلدية. التفت بطريقة عارضة، فرأيت أن سيدة كانت داخل إحدى تلك الخانات. وقد أولتني ظهرها. من دون قميص داخلي. ومرة أخرى، تملكني صدمة الرغبة الهائلة. ورغم أن المرأة كانت متوسطة العمر. كما تبينت حينما التفتت. وفي ظل ظروف عادية ما كنت لأولئها اهتماماً لثانية واحدة. وعندما هممت بمغادرة المحل. تملكني إدراك قوي بأن نيللي مع كيارولين لن تخلص هذا العمق مع الاستجابة الجنسية ولن تبلغ أطرافه.

وقد أدى بي ذلك إلى تكوين فكرة تقول بأن الانحرافات الجنسية إنما هي محاولة للهروب من ذلك الجوع العريب الذي لا يشبع والذي يكون عنصراً أساسياً من عناصر الفعل الجنسي الطبيعي. إن "الوقوف" الخاص بالفعل الجنسي العادي هو ما ينتج خيبة الأمل. وهناك قصة الطبيب النفسي الذي يصح رجلاً غنياً بأن يغمض عينيه وأن يردد آثراً بعد آثراً "إنها ليست زوجتي، إنها ليست زوجتي". تقوم كتلة أشكال الانحراف على إضافة عنصر من عناصر "الحرام" إلى الوقوف الطبيعي. على الفتاة أن تسير حيلة ودهاباً وهي ترتدي جوارب سوداء، وهكذا. وقصة الكولونيل دونيللي عن قيام الخادمة بضربه تؤدي إلى نفس النتيجة. وقد تكون هذه الخطوة كئيبة أو على شيء من النجس إلى الدفع الجنسي، طالما أن أي شيء يمكن أن يكف عن أن يكون محرماً طالما أنك استطعت - مرة واحدة - أن ترفع شخصاً آخر بيان بشاركتك في حلم البقطة. عندئذ يصبح الجنس مطاردة لا تنتهي لهذا لا يكف عن الابتعاد..

ومنذ خمسة أعوام، وفي بديلين متحدثين، وقع حادث يمكن وصفه بالعارض والصغير، قلب هذه النظرة رأساً على عقب. كنت أسير في مكتبة صكليه تريتي، حينما قابلت فتاة تخرج من مكان ما. كانت ترتدي جوارب بيضاء اللون. وشيء ما في وجهها صدمني صدمة هائلة. لم أكن قد رايتها قبل ذلك أبداً، وحاولت لمدة عشرة دقائق أن استخلص سبب تلك الصدمة من ذاكرتي. ثم تذكرت: لقد ذكرني بفتاة تدعى هازل كانت ترعاني في طفولتي. كانت فتاة جميلة، وكانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها حينما كنت أنا في الرابعة أو الخامسة. وكنت أنظر إليها كلما لو كانت أما إضافية لي، ولم أشعر أبداً بمثل السعادة التي كنت أشعر بها حينما كانت تلاطفي أو تبدل لي ملابس أو تساعدني على ارتداء حذائي. وحينما بلغت العاشرة، تزوجت، كنت أعرف التفاصيل الجنسية للفعل الجنسي، وكان هذا الفعل يبدو لي مثيراً وشريراً إلى درجة مرعبة. وذات يوم رايت هازل في محل البقالة، جميلة مثلما كانت سابقاً، وكانت ترتدي زئراً أسود اللون وجوارب بيضاء. جعلتني فكرة أن زوجها يملك الحق في رفع هذه الأزرار وخلع تلك الجوارب أشعر بغيرة مغلظة. فكرت في الأشياء التي لابد أنهما يفعلانها في الظلام، ونظرت بقوة إلى وجهها، ظاناً أن هذه الأشياء لابد أن تكون قد تركت أثراً ما. ربما كان أثراً من نشوة حلوة، أو ربما علامة شريرة ما. تخيلت أن حياتهما، حينما يعود زوجها من العمل إلى البيت، لابد أن تكون حفالاً جنسياً

طويلاً مزعماً بالذند. ورغم هذا فقد بدت طبيعية وعادية تماماً، بالتضبط كما عرفتها دائماً، ربما كانت أكثر نحافة بقليل، ودون شريطها الوردية..

هذا التفكير في هازل - التي صكنت قد نسبتها طوال خمسة عشر عاماً أو أكثر - اعادت إلي ذكريات قنيات أخريات صكنت أعجب بهن حين صكنت صغيراً جداً، فتاة صكنت تسير على بُعد منزل واحد من منزلنا وكانت تبدو لي مثل قديسة، وفتاة أخرى في الشارع تدني لشارعنا كان وجهها البيضاي يدفعني إلى الظن بأنها أجمل شيء وقع بصري عليه في الحياة وعمرة لي ذمت روح هياصة، ثم تكن تكبر هازل كثيراً، تعودت أن تأخذني إلى السبينا ثم إلى مشرب شاي قريب. كان شيئاً شبيهاً بالصدمة أن أتذكركم صك كان كبيراً ذلك العدد من الفتبات - وكلهن أكبر مني سناً - اللواتي نظرت إليهن نظرتي للبريات القدسات. لم يكن قد طرأ على ذهني من قبل أنني قضيت طفولتي في مجتمع أمومي، محاطاً بنساء عبيدن كالألهة. ولا اطلب من إحداهن غير ابنة، أو تربية حنون، لأنني في سنوات مرافقي صكنت أفكر في النساء باعتبارهن مخلوقات تطاردهن الرغبات، يمكن اليد العليا على الرجل بسبب الكنز الكامن بين الأخاذين، الكنز الذي يستطيع أن يمنعه أو يهبته حسب إرادته ووفق مشيئته. وصكنت وظيفة الرجل عندي هي أن يحصل على الكنز. بالإقناع، أو الحيلة، أو بالعنف ومنذ ذلك الحين، كرس نفسي لهمة الذكر العادية، مهمة الكشف عن أكثر ما يمكن من تلك الكنوز. ومع هذا فقد ظل الليل إلى تجسدهن أو تخيلهن في صورة مثالية قوية على حاله، وبدا هذا الليل في حالة تناقض مع فلسفة الحرب الجنسية. والآن أدركت هذا التناقض. كانت الحرب الجنسية هراء لا علاقة له بالحقيقة. ما أردته من النساء هو نفس ما صكنت أريده من هازل، تعاطف الأخت الكبرى ورقتها، اللاملفات والانتباه، تلك الأشياء التي تولد الإحساس الذاتي بالأمان والثقة. لقد لاحظت دائماً ذلك الإحساس بالسكينة الذي يأتي حينما يخرق العضو الذكري حلقة العضلات عند فتحة عضو الأنثى. ثم ينزلق إلى الأعماق الداخلية الدافئة التي تربت عليه بحنان، وقد رايت الآن أن هذا كان ببساطة أكثر اللاملفات الرقيقة قريباً من اللطف. صكنت هازل، في لحظة من لحظات الود الخالص تمد بها فتلمس خدي برفقة، أو تضع يدها على رأسي، وصكنت جديراً في مثل تلك اللحظة بأن أشعر بفيضان هوري من الرضا والإحساس بالإشباع. إن عملية ولوج جسد امرأة ليس سوى صورة متضخمة من هذه اللحظة، إنه نوع من اللاملفة، إيماءة رقة، ولكنها تلاطف - في هذه الحالة - أكثر أجزاء جسدت خفاء والتصاقاً بدخيلتك وبما تخفيه حناياك - تلاطفه بأكثر أجزاء

حصلها خفاء وحميمية. إن النزعة العدوانية التي أطلق عليها لورنس اسم "الحرب الجنسية" لتطور من الجوع إلى ذلك الاحتياج، تماماً مثلما تتطور نزعة الإجرام من الفقر وحتى فكرة "كازانوفا" للتسلطة يمكن تفسيرها على هذا الأساس - وخاصة ذلك النوع من الـ "كازانوفا" الذي يريد أن يظل نساءً في حالة إخلاص كامل له، بينما يسمح له بأن يفعل ما يحلو له. إنها فرعية في الثقة الكاملة بحب الأنتى وبخضوعها. ككل نساء العالم بحبيبته، وكلهن يريغن في ملهه حبهن، وحتى معرفتهن لأنه الآن في الفراش مع امرأة أخرى لا تؤدي إلى أي فرق أو اختلاف.

قادني ككل هذا إلى معرفة السبب الذي جعلني أفقد كل اهتمام بالحرب الجنسية في أعوام الأخيرة القليلة. لقد حصلت - في شخصيتي ديانا ومويسى - على مجتمع مكون من شخصيتين نسائيتين تعجبان بي. وتم إشباع الجوع إلى الأنتى حتى هنا متخماً. أما ذلك النوع من الثقة بالنفس الذي تمنحه النساء فقد تحقق وأصبح في وسعي أن أكرس كل انتباهي لأمر أكثر جدية، لمسائل الفلسفة والنمو الإنساني.

ككل هذا يفسر عدم صبري مع هوراس جيلني. ومع ما عرضته عند أيزموند دونيلي من فلسفة خلاعية قائمة على "فكرة" الفجور. شعرت أن هذه الفلسفة تدل إما على عدم التحقق أو عدم النضج. رغبة الصبيان الصغار في الأمن. ولم تكن هذه الحكاية بالذات - عن ماري وفيونا - هي التي ألفتني، لأنني قدرت أنها حادثة عارضة وقعت من دون تدبير. لقد أراد جيلني علاقة "عاطفية" فتحولت إلى علاقة جنسية. ولكن كانت هناك خطابات أخرى أشارت إلى أنه كان قادراً على تباع أسلوب أكثر خشونة وأكثر منهجية. فقد حدث على سبيل المثال أن عاد في عيد الميلاد التالي إلى البيت عن طريق الشمال. مبحراً من أمستردام إلى جريمسي. فقرر أن يمضي عدة أيام في "أوزنا بروك"، لكي ينفرج على كاتدرائيتها وقلعته. كان الفنان الصغير مزدحماً فأعطى جيلني غرفة في الطابق العلوي تقع فوق الفسل. شاركه فيها خادمه، وهو من أهالي لندن ويدعى دوجيت. وبعد منتصف الليل بوقت كثير، هبط إلى الطابق الأسفل ليذهب إلى دورة المياه، ثم وقف برهة قصيرة مستنداً بظهره إلى جدار الفسل الذي كان دافئاً. وبينما كان يقف هناك، خرج فتاة من الفندق وذهبت إلى الفسل، ولما أصبحت بالداخل خلعت ملابسها، وصبت ماء دافئاً في أحد الأحواض، وغسلت نفسها، بينما راح جيلني يخلص عليها من النافذة. ثم ارتدت الفتاة ملابسها، وذهبت لكي

تنام في غرفة أخرى في نفس البناء. وكان جيلني على وشك أن يبتلعها، حيناً سمع صوت رجل، بدا له أنه صادر من غرفتها، وفي الصباح التالي، طلب جيلني من خادمه دوجيت أن يكتشف ككل ما يستطيع عن الفتاة، وما إذا كان من الممكن الحصول عليها ذلك المساء. وجاء دوجيت بعد عدة ساعات وقال له إنها فتاة محترمة، وإنها ابنة أخت صاحب الفندق، وإنها مخطوبة لرجل يعمل مساعداً لأحد التجار، ولكنها لم تستطع أن تزوجه حتى الآن لأنه "معلمة" رفض أن يعطيه الإذن بذلك، ورفض صاحب الفندق رفضاً قاطعاً أن يقرضه ما يكفي من النقود لكي يفتح لنفسه محلاً يعمل فيه لحسابه. ولقد جيلني أنه من المحتمل أن يكون صوت هذا المساعد هو الصوت الذي سمعه يصدر عن غرفتها في الليلة السابقة. فقرر أن يتخلى عن فكرة النوم معها.

وبعد ذلك في نفس اليوم، قال دوجيت لجيلني أنه سمع إشاعة تقول أن الفتاة حامل - فقد كانت تصاب بحالات غيبان في أثناء عملها. وأحسن جيلني بامكانية اتخاذ سبيل آخر للوصول إلى الفتاة، فقال لدوجيت أن يحاول اكتساب ثقتها، وأن يحاول معرفة مقدار المال الذي قد يحتاجه عشيق الفتاة لكي يبدأ عمله الخاص. "كنت على استعداد لأن أدفع المأ من الجنيهاً في سبيل متعة أن أترك دفقة من ماء الحياة في هذا الرحم الفاضل". ولكن اكتشف أن العشيق يمكن أن يبدأ عمله معتمداً على مبلغ أقل من هذا بكثير، لا يزيد على مائة وخمسة وسعين بالراً، وهو ما يساوي خمسة وعشرين جنيهاً. وقال دوجيت لفتاة إن لسيده قلباً عطوفاً وأنه قد يستحق أن تلجأ إليه - فإن هؤلاء السادة الإنكليز مبذرون ومندهون. وشبعاً لذلك، طرقت الفتاة بيجل باب جيلني في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، فقال لها أن ادخلي. ألقت الفتاة "خطاباً عن حاجة حبيبها إلى النقود، وعن كيف يتعهد بدفع دينه كاملاً، وما إلى ذلك. فتح جيلني كيس نقوده وأخرج عدة قطع ذهبية. ولما اتسعت حناها الفتاة وهي تحمل إلى تلك القطع، أحاط خصرها بترامه، وهمس لها قائلاً إنها تستطيع أن تربح تلك النقود بحبيبه بسهولة كبيرة. وحاولت الفتاة أن تخلص نفسها وأن ترحل بالحجرة، فقال لها إنه يعرف بأنها حامل. وأخافها هذا القول، فزدت. وأشار جيلني إلى النقود، وقال أن أحداً لن يعرف أبداً. وإن الأمر لن يستغرق أكثر من خمس دقائق. وإنها ستعيش في سعادة بعد ذلك إلى الأبد... سمحت له بأن يقبلها، وإن يداعب صدرها. اغضبت الفتاة عينيهما، ومن الواضح أنها قررت أن الأمر يستحق التضحية، حينما سمعاً شخصاً بناحيةا. انفلتت ميتعدة، فأخذ جيلني النقود ووضعها بقوة في يدها، ثم قبلها ثانية، فأسرعت خارجة.

وفي ذلك المساء كانت هي التي تخدم على المائدة. استطاع جليني أن يجعل عينيه تنقبان بعينيهما مرتين، فأحمر وجهها في الشرفين. فكانت قد أصبحت متينة له بجسدها، وكان جليني يعرف أنه لا خطر على نفوذه معها. فقد كان دوحيت قد استطاع أن يعرف لها واعتد حبيبها على لقاء في ذلك المساء، وأنها بلا شك قد حملت إليه النكود.

وفي تلك الليلة، ينظر جليني حتى سمعها تهر الفناء وتدخل القفل. وفي هذه المرة لم تلجع ملابسها كلها، محتفظة بمقصها. فتح جليني الباب وتندس داخلًا. بدأ عليها الذعر، ورجته أن يخرج. وقالت له إن خطيبها كان ينتظرها في حجرتها، همس لها جليني إن الأمر من يستغرق سوى لحظة واحدة. أمسى عدة دقائق في تهدئتها وإقناعها أن تهدأ وتسكر. وبقيها حتى استند ظهرها إلى الرجل الخامد، وأخذها في تلك اللحظة، وعلى الفور، وبعد ذلك، همس لها أنها إذا كانت تريد خمسة وعشرين جنبها أخرى لكي تقيم منزلها، فليس عنها إلا أن تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. ثم ارتدى ملابسها وتركتها.

استبد به الغضب عندما لم تلب الفتاة دعوته. قابلها بالصدفة في أحد دهاليز الفندق، فسطر إليها مستأنلاً، فهزت رأسها وأسرع تبتعد. ولم يتج دوحيت هو الآخر في إقناعها. كانت الفتاة قد وقت بنصيبها من الصفة، ولكن لاح لجليني أنه من غير العقول إطلاقاً أن تكون قد سلمت نفسها له مرة واحدة، ثم منعت نفسها عنه بعد ذلك "كنت على استعداد لأن أفق بكل جنبه أملكه لكي أقضي ليلة في الفراش مع هذه الشبوانة الصغيرة الفاضلة". قال لدوحيت أن يحاول ابتزازها بأن يهددها بإخبار عشيقها، ولما فشل هذا التهديد راح يفكر في اختطافها وحملها معه في عربة خاصة، ولكن الفتاة كانت قد نالت مكافئتها، فاختفت في تلك الليلة، والفرض أنها قد لحقت بعشيقها. الذي كان الآن قد أصبح مستقلاً عن معلمه. وفي حالة مزاجية سيئة للغاية، استقل جليني عربة إلى أمستردام معزياً نفسه بفكرة أن "تلك التفائق الخمس في مواجهة الرجل الخامد، كانت تستحق خمسة وعشرين جنبها من نقود أي رجل". هذه الحادثة تفوح منها نكهة منفرة، وكان قد رآها عارية فزاد أن يملكها، كان يوسعه أن ينتظر، وأن يجعلها تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. فقد كان من الواضح أنها مستعدة للهواء بنصيبها من الصفة، ولكن كان من الأكثر إثارة ومتعة أن يملكها في الظروف التي كان قد قرر في البداية أن يملكها فيها، وخاصة أن عشيقها كان ينتظرها في حجرتها. ومن المهم أن نلاحظ استخدامه لكلمة "فاضلة". لم تكن الفتاة فاضلة، لأنها كانت

حاملاً ولكن رؤيته هذه إليها هي ما جعلته يرغبها، رؤيتها في صورة المحترمة الفاضلة. تعشق رجلاً آخر، فكيف يكون رافعاً أن يخلع عنها قميصها فيضاً جمعها مستنداً إلى مرحل الغسل، وينظفونه متدل على كاحليه؛ ولكن إذا انجز هذا، فقد أراد أن يحتل الأرض التي غزاها، وأن يكرر كل العملية المتعة برمتها. لم يكن من الطبيعي أن يبشر فتاة هيهددها لكي يأخذها إلى فراشه، أو أن يفكر في حملها عنوة في عربة خاصة، ولكن هذه الفتاة "فاضلة" ولست عنده رغبة في الغزو، وفي أن يحط من شأنها، وحتى إذا كان قد شعر بالخيبة في النهاية، فإنه يعتمد على فكرة أنه قد حصل عليها مرة، وإذا ظلت هي محبسة لزوجها حتى نهاية حياتها. فلا شيء يمكن أن يمحو تلك الحقيقة. إن أكثر أنواع النزعة السادية عند الرجال خشونة وفظاظة هي ما تجل الحكاية كلها. ولكن جليني يصفها في خطابه إلى دونيللي كما لو كان وثقاً من موافقته على سلوكه. وكان إحساسي الخاص هو أنه إذا لم يكن دونيللي قد وجد العادنة ونظر إليها باعتبارها شيئاً رديئاً وغير "مشرف" بنفس نظري لها. إذن فإنه لن يكون أحسن من جليني في شيء، وإن كانا مجرد صعلوكين يحملان عقليين قذرين. ولكن لما لم أكن أملك شيئاً من خطايا دونيللي، فإني لم أكن أملك سبيلاً إلى معرفة ردود فعله إذا ما مكشفت هورس جليني.

طوال الأيام العشرة التالية لم يحرز "لبحني" عن دونيللي أي تقدم. ولابد لي من الاعتراف ببعض الكسل المحبب، أو بالأحرى، بشيء من الميل العكسي، الرافض لأن أستغل طائفتي بمهمة مدجوعة الأجر أو لأن أكتب عليها وحدها دون غيرها. لقد شعرت وأنا أقرأ الخطابات المختلفة والوثائق المستعارة من الأنستين دونيللي بأنني أشبه بتلميذ يقوم بإداء واجبه للتزلي، ولقد كنت أكره مثل هذه الواجبات. وبدلاً من هذا راحت أملاً صفحة أخرى من مذكراتي حول موضوعات متعلقة بفلسفة الظاهراتية وحول دراسة ويتينغشتاين، الذي كانت روايته "زيتل" قد وصلت لنوها من بلاك ويلز.

ثم حدثت بعد ذلك عدة أشياء دفعة واحدة. فقد نشرت صحيفة التايمز الإبرلندية خطابي الذي أعلن فيه عن طلي لأية مواد تتعلق بدونيللي، وبعد يومين، نشر الملحق الأدبي التايمز اللندنية خطابي الذي كتبته في لندن. وأخيراً أرسل إلي كلاوس دنكمان خطاباً

اعتبارياً من هامبستيد، وفيه ان خطابي إليه لم يصله في موعد مناسب، لأنه ترك لدة مويلة على مائدة افاعة الاستقبال في عنوته القديم. حيث لاحظته أحد الأصدقاء بالصدفة يكتب إلي رجل يدعى و. س. ل. أوريينش من بلدة ككورك، يقول إنه كان صديقاً لمرحومة جين استون التي ماتت في عام ١٩٢٩ والتي كانت تمتلك خطابات مختلفة بخط يد دونيللي. ولكنه لم يكن واثقاً مما حدث لتلك الخطابات بعد ذلك. وأخيراً كتب إلي مكاف د. بيلس، حفيد إيزاك جينكينسون بيتس. من دبلين ليقول أن جده مريض، ولكن إذا تصادف وحدث إلى دبلين فإنه سيكون سعيداً لرؤيتي. وأضاف أن جده استج لاني أهدت إياه حول مرثكب جريعة قتل جزيرة الاي الإيرلندية، وأنه يود أن يناقشها معي شخصياً. ثم أضاف في لاحقة نيل بها الخطاب يقول: "لقد رايت خطابك في عدد اليوم من التايمز الإيرلندية. وإنني قد أكون قادراً على تقديم بعض الاقتراحات". وأثارت قلبي هذه الجملة الأخيرة بأسلوبها الحذر. فإنه لم يستطيع حتى أن يذكر اسم دونيللي. وبد لي هذا الأسلوب قليلاً على أنه يكاد بالفعل يعرف شيئاً ما، ربما كان شيئاً أكثر حتى من أن يثق بنفسه إذ يلجأ إليه.

وكان خطاب ككلوس دنكمان طويلاً جداً، وراح يناقش مكتبي مناقشة مطولة مستفيضة. وتكن إشاراته إلى دونيللي كانت مختصرة. قال إنه سمع الاسم من أوتو كورنر، تلميذ ويلهلم راينخ، الذي تحدث عن دونيللي باعتباره واحداً من أوائل الكتاب الذين لاحظوا أهمية بلوغ ذروة النشوة الجنسية كعلامة على الصحة النفسية. ثم قال دنكمان، إنه مع ذلك غير قادر لسوء الحظ على أن يزودني بالزبد من التفاصيل. فعلى قدر علمه، كان كورنر قد عاد في ذلك الحين إلى ألمانيا.

كان لدي شعور قوي بمرغبتني في أن اسرع إلى دبلين لرؤية مكليف بيتس. ولكن كانت هناك أشياء أخرى كثيرة كان علي إنجازها، وإلى جانب هذا، فإن العجلة التي هي من الشيطان قد تدمر كل شيء، ولذا فقد كتبت إليه خطاباً دون توفيق، اتحدث إليه فيه عن مشروعي لكتابة مقدمة تاريخية لكتابه يتضمن مذكرات دونيللي، وأضفت أنني أرجو أن أراه عاجلاً في فرصة مقبلة. ثم تحولت إلى مسألة الافتاء لثار خطابات دونيللي التي كانت في حوزة جين استون - رغم أنني فعلت هذا دون كثير من الحماس. ولأنك ان خطابات دونيللي تلك ستكون حول موضوع جورتن وتيللوستون وغيرهما من اصحاب معاول

التسويم الغناطيسي. ذهبت إلى ككورك وقابلت مستر ألديتش الذي كان يوسع أن يخبرني أنه كان لجين استون القارب يقيمون في بلدة بيلكولي بالقرب من كينسيل. ذهبت إلى هناك بالسيارة لكي أكتشف أن هؤلاء القارب قد ذهبوا إلى ككورك لكي يبنوا حاجياتهم وأنهم سيقيمون نهاراً بأكملة. وهكذا فقد عدت إلى كينسيل وحجزت غرفة في الفندق، ثم عدت لزيارة مستر فيليب استون - وهو حارس شواطئ متقاعد - في الساعة السابعة مساءً. وقد كانت هذه الرحلة سدى، فالرجل لم يكن يعرف شيئاً عن خطابات دونيللي. ولكن اعطاني عنوان قريب آخر له يدعى بيزارد استون في ليمريك. وفحصت هذا الأخير في اليوم التالي في طريق عودتي إلى غالواي، وكان الرجل قد سمع شيئاً عن خطابات دونيللي. لكن لم يكن لديه فكرة عما حدث لها، واقترح أن اتصل بطبيب جين استون. جروج أوهفرنان في ككورك الذي كان يعرفها جيداً. (ولاحظت مدى ارتباط عينيته وتهديهما عندما ذكر اسم الطبيب الأمر الذي أوحى إلي بأن تلك العلاقة مع الطبيب كانت القوي قليلاً مما يستطيع أن يوافق عليه).

كنت أشعر بأن إحساس (كاهكاوي قد بدأ يملكني، وبث شعور بأنني أدور في حلقة مفرغة من دون أي القرب حقيقي من الهدف الفصود، وشعرت بإغراء الاستسلام. أردت أن ألتحق نصف مسافة من حديث دونيللي عن موضوع الخطيئة والغناء. ولكن بدأ الموضوع بلوح أكثر إزعاجاً مما يستحق. وحينما وصلت إلى البيت، ودعمت عزيمتي بكأس كبيرة من الكلاريت، اتصلت باستعلامات هاتف بلدة ككورك وسألت عن رقم تليفون الدكتور أوهفرنان. قيل لي أنه ليس هناك من يحمل هذا الاسم سوى شخص واحد، ولكنه لم يعد يعمل في المستشفى. بشعور أخذ من التبلد سألت إن كان يوسعهم أن يوصلني بالطبيب للشرف، ثم أخلت كتاباً كبيراً أخرى. بعد قليل جاء رجل يتكلم على الطرف الآخر، وقال إن الطبيب المشرف كان خارج المستشفى في تلك اللحظة وسألني إن كان يستطيع أن يساعدني في شيء. عرفت أنه كان من المستحيل أن ألتهمهم بأن يعطوني الرقم، ولكني رجوت أن يجعلوا الطبيب المشرف يتصل بي لدى عودته، وكان علي أن أوضح نوع العمل الذي أقوم به - وهو أنني كاتب وأنني أريد أن ألتصع مصر بعض الوثائق. وأني قدرت أن الدكتور أوهفرنان يمكن أن يساعدني في تتبعها. وطالب مني السيد التحدث على الطرف الآخر أن أنتظر قليلاً، وبعد عشر دقائق عاد لكي يقول لي أن "أوهفرنان" موضوع البحث لم

بكر مسجلاً باعتباره طبيباً. شكرته وفعلت نكالة. ولاح ذلك لي مكانه نهاية الخيط والطريق.

ولكن، وبعد ذلك بساعتين، وبينما كنت على وشك الاستسلام للنعاس وأنا أستمع إلى موسيقى "فراصنة بينزاسة" دق جرس التليفون فأنجاست ديانا على النداء، وقالت لي إن الطبيب للمراف في مستشفى كورت يريد أن يكلمني. وكان هو نفس الرجل، وكان قد أتى نظرة على الفواتم القديمة فحتر على اسم الدكتور أوهرنان، ثم استطاع بشكل ما أن يعثر على مكانه. كان العنوان في كيبلازي. شكرته مضطراً إلى ذلك، ثم أخذت اسمه بمنونه لكي أرسل إليه نسخة من أحد كتبي، ورغم أن الساعة كانت قد تجاوزت العاشرة، فقد فمت بمهمة محاولة طلب رقم الدكتور أوهرنان. دكرت له اسمي وقلت أنني كاتب، فأصبح على الفور ودياً جداً وقال لي أنه قد نشر عدة كتب، ولم يكن قد سمع بي قبل ذلك أبداً، وعندما سار بنا الحديث إلى أن وصل إلى موضوع إيرموند دونيلي تذكر أنه "كان قد" رأى خطابي في التابيز الإيرلندية وأنه فكر في الاتصال أو الكتابة لي. وقال أن نعم، بالتأكيد. أنه يملك عدداً كبيراً من خطابات دونيلي بالإضافة إلى أوراق أخرى، وأنتي سأكون موضع الترحيب الكامل إذا كنت أن الفحص في أي وقت يكون ملائماً لي. فاتفقت معه على موعد في اليوم التالي.

ليس ثمة مهرب هنا من وصف الساعات الأربع والعشرين التي قضيتها مع جورج أوهرنان. ورغم أنها تستحق الوصف بالتأكيد. إنه رجل قصير ربعة قوي البنيان ذو خدين متوردين وشعر أبيض وشارب أبيض، كان يبدو كواحد من أولئك الناس الذين يولعون سمناً مفعمين بالاهتمام بكل ما يجري حولهم من أحداث أو ظواهر. أهداني نسخاً من كتبه، "كلوماكنويز وقصائد أخرى"، "مانجان. وعصبتة"، "مذكرات متمرد إيرلندي". بالإضافة إلى مجموعة مترجمات عن اللغة الغالية. كان قد عرف بيتس معرفة جيدة، وتمضى عدة أمسيات مع جويس في باري، وكان تديم شراب لجو غارتي. سجلت ملاحظات طويلة عن الفاصيص في مذكراتي اليومية، لأن صورة هذه الفاصيص التي وردت في كتابه "مذكرات متمرد إيرلندي" أكثر تهديفاً إلى حد كبير وأقل نزوعاً إلى أسلوب رابليه إنكمي اللاذع من الصورة التي سردها لي بنفسه. كان الطبيب مضيقاً كريعاً، فقد دعا لي عشر صديقات لتناول العشاء معي فاستهلكنا عدة كالكونات من الجعة المصنعة في المنزل

بالإضافة إلى عدد كبير من زجاجات ويسكي كامسون. وفي الساعات الباكرة من الصباح حينما تخبط آخر ضيوفه نحو سيارته، حكى لي قصة علاقته بمسز استون في خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياتها، وكانت قد ماتت في الثامنة والأربعين من عمرها بسبب الربو. وأخيراً أخذني إلى خزنة هائلة، تمتد من الأرض إلى السقف في حجرة النوم حيث كان علي أن أنام. وأطلعني على أكوام من المخطوطات المفقودة والخطابات الملقاة في حزم محكمة موضوعة في إضبارات سوداء ثقيلة، وقال "سوف تعثر على الكثير من ترات دونيلي في وسط هذه الكتلة"، ثم تركني لكي أبحث عما أشاء. كانت الساعة الرابعة صباحاً، والغرفة باردة كالثلج رغم وجود مدفأة كهربائية ذات مشعل واحد. كنت قد شريت كثيراً وانباني صداع خفيف، ولكنني شرعت في جلب الأوراق من الخزنة اعتماداً على الصدفية في رؤية خط يد إيرموند دونيلي. وبعد أن أزعجت عدداً قليلاً من العناب وأثرت كمية لا بأس بها من الغبار عثرت على حزمة من الخطابات موجهة إلى ويليام استون. وكنت حتى ذلك الحين قد أخرجت معظم ما كان في الرف السفلي من الخزنة. ولكن في نهاية رف الركن، كان هناك مغلفان أسودا اللون. جنبتهما وأقيت نظرة على أحدهما. كان الخط هو خط إيرموند. نظرت إلى الصفحة الأولى، وكانت تبدأ من منتصف فقرة ناقصة من بدايتها. فتحت المجلد الآخر. كان يتكون من أوراق من الحجم المتوسط، ربطت أطرافها بعضها إلى البعض، وقد كتبت على الصفحة الأولى، "١٣ أكتوبر عام ١٧٦٤. كنت دائماً أعقد العزم على الاحتفاظ بكراسة مذكرات يومية أسجل فيها أعمالي يوماً بعد يوم، ولكنني فشلت حتى الآن في الدائمة على تنفيذ هذا العزم. لقد فقت عدد كبير من الأحداث الهامة، حتى كان علي في النهاية أن أصمم على تنفيذ هذا القرار، مهما كان الثمن من الجهد أو الشموغ..."

خلعت ثيابي وارتديت منامتي وصعدت إلى الفراش، إلا أن النوم فارقني. في عام ١٧٦٢ كان إيرموند لا يزال في السادسة عشرة من عمره. إذن فإن هذه المذكرات هي أقدم ما وقع عليه بصري من كتاباته حتى تلك اللحظة. كان خط اليد أكثر وضوحاً وسهولة في القراءة من الخط الذي رأيته من قبل في مذكرات لاحقة لهذه التي في يدي الآن. كان إحساسي بالانتصار قوياً لدرجة أنني شعرت برغبة للذهاب إلى الدكتور أوهرنان في حجرة نومه لكي أطلعته على ما وجدت. ولكن لم يمنعي من ذلك إلا شك في أنه ينام فيها مع المرأة الشابة المثلثة التي تخدم منزله. الأمر الذي جعلني أكتبح جماع نفسي. وكان ما لدهشتي هو أن أوهرنان لم يذكر لي تلك المذكرات. لقد قال لي أنه يعرف أن ثمة خطابات من

ديبللي، ولكن مكان هذا هو ككل شيء. فالاستنتاج إذن هو أنه لم يكن يعرف شيئاً عن وجودها. وحينما سألته في الصباح التالي. أكد لي هذا الاستنتاج، إذن مذكرات رجل برلينكي، بروتستانتى إنجليكاني البرزعة والمذهب، من القرن الثامن عشر، لم تكن من الأمور التي يمكن أن تثير اهتمامه، لأنه كان كاثوليكيًا ووطنياً. وكانت مشاعره إزاء كرومويل أكثر عنفاً من مشاعر أي إنكليزي تجاه هتلر.

قرأت حتى مطلع الفجر. وتمت حوالي ثلاث ساعات، حتى أيقظتني مديرة المنزل بالشيء. ثم ارتدت معطفي فوق الثامنة وعلت ثانية إلى الحزانة وفي خلال نصف ساعة، كتبت قد "قرزت" ثلاث حزم أخرى من الخطابات، ومجلدين آخرين من المذكرات، بالإضافة إلى مخطوطة "يوميات الرحلات" الخاصة بديونيللي. وحينما دخل الدكتور وهمرمان لكي يقول لي أن طعام الإفطار قد وضع على المائدة، وجلني محاصراً بالأوراق بعض التراب. جالساً في مواجهة الخزنة الخالي. وحينما طلعت على المذكرات، ابتسم وقال:

"حسناً، إنني مسرور لأنك لم تقم بهذه الرحلة لقاء لا شيء".

حينئذ انتهزت الفرصة لكي أ طرح السؤال الذي شغل ذهني طوال الليل:

"أعني، إنني أستطيع أن استخدم ككل هذه المادة؟"

"بالتأكيد. لم لا تستخدمها؟"

"هل تفضل أن أعمل هنا، أم أن أوسعني أن أستعيرها؟"

"أوه، أي شيء تفضل. انزل الآن معي وككل شيئاً".

ثم عرج خارجاً في خفة، بينما جلست في مكاني أغمغم كعمجنون.

- ٩٤ -

□ ولابد لي من الاعتراف بأنني حينما درست المذكرات، بدأت في الندم على قبولي التعاقد مع هليشر. كان مبلغ الخمسة عشر ألفاً من الدولارات قد لاق لي مبلغاً عظيماً في ذلك

- ١٥٧ -

الوقت، ولكن مع وجود ككل هذه المادة التي استطلعت الحصول عليها شعرت بأنني استحق أكثر من هذا بكثير. ذلك أن المذكرات الجديدة أوضحت جانباً آخر من شكوكي حول خلفية ديونيللي الثقافية وقيمه الشخصية. لقد أطلعني هذه المذكرات على السبب الذي جعل هوارس جليني يعجب به إلى هذا الحد. لقد كان رجلاً تسلطت عليه الطبيعة الروعة للتجربة الإنسانية. ولكن هل ندعه يتحدث عن نفسه.

"يقول لي ابن عمي فرانسيس أنني قوي الشعور بذاتي مسرف في الغرور. ولكنني أدعو السماء لكي تشهد علي أن هذا غير صحيح. إنني في الأغلب أكثر من يعيش تحت الشمس من مخلوقات لعنة وتحقراً لذاته، وكثيراً ما يبلغ عدم رضاي عن ذاتي أن أشعر برغبة أن أطلق على رأسي الرصاص فأنسفه. إنني أكتب هذه المذكرات عسى أن أتمكن من أن أدخل شيئاً من النظام والاستمرار على حياتي. لأنني أشعر بالسقام حتى لباب القلب بسبب استهجانتي واستنكاري لذاتي. كثيراً ما تشكو النساء من انتقاد الرجال إلى الثبات على العهد. ولكن ماذا ينبغي علينا أن التمتع بصفة الثبات على العهد في الحب بينما نحن لا نملك شيئاً من الثبات في أي شكل آخر من أشكال الفكر أو الإحساس أو الرغبة؟ بالألمس، القى الواعظ المشهور الدكتور جيليس موعظة في كنيسةنا، وقد حرمك من هذه الموعظة إلى حد عظيم. فأنقسمت على أن أبذل حياتي في المستقبل لكي أسير تبعاً لوصاياهم فأعيش فقط على أساس من الاتفاق مع ضميري وإحساسي بالفضيلة. كان اليوم عاصفاً شديد البرد إلى درجة أكثر مما يسمح بالمغامرة بالخروج من عتبة الباب. وفي هذا الصباح قرأت في خرافات جيلبرت بالإنجليزية لمدة ساعة قبل أن يتملكني سوء المزاج لعتاد مرة أخرى. فأصبحت غارقاً في إحساس وحنين من الضراخ والخواء. ومنذ ذلك الحين وأنا عاجز عن رؤية أي طريق يستطيع من خلاله ضميري أو إحساسي بالفضيلة أن يؤثر على هذا الإجهاد الذي يستهلك الحياة ويدمرها. ربما يستطيع ضميري أن يدلني كيف أتجنب ارتكاب الخطأ، ولكنه لن يستطيع أن يدلني على كيفية الهروب من الظل والضمير. وهل يمكن أن يكون ثمة شيء أفتل للمخلوق الذي صاغه الله على صورته من نفس هذا الضمير؟ ذلك أن الله إله لأنه يستطيع أن يخلق. ولذلك فإن رجلاً يسحقه الضمير لأكثر المخلوقات بعداً عن صورة الله.

لقد عقد الدكتور جيليس مقارنات شديدة الحذق والبراعة بين الجسد والعقل، قائلاً أن الجسد يملك نظاماً أو أسلوبه الخاص للتخلص من الإفرازات السيئة أو الضارة سواء كانت

- ١٥٨ -

ضعيفة أو نتائج المرض، بينما لا يملك العقل مثل هذا النظام أو الأسلوب. لو أصابني "دمل" تصرف من تلقاء نفسه. ولو أصابني الإمساك فإن تفاحة خضراء ستكفي لتخفيف الانتفاخ. ولكن لو أنني ممتلئ حسداً أو ضعيفة، فلن ينفعني أي مظهر مهما كان، فإما أن أبيع الفرصة للتعبير عما يحترق في صدري، أو أن أسحبه عن طريق فعل مضاد. ونستفيد من تلك فرصة طبيعية للتصريف، لا بد لتصريفه عن طريقة تشبه ولادة "ماككف" قاتل ماكبث في مسرحية شكسبير: "انزع من رحم أمه قبل أن النضج والولادة". أو ليس يصدق هذا - وحتى أكثر منه - على ذلك "الضجر الحياتي" الذي يحقني إنه نوع من الغاضب الروح، دمل لا يريد أن ينصرف.

أعرف أنني لا يمكن أن أكون سعيداً دون الشعور بأن مشاطي موجه نحو غاية ما، ولكنني لا أعرف كيف أملك رוחي فأنحنها بهدف معين أو غاية محددة. منذ نصف ساعة، تناولت ديوان تومسون^(١) الذي يحمل عنوان "شتاء" وقرأت فيه،

يتنزل الوابل الأبيض عبر الهواء الساكن،

رفيقاً بترنج في البداية، حتى تأتي في النهاية لرفائق السميكة

نسقت في شكل مكان، طوقاً وعرضاً، وسريعاً ما يعمم النهار

بالفيضان السمر، الحقول للدفلة الحبيبة،

ترتدي ثيابها الشتانية من أنصع ألوان المياض.

كلها ناصعة مشرقة، عدا حيث ينوب الجليد الجديد

على طول الجرى المراوغ...

لماذا تحمل تلك الكلمات سلاماً يشبه سقوط الجليد الهابط على حواشي ألا توجد في داخلي شهية إلى السمو الجليل يفسدها الآن الإجهاد، مثلما يئن جوع معدتي فأنشعر بالغثيان إذ أكلت كثيراً من الشطائر المسكرة؟

(١) جيمس تومسون ١٧٠٠-١٧٤٨ شاعر إنجليزي، له ديوان (شتاء) عام ١٧٣٦. وديوان (الفصول) الذي أخذ فكرته عن لسانه في اللاهوت روبرت ريكالتون.

أولاً تستنار تلك الشهية فتستيقظ من خمودها إذ تتذكر حقول الشتاء؟ وكذلك حين تتذكر قطعة السيوف في ملحمة أوسيان^(٢) وأيضاً إذ تتذكر اهتزازات نهدين حيلما تسرع هتاء في صمود الدراجات. لماذا لا نملك عصا نضرب بها صخرة الروح لكي يتفجر منها الينبوع دافقاً؟

هذا يردد أبرز موند الموضوع الرئيسي في المذكرات، إنه ما ندعوه الآن بالطافان والفترات الخفية للأوعي. هذا الموضوع يتسلط عليه كالتهاجس السيطر وهو يعود إليه مرة بعد أخرى. "إن قوى الطبيعة تحيط بنا طول الوقت، الاندفاع الجبار لتيار الفيضان، وقذائف مدافع الرياح، النجوم نفسها ترفض عبر السموات لكي تقول لنا أن لا شيء في العالم يبقى ساكناً سوى روح ملعون لا يعرف سوى القلق وتأنيب الذات". وهو يسأل مراراً عن السبب الذي يجعل نكساء الإنسان "ينقيه" بالضرورة من حياة الكون ويتساءل متاملاً فيما إذا كان هذا هو معنى قصة آدم وحواء؟ إن العرفة ذاتها، القدرة على التفكير، هي التي كانت تفصل الإنسان وتفرقه عن الله. وحتى في سن السادسة عشرة يبدى دوتيللي معرفة واسعة تماماً بمقدسات ومشاكل القرن الثامن عشر. بل إنه يقتطف عبارات من جورج هيربرت^(٣) ولكن في الصحيفة رقم ٤٨ من المجلد الأول - المؤرخة في يوم يسبق عيد الميلاد بأسبوع واحد - تنفر النجمة وأظنه قد أعاد قراءة جملة التي يطالب فيها "بعضاً تضرب بها الروح لكي يتفجر منها الينبوع دافقاً". إنه يتحدث مرة أخرى عن النهود المهترئة. فكان النهدان اللذان يفكر بهما هما نهذا ابنة عمه صوفيا، التي كانت تقيم عندهم فترة الإجازة مع والدها ووالدتها، إن صوفيا مونتاغو، ابنة عم إليزابيث مونتاغو (وهي إحدى العضوات الأصلية في جماعة "الجوارب الزرقاء")، قد أصبحت واحدة من فانتازات هذه الرحلة الرموفات. وحتى في ذلك الوقت، حينما كانت في التاسعة عشرة أو تكاد - فإنها قد حذيت الكثير جداً من الاهتمام حينما كانت تقيم في بيت "ماي فير" الذي أقامته الضيفة الشهيرة، وكان أبرز موند يملك ما يكفي من القدرة على التحليل لكي يعرف أنه لم يكن والها في حبها، لأنه كتب يقول، "إنها بلهاء، ولكنها بلهاء جميلة تتمتع بالكثير من نقاط التشابه مع إحدى الربيات". ويكتب عنها

(١) أوسيان - شخصية تحمل وجهين تاريخي وأدبي. ففي التاريخ كانت له شخصية أحد المحاربين الفين من

شمال إسكتلندا في القرن الثالث، وفي الأدب يعرف كشاعر فذ، نسب له ملحمة شعرية عن حروب الغالين في

فرنسا وإنكلترا ولاتانيا، نشرت في عام ١٩٦٠.

(٢) جورج هيربرت ١٥٩٣-١٦3٣. شاعر إنكليزي أخلص للشعر وحده، بعد من شعره مدرسة جون دون الليتافيزية

فما بعد ثانياً، قالت لي صوفيا إنها سمعت مسر بوزويل يتناقش مع دكتور جونسون متفقاً عن تعدد الأزواج، وأن مسر مونتاغو أجابت بأنه ليس هناك أمراً على قيد الحياة تحت حكمه صئيلة إلى الحد الذي يجعلها تريد أكثر من زوج واحد في الوقت الواحد". إن فكرة بوزويل جنورها، وقد تاصلت فيما بعد، وكذلك تاصلت أفكار روسو في كتاب فيليز الجديدة التي قرأها بالفرنسية، كما قرأ رواية ريتشارد سون "كلاريسا هارلو". ففي رواية روسو تنشأ علاقة حب بين شبيطة دولي ومعلمها سانت بريو، ويدافع عنهما روسو بحثاً بأن هذا الحب حق وطبيعي بين شخصين يحب أحدهما الآخر وتمنعهما الظروف من الزواج. أما رواية ريتشارد سون فهي أخلاقية إذا ما قورنت برواية روسو، إنها معالجة لحكاية غزو كلاريسا الفاضلة واغتصابها على يدي الأفاق الصعلوك لفليس، وتموت كلاريسا تحت ومادة تعليلها لنفسها وشعورها بالعار، ويقتل لفليس في مبارزة. ويكيل ايزموند صنوفاً من نيكمة لريتشارد سون باسم روسو. لماذا يمكن أن ننهار البتة وتضمحل حتى الموت لأن رجلاً قد فعل معها شيئاً طبيعياً؟ إن حضور ابنة عمه الجميلة يحفظ موضوع الاتصال الجنسي في طبيعة ما يشغل ذهنه، وفي وقت قصير يشرع في التعبير عن آراء تدفعه على تقرير المحافظة على سرية مذكراته. إنه - مثل عدد كبير من النقاد - يشك في أن موقف ريتشارد سون إزاء اغتصاب كلاريسا لم يكن موقف الرقص المرتعب، وإنما الشعة السرية الشريرة. "فمن الذي يمكن ألا يستمتع باغتصاب فتاة جميلة، خاصة إذا لم تكن متمالكة لوعيها ولا تعرف شيئاً عما يجري لها؟" وهو يسأل عن السبب الذي يجعل ريتشارد سون يسمح باغتصاب كلاريسا وهي تحت تأثير الخمر، بدلاً من اتباع طريقة لوريس، ثم يجيب على تساؤله قائلاً، "إذا كانت الفتاة فاضلة إلى الدرجة التي تمنعها من تسليم جسدها بأي طريقة أخرى، فإن لفليس علي حق في اتباعه لهذا الأسلوب. إن جمال الفتاة، مثل جمال أنواع معينة من الطيور الاستوائية، قد خلق لكي يغري الذكور ويوقعهم في حباته، فلماذا ينبغي عليها أن تشكو إذا كانت قد حققت كل هذا القدر من النجاح؟ إنها تشكو لأن هدفها هو أن تحصل على زوج في مقابل فضيلتها، ولكن نفترض أن زوجها المحتمل قد وجدها بلهاء ولم يرغب في أن يكرس حياته للدفاع عنها فهل يذمه شرهه بأن يتوقف عن الطردة لماذا لا يستطيع أن يحاول التزاع لزهرة بدلاً من أن يشترى الحديقة بأكملها؟"

ومن المهم أن نلاحظ أنه لم يجب بالفعل على سؤاله عما دفع ريتشارد سون إلى تفضيل أن تغتصب كلاريسا وهي غائبة عن الوعي، ولكن هذا السؤال يستمر في مناقشة

تفكيره. إنه يسأل، "لكن ذلك لأن إحساس الرجل بالالتزام يقابل من متعة اليس من الحق أن استمتاعه من حاجة من التنبه يمكن أن يضع تماماً إذا عرفت أن علي أن ادفع خمسيناً من الجنيهات لقاءها غداً؟" وهو يعطي إلى مناقشة فكرة بوزويل عن تعدد الأزواج، ويؤكد أن هذه الفكرة ليست سوى تعبير آخر عن رغبة الرجال الطبيعية في أن يعربوا عن ولأنهم وأن يدفعوا ما قرر عليهم. "بأن يصبوا شيئاً من عصير الخلق في الحلق الصحيح للناس".

ولم يؤد الاهتمام بصوفيا إلى شيء، ولكنه على الأقل أدى إلى بداية تفكير ايزموند في الجنس. ويؤدي هذا به إلى كتابة معالجة تقريرية ممتعة عن تجاربه الجنسية حتى ذلك الحين. وكانت هذه التجارب قد وقعت قبل ذلك بستة شهور فحسب، وكانت الفتاة هي خادمة شقيقته الكبرى، جوديث، وكانت قد جاءت عائدة من ليونز. وهو يدعوها باسم مينو رغم أنه من الواضح أن "ماري" هو اسمها الحقيقي.

حينما عدت من ديلين، وكانت جوديث قد عادت إلى البيت منذ نحو ستة أسابيع. وفي البداية لم أتيت إلى مينو أيما انشغال، إذ وجدت أن وجهها على شيء من القبح. كان صدغها كبيراً جداً، وكان لها أنف مثل الزرار الكبير. ولكن في اليوم التالي تعودت، وبينما كنت راكباً على الحشايش الجميلة الشنوب بالقرب من حافة مجرى الماء، سمعتها تصحك وتقول: "كلا، كلا، ليس هذا هو المكان المناسب"، ثم سمعت صوت رجل يتهكم على لكنها قائلاً، "كلا، كلا، ليس هذا هو المكان المناسب" وكان الرجل هو شون فراقرش، الذي يسوس الخيل ويساعد على شؤون الحديقة، وكان عمالاً صخيم الجنة برزت على صدغه الأيمن نذبة وكانت نتيجة ركبة فاسية من مهرة عسيرة. لم تكن سراويله ولا ستراته تناسبه أبداً لأنها كانت غالباً مما يستعني عنه شقيقه الأكبر، الذي كان أقصر منه بمقدار ست بوصات. لم أكن قادراً على رؤية أي منهما، لأنهما كانا راكبين وسط الحشايش الطويلة تحت إحدى شجرات التفاح، وبعد دقائق قليلة من الصمت، قالت مرة ثانية، كلا، ليس هنا". أجابها، "إن تعالي إلى الإصطبل" قالت، "كلا. لا أستطيع، يجب أن أعود لأقدم الشاي". أوكايت جوديث لابد أن تناول الشاي في العصر. عادة جاءت بها من الخارج، ولكنني سمعتها تحله بأن تذهب إلى الإصطبل بعد تقديم الشاي، ثم وقفت، ونفضت شعرها بيديها وأسرعت تبتعد. وقف شون راكبي وربط بنطاله عند وسطه بقطعة حبل ثم ذهب في اتجاه الإصطبل.

بكنت أعرف سمعة شون بين فتيات القرية، رغم أنني لم أكن قادراً أبداً على فهمها، فلنسمه وعينه المشوقه أعطياه مظهراً مفرعاً إلى أقصى حد. وكانت شغباتي يطلقن عليه اسم "سيكلوبس"، ولكنني كنت في هذه اللحظة أتحرق شوقاً وضوئاً لمعرفة ما نوى على فعله معها، رغم أن ذلك لم يكن صعب التخمين. كنت قد ركبته وهو يرشد العضو لثمت لأحد الجياد النافذة الصبر لكي يولجه في مهرة جديدة، ولم يكن لدي شك في أنه جيد للتدريب على استخدام "آلة" والسيطرة عليها، ولكنني لم أكن أعرف شيئاً من التحام رجل بالفرقة، غير أنني قررت الآن، وقد سنحت الفرصة من تلقاء نفسها، أن علي أن أغالج هذا لفحص الخطم في تعليمي، وعلى هذا فقد دفعت نفسي إلى الجزء الذي يوضع فيه القش في لإصطبل - لأنني خمنت أن هذا هو المكان الذي كان يقصده - ثم تساقط صاعداً إلى القسم العلوي منه، بين أكياس الفاصوليا وأجولة البذور، كانت الأرضية كلها مغطاة بالقش، ولدرجة للهدنة مثيرة. كان تخميني أنهما ينويان أن يتمتا بالتحامها فوق هذا البساط العلوي القرب بكثير إلى الواقع، ولكن إذا كان قد "وضع في رأسه" أن ينظر إلى القسم العلوي، فإنه سيمر علي أن أختبئ وراء الأكياس والأجولة في المكان.

بعد نصف ساعة دخل شون وبدأ في تقليب القش بشوكة حكيمة، لم يكن بوسعي أن أراه، ولكنني عرفته من صوته وهو يغني أغنية "موللي مالون"، ثم صعد بعد ذلك إلى الطابق العلوي، أخذاً معه "أحضاناً" هائلة من القش، لكي يبعثرها وينشرها على الأرضية على بعد بضعة ياردات من المكان الذي رقيت فيه. من هذا التصرف خمنت أنهما ينويان أن يغطا ملاسهما وأن يغطلا ما يربطان هنا في القسم العلوي، وليس في الدخول السفلي كما كنت أظن.

بعد دقائق قليلة، جاءت مينو، ولحظة قصيرة لم اسمع صوتاً، رفعت جذعي على ركبتي وتلصصت ناظراً فوق الأجولة. كانا والفتن بالقرب من الباب، وكانت قد أحاطت عنقه بذراعيهما، تبادلًا حديثاً هامساً وأشار هو إلى السلم، خفضت جذعي ورفقت. انغمضت عيني، حتى يظن أنني نائمة إن وقعت عيونهما عليّ صعد هو أولاً، ثم استدار وعاونها على صعود السلم الذي كان ممتداً وراء النصبة العالية. كان الضوء ضعيفاً، ولكن كان بوسعي أن أراهما بشكل جيد. وقف هو وظهروا إلى الجدار، فالتفت هي بذراعيها حول عنقه ومنحته قبلة طويلة، ثم انزلت إحدى يديها ومدتها إلى الحبل الذي حلت عنقه بحبلية واحدة. سقط

بنشاطه إلى ركبتيه، كاشفاً عن ردفين هائلين مشعريين كانا في مواجهتي، تحركت يديها متجولة بينهما ولم يكن بوسعي إلا أن أغمض ما كانت تفعله في هذا المكان... رفعت وجهي فوق الأجولة، ولكن لم أستطع أن أرى سوى القليل، لأنهما كانا غارقين وسط القش، وكان الضوء قليلاً بالقرب من الأرض. وهجاء صرخت صرخة حادة، وخشيت أن تكون قد رأتني فأخضت نفسي غاطساً إلى الوراء من جديد. ثم سمعته يأمرها بالصمت، فصرخت مرة ثانية، ولكن بصوت أقل ارتفاعاً، همس القش وصر كما لو كانت آلاف من الجوزان تصرخ داخله، واستمرت هي في إطلاق الصرخات والأذات، كما لو كانت تنال. ثم أصبح الصرير عتيقاً حتى يعني إلى التلصص من جديد، فرأيتته يحرك ردفه فوقها كما لو كان يأمل أن يصنع ثقباً في الأرض... بينما انست قدمها في ثنبي ظهره، ولو كان هناك المزيد قليلاً من الضوء، لكان في وسعي أن أرى المشهد الصحيح للتطبيق للعملية. ثم حاولت أن تصرخ مرة ثانية فوضع يده فوق وجهها، بينما توقفت حركاته كما لو كان قد تجمد فجأة. رفا في مكانهما، ساكنين تماماً، ثم تنهد تنهيدة عظيمة، وبدأ عليه أنه يوشك أن يجفل مرتداً إلى الوراء من فوقها. وحلت هي وثاق ساقيها من حول ردفه، وتركتها تتمددان مستقيمتين بينما رفا هو في مكانه فوقها دون حركة.

لا بد لي من الاعتراف بأن كل هذا قد دفعني إلى حافة قريبة من الاستشارة التي بلغت لحظة انزعاجها الخاصة قبل أن تتوقف حركاتهما ببعض دقائق. ولما كنت قد انتهيت فقد أملت أن يرتديا ثيابهما وأن يسمعا لي بالهرب من هذا الوضع القبيح. ولكن الصمت الذي أطبق واستطال الغممي بأنهما قد غرقا في النوم، رغم أنني لم أجروا على الحركة لكي أكتشف أن كان تخميني صحيحاً أم لا. وبعد أن مرت عشر دقائق، شرعاً في التحرك ثانية ولكن الصرير استمر لمدة طويلة حتى أنني رجحت أنهما لم يفعلوا سوى أن عادا إلى مؤتمر العشق الذي يعقدانه. رفعت عيني فوق الأجولة فأكتشفت أن تخميني لم يبلغ سوى نصف الحقيقة، لأنه كان رالداً على ظهره مثل فارس مصروع، بينما جثت هي على أطرافها الأربعة، وبلت كما لو كانت تحاول أن تنفث قدراً من الحياة في الجمرات الخابية بأن تنفخ فيها بعض الهواء، وبعد قليل، أثمر جهدها ثمرته، وتأجج اللهب في الجمرات من جديد...

بمضي تقرير أيزموند في إطلبات واستطالة حتى ليكون من غير المجدي أن ننقل منه المزيد هنا، كانت الفتاة مصابة بالقلمة مستعرة الشيق، رغم أن أيزموند كان أقل خبرة

بكثير من أن يدرك هذا. لقد دفعت فارسيها إلى مزيد من النشاط ثلاث مرات، ثم تركته في النهاية غارقاً في نوم بلغ من العمق أن أيزموند كان أخيراً قادراً معه على أن يخطو على أطراف أصابعه فوق جسده دون أن يشعر به.

وتكن الصور التالي كان نموذجياً ومطابقاً لما هو منتظر من أيزموند حتى أنه يجب أن يسجل هذا أن يعترف بأنه لم يكن قادراً على رؤية ما يجري ولكن الأصوات كانت دالة ولا يمكن الخطأ في تفسيرها حتى لقد كانت الرؤية غير ضرورية. والآن، وقد رأى الفتاة عارية، فإن فكرته الوحيدة كانت هي كيفية أن ينقاسها مع فني الإصطبل، إنه يكرر عدة مرات أن جمال جسدها قد أذهله، وكان قبل هذا بظن دائماً أن الناليين الإغريق قد أسرفوا في التباقة في جمال شكل الجسد الأنثوي، وفي طريق عوبته إلى المنزل، خطر له أن الفتاة يمكن أن تخضع للتأثر والتهليل لكي تسلم نفسها. لم يكن عليه إلا أن يهتد بأن يبلغ شقيقته بأنها تعشق فني الإصطبل. ذهب بعد هذا إلى حجرته لكي يغتسل وينفض الثراب عن ثيابه، ثم ذهب عبر جناح الخدم إلى حجرة ميسو، ولم يلح له أن ثمة أحداً بالداخل، فتح الباب وأصل برأسه في الحجرة.

"كانت حجرتها خالية، وللحظة ناقشت نفسي أنتظرها أم أعود راجعاً إلى حجرتي. ثم سمعت صوت مياه تسيل في الرخاض الملحق بالحجرة. وهو قسم صغير من الحجرة نفسها يفصله عنه حاجز صغير. ففكرت أنها هناك بالداخل. أغلقت الباب خلفي وخطوت إلى الداخل على أطراف أصابعي. ولكن أحد ألواح الأرضية صر تحتي هناك، "من هناك؟" فقلت بأكثر ما استطعت هدوءاً، "أيزموند" أظلت برأسها وقالت، "نوه، سامحني، إنني من دون ثيابي. وقمت في مكانتي، شعراً بأنني أبتعد لا شأن له، الأمر الذي أعصبي. أمسكت بثوبها، الذي كان ملقى على أحد المقاعد، ورفعتة لتغطي جسدها عند العنق وهي تسأل، "تحمّل رسالة؟" ولكنها كانت تبتسم كلما لو كانت قد وجدتني ممسكاً، وسامحني هذا على التخلص من ثوبي. كنت أخلق فيها بقوة، محاولاً أن أعرف إن كانت ترتدي قميصاً أم لا. حتى أنها لم تبق خويلاً في ذلك من هدفي. كانت هذه هي أول مرة أعرف فيها أن تبادل في الآراء يمكن أن يحدث دون نطق بكلمة واحدة. تمركزت عيناها من قدمي إلى رأسي. وعادت ثانية. قلت، "الجو بارد هنا، أو شيئاً من هذا القبيل، ثم خطوت إلى الأمام، وأخذت يديها وأمسكت بهما فرفعتهما وأظلمت تحت ذراعيهن. كانت ترتدي القميص، ولكنه كان مثدياً

تحت عنقها، ثم أن منظر الكرتين غير المحميتين دفعتاني إلى العمل بقوة حتى لنني لم أطل الزبد، وإنما أخذت الثوب منها وألقيته على الفراش. على النهدي الأسير رأيت آثار صفين من الأسنان وحينما بدا عليها أنها على وشك الاحتجاج انصرفت إلى تلك الآثار. هبطت بعينها نحو صدرها وقالت شيئاً بالفرنسية لم أستطع سماعه. ثم حنيت رأسي إلى الحلمة الصغيرة التي وفقت الآن عارية. وبينما كانت تنتظر، جذبت حزام القميص. توقعنت منها أن تغفر مبتعدة، ولكنها وفقت في مكانها بهتوء وتركتني لكي أخذها بين شفتي. ثم بعد لحظة وضعت يدها على رأسي وربتت على شعري، ثم حلت رباط حزامي. لم أضيق وقتاً أكثر من هذا. وإنما دفعتني إلى الوراء نحو الفراش الصغير، ووضعت يدي على الجزء المنخفضة التي كانت مبتلة لأنها كانت تغسلها حينما دخلت الحجرة. ومون أن أدخل بنطالي أو حذائي سقطت فوقها، ولجتها دون صعوبة...

مرة أخرى يبدو الوصف أطول جداً من أن تقتطفه كله. لقد بقيا في حجرتها ساعة أخرى، ودفعت الفتاة للهدنة إلى أن يمارس الجنس معها ثلاث مرات أخرى. وبعد ذلك تبادلوا الحب، واعترف أيزموند بأنه قد راغبها مع شون رافرتي. وبدلاً من أن تشعر بالهانة، ضحكت ضحكة مرتفعة، وسألته إن لم يكن قد شعر بالغيرة فقال، "لم أكن حينذاك. ولكني أشعر بها الآن" قالت له إن ذلك سخف لا معنى له، طالما أن الفروض في الرجال والنساء أن يتبادلوا التمتع.

من الصعب القول إن كان أيزموند سعيد الحظ أم سيئه في اختياره عشيقته الأولى. حفا إن آراءه حول الاتصال الجنسي غير الشرعي كانت قد تطورت من قبل تطوراً كبيراً. ولكن قصة حب أكثر طبيعية. ذات جانب عاطفي بالإضافة إلى جانبها الجسدي. وكانت جنسية بأن تساعد على موازنة تلك الآراء. كان ما يزال غير مدرك لأن هناك شيئاً ما غير طبيعياً في مطالب مينو الجسدية طالما أنه وجد نفسه قادراً على أن يمارس معها الجنس بالكثرة التي تريدها. كذلك فإنه ليس من الحقيقي تماماً أن الانجذاب القوي بينهما كان محروماً من جانبه الوحيد. بل لقد كانت هناك نقطة اعتبرها هو اندماجاً معها. لقد كشف عن التفكير في كلاريسا ولطيفين، أو جولي وسانت بسو، وراح يفكر في قصتهما باعتبارهما قصة مينو ودي جريو - رغم أنه يعرف بأنه كان قد صرف النظر من قبل عن مسرحية بريغو باعتبارها شيئاً سخيفاً وغير واقعي.

من المؤلف أن أيزموند لا يقول لنا شيئاً عن تاريخ مينو السابق، ولا حتى عما إذا كان قد سألها هو عنه أم لا. (لقد كان من المهم أن نعرف إن كانت حيوياتها الجنسية غير العادية ضرورية أم مكتسبة)، إنها تبدو بشكل واضح في صورة حالة من حالات الغلظة الشبقية جديدة بأن ندرس في كتاب مرجعي. كانت تحب أن تعض بالأسنان وخاصة في نهديها ورديها. وكانت تحب أن تضرب على مؤخرتها بشرائط من الجلد...

وفي خلال الشهرين اللذين استمرتهما تلك العلاقة، لم تكن تخفي عنه أنها كانت تعضي أكثر مما تستطيع من الوقت مع شون والفرتي، وكان أيزموند دائماً ناعماً تحت سيطرتها حتى أنه لم يشك في ذلك، بل إنها حاولت أن تقنعه بأن يخفي في الإصطبل مرة ثانية لكي يراقبها وهي تمارس الجنس مع شون. ولكن كغيره أيزموند - أو ربما تظاهره كحلفائي البروتستانتي - ثار ضد ذلك.. بل إنه اعترض على اقتراحها الذي قالت فيه أنها ستخرج شون عن علاقتها به هو، وأن فلانهم يمكن أن يشتركوا في الاعيب الإصطبل.

في أغسطس اتخذت القصة تحولاً غير متوقع، بدفع الرء إلى أن يتساءل إذا كانت مينو - وسماها الأخير لم يسجل - واحدة من أكثر نساء زميلها تعقيداً وأبعدهن عن التقيد بنوصفات العتادة. فقد حدث أن هناك تدعى دلفين لانير. وهي إحدى معارف جوديث، جاءت لكي تقيم في قلعة دونهيلي، ويستطيع الرء أن يستمتع من وصف أيزموند لها أنها لم تكن ذات جمال تقليدي، لأنه يقول أن وجهها كان يتمتع بنوع من الجمال الناتج عن رفاتها وعينها الواسعتين البينيتين. وكان من سوء حظها أيضاً أن تكون مشوهة تشويها بسيطاً. فقد حدث أن سقطت من إحدى العريشات في طفولتها فانتسرت عظام أحد رجليها وأحد ضفيريها ولم يستطيع الأطباء أن يعيدوا العظمتين إلى حالتها الطبيعية، فكان عليها أن تحمل نفسها على ساقها بطريقة مضطربة. ورغم أن أبائها كان فرنسيًا فقد كانت أمها أيرلندية وكانت تتحدث الإنكليزية بلالاهة (ومن الأمور ذات الغزى أن أيزموند يتحمل مشقة تسجيل التفاصيل عن فتاة من طبقته، بينما هو يتجاهل تلك التفاصيل الخاصة بمينو، الأكثر تعقيداً وجذباً للاهتمام).

كان أيزموند صبيها في السادسة عشرة من عمره. رومانتيكياً، وكان ينظر في تأمل إلى كل امرأة يقابلها. فإذا كانت مينو صورة من مانون ليسكو. فإن دلفين كانت أقرب إلى شخصية جولي - أو ربما كانت أقرب إلى "كلير" الرفيعة الخطوة الطبع في نفس الرواية. رأى

أيزموند أنها كانت على قدر من الحجل، فتحصل مشقة أن يسليها، أعارها كتاب "مينو الجديدة" بعد أن اشترع منها وعداً بأن تخفيه عن الأنظار. (والسبب في هذه المشقة من السرية ليس واضحاً، لأنه يلحصر في مكان آخر أنه لم يكن بوسع أبيه ولا أمه أن يتحدا الفرنسية وربما كان يريد أن يقيم مع الفتاة نوعاً من العلاقة الخاصة). ولكنه كان يخشى أن تلعب مينو بالغيرة، فحاول ألا يكون اهتمامه بالفاتمة الجديدة شديد الوضوح. ولكنه كان يبغض مينو فخرها! فبعد عدة أيام، وكان قد قضى معها ساعة في فراشه، قالت له أنها تظن أن دلفين واقعة في هودود قالت له أنه غبي لأنه لم يلاحظ ذلك. وقرر أيزموند أن يكتشف الأمر بالأساليب العادية، وهي أن يجعل يده تحتك بيلها وهي تمر إلى جانبهم، وأن يلمس يدها أو وسطها حينما ينفرد بها، لكي يرى إن كانت ستقبل مثل هذا النوع من الالفة. وقد قبلته فعلاً. فعلى أثناء نزهة وسط خراب الدير أمسك بها في أحد الأركان وقبلها. فانتفجرت في البكاء. ابتعد هو منزعجاً وقد اختلط عليه الأمر. لكي يسأل مينو رأيها. قالت أنه مينو أن دلفين كانت أكثر جذبة لإيمانه إزاءها، وأن دموعها كانت لأنها حدثت ذلك. وهذا تحليل جدير بالاحترام. وهكذا حينما انفرد بها في المرة التالية سألها أيزموند، "ألا تخشين أن أقبلك؟" وأكد لها أنه لن يفعل ذلك ثانية إذا هي اعترضت. احمر وجهها، وقالت عدة جمل لا رابط بينها، وحينما ضغط عليها، اعترضت بأنها لا تعترض على ذلك. دعاها أيزموند لجولة أخرى بين أطلال الدير، وأعضى عصر ذلك اليوم وهو يقبلها. وفي عودته، كان لابد أن ينطلق إلى حجرة مينو لكي يمتلكها، وكانت سيطرته على نفسه طول النهار أكثر مما يحتمل، قالت له مينو إنه عاشق بليد، وأن ما يحتاج إليه هو الرقة وللأطفاة، إن عليه أن يربت على وجهها وذراعها، وأي جزء من جسدها يتصانف أن يكون مكشوحاً. أي أن يعودها أن تستجيب باستمتاع للمسته، ثم يتقدم بعذر نحو المناطق المحرمة. ويستغرق وصف أيزموند لتلك الحملة تسع صفحات من الكتابة الضيقة الحروف والمساحات. كانت دقائق عملية الإغواء تسحر له، وبعد أسبوع سمحت له بأن يكشف نهديها لكي يلاطفهما، وأن يقبلها فوق الرصبتين - رغم أنها كانت تمسك بقوة بطرف الثوب بكلاً يديها لكي تمنع أي مزيد من التقدم. تناقشا في شخصيتي جولي وسانت بربو، ووافقت نظرياً على أن شخصين في وضعهما لابد أن يكونا عاشقين. ولكنها - في التطبيق - وضعت خطاً فاصلاً جاداً بين اللامحظات وممارسة الحب.

غير أن مينو الضريفة في نوعها قدمت اقتراحاً أثار رأسه. وكانت مقتنعة بأن دلفين كانت فاضلة. (الفضيلة نظرية بسبب عدم الخبرة) - حسب تعبيرها - ولكنها كانت تملك فسولاً مكافئاً. قالت لأيزموند أن يأتي بدلفين إلى الإصطبل في عصر اليوم التالي وأن يؤكد عليها ألا تنسب بأي صوت حينما يدخل شون واقترتي لكي ينشر القش استعداداً لدورتها المعتادة من ممارسة الجنس. فإذا رفضت أن تنظر، فإنها فاضلة حقاً. ويكون من الأفضل لك أن تهرب قبل أن تتزوجك. ولذا نظرت، فإنها ملكك بالفعل*.

وبينما كانت الساعة الفاضلة تشتت، أصبح أيزموند عصبياً، وقرر عدة مرات أن يدخل عن كحل هذا المشروع للمستحيل لتناقى للطبيعة والمقل. وانتباه شك في أن الفتاة التي تستطيع أن تضع خطاً فاصلاً بمثل تلك الحدة، حبيزة بأن تهدم اللعبة مكلفها بأن تكشف عن مكان أخفيتهما، وأعلنت شغيفته عن رغبتها في القيام بزيارة لبعض الجيران عصر ذلك اليوم، فقالت دلفين أنها تود أن تذهب معها. وأطلق أيزموند تنهيدة ارتجاج عظيمة. ولكن دلفين - في اللحظة الأخيرة - عادت فقالت أنها تشعر بصداق، وقالت أمه أنها ستذهب بدلاً منها. وبدأ أيزموند يلعب لعبة أشبه بالروتيت الروسي ضد القدر. لقد أراد للمشروع أن يفشل. ولكنه كان راغباً في أن يمضي في تنفيذ ككل خطواته - باحثاً بلهفة عن أول عذر يبرر له لتخلي عنه. ذهب إلى حجرة دلفين في الساعة الثالثة والنصف وسألها إن كانت تشعر بالرغبة في الشئ معه قليلاً. خرجت معه فاتخذتا طريقتهما المحب صوب بلدة أدار. ثم عادا سائرين إلى جانب الجرى اللاتي وهما يلقيان الحصى في التستقعات الضحلة. وتحدث أيزموند عن مافولته، وعن الساعات التي أمضاها في قراءة الكتب المتنوعة في الإصطبل. ولا يبدو أن في هذا شيئاً أسوأ مما جاء في كتاب "الراهبة" لسزافرا بيهن. أو في كتاب "فردينانا" أو "الكونت فانوم" لاسمو ليننس. وبينما كانتا يعبران هذاء الزرعة، اقترحت دلفين أن يلقيتا نظرة على الإصطبل. وكانت الساعة الآن النصف بعد الرابعة. وكانت هناك فرصة لاحتمال أن يكون شون بالدخل بالفعل. ولكنه لم يكن هناك. فأدها أيزموند فوق السلم إلى القسم العلوي الشبيه بالنصصة، ثم ذهب إلى المكان الذي كان قد أعده بالفعل في الركن - واضعاً أجولة نظيفة على الأرضة - ثم ألقي بنفسه عليها. جعلت دلفين نفس الشئ دون تردد - ولا شك أن هذا مكان هو ما كانت قررته بينها وبين نفسها.

أضعضاً قليلاً من الوقت في الحثيث. ولكننا غرقنا على الفور في القبلات واللاطفات التاعمة التي عبرت بسرعة إلى النقطة العهود من الألفة. لم تكن ترتدي أية مشدات، ولذلك كان سهلاً أكثر من المعتاد أن تكشف نهدتها. وأن أبدأ الهجوم بشفتي. وكنت قد لاحظت من قبل أنني أستطيع أن أزيد متعتها بأن أعض الحلمتين برفة شديدة، ولحظتها كانت تشبك ككاحليها ونصقظ بشدة في حركة تلقائية، الأمر الذي استنتجت منه أن النقطة التي تنضغط بيتهما كانت مستعدة لتقبل مزيد من الاهتمام. ولكن حينما تحركت الشفتان فوق ركبتيها، أسرعت تفرس أصابعها في شعري وتمسكتني بقوة. كنا في هذا الوضع حينما سمعنا صوت الخطوات القادمة صاعدة على السلم، فأسرعت من فورها نسوي نيل توبها. وكانت على وشك أن تجلس حينما وضعت أصبعي على شفتي وهزنت رأسي محثراً. جلسنا في مكاننا، لا نكاد نتنفس. ثم سمعت حفيف القش بينما كان شون ينترد وبرنيه فوق الألواح بشوكته الطويلة، ثم هبط إلى أسفل، وعاد حاملاً "حوضاً" آخر من القش، وهمست لها أن تظل صامتة وأن ككل شئ سيكون على ما يرام، لأنه لم يكن سوى قش في الإصطبل. وهو صديق خاص لي. ولكن حينما حاولت أن أقبّلها ثانية هزت رأسها ودهشتني بعيداً.

سمعنا شون يهبط ثم يخرج من الباب فقالت: "أسرع، هذا هو وقت الخروج. ولكن حينما وقفنا سمعنا صوت مينو في الطابق الأسفل، فجلست بسرعة مرة أخرى دون أن أحثها على الجلوس. كنت قد رقت الأكياس للبهة أمامنا بحيث نستطيع أن ننظر من ثغرة بين اثنين منهما دون حاجة إلى الوقوف. انزعجت دلفين وهمست تقول، "ماذا إذا كانا سيجبران إلى هنا؟" ولكنني طمأنيتها، مشيراً إلى القش. أظن أنها في تلك اللحظة بدأت تشك في الغرض الذي كان شون يرتب القش من أجله بهذه الطريقة لأنني رأيت وجهها يصطبغ بالحمرة.

صعد شون أولاً ووقف هناك، وما إن لاحظت به مينو حتى ألقت ذراعها حول عنقه ومنحته قبلة بالقة الطول. عرفت طبيعتها لأنني كنت قد خبرتها بالفعل. فقد كانت ماهرة بصورة رائعة في إشعال النار في الدماء بصر كانت حريصة من لسانها. ثم حلت الحبل حول وسطه حتى سقط سرواله حول كاحليه... لاحظت حينئذ بابتهاج أن دلفين كانت تتابع ككل حركة بأكثر ما يكون من الفضول والتذكرك ما قالت مينو من أنها أصبحت بالفعل ملكاً لي. حينئذ مددت يدي وجنبت مكثفي توبها إلى أسفل. ومددت كلاً من يدي تحت إبطه لكي أضع كلاً منهما فوق أحد نهدتها. لم تبدل أية محاولة لنفي. كان بوسعي

إن أحسن بقلبه يضرب ضرباته الثقيلة السريعة تحت أصابعي. كانت مينو الآن دون ثيابها ركبة أمام شون. وكنت أكثر اهتماماً بالبحث عن الكيفية التي قد يمكنني بها أن أستفيد من موقعي الحالي مما كنت مهتماً بمتابعة تطورات مباحثها الحارة... وعلت إلى ملاطفتي فرفعت ذيل ثوبها فوق مستوى ركبتيها، وسمحت ليدي بأن تضغط على فخضها. وفي هذه المرة لم تاتي بأية حركة لكي توقفني. ولكن حينما حاولت أن ادس إصبعي هزت رأسها وضغطت فخذيها بإحكام أكثر. كان تنفسها الآن ثقيلاً حتى أن صرير الفش وحده هو الذي منع الآخرين من سماعه... غمرت وضعي، وبدأت اعض نعليها. ثم قبضت أصابعها على شعري... وتطلعت من صدرها تنهيدة طويلة، ثم هوى جسمها إلى الأمام، وكانت على وشك السقوط بكل ثقلها لو لم أكن على استعداد لدعها بيدي. كانت الأصوات القادمة من ناحية الفش قد بلغت الآن مرحلة الصراع ولكنها كانت غير مبالية كما لو كانت تلك أصوات عاصفة تهب في الخارج، تركت نفسها تسقط على الأحولة. وأغمضت عينيها، وهي تعد وتضرد ونسوي ثوبها لكي تستعيد رونقها. هذات من نهفتي بشيء من الصعوبة، وأنا ألاحظ عودة تنفسها إلى انتظامه، ولكنني بعد خمس دقائق أو نحوها، وخشية أن تفرق في النوم تفقدت ما أحرزته من تقدم، فرفقت إلى جوارها وقبلتها. رفقت في مكانها كما لو كانت نائمة، فوضعت يدي على ركبتيها، ثم زحفت بها... وكانت الأصوات القادمة من الناحية الأخرى للحاجز قد توقفت، وكان كل شيء قد صمت الآن حتى كان يوسعنا أن نسمع حركة قار صغير. ولذلك لم أبدأ أي محاولة أخرى لتحسين وضعي، وإنما رفقت في مكاني، ويدي فوق فخذي الداخلي الليل... رفقت في مكاننا هناك لمدة تقرب من ربع الساعة، ثم سمعت همس مينو، فعرفت أنها قد جددت طاقتها، وأنها الآن قد عزمت إلى إثارة خنزيرها اللانم الذي كانت إجابته مجرد زمجرة... وانصرفت ذراعاها بقوة حولي، فغطيت فخميها بقبلة.

نمنحنا لهجة هذه العادة كلها انطباعاً بأن إيزموند كان قد أصبح بالفعل كازتوفا لا يهرك شيئاً للظروف أو للمصادفات. ولكن الأحداث تكشف عن عدم صحة ذلك الانطباع. إن كازتوفا كان جليراً بأن يتناهب النعب من الفتاة قبل أن يستعد عنها. أما إيزموند فقد قرر أن يجهب، وأنه سوف يتزوجها، ومن المحتمل أن يكون قد شعر بالخجل من الخطة التي اتبعها والتي تغلبت على مقاومتها. وكان بالتأكيد يدرك الضرر الذي قد ينزلها بها إذا أبدى أي تناقض في رفته إزاء اهتمامه بها. كانت بالفعل تنعمر بالحجل منه لسماحها

له بأن يطلع على استئثارها الجنسية، ولكن خجلها كان أكبر لأنها سمحت له بأن يستفيد من هذه الاستئثار، ولو أنه قد هجرها كلية بعد استسلامها، لكان هذا قد بدا لها في صورة الجزاء الذي تستحقه فعلاً. ولكن إيزموند صمم على أن يثبت أن هذا لم يكن حقاً، لقد نمرد بها. بعد أن غادر شون ومينو الإصطبل، وهذا صرير الفش مرة ثانية. فقال لها إنها قد أصبحت مخطوبين، وفي تلك الليلة، حينما أدارت مينو مقبض باب حجرته، وجدت أن مزلاج الباب مغلق من الداخل. وفي الصباح التالي، بحث هو عنها وأخبرها أنه مخطوب وإنهما يجب ألا يكونا عاشقين من تلك اللحظة. ويبدو أنها تقبلت هذا الموقف بطريقة فلسفية، بل إنها كانت متعاطفة معه إلى الحد الذي جعلها تحذره من أن يحتفظ بسر هذه الخطوبة بعيداً عن والده، فعمل بنصيحتها، ولكن دلفين لم تكن بهذا القدر من الباطة، لأنها أطلقت جوديث، شقيقة إيزموند، على السر، الأمر الذي ثبت أنه أسوأ أنواع التقلير. كان من الواضح أن جوديث مفرمة بدلفين، وربما كانت تستطيع أن ترحب بها كزوجة لأخيها في ظل ظروف مختلفة. ولكن دلفين كانت كاثوليكية رومانية، وكان آل دونجلي من البروتستانت. وكانت هذه هي أكبر العقبات جدية، لأن الكاثوليك في أيرلندا كان مندوباً كان سادة الرب من البروتستانت. أما الكاثوليك فكانوا مطرودين من دائرة الاجتماعية وكانت دلفين ابنة أراستقراطي فرنسي ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف، طالما أنهم كانوا في أيرلندا. وأشارت جوديث إلى هذه الحقيقة، وكانت تنوع ومناقشات طويلة، وبدأ إيزموند يشعر بأنه ارتكب غلطة جسيمة. كان أمراً لا أهمية له عنده على الإطلاق سواء تحولت دلفين إلى البروتستانتية، أو أصبح هو كاثوليكياً، أو أصبحا كلاهما يوديين. لقد أراد أن يتزوجها لأنه مدمن لها بالحب والحماية، ولأن بغواءه لها قد منحها إحساساً قوياً بالرعاية عن نفسه. وقد أصبحا الآن "مخطوبين" وكانت هي ترفض حتى أن تنهبط إلى الإصطبل وهو يقول بسخرية في مذكراته إنهما كانا جليدين بأن يكونا أكثر سعادة لو أنه لم يذكر كلمة الزواج لها.

واستمتعت جوديث بدورها باعتبارها خاضية وموقفة بين الرؤوس في الحلال. ونصحت إيزموند بالاقول لوالديهما شيئاً حتى يتمكن من إعلان أنها ستتحول إلى البروتستانتية. وبعد ثلاثة أيام، رحلت هي ودلفين إلى دبلن لكي يعرضا القضية على والديها. وكانت هذه هي آخر مرة يراها إيزموند فيها. فقد عانت جوديث إلى فرنسا على الفور مع عائلتها. وأطلق إيزموند تنهيدة ارتجاف، وتسلل عائداً إلى فراش مينو. ولكنه فقد مينو هي

الأخرى بعد شهرين، حينما ضابطها السيد دونيللي الكبير في الإصطبل مع صبي الإصطبل الجديد. وكان السيد يتمتع بما يكفي من سعة الأفق. ولكنه كان مهتماً لفضائل ولده وزنه أرسلت ميتو في عرب البريد إلى ليونز. في الدرجة الثالثة، حاملة مرتب شهر وعلفاً من ثياب جوديث القديمة. وأهداها أيزموند عشرين جنيهاً كان قد أذخرها للنزلة والاستمتاع. وقال لنفسه أنه أصبح سعيداً بقدرته على أن يقول أن روحه - وأعضائه الأخرى بالتأكيد - قد علقت إليه، ملكاً خالصاً له من جديد. ولكن بعد رحيلها بشهر واحد، بدأ أيزموند يومياته بقوله: "إنني غالباً أكثر من يعيشون تحت الشمس لعتة وتعذيباً للذات..." كان قد تذوق من اللهاج ما هو أكثر جداً من أن يسمح لنفسه بعدها بالتنوع لهذا لوجود الداجن الساكن لأحد السادة للزارعين. لقد اقتسمت تجربته مع ميتو ودلفين منهاج تعليمية التام في مجال فن الحب. وكان قد خسر بهجة الغزو الذكري. وإحساس السيطرة على عواطف امرأة. بالإضافة إلى التخلص من كل مكبوتاته الجنسية. كان يتوق إلى الجنس مثلما يتوق مدمن الخمر إلى دنان. ولكن لم يكن هناك من تقدمه إليه، ومضى يتخفف من إحساسه بالإحباط في يومياته، محاولاً أن يعيش ساعاته مع ميتو مرة أخرى، وأن يستعيد لحظات لغوته ليتو. وحاول أن يقرأ. ولكنه وجد أن روسو صار مضجراً، وهولنير ضحلاً. وشترين مزعجاً دون مناسبة. ولم تستطع سوى مكتب جونسون، "راسيلاز" و"أمير الحبشة" أن ترضي توفقه إلى الجدية، وراح يقرأ الكتابين ويعد قراءتهما حتى حفظهما عن ظهر قلب. إن جونسون يثير مسألة غربة الإنسان في شيء "أكبر من" السعادة، وأكثر من مجرد القناعة والرضا. قبل ذلك بستة شهور، كان أيزموند جديراً بأن ينتظر إلى هذه الرغبة باعتبارها رغبة في الإشباع الجنسي. وفي التجربة، وفي النعمة، ولكنه كان يعرف الآن معرفة أفضل من ذلك.

بعد ذلك، نأى إلى ما كان بالنسبة لي أكثر الأجسام اليومية أهمية. حينما كان ديسمبر الماطر يخلي مكانه ليناير، غرق أيزموند في أزمة من الانقباض العصبي الحاد، ضاعفها نزاعه على والده الذي حدث في أواخر ديسمبر أن هاجمته وضربته بقسوة عصابة من الشرابين يبلو بشكل غامض أن موافقهم كانت سياسية. وقعت هذه الحادثة في الظلام، حينما كان الأب عائداً من منزل خاص محلي غير محبوب، ضرب جواده بحجر، ثم أصابه على الفور حجر كبير آخر فوق عينه اليسرى، فسقط عن جواده فاقد الوعي. وحينما لم يعد إلى البيت عند منتصف الليل، خرج أيزموند وجماعته من الأتباع وسط عاصفة لكي

يبحثوا عنه، فوجده يجتر نفسه على طول الطريق نصف عار. وما زال ينزف دماء بشدة كان منظر الجراح مخيفاً أكثر من حقيقتها، فبعد عشرة أيام في الفراش، عاد إدوارد دونيللي معافى قوياً كما كان. ولكن أحداً لم يستطع أن يعثر على أثر للمعتلين الذين من المحتمل أن يكونوا هرباً من البحارة كانت سفينتهم تحت الإصلاح في ميناء كاربيرت على مصب هر شانون.

صدم الإقليم كله بسبب هذا العنف، رغم أن إدوارد دونيللي لم يكن بالرجل محبوب، فقد كان هناك الكثير جداً من الفاقة والبؤس في أيرلندا، من نصيب الفلاحين وحدهم. للدرجة تمنعهم من الشعور بأي تعاطف مع مزارع بروتستانت على شيء من الثراء. كانت السرقة شائعة. وكانت هناك أعداد من عصابات قطاع الطرق تساوي ما يوجد منها في كورسيكا. ولكن الريف حتى عام ١٨٦٠ كان هادئاً نسبياً ويسوده السلام. ثم بدأت المشاكل مع بداية حكم جورج الثالث، كان هناك اضطراب في الأمور الزراعية، وبدأ سادة الريف الكاثوليك في استعادة شعاعتهم بعد إخضاع لليعاقبة. ولم يكن إدوارد دونيللي مؤيداً لجورج الثالث، ولكن باعتباره بروتستانتياً كان ينظر إليه كعميل للمفتصين الإنجليز. ولكن أيزموند كان قد شب في جو من الأمان، ولم يكن يوسع الفلاحين أن يكونوا أكثر خنوعاً وذلة، فكان دائماً "صبياً لطيفاً وسيماً يستحق تقدير الشرف" وما إلى ذلك... ولكنه الآن، وفي حالته العصابية من الانقباض، بدا له أنهم محاصرون من قبل جيوش معادين ينتظرون جميعاً الفرصة المناسبة للضرب في الظلام.

بعد ذلك بوقت قصير، تلقت جوديث أخباراً عن دلفين. كانت مخطوبة وعلى وشك الزواج من محام محلي. ولم يذكر اسم أيزموند في الخطاب الذي من المحتمل أن يكون قد كتب تحت إشراف أم دلفين، ولكن كانت هناك جملة تقول، "لا أستطيع أن أصف البهجة التي أشعر بها حينما أتذكر ساعات حوارنا السعيدة في الإصطبل القديم" ولم تفهم جوديث معنى هذه الجملة، فإنها لم تذهب أبداً إلى الإصطبل القديم مع دلفين، ولكن أيزموند أدرك المعنى. غير أن الضحك هو أنه كان قد نسي دلفين تقريباً. ومن المؤكد أنه لم تكن لديه أية رغبة في أن يكون زوجها، ورغم هذا فقد ملأه الخطاب شعوراً بالبؤس والغيرة. وعرف ما يتصف به هذا الإحساس من سخف. وأنه لم يحبها. وأنه كان سعيد الحظ إذ تجنب الوقوع في شرك ارتباطات أكثر غوراً، ولكن معرفته لكل هذا لم تؤد إلى أي فرق، فكان كلما فكر

في ملاطفتيهما وسط خراب الدبر أو في مخزن القش. اجتاحه إحساس بالخسارة الفادحة، ينضاعب هذا الإحساس إلى درجة لا تطاق لأنه كان يعرف أنه نتيجة لعدم وجود ما يفكر فيه غير هذا.

في فبراير كان مريضاً لمدة ثلاثة أسابيع بتأثير جرثومة معوية، وتركزت أفكاره على النوم حول الموت وحول عفونة القر. قرأ صلوات جونسون، وتأمل في كتابات روسو، ثم احتضن هجاء لحمة من "الحقيقة" التي كانت تروغ منه على الدوام. لقد قال روسو إن ما كان طبيعياً فهو خير، وإن الشر ينبع من تعقيد الإنسان الذهني، ومن تدخله في شؤون الطبيعة. ولكن ليس العقل نفسه تدخل في شؤون الطبيعة وقطعاً لمسارها. نتاجاً مصطنعاً لها؟ إن الحيوان لا يحتاج إلى أي قدر من العقل يزيد عن القدر الضروري للتغلب على مشاكله اليومية. وقد طور الإنسان ذهنه لكي يخدم كسله، لكي يخلق حضارة مريحة دائمة. ثم لما خلقها (ومن الهم أن تتبين هنا أن ايزموند قد ظن أن القرن الذي عاش فيه هو الكلمة النهائية في التعقيد الذهني الحضاري) لم يعد لديه ما يفعله سوى التفكير. وكل فكرة تبعده خطوة أخرى عن الطبيعة.

ولكن الشيء الذي بث الذعر في قلب ايزموند أن هو شكه في تلك الفكرة قد فسرت إجهاده العصبي وضجره. إن تولدهذه الذهني قد حكم عليه بأن يمتلك إحساساً بالحقيقة. ووقد الدكتور جونسون أمامه باعتباره مثلاً حياً لا يمكن أن يحدث حين يكون الإنسان متوقفاً ذهن أكثر من اللازم. سيعيش حياة بكاملها من اليأس وتعذيب الذات، مع ومضات قصيرة من الإحساس بالارتياح. وبدأ ايزموند يفكر جدياً فيما إذا لم يكن من الأفضل له أن يموت. "ككل شيء أنظر إليه بذكرني ببؤسي، فمثلما تعبد أي ذكرى لعشيق مفقودة إحساساً مقبضاً باليأس، كذلك فإن أي شيء طبيعي تقريباً بذكرني بمرأيتي المفقودة. تذكرني أطلال الدبر بالوقت، ومجرى الماء للوجل يجعلني أفكر في الفرق، والأشجار العارية تذكرني بالشائق، ونباح كلب يشعري بانني أسير في جنازة ميت. أما الأشياء التي لا تثير أي تداعيات خاصة في ذاتي -- حفاء ركوب، كتاب -- فإنهما يمكن أن تخلقا ياساً خائفاً يشبه الحزن".

وذا ليلة مظيرة في أواخر فبراير. جلس ايزموند في فراشه وواجه هذا الإحساس بالخبية وقطاع الأمل. إلا أن جسده لم يشعر بأي امتنان حقيقي لوجوده في حجرة دائمة، في

الوقت الذي كانت الرياح في الخارج على أشد ما يمكن، فهل يمكن أن يكون هذا الإحساس قد ثار كاستجابة للمطر نفسه؟ نهض وارتنى ملابسه، وأخذ معطفاً ثقيلاً، ثم خرج من المنزل وبدأ ثم إن أسوأ مخاوفه قد تحققت. ملأته الريح إحساساً بالبرودة، ولكنه استمر في إحساسه بالامبالاة إزاء التعب. سار إلى الدبر، وجلس مستنداً ومحتماً بأحد الجدران. ورغم أن قلبه كان مبللتين، لم تنجح فكرة نار دائمة في أن تمنحه ومضة من النعمة. كانت بعض البقرات تحتوي بالدار. حسدها لأنها يمكن أن تقدر قيمة ما تقدمه لها حظيرة دائمة جافة من مأوى. وتساءل عن مقدار ما يجب أن يواجهه من برد وتعبد لكي يستطيع أن يخرج من حالة سباته اللامبالى.

سار عائداً إلى المنزل، وعبر أمام الإصطبل. وهجاء تذكر مينو ودلفين، فغمرة ومضة من النعمة. دخل الإصطبل لكي يستعيد راحته، صهل جواد عجوز وأخذ نفساً عميقاً وثقلاً. تسلى صاعداً إلى المنصة العلوية، فوجد هناك حكومة من القش ما تزال حركتها إلى ما وراء الأحولة، ثم خلغ ذنبه للبللة، وغطى نفسه بالقش الخشن الجاف المتكسر. مكان هذا هو الموضع الذي وقد فيه بين فحلين دلفين. وحينما رقد في مكانه، يعيش التجربة من جديد مرة ثانية، غلبه النعاس. فغرق في النوم. وكان آخر ما سمعه من الأصوات هو شخير الجواد العجوز وتنفسه الثقيل أسفل الإصطبل.

كانت ليلته في الإصطبل نقطة تحول حقيقية في حياته وهو ما يظهر في محطات حياته اللاحقة. في أوائل مارس، أصبح الجو أكثر دفئاً على حين غرة. وهذا ما أغرى ايزموند بأن يتعمش في الحقول للوحة، ليجد نشاطه تحت أشعة الشمس التي بدأت تعد مثل شيء بخته بالحياة. وقف على ضفة نهر (ميج) للوحة، وتساءل عن السبب الذي جعله عاجزاً عن ملاحظة مقدار ما كانت الأمواج الصغيرة عليه من جمال. مكان صحيح الجسد وكان في السابعة عشرة تقريباً، وبعد شهور قليلة سيكون على وشك الشروع في الخروج إلى "الجولة الكبيرة". ولابد أن تكون هناك الكثيرات من مينو ودلفين. وفي يومه في يوم ٢٢ مارس عام ١٧٦٥، يكتب قائلاً،

"إن ما أجد نفسي عاجزاً عجزاً مطلقاً عن فهمه هو السبب الذي يدفع الكائنات الإنسانية إلى الغسل في رؤية التصميم الجميل المبارك الذي ينحدر في الطبيعة في شكل مكان؟ أية سكارنة غريبة أعمت عيوننا عن رؤية أعظم الحقائق وضوحاً وجدارة بالملاحظة؟ أي رب

بيده فوق مناهة مصورنا البشري. يراقبنا لكي يقيص على عتق ذلك الذي قد يكتشف
بأسفلة طريقه إلى بساطة الطبيعة السامية؟

قبل أسبوعين من رحيله إلى دبلن، ومن ثم إلى باريس (في إبريل عام ١٧٦٥) كان قد
يعكس في قصة حب قصيرة أخرى. ففي زيارة قام بها مع والده لأحد المستأجرين من
ملاحين. رأى مرة أخ البرجل ذات الثلاثة عشر عاماً التي كانت تعيش معه. وكانت الفناء
وانقة الجمال. وأمضى أيزموند ليلة متكاملة يحمل بها، متسائلاً عن الطريق إلى رؤيتها مرة
أخرى. ولكن الانتصار كان سهلاً مما توقع. لقد جاءت الفناء في اليوم التالي حاملة بعض
لبعض. وسار أيزموند إلى البيت معها، واتفق معها على موعد في المساء. وكانت الفناء مسحورة
به ولم تفلح إلا البعد الأدنى من المقاومة، ورغم أنها كانت عندها، فإنها كانت ذات تجربة
حسية سابقة. في هذا المساء الأول، سمحت لأيزموند بأن يكتشف نهديها وفخذيها. وفي عصر
اليوم التالي قابلها في الإصطبل، واستولى على عذريتها في نفس المكان الذي فلقها فيه بالفرق.
وفي خلال الأسبوعين التاليين التقيا كلما كان ذلك ممكناً، وأمضيا المزيد من الساعات في
الإصطبل على الأضواء، والقسم على الإخلاص الأبدي. ولكن أيزموند في هذه الحالة كان
يعرف أنه ليس واقعاً في الحب. لقد دفعته سهولة الانتصار إلى ما يكاد يكون خيبة أمل فورية.
كانت لفناء جميلة جداً لا يضارع، ولكنه حينما أعاد قراءة يومياته حول رؤيته لها
للمرة الأولى، بدت له كما لو كانت فكاهة ساخرة أخرى من فكاهات القدر يرهاناً آخر
على وقوع الكائنات الإنسانية في شرك للمناهة التي يبدو إليها في صورة أعظم الدهاء الحثاليين.

في صباح يوم ١٧ إبريل، استقل عربة ليمريك - دبلن، وغمره إحساس عميق من
الرضا بينما كانت شلال مونسز وحولها تترجم إلى قراء. في هذه المرة، على الأقل، كان
إليه المناهة قد هزم. فإن قصة الحب قد انتهت قبل أن تسنح الفرصة لمرارة ما بعد التثوق بأن
تتسلل إلى اللسان. وقد حلت حينذاك، في أثناء رحلة الست والثلاثين ساعة من ليمريك إلى
دبلن (١٢ ميلاً) أن صاغ أيزموند واحدة من أفكاره الثورية، أن الحياة معركة ضد إله
للمناهة. ولأنه أنه يفكر في هذه الحرب كما لو كان صليباً مرسوماً بين عنكبوت هائل ورجل
سمين ذي اثنين مشرعتين. وأن الميدان الذي يجب أن يختار للمواجهة هو ميدان الجنس..

إن قراءتي لما كتبه أيزموند عن رحلته إلى دبلن قد ذكرتني قصة بكليف بيتس.
حفيد إيزاك جيبكينسويد بيتس. واقعاً على الرغم من أنني قد حصلت على أقصى ما أمله

من مادة لاستكمال المقدمة لطبعة فليشر لكتاب (مذكرات أفانق إيرلندي)، وكنت قد
ربحت مبلغ الخمسة عشر ألف دولار، (لا أن هذا كله لم يعد له أدنى أهمية تذكر عندي
كان هناك الكثير جداً مما أردت معرفته عن أيزموند - ونحنما يتم طبع الكتاب، لا بد أن
سيكون هناك الكثير جداً من الناس الذين سيمتلكون مثل ما تملكني من فضول. ولابد أنه
سيمتلئ الميدان بالباحثين. ولقد أردت أن أعتبر على كل ما يمكن العثور عليه قبل أن يبدأ
الانقراض والزحام. كان أيزموند قد بدأ يسيطر على كتابها جس النسب، وقد انتهى الجلد
الثاني من المذكرات حينما كان قد غادر لندن متجهاً إلى بولوني في ٢٨ مايو عام ١٧٦٥. ولكن
من المؤكد أنه مستحيل أن يكون قد كلف عن كتابة يومياته بانتظام بعد ذلك. كانت
هناك أسئلة كثيرة أردت الإجابة عليها. ماذا عن جريمة قتل هوراس جيلبي، وعن الشائعات
حول أيزموند واللاوي ماري؟ وماذا عن "القصة" مع الشقيقات الثلاثة؟ ولماذا بكرة دكتور
جونسون دونيللي؟ وماذا عن "جماعة العنقاء" تلك، التي لم أحصل بشأنها إلا على إشارات
مثيرة للشبهة؟

بعد عودتي من منزل الدكتور أوهفرنان بيومين، تسلمت بطاقة بريدية من ميس
تيناء. كانت تقول: "إيلين مصابة بنزلة برد قوية، ولكنها طالبت مني أن أخبرك بأن الشرفين
على تنفيذ وصية أيزموند الأدبية كانا هما القس ويليام استون واللورد هوراس جيلبي
للخليفة تينا دونيللي". للحظة تملكني الارتباك. استون؟ أجل. كنت قد خمنت هذا من
قبل. ولكن وكيف يمكن أن يكون هوراس جيلبي منفذاً لوصية دونيللي الأدبية بينما هو قد
سبقه إلى الموت؟ شعرت بأغراء قوي يدفعني إلى القفز في السيارة والذهاب إلى قلعة دونيللي
لأن قراءتي لليوميات جعلتني شغوفاً بأن أراها مرة ثانية. ولكني كنت قد صكتبت بالفعل
إلى صديق بيتس لأخبره بأنني أنوي الذهاب إلى لندن في اليوم التالي، وشعرت بالانقباض لـ
فكرة هذا السفر. رافعت سماعة التليفون وأدبرت رجلي. قلعة دونيللي. أجابني ميس تينا، وتم
توضيح مشكلة هوراس جيلبي في لحظة واحدة. إنها كانت تشير إلى هوراس جيلبي الابن، ليس
صديق أيزموند. قالت ميس تينا،

"اعتقد أن هذا مما يمكن أن يدركه لاء بالدهشة، أعني أننا نعلم جيداً بأن أيزموند
قد وقع في حب ماري جيلبي".

"ولكن هل أنت واثقة من ذلك؟"

"لست واثقة تماماً بالطبيع. لقد قال والدي لإيلين ذات مرة شيئاً عن هذا، ولكنها لا تستطيع ان تتحدث الآن".

"لا تعرفين . اتفاقاً . أين اطلق الرصاص على نورد جليبي؟"

"اعتقد ان هذا حدث في بيته. في اسكتلندا".

شكرتها ووضعت السماعة، ان القدر حقاً يقف إلى جانبي، وقد توصلتني هذه المكثلة إلى فيه والراك نهاية القصص التي تقول بأن أيزموند قتل هوراس جليبي، فلو كان هناك حتى شك في مثل هذه الواقعة، فهل كان يستطيع أن يطلب من ابن جليبي ان يقوم على تنفيذ وصيته الأدبية وان يكون مشرفاً على تركته من المؤلفات والذكريات؟

- ١٥ -

■ كنت اشعر باستهياج وتفاؤل شديد حينما شرعت في قيادة السيارة متجهاً إلى بدين في صباح اليوم التالي. ولم يكن هذا مرتبطاً بكل الارتباط بدونبلي. كنت قد عزمت مسبقاً ان اسافر بالقطار، حتى نستطيع ديانا ان تستخدم السيارة، ولكنها في اليوم السابق رأت بجلاء عن سيارة "لاندروفر" مستعملة. وشعرت بأننا نستطيع الآن ان نذهب نحن هذه السيارة. وهكذا فقد اشتريناها على الفور. كنت اعرف ان هذا تصرف سخيف. ولكن هذا السخف نفسه سحرني، وبلدت غرايزي الخلافة في الانسياب. ابهجني أيضاً انطلاقي نحو الشرق، وذكروني بأول مرة جئنا فيها للإقامة في إيرلندا ففضينا إيماننا الأولي في اكتشاف البلاد والريف. خطر لي في تلك اللحظة ان لكل ما بهم في الوجود الإنساني هو اتساع معين في الوعي، وفي المعنى، وإنما يجب ان نكتشف الحيلة. حينما اشتريت هذه السيارة، كانت ذات ناقل سرعة أوتوماتيكي، وكان هذا الشيء اللعين ينقل السرعة تقريباً في نفس اللحظة التي اشعر فيها في تشغيل المحرك. أو يقطع التشغيل حتى كانت الآلة تتوقف عند أول تل في طريقي إلى البلدة. ولذلك فقد ركبت محل الإصلاح الغريب فيها ناقلة يدوية بدلاً منها، وعلي الآن الا اشغل الناقلة الأصلي حتى تشحن الآلة بالدرجة الكافية لكي تصعد التلال في راحة كاملة. ولكن إذا حدث ان استيقظت في الصباح بعقل بارد مكتئب، فإنني لا املك "ناقة

يدوية" أستطيع ان أشغلها حتى يسخن العقل إلى الدرجة الكافية. إنني كثيراً ما امضي الساعات. وأحياناً الأيام، محاولاً ان اقطع عقلي رغماً عنه إلى حالة من الاتساع، محاولاً تشغيل الضغط الداخلي لكي يصبح مناسباً للكتابة. وإلى حد ما أستطيع القول بأنني اكتشفت الحيلة، عشر دقائق من التركيز الكلي الكثيف الذي يضم الكائن كله - عضلاتي بالإضافة إلى عقلي. وحينما أقوم بهذا، وإذا لم يقاطعني أحد. فإنني أستطيع تقريباً ان لاحظ صفحا وعي وهو يرتفع، حتى تكف الأشياء عن التماثل في صورتها الكئيبة الحادة. إنها حيل تشبه بالضبط شربك أول كأس لك في الساء - تلك الومضة الدافئة التي لا تستقر في العدة - وإنما في الوعي".

ان البحث الحديث عن وعي، أدخلني في الواقع في حديث فيه شيء الكثير من الغربة. لغزته لن أتمكن من إيصاله إلى القارئ، إلا أنني سأحاول ان استطعت ان اصفه. لقد شعرت هكذا بأن هذا هو الشعور الذي انشأ أيزموند عندما بدا خروجه في "جولته الكبيرة" في عام ١٧٦٥. وحينئذ امتزجت في ذهني صورتان. الأولى كانت لأيزموند جالساً في العربة الراحلة إلى "لايمريك". وكانت صورة مكشيء حلمت به في أثناء الليل - والثانية كانت صورة الأشجار في "لونغ أيلاند" تبدو حياة كما لو كانت فدت من البرونز الصلي بالفوسفور، بينما بيقرلي تنحني فوقها. كانت هذه الصورة الأخيرة قوية جداً. كان بوسعي ان أشم رائحة بيقرلي شاعراً بنفس نهدها العاري على صدغي. ومع هاتين الصورتين انفجرت في داخلي نواير البهجة. إن ما تريد الكائنات الإنسانية ان تحققه لهما تلك اللحظات من الطراوة والاتساع. وإذا يغفلوها في كل مرة يضع فيها إلتاحتهم بين الأشياء دون تركيز على شيء محدد. انهم يريدون "استمرارية الوعي". ولنفرض ان رجلاً هال لنفسه، "من الواضح أنه لا شيء هاماً مثل هذا، منذ هذه اللحظة ساكس حياتي للبحث عن هذا الاتساع والاستمرارية..؟" وقد عرفت دون ان تخالني ذرة من الشك ان شيئاً مثل هذا قد عبر بعقل أيزموند في تلك اللحظة ذات صباح وهو في طريقه مسافراً من لايمريك. كيف؟ لأنني عشت مع أيزموند طوال أسابيع. حتى عرفت كيف كان يعمل عقله.

لحظتها، ومن دون أي تمييز مفاجئ، من دون أي إحساس برؤيا أو بالهام، نشأ بي إحساس كالهلوسة بأنني "أنا أيزموند". كان إحساساً قوياً إلى درجة بالغة السخافة، كنت اعرف أنني اسير بالسيارة عبر مزرعة صغيرة تدعى "فار درام". على بُعد أميال قليلة وراء

تتور، ونسي كنت أنوي أن أتوقف أمام الحانة عند بلدة موات، لكي أتناول شطيرة باللحم ويكوناً من عصر العنب البري. في نفس الوقت كنت جالساً إلى جوار سائق العربية فوق صندوق العربية المتقافز، أسمع عرق الجياد القلوي والهواء المظلم لصباح يوم من أيام إبريل بالإضافة إلى رائحة دخان الأذرة والتبغ الصادرة عن ثياب السائق.

كان هناك شيء بالغ الغربة متعلق بمقدار ما كان في هذه الصورة من حيوية. إنها تكن "خيالية" بالمعنى العادي، يعني لم تكن "تعمدها" بشكل ما. وإنما كانت مكانها أن شيئاً ما قد تحررت فالتزب مني، مثل قطار يحمر إلى جوار القطار الذي تصادف أن كنت راكباً داخله فيعطيني لحة غريبة مفاجئة إلى داخل غربة عابرة، ولم يدعشني بكل ذلك، بلما بدا كجزء طبيعي من تصاعد نافورة البهجة. فكان ضعفي العقلي مرتفعاً. وكانت أسماء أقرب إلى أن تكون مساحة زرقاء باردة، وشعرت بها كما لو كانت صفحة شاسعة من ليل الباردة. بدا لي بقعة يقينية كلبية مفاجئة، أن الزمن وهم، إنه ليس حالة مطلقة. إنك لما كنت جشدة جالسة على ورقة شجر يجرفها تيار نهر، فإنك قد تظن أنه من المحتم أن تفل الأشجار تمر بك وتتوارى من خلفك، وأن الأشجار، بطبيعتها، لا تعيش إلا لحظات قليلة، وأن الحقيقة الوحيدة الثابتة دون تغيير هي انتشار الماء وسقسفته. ولكن الضمة حقيقية، وإذا أمكنت أن تغادر ورقة الشجرة التي تجلس عليها لتهبط على الضفة، فإنك حينئذ بان تكتشف أنها صلبة تماماً ودائمة بالية.

وخالاً تبدت لي هذه الصورة للزمن باعتبارها شيئاً وهمياً، ولحقيقة العالم الذي يحمر خلالها، رأيت طفولتي كما لو كانت شيئاً استطيع أن امتد بيدي فألمسه، تماماً مثلما استطيع أن ألتقي كتاباً على صفحة قرائها منذ ساعة مضت، أو مثلما أجعل شريط تسجيل يعود إلى ثورة نحو الجزء الذي كنت قد سمعته منذ قليل. وطرا لي أن حياة إيزموند لم تكن أكثر بعداً من هذا. مجرد قرنين مضيا، أي ما يساوي مقدار حياتين بشريتين. إن مشكلتنا هي ضعف الوعي الذي يتردد مثل التيار الكهربائي الصادر عن بطارية مستهلكة. فإذا كان بوسعنا أن نستبدلها ببطارية جديدة لاستطاع العقل أن يسير بخطوات واسعة عبر القرون.

تولفت عند حانة "مايك كيلي" لأشرب كوكب العصير. إنها حانة هادئة على الطراز القديم ذات دعامات خشبية واطئة، ومدفأة أعشاب أسفل الجدار. طلبت شطيرة باللحم، فقالت لي ابنة صاحبة الحانة إنني سأحصل عليها ساخنة بفوح منها دخان الفرن، وفي

الحقيقة، كان البخار يتصاعد من القطع الضخمة من اللحم الطري. وبعد أن قدمت لي طلباتي، خرجت وتركتني بمفردي. تطرث حولي، وباغتني فكرة في سرعة الضوء، الكهربياني. إن هذا المكان ربما كان يبدو بنفس الشكل الذي كان عليه في أيام إيزموند دونيللي. وحينئذ، وبشكل أوضح من ذي قبل، انشأني الشعور بأنني "صحيح" إيزموند دونيللي، أو أنني أحتني فوق وانظر إلى داخل وعيه بينما هو ينفلت عابراً أمامي. وفي هذه المرة، وقد هويت حواسي برائحة اللحم ومذاق العصير المخمر، بذلت مجهوداً إرادياً لكي استبقي ذلك الإحساس وأمسك به. للحظة راوغني. ثم حينما استرخيت ولم أحاول أن أرغمه على البقاء، عاد ثانية، مزيج من الروائح، والأحاسيس والأفكار. ثم فجأة تماماً، بدا أنه "مركز" أصبح بكل شيء أكثر وضوحاً. بشكل ما تطابق وعي إيزموند مع وعيه، حتى أصبح بوسعي أن التفت أنا فأنظر إلى ماضيه، إلى دلتين ومينو، وإلى الفتاة الفلاحة الجميلة التي كانت تدعى إيللي (وهو تصغير إيلين). والأكثر من هذا أن هذا الاسم الأخير كان جلبد بالنسبة لي، فإن إيزموند يشير إليها في يومياته بحرف "أ". ربما خشية أن يفضح فتاة تعيش قريباً منه إلى هذا الحد. ولثارني هذا. لم أكن بالساذجة التي تجعلني أعمل ببساطة بأنني بشكل ما قد "صبحت" إيزموند. إنني أعرف الكثير جداً من الأعيب العقل الشبيهة بالأحلام لا صطناع مثل تلك الفروض أو الاحتمالات. ومن الذي لم يؤلف موسيقى أو شعر أو أثاكد من أن اسم الفتاة كان إيللي. ولم يكن هذا من المستحيل، من خلال العثور على المزيد من مذكرات إيزموند - إذن لكان في وسعي أن أتيقن من أن هذه التجربة الغريبة كانت نوعاً من الحاسة السادسة، وليست جزءاً من أحلام اليقظة.

فأومت الإغراء بشرب المزيد من العصير المخمر - عارفاً أنه يمكن أن يدفعني إلى النعاس - وقمت لتشغيل السيارة حالاً انتهيت من تناول طبق اللحم. لم أكن أريد أن استرخي. إن ما أردته كان هو أن أعمق هذا الشعور بالتصير العميق، بالوصول إلى العنى. وبعد عشرين ميلاً من السير خارج دبلين بدأت تمطر، ونسبت بكل شيء، عن تركيزي، مستمتعة فجأة بحركة زحف مساحتي الزجاج الأماميتين، وبطرقات القطرات الضخمة الداكنة. وحينئذ، ومرة أخرى، ودون أي مجهود، أصبحت "إيزموند". فجأة أنهشتني منازل بلدة "ماي نو" ودكاكينها، كما لو لم أكن قد رأيتها من قبل أبداً. ولكن حينما قربت من كارتون وعبرت بها، ورأيت المنزل الضخم من القرن الثامن عشر الذي آل ذات مرة إلى دوفات لاهنسر.

نحلت من أنني كنت أعرف المكان، ولتني كنت داخله ذات مرة. بالطبع لم يحدث لي "أنا" دخلته. لقد كان إيزموند هو الذي دخلته ضيقاً على صديق مرسته روبرت فير كيرالد، ماركيز كليلار

طوال الوقت، وبينما كنت أعود السيارة إلى داخل دبلن، وعلى مسار شارع كونينغهام، كنت أصغر بتأثير هذا "الوعي للزوج"، ولو أن أحداً كان معي في السيارة، لكانت قد قلت له: "كان هذا هو شاعر شابلينزود. في عام ١٧٦٥ وشاهو قد أصبح شارع باراك". وكان قبل أن أدخل شارع باراك القديم، كنت أسير بالسيارة على طول شارع وولف تون كوي. فانتابني دهشة بسيطة إذ أجده نفسي بالفعل إلى جانب نهر اللبفي، في عام ١٧٦٥ كان علي أن أقدم من شارع شابلينزود الزدحم إلى شارع باراك، بينما أرى النهر عبر حديقة "ويج ميدوز" إلى اليمين، ثم على طول شارع كرافل دولك، الذي يكون علي عند ناحيتي أن استدير إلى اليمين نحو شارع أزان ككوي - الذي كان في ذلك الوقت أقصى أطراف ضواحي دبلن الغربية. عبرت الشارع الواقع إلى يميني - الذي كان دونيلي قد نسيه - والذي يؤدي في النهاية إلى جسر بيلود، وعند جسر كراتان شعرت بأغراء بدفعني إلى الاستدارة يمينا ناسياً أنه كان يوسعي أن استمر في نفس الشارع حتى أكون في أيام دونيلي، كان جسر كراتان (الذي كان يدعى جسر سكس في ذلك العهد) هو آخر نقطة يمكن للمرء عندها أن يمر نهر اللبفي، فكانت مقبداً باتجاه نهر شيلبورن في وادي "سانت ستيفانز جرين"؟ إن دونيلي حينما ذهب إلى دبلن في عام ١٧٦٥ قد انطلق إلى حانة "الكلب والبطة" في شارع بوننج رو الذي يسمى الآن وودكوي، وكان المحل تحت إدارة الأسطى فرانسيز ماجين، وهناك أكل عشاء من أسماك السالون الواردة من يوين، ولحم حمل مشوي، وغسل ذلك بكمية كبيرة من البيرة الحلوة ذات النسبة القليلة من الكحول، ثم غرق في النوم في حجرة مريحة بالطابق الأول مصغياً إلى صيحات "تسري جلد أرناب الغابة وارانب البيوت"، "سكك البوري من خليج دبلن". كان كل ذلك حياً أمامي حتى إنني وجدت نفسي أتجه اتجاهاً خاطئاً عند كولينج غرين، فيكون علي أن أعود دورة وسعة لكي أصل إلى شيلبورن.

في حجرتي، فتحت زجاج من نبيذ فولني كنت قد جئت بها معي - رغم أن الساعة كانت في الرابعة ونصف - ووجدت نفسي أقل انزعاجاً بسبب تلك المؤثرات الغربية ذات الوجهتين للزوجيتين، وحتى في تلك الحالة، لم يكن علي إلا أن أغمض عيني لكي أرى صوراً

واضحة للعينين التي كانت من نواح عديدة شبيهة بتلك التي كان يوسعي أن أراها من نافذتي (رغم أنه في تلك الأيام، كان وادي ستيفانز غرين محاطاً بسور مجرى وحيد وليس بسياج من قضبان الحديد) - ولكن تلك الـ "دبلن" البعيدة كانت أيضاً مزدحمة وصاخبة ولكن شوارعها كانت مبلطة بقطع حجرية صغيرة في الغالب، ومنازلها أكثر نظافة ووفرة، وكانت أيضاً تفوح برائحة النفاق والسمك وخاصة في منتصف الصيف والقوارب ذات الأشعة المتفخخة التي ملئت نهر اللبفي وولنت تأثيراً لم يكن بعيداً عنه بقنوات البندقة الكبيرة. بعد مكاسي الثالثة من النبيذ، كان "الكشف للزوج" قد خبا بر ناحيتي، وطرا لي أنه من المحتمل أن يكون شيريدان لوفانو قد كتب قصة قوية وكتبته محزنة عن عقل إنسان ذي طبيقتين. يظلمه رجلان من فرنين مختلفين. بل لقد كان يوسعي أن أرى - إذ أنظر من خلال مزاج يبه مزاج لوفانو - أنها كانت يمكن أن تكون تجربة مخيفة. ولكن في ذلك الحين، كانت نظرة لوفانو الأساسية نظرة مهرومة وسلبية. وهذا هو السؤال الجوهرى الوحيد.

□ اتصلت بنديانا لكي أخبرها أنني وصلت بسلام، وفي نفس اللحظة التي كنت أعيد فيها السماعة إلى مكانها، جاءني مكالمة من مكليف بيتس وكانت قد كتبت إليه لآخره بأنني سأنزل في فندق شيلبورن. سألته إن كان يحب أن ينضم إلي في تناول الطعام، فقبل واقتراح أن أذهب إليه لكي نشرب كأساً أولاً. كان يقيم في رانيلاغ رود، في مواجهة لدير. فسرت إلى هناك في حوالي الساعة الخامسة. كان شاباً ممتلئ الجسم له صوت معتد مثل صوت الدارسين في أوكسفورد، وكانت شفته مريحة، وقد امتلأت خزانة الشروبات بالكثير من الأصناف. كانت هناك أعداد كثيرة من الكتب، بعضها حول السرح والباليه، كان من الواضح أن مكليف بيتس يملك دخلاً خاصاً أو وظيفة حسنة، أو كليهما. كان كل شيء في حجرته يتم عن أنه رجل مخرم بأسباب راحته. وكان يتمتع بجاذبية عظيمة وأسلوب سهل في التعامل والسلوك، ولكن شيئاً ما لاج على همه أو حتى لي بأنه قد يكون بالغ الخشونة أو عصبي المزاج إذا فشل في الوصول إلى ما يريد أو في شق طريقه إليه.

حينما كنا نشرب كوكوس الفودسكا والارتيني، كان الجواز عاماً، ثم انتقل الموضوع إلى ضيبي وإلى أعمال مكتب عبيدين قابلهم بكل منا. كان قد عمل في وزارة الخارجية مدة من الزمن، بعد التخرج من إيتون واليول، ولهايل عمداً كبيراً من الشخصيات سرحية والأدبية في لندن. أما عني، فإنني دائماً ما كنت أتجنب الكتاب الآخرين، وكانت محاورات المحررين تضجرتني، ولم أكن أعجب إلا بأعمال عند قليل منهم. وهكذا فسرعان ما بدأت أصجر من هذا الحديث. وبعد نصف ساعة أو نحوها حاولت بلباقة أن أوجهه إلى موضوعات أخرى، سألته عن صحة جده.

"تو، أجل. الوالد العجوز يريد أن يراك. كنت قد أخبرته عن عملك."

نظر إلى ساعته وقال،

"عادة ما يكون بمفرده في هذا الوقت تقريباً. هل توود أن تذهب إليه قبل أن نأكل؟"

قلت، "نعم"، محاولاً ألا أبدو مثلهفاً بالقدر الذي كنت أشعر به.

ذهبنا إلى شارع باجون، رغم أننا تأخرنا قليلاً في الوصول بسبب إغلاق الشارع. كان مكليف بيتس يملك سيارة من طراز "بورش" وأطلة لفرجة أن الثاني إحساس بأن أرقاق نجلس على ارتفاع بوصة واحدة من أرض الشارع. وفي الطريق قال بيتس،

"إنك بالطبع، تقوم بكل ذلك في مقابل بعض المال."

للحظة واحدة لم أستطع أن أفهمه. وبدأ علي عدم الإدراك. قال،

"هذا الشخص دونيللي. أعني أنه من الدرجة الثانية تماماً، ليس كذلك كنت أنتظر إلى كتابه عن "الفرع العذاري" منذ أيام. إنه شيء، فج إلى حد كبير."

هممت بأن أقول أنني أظن أن هذا الكتاب مريف ومنحول للرجل. ثم لسبب ما، التزمت سكوت. وبدلاً من هذا شرحت له حكاية فليشر والهمة والتي أوكلفها إلي.

أوقفنا السيارة في شارع باجون. قال مكليف بيتس بشكل عارض،

"بهذه المناسبة، هل سمعت عن جماعة العنقاء؟"

نظرت إليه. ثم حدث شيء غريب. فجأة كنت أيز مؤنث مرة أخرى. كان أبرمود يطل عليه من عيني.

قلت،

"بموضوع. ألم تكن هذه نوعاً من العبادات السحرية؟"

"بشكل أو بآخر كان دونيللي عضواً فيها."

"كيف عرفت ذلك؟"

"هذا مسجل في أوراق جدي. لقد كان مهتماً دائماً بهذه الجماعة الساء "جماعة العنقاء". وإن قد سمع عنها من ساحر يدعى ماك غريغور مانرز. ربما كنت قد قابلته؟"

"بالطبع. لقد حصلت على ترجمته لكتاب الظهور."

لم يكن هناك وقت لزيد من الحديث، كنا نديق حرس الباب، وبعد لحظات قليلة فتحت الباب معرضة شابة. دعاها بيتس باسم "عزيزتي بيتي" وفرصها من مؤخرتها. بدت محرجة لوجودي، صعدنا إلى حجرة نوم في الطابق الأول. كانت حجرة معتمة، رغم أن الضوء كان منتشرًا بالخارج. كانت الستائر نصف مسدلة، ونواسة صغيرة تشتعل فوق الفراش.

كان إيزاك جيلكينسون بيتس هزيلًا نحيفاً كما كنت أتوقع من خلال وصف حبيده. عجوزاً ضئيل الحجم أصلع الرأس جلده مثل رق قديم مجعد. حيناً رفع يديه من فوق للسند لكي يصافحني اهترنا ولا نعيشنا رغماً عنه، فأعادهما سريعاً مستويين فوق الفراش مرة أخرى. سألنا إن كنا نود أن نشرب شيئاً، فرفضنا كلالنا، ولكنه أصر وقال "عرف أنكم أيها الشباب تحبون أن تشربوا كاساً في مثل هذا الوقت". وقال للممرضة أن تصب لكل منا كاساً من الشيري. تحدث الرجل العجوز للهانق قليلة عن تاريخ الشيري، وعن نظريته حول السبب الذي كان الشيري لأجله يدعى "سك"، أي حفيظة، لأن ثمرات العنب كانت تحصر من هلال أحولة كالحقائب. ثم، وفي نصف جملة لم يكملها - حول حديثه إلى موضوع جريمة قتل في جزيرة آلي الإيرلندية. كنت قد قرأت كل ما استطعت العثور

عليه قبل أن أبرح البيت، ولكن ثبت أن هذا لم يكن ضرورياً، فقد راح الرجل يتحدث في شباب بمعدل ثابت لمدة عشر دقائق أو نحوها.

وحينما توقف للحظة قصيرة، قال كليف بيتس:

"لقد سمع مسر سورم عن جماعة العنقاء".

"أوه، أجل، حسناً، بالطبع. لقد كان دونيللي عضواً في تلك الجماعة، لقد كانت شيئاً بظرفاً من نوع لا يثير البهجة أبداً، أجل، بالطبع. ينبغي أن تعرف أنها نبتت من اعتقاد يقول بأنه إذا تضاحج رجل وامرأة فإنهما يصبحان غير قابلين للعديوى بأي مرض وبذلك أصبحت هذه العقيدة في زمن ثلوث الأسود مبرراً لكل أنواع الفجور. ومع حلول عصر دونيللي أصبحت مجرد عصبية شبه سحرية تضم جماعة من الهووسيين الصعاليك. هل تعرف كتاب دي صاد "مائة وعشرون يوماً من أيام سدوم؟" إنني واثق ثقة كاملة من أن دي صاد كان يسخر من جماعة العنقاء في ذلك الكتاب - أتعرف الصعاليك المعوجزين الفلزيين الأربعة الذين قاموا نوعاً من المعرض الجنسي في أحد المنازل الريفية؟ لقد ظن توم وايزر المعجوز دائماً أن هذا هو السبب الذي جعل دي صاد يعضني أكثر حياته في السجن، لقد كان يعرف الكثير جداً عنهم".

تدخل كليف قائلاً: "توماس ج. وايزر المزيف الأدبي، إنك تعرفه".

"حسناً، ربما كان كذلك وربما لم يكن، إنهم يقولون ذلك ولكنني لست واثقاً إلى هذا الحد. غير أنه كان دائماً صديقاً جيداً لي إلى حد بعيد. مثلما أقول، فإنه كان على غنتاج كامل بأن جماعة العنقاء هذه كانوا يسعون وراء دي صاد.."

عمر لي كليف بعينه

"ولكن لماذا ينبغي أن يضار دوده إذا كان مثلهم في السوء؟"

"إنه لم يكن، كلا. لقد كان يسخر منهم. تفهم؟"

يجب علي أن أوضح أن تفسيرات الرجل المعجوز لم تكن بمثل الوضوح الذي جعلتها به هذا. كان حديثه من النوع الذي يصعب تتبعه، تقطعه وترقبه غمغمات وأصوات أنفية

غريبة. لم أحاول أن أنقض أو أناقش حديثه الغريب عن دي صاد، ولكن أمني في الحصول على أية معلومات مفيدة راح يخبرني ويتلأشى. سألته عن كيفية بداية اهتمامه بجماعة العنقاء.

"لقد رأيت نسخة من تلك النشرة النادرة. وكانت هذه هي بداية معرفتي بوايزر، الحقيقة".

"أية نشرة، يا سيدي؟"

"أوه، النشرة الشهيرة. التي كتبها هنري مارتل وجورج سمبسون. كليف انظر في الدرج العلوي هناك، أسمع؟"

لم تكن النشرة في الدرج العلوي، ولكن بعد عشر دقائق راح بيتس في أنثائها بصح الاتهامات القائمة على رأس العالم كله بشكل عام، وعلى رأس مرضته خاصة. تم العثور عليها في خزانة أخرى. اختطفتها بلهفة. كانت موضوعاً في غلاف خارجي مزكش أحمر، وكانت في حالة الحرب إلى الفساد.

فضح الوأمره الشريرة، العروقة باسم جماعة العنقاء

بقلم هنري مارتل، م. أ. جورج سمبسون، د. د.

طبعها للمؤلفين ج. روبنسون. ضفة النهر القتيعة، ١٨٧٢

كان كليف يسأل باكثر ما يملكه من نعمة وفيرة على الإقناع،

"لا أنهم لماذا ظننها حقيقة مع أنها جاءتك من رجل مثل وايزر؟"

أنقض الرجل المعجوز للتفاني وأصبح لاذعاً حاداً.

"سوف أشكرك إذا انت لم تتحدث بهذه الطريقة عن وايزر. إنه لم يكن مزيفاً أبداً.

معي. لقد كان يحاول أن يدافع عن ذكرى صديقه هنري ماكستون فورمان".

قلت.

"على أي حال، من المؤكد أن النص الأصلي لأي عمل مزيف كان على النوم

حقيقياً؟ لم يكن الأمر سوى نوع من التاريخ المجتزأ على النشرات؟"

"تماماً"، قال الرجل العجوز، ثم التفت إلى كليف وقال، أترى؟ إنه يعرف عن النسالة

تفكر بما تعرف أنت؟

ترجكنهما يتناقشان، ورحبت أقرأ بسرعة عاصفة، اتخذت النشرة شكلها نغمة أخلاقية مرتفعة، واتهمت جماعة العتقاء بأنها السبب في سقوط لويس الرابع عشر ملك فرنسا. وطالما أن هذه النشرة سوف تطبع كاملة في ملحق خاص مع مذكرات دوتيللي، فإنني لن أقبض الكثير منها هنا. إذا كانت هذه النشرة هي المصدر الوحيد لمعلومات بيتس العجوز عن الجماعة، فقد كان بوسعي أن أرى لماذا كان ينظر إليها بعين الغرض. وجئت نفسي لاندكر عندما معبأ من النشرات والمقالات التي صدرت عن راسيوتس بعد مقتله في عام ١٧٧١. وكانت مليئة باتهامات غامضة، صعبة التصديق عن مؤامرات وحشية، وعن جرائم الاغتصاب والجرم، والاحتقالات المفزعة. وطبقاً لما قاله كاتبها النشرة، كانت الجماعة أساساً تنظمها من السحرة لممارسة أعمال السحر، وكانت الفقرة التي اتارت أكثر المناقشات - بعد نشر مقالتي عنها في مجلة "تلاتيك مثلي". كانت هي تلك التي تصف الطريقة التي يتبعها "السيد الأعظم" أو أي واحد من أتباعه للصطفين لكي يتمكن من استعباد الفتيات عن طريق جمع ثلاث من "سرويلهن الداخلية للوثة بالدم" بعد دورتهن الشهرية، ثم يقطع رقبا في وسط بقعة من الدم متخذة شكل العضو التناسلي الأنثوي، ثم يرتدي هذا السروال فوق ذكره العاري لمدة سبعة أيام وسبع ليال. وبعد هذه الفترة تصبح الفتيات مجبرة على تلبية لدهات السيد الأعظم لكي تسلم له عنزيتها، ثم تستسلم له بعد ذلك في أي وقت، حتى ولو كان على بعد ألف ميل. وتتلو ذلك، القصة الغريبة عن "أدبلي ككريسين" التي امتلكها السيد الأعظم في ليلة زفافها "في نفس الوقت" الذي كان زوجه يمتلكها فيه، والتي كان طامها يحمل ملامح السيد الأعظم - شعر أسود، وبشرة سمراء، وما إلى ذلك (كان السيد الأعظم في ذلك الوقت هو الفارسي عبدالله يحيى، الذي تفاخر بأنه قد ترك بذركه في رحم كل امرأة جميلة من المجتمع الروماني الراقى، ويشير المؤلفان إلى هذا التفاخر باعتباره مثالا على الفخر الأخلاقي أو حشني بدلاً من أن يكون صورة للكذب الخيالي المخلوق) وقد قتل عبدالله يحيى ومزق جسده في عام ١٧٩١ على يد همدريك فان جريس، الهولندي الشبيه بالوحش. والتفرض أن فان جريس كان يزن أكثر من ثلاثمائة رطل إنكليزي (١٥٠ كيلو غرام)، وأنه غالباً ما كان يفقد ضحاياه الوعي، بل يقتلهم، بمجرد أن يترك وزنه الضخم يسقط فوقهم، وأصبح فان جريس سيداً أعظم لمدة لا تزيد على العامين، أصيب خلاتهما

بمرض الزهري الذي نقلته إليه سيدة البلاطة الرومانية مازيا غرينكا التي قيل أنها كانت ذات طبيعة فاتلة، حتى أن فان جريس حينما جاء عام ١٧٩٢ كان قد أصبح جبالاً لا ملامح له من اللحم المرهل، وفي "مجلة التحليل النفسي" الصادرة في شهر يوليو عام ١٩٦٩ فسر البروفيسور ارام روث القصة شكلها على أساس التصوير الفرويدي - بادئاً من النشاطات الفيتشية (التي تقوم على الولوج الجنسي بالأشياء ذات العلاقة أو التناول الجنسي) المرتبطة بالسرويل الملونة بالدم - ورفض القصة - أو رفض تصديقها - على أساس أنها نتاج الخيال القوطي لللي، بالأسرار الوحشية، وفي عدد سبتمبر من نفس المجلة، أشارت ميس ماركانيت دوتيسون إلى أنه لم تكن ثمة حاجة إلى الاختراع، طالما أنه من الممكن العثور على أكثر الطقوس للوصولة في كتب السحر الأسود العربية والفارسية في القرن الثامن عشر، وتشير أيضاً إلى أن ستيف دي لايريتون قد وصف شخصاً ما يبدو شديد الشبه بفان جريس (تحت اسم كوكبير - باليزو) في كتابه "ليالي باريس في عام ١٧٨٨" واصفاً إياه بأنه "للنحرف الأسطوري". وكنت أنا من لفت انتباههما إلى الفقرة المتعلقة بريستيف.

قال الرجل العجوز، "لقد كانوا مجرمين، هؤلاء الناس، مجرمين منحطين. أرايت من الذي جاء بالجماعة إلى فرنسا؟"

كنت قد رأيت ذلك حقاً، قال مؤلف النشرة إن جيل دي ريز قد أصبح عصوا في الجماعة في السابعة عشرة من عمره (١٨٢١) بعد أن رشحه لها كاهن مخلوع، كان مارتل وسميشسون على اتفاق مع سانت نيلوس سورسكي من أن الجماعة لم تكن أكثر من تطور لتعاليم "أخوة الروح الحرة". فبعد أن رفضوا شكل قانون أخلاقي هدفه تحقيق أكمل تغير عن "أعضاء الشعة". ويقول المؤلفان، كان أعضاء الجماعة يرتدون ثياب الرهبان، ويتخصصون في الاغتصاب أو في مضاجعة الجنت. كانوا يتقدمون للتطوع لحراسة جنت الفتيات الصغار - والصبيان. وينتظرون حتى ينام الجميع ثم يغتصبون الجنت جنسياً، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقال في صالحهم - في الحقيقة - هو أنهم حاولوا دائماً أن يتجنبوا إزال أي ضرر جسدي حقيقي بضحاياهم. وقد حدث أن هناك من بالعات الذين اغتصبوها بمرح منهم ثم تركاها مغبدة مكيفة تحت حكومة من أوراق الأشجار، حتى عثر عليها بعد ذلك بيومين. وحدثت أخرى بأنها سجدت نفسها حاملاً بجنين كالحوش إذا فاهت بكلمة واحدة. وبذلك صكمت السر حتى طماتتها دورتها الشهرية التالية - ولما كانت القاعدة التي يتبعونها

في أن يشتلوا ضحيتهم أبداً حتى يتجنبوا عملية التعرف عليهم فيما بعد، "وكان كثيرون منهم يحملون صناديق مليئة بمختلف الأدوات (باروكات الشعر والأهداب والعدسات... الخ) من ألوان مختلفة حتى يكون بوسعهم أن يغيروا اللون ككل شيء، حتى عاداتهم نفسها". وكان جيبيل دي ريز هو أول شريك يعتنق إراءهم، وكان قد استقبله وتلقاه كعضو في الجماعة شخص يدعى جيبيل دي سبي. وكان الخليفت عن السيمياء في محاكمته ضرباً من السر في شريك مظلّم مسدود، طبقاً لما جاء في نشرة، وكان القتل الجماعي للأطفال - بساطة - تعبيراً عن "الشهوانية الشيطانية" التي أفضت بها فنوب جماعة العنقاء.

إذا ثبت أن ريز كان عضو في جماعة العنقاء، إذن لأفام مارتنل وسميثسون قضيتهما على أساس أنها مكان منظمة شريفة ومروعة. ولكنهما في الحقيقة لا يفلحان أي دليل على اعتقادهما في أنه كان عضواً في الجماعة. شعرت بالليل إلى أن أشير إلى ذلك نزل رجل العجوز. ولكن كان من الصعب أن تعرض الطوفان الجارف من الذكريات. وأجراً استطعت أن أسأله إن كان لديه المزيد عن جماعة العنقاء.

أجل إن لدي أهم خطاب يمكن أن تتصوره كان قد وصفتي من نوم ويز. كنت ترسل معه بشأن هذه الجماعة. لابد أن هذا كان في عام ١٩٠٥، كليف انظر في هذا الدرج لغوي مرة ثانية".

أعرض كليف بوجهه، ولكنه راح يبحث - طائفاً - بين أكوام من الأوراق القديمة. دخلت الممرضة حاملة إلاء يحتوي على سائل ساخن يتصاعد منه بخار له رائحة نفاذة وسعته في إظهار معدني معلق بالسربير. وبينذاك غطى بيتس العجوز رأسه بكيس من البلاستيك وراح يستنشق البخار. واعتقد أن هذا كان نوعاً من العلاج للربو. عرضت أن أساعد كليف بيتس في البحث عن الأوراق، فقال: "أتوقع أن نعتبر على شيء هام." والتقط النشرة التي كتبت اقراها. أقيت نظرة على ككومة من الخطابات القديمة، ولكن لما لم تكن لدي فكرة عما كان من الفروض التي أبحث عنه، فقد شعرت بعدم جدوى هذا العمل كله وعقمه. جذبت اطمعامة سوداء من شاع اللرجة ونظرت إلى ما بداخلها، وجعلني ما رأيته انظر بسرعة إلى الرجل العجوز، ثم إلى حفيده، ولكن لم يكن أحدهما مثبهاً إلي. وكانت الإسماعلة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة أو نحوها من مخطوطة كتبت باليد، تعرفت على الخط، كان خط بوزويل. كان أول سطر من الصفحة الأولى يقول: "السبت، أول فبراير"

وإن شخص ما قد أضاف عام ١٩٦٦ بالقلم الرصاصي. مرة أخرى نظرت إلى كليف. كان منغمساً كلياً في قراءة النشرة، وكان الرجل العجوز يستنشق بصوت خشن ويشكو حاله الممرضة التي كانت تعيد ترتيب الفراش. جذبت مقعدي قريباً إلى الدرج، وجسدت لكي اقرأ المخطوطة. في لحظة ما، نهض كليف ونظر من فوق كتفتي، شألت صامتاً إن كان يمكن أن يسألني عما كانت أفعله بحق الشيطان. ولكنه ذهب وجلس في مكانه دنيبة. وأسأنف القراءة.

كان التفريز بصف مغادرة بوزويل ليباريس في صحبة تيريز لوفاسور، عشيقه رؤسو "وهي التي كان بوزويل قد وصفها في يوميات أخرى - اكتشفتها فيما بعد - بقوله، "هي فرنسية خالصة مليئة بالحياة". وكان الاثنان في طريقهما إلى إنكلترا، وقد سافرا معا بحثاً عن المؤاسة. وفي الليلة الثانية قررا أن يشركا في فراش واحد في أحد الفنادق الصغيرة. ولشدة مهانة بوزويل، فشل في أداء واجباته الرجولية، فأنفجر باكياً، وقال، ويستطيع من يقرأ هذا الكلام أن يجد آثار بكتاني على الصفحة السابقة". ولكن تيريز أعادت إليه ثقته بنفسه في الليلة التالية بأن أدت إليه الخدمة التي كانت مينو تؤديها لعاشيقها معاً. - وهي الركوع على ركبتيها أمامه وملاطفته بفمها. "جعلني منظرها وهي متكومة أمامي في هذا الوضع المهر أشعر بالشفقة الأمر الذي أعاد حيويتي إلى يقدر عظيم حتى أنني أرقبتها على ظهرها فوق البساط وأقيتها في التو والساعة مثل عجل بري. وأظن أنها رضيت تماماً عن "حجمي" لأنها شغفت بلهشة، ثم تركت نفسها المحتبس في صدرها ينطلق في تنهيدة طويلة". إنني أنقل الآن من الجمل القليلة التي استطعت أن أنقلها بسرعة بالقلم الرصاصي في مذكرة صغيرة كانت في جيبتي. عرفت أنني كنت أنظر إلى مخطوطة بوزويل التي استطاع إيراد جينكلينسون بيتس أن يكتسبها بشكل ما من مالاهايد. ومن الواضح تماماً أنه لم يكن له أي حق في امتلاكها. ولذلك فقد عرفت انعدام أي فرصة لسماحه لي بأن استعيرها أو حتى بأن أنسخها في منزله.

قال كليف بيتس: "هل عثرت على تلك الورقة عن دونيللي؟" جفلت وقلت: "لا" ثم نظرت إلى الرجل العجوز. كان رأسه مختفياً تماماً، وكنت واقفاً من أنه لم يسمع، قال كليف.

"أرجو أن تقرأها. إنها مضحكة بشكل مرعب".

غمغمت بشيء ما، أملاً ألا يطرأ على ذهن بيتس العجوز أن يسألني عما كنت أفرد، أو ماذا كنت قد عثرت على خطاب وايز. ففترت صفحتين من الكلام الذي يحاول فيه بوزويل أن يبرر نفسه. مخاطباً ذاته بكلمة "أنت" متأملاً في مميزاته من الجاذبية والجدية الأخلاقية. في يومية الأحد ٩ فبراير، عثرت على الاسم الذي كنت أبحث عنه. وصل بوزويل وتيريز إلى مكانه وسط عاصفة معطرة. ونزلاً في فندق يقول عنه ببساطة إنه فندق مدام دوتشيزن. حيث نزل هو وتيريز في غرفة واحدة كبيرة في الطابق الأرضي. بدل بوزويل ملابسه وهبط ينضمي في الليلة. "وبالقرب من رصيف اثنياء، ربت شخص ما على كتفي. والتفت لكي أرى إيزموند دونيللي الذي كان قد وصل إلى هنا بعربة البريد القادمة من دانكيرك". وذهبا عائدين إلى فندق بوزويل. حيث كان يوسع دونيللي أن يحصل على حجرة لنفسه. ومن لا نساخ أن بوزويل ودونيللي كانا قد التقيا في دريسدن، أمرا أنفسهم بطعام وقهوة كثيرة من النبيذ الجيد، وتحدثا عن ويكليز وهوراس والبولك اللذين كانا قد قابلتهما في باريس. ودخلت تيريز - ولم يكن بوزويل يعرف أنها كانت قد قابلت دونيللي وهي مع روسو في فيوشاتل - ويقول بوزويل، "علي أن أعترف بأنني شعرت بغصة لحرارة تحببتها، وللطريقة التي صلت تردد بها أن هذه كانت مفاجأة ممتعة". فرروا أن يشاؤوا العشاء معاً، وأخذهما إيزموند إلى منزل خاص لتناول الطعام. "وعلى مائدة العشاء، تحدثت كثيراً حديثاً فاحشاً. وبما لم يجد على الأنسة أنها تضررت من ذلك فقد استمررت في الحديث، وشعرت باختفاء كتابتي وانحرف مزاجي". ثم عادوا إلى هنتلهم، وقال بوزويل مازحاً أنه يأمل من إيزموند أن ينظر إلى لقاءهم نظرة بريئة إذا حدث والتقى بروسو في لندن. وحينئذ، وبالصرحة غير تعقونية التي عرف بها بوزويل دائماً، مضى فاخر إيزموند عن شمله مع تيريز، وعن كيف شعر بالانزعاج في مناسبة تالية حتى أنه شرب زجاجة كعامة من النبيذ قبل أن يذهب معاً إلى الفراش. وأصبح الحديث أكثر وداً وكله جو من الصداقة الحميمة. وتحدثت تيريز عن غلظة الإنكليز وغبائهم فيما يتعلق بفن ممارسة الجنس. وحينئذ صدم بوزويل حينما عرض إيزموند أن يعرض استأنيته في هذا الموضوع في التو واللحظة، ثم خطر له أن إذا استحوذ إيزموند على تيريز فإنه سيحصل على سبب معقول بشعره بالبراءة إذا التقى بروسو فيما بعد، وهكذا فقد عبر عن موافقته على هذه الفكرة. وجاء دور تيريز في إظهار الدهشة وما أصابها من صدمة. وراح إيزموند يلومها ويسخر منها منها لياها بالتصنع وعدم الصدق. وعند ذاك، حررت أنه لن تكون هناك جدوى من إخفاء ميلها الحقيقي، ووافقت على أن تكون

عملياً رايها وتقليرها لقوة إيزموند في فن العشق. قال إيزموند لبوزويل، "هيا يا سيدي، هي لكي نثبت لها أن الكلت هم دم الحياة لأوروبا". فتهتت تيريز، وكان بوزويل مصمم على أن يبدو في صورة لا تقل عقلانية وثقافة عن صليبه الشاب (وكان إيزموند بصفره بنمائي ستولت) فاصطحبهما إلى حجرة النوم.

وما حدث بعد ذلك يتخلص في أن بوزويل وإيزموند ساعدا تيريز في خلق نياتهما. وحينما أصبحت في نياتها الداخلية شرع الرجال في ملاطفتها. ونبت كل منهما فمه على أحد نهديهما (...)

إن وصفه لتظار إيزموند وتيريز وهما يمارسان الجنس سوف يكون - دون شك نموذجاً كلاسيكياً في مجاله... وهذا الوصف يستمر لصفحتين أخريين. ولكن كان هذا ككل ما استطعت نقله في ذلك الوقت القصير. وكانت الموضة تساعد بيتس العجوز لخلق حفيظة البلاستيك، ولذلك فقد أسرعت في القراءة حتى أضل إلى النهاية، حيث يصف بوزويل بعد فشل الأول، وكيف استطاع أن يشفي نفسه بمضا حبتها بقوة "باسلوب شعرت بالأسف لأنني لم أكن قادراً على مشاهدته بنفسي". وشعر بالرضا الكامل عن نفسه حينما غمغمت تيريز قائلة: "أه، إنه لصبر محزون أن أكون عشيقة رجل عجوز". وأمضى بوزويل وتيريز وإيزموند الليلة في نفس الفراش - الذي كان كبيراً بما يكفي لثلاثتهم - ونظر الثلاثة إلى الموقف بطريقة طبعية حتى أنهم كانوا يخرقون في إغفاءة قصيرة يستيقظون بعدها لاستئناف ممارستهم للجنس. وأخيراً غرق بوزويل في النوم بينما كان إيزموند يحاول إقناع تيريز بأن نياتها من الخلف. ولكنه في النهاية قنع بأن يغلبها على ظهرها ثم يحسد فوقها مرداً آخر، وفي هذه المرة، شبع حتى رغبة تيريز التي طال صحتها في جواد قوي شاب. فركبت مستسلمة في سلبية، وهي تشفق بضعف، بينما كان بوزويل يمارس الجنس للمرة السادسة "كنت أفر من امتلاكها تلك الليلة" وكذلك يقول مفخراً، ولكنه يضيف، "ولكن علي أن أقول - للأمانة - أن دونيللي سجل سبع مرات مقابل الست التي سجلتها". وفي الليلة التالية، مرض بوزويل بسبب التهاب في معدته، فامضى الليلة في فراش إيزموند. ويعترف بأن قلبه كان قد انصرف تماماً عن الاستمرار في تلك المناسبة الرياضية. "رغم أننا كنا قد رأينا هتاة صغيرة في نحو أربعة عشرة من عمرها في دكان الفراء. وكانت جديرة بأن تلهمني الحياة طوال ما تبقى من أيام الأسبوع". وفي اليوم التالي قال لهما إيزموند أن لديه عملاً لابد

ل يبقية في مكانيه عدة أيام أخرى، وبينما تحرك بهما القارب عن رصيف الميناء إلى السفينة التي كانت ستقلهما إلى إنكلترا، نظر بوزويل خلفه فرأى أيزموند واقفاً على رأس الرصيف مع امرأة ذات الربعة عشر ربيعاً، ولحسن الحظ فإن تيريز لم تلحظهما. "بعد العودة إلى ديجرني في يوم التالي (٢ فبراير) تمضي يوميات بوزويل المنشورة قائلة: "ذهبت صباح أمس إلى تشارش في ساعة مبكرة جداً، وقمت بإعجابي مرة واحدة. لكي تبلغ أهدافي ثلاثة عشر في مجموعها. وكنت حقاً منفعلاً بها في ود صادق". ولكنه لا يسجل كيف أصبحت أهدافه الحقيقية تماثل عند أهداف دونيللي.

التقت عينا بيتس بعيني هيز رأسه محذراً. كانت المريضة قد خلعت الحقيبة المصنوعة من البلاستيك. أغلقت المخطوطة التي كانت قد أنهت قراءتها لتوي، ودست كراسة مذكراتي الصغيرة في جيبتي. التفتحت كتيباً صغيراً من تأليف روسكين، وحينما سألني الرجل العجوز عما كنت أقرأ قلت أنني وجدت هذا الكتيب وأنه سحرني. قال حفيده إن علينا أن نرحل الآن، وبدأت المريضة وافقت على ذلك.

"هل سألني صديقك كل الأسئلة التي كان يفكر فيها؟"

قلت بتردد، "هناك سؤال واحد أخيراً، يا سيدي. عن أيزموند دونيللي."

"دونيللي؟ من ذلك؟"

وضّح كيف من القصده. قال الرجل العجوز:

"هـ، أجل، أتذكر الآن، لقد كان عضواً في جماعة العنقاء.."

"كيف عرفت؟"

"دعني أتذكر.. كيف عرفت؟ هـ، أجل. أخبرني أيزموند بذلك، قال ذلك في الخطاب الذي أردت أن تراه. هذه النشرة التي كنت تقرأها. إنها ليست بقلمه.. أيا كانت أسماؤهم. بها بقلم شخص آخر، صديق لدونيللي. لا أستطيع أن أتذكر اسمه، إن له لقباً."

"لا يمكن أن يكون هوراس جينيني. يمكن ذلك؟"

"هـ، أجل. هذا هو الرجل. لورد جليبي."

"ولكن كيف عرف ويزموند ذلك؟"

لسوء الحظ، تدخل كلي بيتس لأنه فسر هذا الكلام على أنه هجوم آخر ضد ويزموند. وشرع يشن دعماً طويلاً عن صديقه القديم. قررت أن أترك للسائلة عند هذا الحد، إلى جانب أنني كنت جافاً، شكرته ووعده بان أزره مرة أخرى وغادرت المكان. وفي الخارج قال كيف بيتس معتزلاً،

"أترى. إن الوالد العجوز شرار كبير."

"هل قرأت الصفحات التي كتبها بوزويل والتي كنت المراه؟"

"هـ، هل عرفت أنه بوزويل؟ أجل، بالطبع، لقد قرأتها. أضلها قطعة رائعة من أدب الدعارة. لقد ظننت أحاول طويلاً أن أقتنه بإرسال نسخة منها إلى ذلك الرجل الذي بشرف على نشر مذكرات بوزويل. ولكنه لم يوافق."

"بالطبع. إنها ليست ملكه."

"كنت واثق؟"

لخصت له قصة أوراق بوزويل. قال:

"إنه يزعم دائماً أنه اشتراها مقابل خمسة جنيهات، ويقول أن لادي كالبوت راتها بالصدقة ذات يوم وطلبت من زوجها أن يحررها. فقال أنه سيفعل ذلك، ولكنه وافق على بيعها إلى جدي مقابل ورقة بخمسة جنيهات."

"ربما كان هذا صحيحاً. هل لديك المزيد من أوراق بوزويل؟"

"كلا على قدر ما أعلم. هذه هي الأوراق الوحيدة التي راتها."

كان الطر قد بدأ بهطل حينما توقفنا بالسيارة في مقابل فندق شيلبورن. قلت بطريقة تقليدية،

"شكرك لأصطحابي إليه. إنه رجل عجوز لطيف."

"آوه، إنه على ما يرام. إنك لا تعرفه."

عجبت لهذه الإجابة. ولكنني قررت ألا أضغط عليه، فلم تكن هناك حاجة حقيقية إلى ذلك. وحينما جلسنا في البار رحنا نحسب بعض التبيد الأحمر، قال:

"يجب لي أن أتخيل أن حيدي واحد من الشخصيات التي تمثل أسوأ تركيبة من الخصائص المتضاربة التي يمكن أن تجدها في دبلن في هذه الأيام. إنه - أولاً - كذاب. لقد تظاهر بأنه لم يعرف اسم دوليللي. هراء. إنه يعرفه مثلما تعرفه أنت...

"لأن لماذا.."

فاطمني قائلاً: "وهو ثانياً، ربما كان أصغر رجل في إيرلندا..." وطوال الدقائق الخمس التالية راح يضرب لي أمثلة على حقارة جده ووضاعته وكانت بالثابت مقلعة تماماً. وربما كان الرجل نموذجاً من التماذج الإيرلندية، لأن مانسيورين، يصف شخصاً يماثله في بنية روايته "ميلاموت الجوال". ويرجو هذا الشخص متوسلاً وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، أن يثني في مقبرة من مقابر الصدقة للخصصة للفقراء. ثم تلت ذلك قصص عن عدم أمانة جده. ثم هنالك تلك الفتاة للسكنة التي ترعاه. إنها ما تزال طالبة في معهد التمريض، ولذلك فإنه لا يكاد يدفع لها شيئاً. ولكنه يقتنعها بأن تنام معه مقابل وعده لها بأن يترك لها ماذا في وصيته. هو بالطبع ما كان يحلم بهذا.

دهشت وسألته: "أنت وافق من هذا؟" فإن الرجل لم يكن يبدو علي صحة كافية لكي ينجو من آثار حلم جنس.

"بالطبع. إن الفتاة تنام معي في ليلة عطلتها."

كنت قد بدأت أشعر بالانتعاش. كان كليف بيتس يصف خطايا جده وأخطاءه في شئف حقد شعرت بأنهما على شيء من الوحشية.

"لماذا لم تخبرها بأن الرجل لا ينوي أن يترك لها نقوداً في وصيته؟"

غمز بعينه وقال: "إنها قد تركته. وهذا لن يفيدني ولن يفيدني."

الفرحت أن نأخذ نبيذاً معنا إلى حجرة الطعام. قال:

"هل تمانع في تناول الطعام في البار الطويل بالطابق الأسفل؟"

"كلا. إذا كنت تفضله."

وجدنا مائدة على جوار النافذة لليلة على الشارع. سألته:

"من هو وارث جدك؟"

"اعتقد أنني الوارث."

"لكن لماذا تختاره إلى هذا الحد؟"

لمس لهذا علاقة بذلك. إنه خنزير عجوز. وأنا على أية حال لست بحاجة إلى نقوده. إنه ميسور الحال تماماً. وربما كان هذا هو السبب الذي سيوقعه إلى أن يجعلني وارثه. إن جيم، ابن أخيه، جيم هيرد، يحتاج إليها أكثر مني.

قطع كلامه فجأة وأطل من النافذة. كان للطر لا يزال بهطل، وكان أمامنا خلف النافذة طفلة صغيرة. كانت تنظر إلينا، وهو ما دفعنا صلاتنا للنظر إلى بعض نظرة تساؤل ثم ابتسم كليف لها. سألته:

"أعرفها؟"

"كلا". ولكنه مع ذلك كان يشير إليها بإصبعه. هزت رأسها والفضة. قام وخرج إليها توفعت أن أراها تختلفي قبل أن يصل إليها. ولكنها وفقت في مكانها، بدت وكأنها خائفة وباردة ومبتلة، وكانت ملابسها رثة إلى حد كبير. قال لها شيئاً ما، هزت رأسها علامة الرهض. ثم أخذها من كتفها، وأحبرها على السير أمامه. بعد لحظة كانا قد عادنا إلى مائدتنا. قال:

"إنك لن تنزعج إذا انضممت إلينا. اليس كذلك؟"

قلت أنني لن أنزعج. ولكنني كنت أكثر اهتماماً بما ستشعر به بإدارة المحل. كانت أكبر سناً مما بدت عليه من وراء الزجاج أربعة عشر، أو خمسة عشر عاماً، تقريباً. كان شعرها مرفوعاً على شكل ذيل فار، وكان أنفها يرشح من البرد. وترندي سرة قصيرة ذات كتفين منتفخين وليس فيها سوى "زراز" وحيد. كان للطر قد رسم خطوطاً على ما تاصل فوق وجهها من أوساخ، وكانت تبدو كمن لم يغتسل منذ أسبوعين، ولكي أكون

مبناً، فقد لاح لي أن الطير كان سبباً فيما فاح منها من روائح أكملت تلك الحقيقة، سألها ضاحكاً:

"ما اسمك؟"

"فلورنس".

"هل يدعونك فلو؟"

"أجل".

كانت لهجتها اللغوية فصحى Cochsney جلست في مكانها، تحك يديها البارزتين لأحدتيهما الأخرى، فتبلى كصورة مجسمة لليوس، كان النادل ينظر إلينا في استمزاز رقص، وظننت أن مديرة الحفل كان على وشك أن يأتي إلينا ليطلب منا مغادرة المكان فقد كان يحملني فيها بقوة، قال مكليف:

"أودين أن تأكلي بعض السمك والبطاطس الفلبية؟"

أومات برأسها، ولكنها ظلت تبدو مخدرة من البرد فبالدة الحياة، نادى مكليف على النادل، وأمره بأن يأتي بما أرادتته الفتاة بطريقة ظهر عليها الافتعال وتصنع الكبرياء. كانت مشاعري مختلطة غير واضحة، إذا كان قد دعاها إلى الدخول بدافع الشفقة أو العطف إذن كنت أوافق، رغم أنني كنت سأفضل اصطحابها إلى مكان أكثر هدوءاً وعممة. ولكنه كان شخصية من نوع غريب ومعقد حتى إنه كان من الصعب التأكد من دافعه. ظننت أن الفتاة بدت غير مستريحة غريبة عن المكان الذي دخلته. وأخيراً اقترحت أنه من الأفضل أن نصعد إلى حجرتي، على أن نطلب إرسال طعامها إلى هناك.

"كلا، كلا، ولماذا يجب علينا ذلك؟ إننا على ما يرام هنا".

كنت جالسا إلى جانب الفتاة ملاصقا لها. ومكنت أفضل لو أنني كنت أقل قرباً، أخذت سرتتها منها لكي أعاقها على الشجيب، فقاحت منها رائحة جعلتني أظنها قد وجدتتها في حكومة من القمامة بعد أن كانت قد استخدمت في تجفيف بعض السمك. إن لي أيضاً حساساً

إلى درجة غير عادية، ولكن حتى رغم ذلك، فإن السرة لم تكن شيئاً عادلاً بالنسبة لجرباب على اللون القريبية.

كانت الوجبة واحدة من أكثر ما عرفته بعداً عن الراحة أو المتعة، فطلبت زجاجة أخرى من الشراب في محاولة لنسيان ما شعرت به من حرج، لم أستطع أن أفهم السبب الذي جعلها توافق على الدخول. كانت تجيب على الأسئلة بكلمات مفردة في خشية واضحة من أن ترفع صوتها. وقد جلست في وضع منجمد مقيد، كما لو كانت تتداخل في نفسها لإحساسها للسهم بالبرد. وبدأ مكليف كما لو كان مستريحاً لهذا الجو. راح يتحدث بصوت مرتفع وباستهزاء واضح، وهو يقص عليّ حكايات عن مهرجان كان السينمائي، وعن آخر أفلام بر كمان، وهي حكايات لم تستطع أن تثير لدي أدنى قدر من الاهتمام. حاولت أن أتحدث إلى الفتاة، ولكن كان واضحاً أنها تفضل لو تركت لشاتها، شعرت براحة أكثر حينما غادر جيراننا على اللاندة المجاورة لنا، حينما وصل سمكها وبطاطسها للقلي، أغرفتهما بالخل والضماد الحفوظة، فأصبحت رائحتها أقل ظهوراً، رفضت الفتاة أن تتناول شيئاً من الحلوى. الأمر الذي شعرت له بالراحة والقبطة، كنت قد نويت أن أضيف الوجبة كلها إلى حساسي في الفندق، وبدلاً من هذا دفعت الحساب نقداً وتركيت للنادل هبة كبيرة. لم ألتزم بالرغبة في الظهور بمظهر تزيل الفندق.

قال مكليف بأقصى ما يملكه صوته من ارتفاع وأرستقرارية،

"حسناً، إذا لم تكن ستتناول المزيد، فيمكننا أن نذهب إلى مسكني لتتناول شيئاً من الشطائر بالجبن".

كنت بالغ السرور بانتهاء تناول الطعام، فلم أعترض. إلى جانب أنني توقعت أن نتركنا الفتاة بعد هذا. كان منظر وجهها النعيس يجعلني كئيباً، ولم تكن سعادة النادل بالهبة الكبيرة سوى نصر ضئيل.

وفي الخارج قال مكليف، "حسناً، إنني لا أعرف كيف سننحشر جميعاً في سيارتي ذات القعدين".

ظننت أن هذه الجملة كانت إجابة مؤدباً للفتاة بالانصراف، ولكنها ظلت واقفة في مكانها، قال:

"أوه، حسناً، سنرتب هذا الأمر - تعالياً". وجذب ذراعها بقوة، قلت:

"ألا يتوقع والدك عودتك إلى البيت؟"

هزت كتفها بلا مبالاة وقالت: لا!

في السيارة البورش جلست على ركبتني في هذه الزخزعة القفلة. وقد طلب مني كليف بيتس ألا افتح النافذة. كانت الرائحة السمكية أكثر قوة. كان عليها أن تضغط بظهرها علي لكي تدخل ركبتها في مساحة الفراخ الضيق. ربت كليف على ركبتها وهو يقول: "سنكون في البيت حالاً - أو هو - هناك ثقب.. هنا -" وكان يشير إلى جواربها. ثم غمز لي بعينه وقال: "احسبنا". نظرت إليه بدهشة قليلة. من المؤكد أنه لم يكن يستطيع أن يرى في هذه الطفلة البقلة ذات الأنف السائب موضعاً للرغبة الجنسية؟ ربما لم تكن لديه حاسة للشم؟

بدت لي سلبتها نوعاً من الشذوذ. حينما توقفنا أمام شقته توقعت منها أن تبدي شيئاً من المعارضة. فكيف لها أن تعرف على أي حال أننا - نحن الاثنين - لا ننوي اغتصابها؟ ولكنها وفقت في مكانها دون أن تبالي بشيء، حتى أخذ كليف بذراعها وفانداها نحو الباب.

بيتس أكثر غربة وشذوذاً في هذه الغرفة الجديدة التافيت. ألقت بسرتها فوق الأريكة. ثم ذهبت فطبعت متدخلة بجانب اللهاة، وبلدت غير مهتمة على الإطلاق بكل ما يحيط بها. قال كليف:

"فلنسمع بعض الموسيقى. ما رأيكم؟ هل تعرف كانتاتا جيمس أوزوالد السماعة عربية لثريب؟ عليك أن تعرفها. إنها معنعة". تساءلت بيني وبين نفسي إن لم يكن في هذا الاختيار تعريض ساخر بالفتاة. ولكنه أخرج اسطوانة موسيقية تحمل هذا الاسم بالفعل، ووضعها على الحاصكي. عرض عليها أن تشرب ككاساً ولكنها رفضت. أخرج الجبن والشطائر والزيتون الحشو إلا أنها رفضتها أيضاً. غير أنها حينما قدم إليها علبة كبيرة من الشطائر الجاهزة لشجوة اخبتها دون أن تبس بكلمة واحدة. وجلست تلتهمها. وقد باعيت ما بين ساقيها أمام النار. وراحت تسقط شئار الشطائر فوق مقعده الحديث ذي السندين وعلى البساط الأبيض الفاخر. اتخذت مقعداً على الجانب الآخر من اللهاة، وكان كليف قد جلس بالقرب منها. بدأت أتساءل إن كانت قد سكرت. ولكن وجهها الصغير الحاد ظل على لامبالته

الكاملة. ولم يكن حتى ينم عن الكابة. وحينما كان يتحدث إليها كانت تجيبه إما بكلمات مفردة، وإما أن تهز رأسها أو تؤمن به. وبعد أن التهمت عدداً هائلاً من الشطائر الصغيرة طليت شيئاً تشربه. ذهب إلى المطبخ وجاءها مزجاجة من الكوكاكولا والنبوة لأمصاص الشرب حينما انتهت كانتاتا "عربية لثريب". قالت دون أن يبدو في صوتها الاهتمام الشديد: "لماذا تضع شيئاً من الموسيقى اللطيفة". أخرج اسطوانة من موسيقى مانتوفاني وقرنته، وبدأت هذا الاختيار قد أرضاها. ثم إنها لم تقل شيئاً.

فكرت في أنه كان ربما يأمل أن أقوم أنا فأنصرف لكي أتركه معها بمفرده، ولكن حينما قلت أن الوقت قد تأخر، عارضني على الفور، وأضاء جهاز التلفزيون لكي تشاهد نشرة الأخبار. جلست في مكاني، ارتشف ككاساً من الشرب. عارفاً بأنني سرعان ما سأسرع بالسكر، ومع ذلك فقد كنت أشعر كما لو كنت لم أشرب سوى الماء طوال النهار.

بعد نشرة الأخبار كان هناك برنامج عن الاضطرابات السياسية في شمال إيرلند. ربت كليف على ذراعي وأشار إلى الفتاة. كانت نائمة. قال برقة:

"إنها لطيفة. ألا تظن ذلك؟" وجئت أنه من العصب أن أعثر على إجابة مناسبة. وأخبر قلت: "إنها بحاجة إلى حمام جديد؟". بدا عليه الحزن بشكل غير متوقع. وغض بصره وقال: "أجل، المسكينة...".

"ألا تظن أنه يجب عليك أن تأخذها إلى البيت؟ ألا يمكن أن يسير والدها بعض الشااكل؟"

"أوه، لا أظن ذلك. يمكنها أن تنام هنا إذا أرادت ذلك".

سلمت دون مزيد من المعارضة. كان يعرف ما يفعله خيراً مني.

كانت قد غرقت في النوم وضعة إحدى ساقيها فوق أحد مستدي المقعد، ومدت الساق الأخرى أمام النار. غيرت وضعها قليلاً فأنزلت ذيل ثوبها فوق ركبتها. لبس كليف في وجهي، واتجهني إلى الأمام وصوب نظره قريبة فوق ذيل الثوب. توقعت أن تستبظ ولكنها لم تتحرك. اتقت إلي وقال: "انتظر" ولكني هزرت رأسي قائلاً: "كلا. أشكر". تظاهر بأنه يريد أن يطلعتني على شيء هام، فغيرت وضعي ونظرت إلى ما فوق ذيل الثوب. كان الجوربان

سمكان مليزين بالنقوب والشقوق. كانت ترتدي سروالاً طويلاً مصنوعاً من القطن، ولكنه كان معزق "الحجر" بشكل سين حتى إنه لم يكن يخفي شيئاً. أبعدت عيني سريعاً - ليس بدفع الرفق أو اللامبالاة، وإنما لأبني كنت سأشعر بخجل جديد لو أنها فتحت عينيها في تلك اللحظة. قلت،

"ماذا في ذلك؟"

بدأ عليه الحزن والتفكير مرة ثانية.

"من الواضح أنها تنتمي إلى أسرة فقيرة، فلا عجب أنها ليست نظيفة جداً."

ليس كنتفها وقال، "تريدين النوم هنا". جففت ولكنها لم تفتح عينيها. وهجأة أصبحت عاجزاً عن معرفة ما إذا كانت تتظاهر بالنوم. تحسس قمائش ذوبها وقال، ستصاب بنزلة برد إذا ظلت بهذه الملابس". نهض واقفاً ووضع يداً تحت ذراعها ويده الأخرى تحت ركبتيها. ورفعها. حركت رأسها وهالبت شيئاً. خطر لي الآن أنها إما أن تكون تتظاهر بالنوم أو إنه قد وضع شيئاً في الشراب الذي تناولته. فإذا كان ذلك قد حدث، فلأبدي أنه استخدم مادة هالبريت الكلور، فهي وحدها القادرة على إنتاج هذا الخدر الكامل.

تبعته إلى حجرة النوم - وكان من الغباء الكامل أن أسأله عما كان يفعله. كانت الحجرة مريحة ودافئة. وضعها على حافة الفراش الكبير، ثم خلع حذاءها. ثم بحث حول الخصر حتى عثر على الزمام. سألته، "هذا تصرف حكيم؟" قال، "إنني لا أتوي أن أضعها في فراشي بهذه الملابس. لقد قلت بنفسك إنها متعفة". عثر على الحزام فجذبه وفتح بعنف، ثم جلب النقوب النصفين فجعله من قدميهما. لم تكن ترتدي قميصاً داخلياً، لا شيء سوى الجوربين المسوكين بزوج من دوائر اللطاف، والسروال الداخلي الذي كان رياطه اللطاطي بعيداً تقريباً عن خصرها. قال، "جسد صغير جميل". وكان في هذا شيء من اللباقة. كانت بحبة، والبطن الصغير كان مسطحاً للدرجة أن عظمي الرافدين برزتا بوضوح. أمسك بطرف الصدر الصوفي الخفيف، وكان ذا لون أخضر شابه لون الطين والرف - ورفع، ثم حركها فقلبها على جنبها حتى يستطيع أن يجذبه من فوق رأسها. كانت ترتدي حمالة صدر كانت بيضاء ذات يوم، وكانت أشرطة الحمالة على ظهرها موصولة بقطعة من

اللطاط الأسود إلى بقايا القماش بطريقة خشنة. وقطع شريط اللطاط بأظافره. كان النهران الصغيران مسطحين ولم يكتمل نموهما. نظر إلي وقال،

"هل سنألفها؟"

قلت على الفور، "كلا. دعها وشأنها".

مد يده فجاء ووضعها على مقدمة بنتالي فقفزت إلى الخلف كعما لو كان قد ضربني. ابتسم وقال،

"لا يمكنك أن تتظاهر بأنك غير مستثار."

كعبت رغبتي في ضربه وقلت، "لماذا لا تضعها على الفراش ثم تتركها لكي تنام؟"

"كلا. سيخيب أملها".

كانت مشاعري مختلطة وغامضة. كنت واثقاً من أنها متيقظة. ولكن إذا لم تكن، فإنني كنت سأعتبر شريكاً في اقتصابها. كنت سأعثر شريكاً على أي حال، طالما أنها لم تبد أي نوع من الاستجابة. انحنيت إلى الأمام وفرصت كنتفها. لم تتحرك. كان مكلف بينس في تلك اللحظة بطقه بطريقة غير عاقلة. قبض على نهدها بأصابعه وقال، "قولي له أنك مستيقظة يا حلوة". انحنى إلى الأمام كعما لو كان يريد أن يقبلها، ولكنه أخذ شفتها السفلى بين أسنانه وعضها (...)

الغضب مني وأمسك ذراعي. وما زال انتصابه ظاهراً. ووجدت أنه من الصعب أن أبعد عيني عنه. قال متعلقاً،

"لقد أدبت لك خدمة اليوم. اسمع، حينما يموت الرجل العجوز، سوف أرت كل ما لديه من مخطوطات. وسوف أسمح لك بأن تأخذ ما تشاء."

"أذكرني الموقف فجأة بالكولونيل دونيللي، وكان هذا أكثر بكثير مما يمكن أن أحتمل، قلت،

"اسمع، إذا كنت تريد أن تنالها، فانهب وافعل ما تشاء. إنني لن أمتنع، ولكنني لا أريد مشاركتك في هذا. وأنا لا أريد أيضاً أن أحملها."

قلت ذلك بسرعة لأنني استطعت أن أدرك أنه كان يرمي إلى الفأسة حفل جنسي
ثلاثي الأطراف.

"أنا تنصرف؟"

"كلا. سوف أنتظر."

"سأترك الباب مفتوحاً". ثم انتدح إلى حجرة النوم، فرائته يقلق بنفسه فوقها مرة
أخرى (...) ذهبت فعثرت على زجاجة من النبيذ في خزانة مشروباته فملت لنفسي ككأساً
كبيرة. ولم تترك لي الأصوات القادمة من حجرة النوم مجالاً للشك في أنه كان يستمتع بها.
وكانت تتخللها أنات وتعليقات مثل، "أوه، أوه، أيتها العاهرة الصغرى..." وأخيراً توقفت
الأصوات. مضيت في تناول الجبن والزيتون، مع قراءة نسخة من كتاب وابت، "أخوة الصليب
نوردي" وجدتني على أحد رفوف الكتب. بدأت أشعر بالنعاس. سوف يكون من الكذب أن أقول
أنني لم أكن مستثاراً جنسياً إلى حد ما. كانت سلبية الفتاة المعلقة قد أثارت فضولي، وإن
ما شعر به من فضول إزاء فتاة لغريب جداً من الرغبة في أن تخلع لها ملابسها، وإذا جلست
على المقعد ذي للسندين الذي كانت تجلس عليه، تذكرت سرورها الداخلي المبرق
وأعضاءها التناسلية للكنسوة وتجدد الشبق. كنت جديراً بأن أمارس معها الجنس في ظل
ظروف مختلفة. ولكن ما أضعف من عزيمتي كانت شخصية كليف بيتس، ومحاولته
ندمي إلى مشاركتي في عملية بدت لي كالأغتصاب.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وفكرت في العودة إلى فندق، ولكنني سمعت
صوت حركات صادرة من حجرة النوم، ولم أرفع عيني لأنظر ما يجري. ثم رأيت كليف
بيتس واقفاً على بساط صغير عند باب الحجرة، عارياً، حاملاً الفتاة بين ذراعيه مرة أخرى.

"لقد جئت بك بها مرة أخرى."

"هذا عطف منك، ولكن علي أن أرحل."

"أوه، لا، لا أرحل" ركع على ركبته، ووضعها على البساط المتنوع من جلد حيوان
أبيض عند قدمي. كانت هي الأخرى عارية كما ولدتها أمها الآن. ثم خرج من الحجرة.

انحنيت فوقها ولمست ذراعها. قلت، "أنت مستبقة؟". لم تصدر عنها حركة، كان
صوت المياه الجارية يأتي من الحمام، وبعد دقائق خرج كليف بيتس من هناك، حاملاً إناء
من البلاستيك الأحمر يتصاعد منه البخار.

"ماذا تفعل؟"

كان الماء معطراً، أخذ منه إسفنجة استحمام، وعصرها، ثم دعتها بصابونة كبيرة
معطرة بعطر الليمون، وبدأ يمسحها بعناية، متجاهلاً ما جرى على البساط من ماء، ثم أخذ
منشفة وجففها (...) ثم رفع عينيه نحوي وقال، "هاك هي، لا يمكن أن تكون أنظف من
هنا..."

"إن كل ما تحتاجه الآن هو بعض الشاي النظيفة."

"أوه، أظن أننا نستطيع أن نرتب ذلك."

نهض واقفاً وقال،

"هاك هي، إنها ملكك."

استدار وذهب خارجاً من الحجرة، وأغلق وراءه باب حجرة النوم. كان هذا نوعاً من
الإغراء، كانت مراقبتي له وهو بلاطفها بالإسفنجة قد جعلتني أتصعب. انحنيت فوقها
ولمست نهدتها. كانا باردين. خطوت فوقها واتجهت إلى خزانة الكتب، ثم خطوت على
أطراف أصابعي نحو باب حجرة النوم وجذبتة فأنفتح. سمعت صوتاً خافتاً ووجدت كليف
بيتس جالساً على البساط، وقد بدا عليه الانزعاج. قلت، "معترة، إنما أردت أن أخذ شيئاً
أعطيتها به". واتجهت إلى الفراش، وأخذت غطاء ثم عدت ثانية إلى الفتاة الرائدة على البساط
أمام اللهاة. وبينما كنت أغبطها ظننت أنني رأيت ابتسامة على شفاهها.

سمعت صرير لفافات السرير في الحجرة الأخرى، جلست وفتحت كتاب وابت على
فصل "الصليب الوردي". ثم غلبني النعاس ولابد أنني نعست فعلاً. استيقظت حينما انزلق
الكتاب من فوق ركبتي. نظرت إلى الساعة، كانت في الثانية والنصف. هجاء. جلست
فلورنس، ونظرت إلى الغطاء الذي غطيتها به.

"كان هذا شيئاً لطيفاً منك".

"عفواً". وكنا نكلانا نتحدث بصوت منخفض.

قالت: "حسناً، أظن أن من الأفضل لي أن أرحل".

"بهذا الشكل؟"

"كلا".

عبرت الحجرة واتجهت إلى صندوق آثري مليء بالأدراج في أحد الأركان، وجذبت أحد الأدراج ففتحت. بدأت في إلقاء الملابس الداخلية على الأرض. فتحت الدرج الأخير، وأخرجت زوجاً من الأحذية.

قالت: "لقد جئت إلى هنا من قبل؟"

"أخذ حماماً مرة واحدة في الأسبوع، في المتوسط".

ودون أن يبدو عليها الحرج ارتدت مشدداً حزام، وقد بدا هذه المرة جديداً ومن طراز حديث. ثم ارتدت جوربين، ارتدت بعد ذلك سروالاً داخلياً، ثم حمالة صدر، طلبت مني أن أربط خصلاتها. زحقت نحو باب حجرة النوم ونظرت داخلياً، ولكن لم يكن هناك شك في هذه المرة في أن مكليف بيتس كان غارقاً في نوم عميق. كانت فلورنس قد ارتدت قميصاً داخلياً دون صدر صانع من النايلون من نفس لون حمالة الصدر والسروال الداخلي. وقد بدا غالي الثمن لعمري غير الخبيرتين. ذهبت إلى خزانة قريبة من الباب وأخذت حقيبة طويلة من البلاستيك كانت معلقة على مشجب في الخزانة، تصيح أنها كانت تحتوي على حلة خضراء اللون كالليغون مكونة من قطعتين. توجهت إلى ثلاجة العلقة فوق المدفأة ومشطت شعرها بفرشاة أخذتها من الدرج. كان شعرها في ذلك الوقت جافاً، وبعد أن منشفته بدا اللون الأحمر الذهبي نفسه الذي رأيته في مكان آخر. زينت وجهها بضربيات قليلة من أحمر الشفاه وبعض البودرة التي نثرتها بقטיפعة صغيرة على صدغها. حينما التفتت إلي لم أكّد اتعرف عليها. كانت ما تزال تبدو صغيرة السن، ولكن كان يمكنني الآن أن أقدر عمرها بعشرين عاماً. كانت قد ارتدت الملابس الجيدة التفصيل كما لو كانت معناد عليها.

"مستعد؟"

"نعم .. أجل".

من خزانة اليهو أخرجت معطفاً كان متناسباً تماماً مع الحلة، ومظلة من نفس اللون.

وأخيراً وضعت قبعة حمراء صغيرة على رأسها. اطلقت للمدافأة الكهربائية، ثم اطلقت النور، وأخرجنا، وأغلقنا الباب وراءنا بهدوء.

سألتها: "أين تقبمين؟"

"أوه، لن أعود الآن إلى البيت، أنت تقبى في شيلبورن؟"

"أجل".

"سأعود معك إلى هناك لأرى إن كانت لديهم حجرة لي. لا يمكن أن اتحمل مشقة الخروج إلى مالاهايد".

كانت لهجتها ما تزال لنندنية بوضوح، ولكنها لم تعد لهجة الكوكيني (سوفة لندن) كان المطر قد توقف، فسرنا في الشوارع الخالية. سألتها إن كانت تعرف جد مكليف بيتس "أوه، أجل، إنه كان يعيش في مالاهايد، وهناك قابلت مكليف. والوالد المعجوز لا يقل عنه سوءاً".

"بأي شكل؟"

"إنه يحبهن صغيرات. كان من عادته أن يناوشني حينما كنت في العاشرة".

بدأت راغبة تماماً في الحديث، وتكلمت بطريق ثلقانية، وأحياناً بطريقة تشبه أسلوب رجال الأعمال، وليست كمن تبوح بدخيلتها أو تكشف عما بنفسها، كان مكليف قد اغواها عندما كانت في الثانية عشرة - حيث كان قد عرض عليها أن يعطيها ما يكفي من النقود لكي تشتري دراجة غالية إن هي جاءت إلى حجرته بعد نصف ساعة من انصرافها من المدرسة لعدة أيام. كانت بنتة غير شرعية لامرأة تعمل سائقة سيارة عامة، وكانت ترتدي ثياباً

لاح لي أن كاتيب الفندق كان يعرفها. أخذت منه المفتاح، وصعدنا إلى الطابق العلوي معاً. وفي الطابق الثاني، حيث كان يجب أن نضرب، هالت، "هل أتى إليك وأتحدث معك؟" عرفت ما كانت تعنيه قلت،

"أظن أن عليك أن تنالي قسطاً من النوم، لقد قضيت ليلة متعبة".

ابتسمت في وجهي وقال،

"إنك لطيف، لن يهمني التعب".

وقفت على أطراف أصابعها وأحاطت عنقي بنراعيها. قبلتها وشعرت بنمضة شبق مفاجئة.

قالت، "ليلة سعيدة". ثم سارت مبتعدة في الدهليز، كبحبت رغبتني في متابعتها. ونهيتني إلى حجرتي، وقبل أن أدخل الفراش، تناولت ستة أقراص من هيتامين "ب" وشربت مكاسا من الماء. ولكن هذا لم يؤد إلى النتيجة المرجوة. استيقظت في الصباح بضم جاف ورأس يبق ويلف كالحر كاو مولد الكهرباء.

فدحان من القهوة وبعض قطع الخبز الجاف بالربد جعلتني أشعر بمزيد من الإنسانية. جلست في الفراش، أقرأ صحيفة الصباح، وأتساءل إن كانت الرحلة إلى قلعة مالاهايد يمكن أن تساوي ما سوف يضيع فيها من وقت وطاقة، ولكن الإغراء كان أقوى بأن أضع الورقة التي كتب عليها "لا تزعجني" على باب حجرتي من الخارج ثم أنام ما تبقى من ساعات الصباح. دق جرس التليفون، فكان مثل محرات دائري بخصوص في تربة تركيزي الهشة. تساءلت بيني وبين نفسي وأنا أرفع السماعة إن كان المتكلم هو كليف بيتس. وشعرت بأعراء ينفخني إلى وضع السماعة في مكانها دون أن أحجب. دق الجرس ثانية، فرفع السماعة. سمعت صوت رجل يقول،

"مستر سورم؟"

"أله يتكلم؟"

"أنا الستير جليوني هل كتبت إلي رسالة؟"

سنة ولا تتناول ما يكفي من الطعام. كان من الواضح تماماً - رغم أنها لم تصرح بذلك بوضوح - أن ما جذب كليف إليها هو أنفها السائب وثيابها الممزقة. كان قددها لعنبريتها صدمة مؤلمة. وإن كليف يعاملها معاملة طيبة جداً، فلاطفها وهناها، وجعلها تشعر بالثقة والأمان. وذات يوم، بعد أن خلع ثيابها بصفاء ودلكها بزيت الزيتون، انقض عليها بكل قوته وأزال بكارتها بضربة واحدة عنيفة. صرخت وبكت لمدة نصف ساعة، حتى خرج من المنزل واشترى لها الدراجة التي كانت تريد منذ وقت طويل. واستمرت مواعيد لقائها معه في حجرته، وسرعان ما اشترك معهما الرجل العجوز، كانا ينفخا لها نفوذة كثيرة، وتحدث فرجل العجوز مع أمها عن تبنيه لها. كانت الأم تعرف ما يجري بالطبع، ولكن النفوذ كانت أكثر من أن ترفض.

كان اعتراض كليف الوحيد هو أنها تنفق على الملابس أكثر مما ينبغي. كان جزءاً من خياله الجذب أنها يجب أن تظل مشردة مهلهلة الثياب، وكان قد اعتاد أن يتسكع أمام محلات الثياب المستعملة لكي يشترى لها ثياباً مهلهلة قذرة. وكانت هذه الثياب تصلها بالبريد، مع بطاقة صغيرة يخبرها فيها أين ستقابلها، وفي أي وقت. كان عليه أن يمثل دور من يلتقط هتافاً من الشارع، وكان عليها أن تتصرف كما لو كانت لم تره من قبل أبداً. وكلما كان في مقدوره، كان يأتي معه بشخص آخر، ثم يقوم بتمثيل مشهد الاغتصاب العجيب الذي شاهدته بنفسه. سألتها إن كان أصدقائه قد قبلوا أن يمتلكوها بناء على دعونه بينما تكون هي غائبة عن الوعي بشكل واضح، قالت،

"أوه، أجل إنك الثاني - الذي يرفض ذلك".

"فماذا يحدث حينذاك؟"

"لا شك أنك ستدهش تماماً عندما أقول لك بأنهم أحياناً كانت تبلغ بهم الاستشارة جداً كبيراً حتى أنهم يستمرون في تبادل الفرجة طوال الليل. فإذا كنت سعيدة الحظ، تشغل الرجلان أحدهما بالآخر وترصانني وشانتي".

"إن كان كليف شاذ جنسياً؟"

"أوه، إنه بكل شيء".

قلت، "يا رحمة السماء. كيف حالك؟ جميل منك أن تطلبي".

"أخبرتني زوجتك بأنك تنزل في فندق شيلبورن. اسمع، ما الفرض المتاحة لقدومك إلى لندن؟"

"هذا ممكن. ما الذي تفكر فيه؟"

"هذا شيء أطول من أن شرحه في الهاتف، ولكنني مسحور الحب تماماً بكل هذه الحكاية عن دونيللي. وأن لدي فكرة عن احتمال قدرتي على مساعدتك. هل تعرف أن فصر جلوسي قد بيع؟"

"كلا. لم أعرف بذلك".

"أخشى أن يكون هذا هو ما حدث. منذ عامين. لقد تنبأوا بخطابك. كان أخي الأكبر قد قتل في سويسرا - غرق في حادث قارب. واكتشفنا أن أوضاعنا أكثر تعقيداً مما كنا نظن - ضرائب الشركات وما إلى ذلك - مع أننا قررنا أن نبيع فصر جلوسي. اشتراه رجل من كندا يدعى ميللر. أعرف أن هناك ادراجاً ضخمة لمينة بالأوراق. وهي ما تزال ملكي بالطبع".

"هل حاولت الاقتراب منها؟"

"أوه، أجل. هذا الرجل ميللر، شخص لطيف تماماً. لو استطعت المجيء إلى لندن لأمكننا أن نذهب معاً إلى هناك".

فكرت بسرعة ثم قلت:

"متى ستكون خالياً من العمل؟"

"أي وقت. انني لا أعمل الآن".

"أو انني اخذت طائرة إلى لندن اليوم، هل ستكون خالياً؟"

"أوه، أجل، بالتأكيد. سأسعد لرؤيتك".

أخذت رقم تليفونه، وقلت له أنني سأتصل به ثانية، وأنهيت الكالة. اتصلت أولاً بالطيار فعرفت أن الطائرة من شركة "إير لينجوس" ستطير إلى لندن في الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة، وأن علي أن أكون في المطار قبل ذلك بثلاث ساعات لكي أحصل على تذكرتي. فاصكبت لهم أنني حجزت التذكرة لنفسني، ثم اتصلت بمكتب الفندق ليعتدوا فائضة حسابي. اتصلت بديانا بعد ذلك ولكنني لم أجد غير مويسي التي سكنت في رعاية المراه التي تأتي لتنظيف المنزل بينما خرجت ديانا لتصفيف شعرها. قلت لها أن تقول لأمها أنني سأسافر إلى لندن وليني سأتصل بها فيما بعد. ثم اتصلت بالستير جليتي مرة أخرى، وقلت له أنني سأكون في مطار هيثرو في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة. كنت في عجلة من أمري وراج رأسي بنق محذراً، ولكنني اتخذت موقفني النهائي، وصعدت إلى الطائرة قبل خمس دقائق من إقلاعها، أخذتني سكرة النعاس قليلاً خلال الرحلة، فنامت وعندما صاحوت وجدت الطيار يعلن هبوطنا.

في مبنى المطار أعلن صوت في مكبر الصوت عن اسمي وعن طلبهم لي أن أذهب إلى مكتب شركة "إير لينجوس" للطيران. ذهبت إلى هناك، فوجدت في انتظارني شاباً طويلًا أشقر الشعر.

"مستر سور؟ أنا الستير جليتي".

كان أصغر سنًا مما توقعته - لا يكاد يكون قد أنهى عقده الثاني. كان شعره طويلًا، وكان بنحاله "البلوجينز" وسرته للصنوعة من جلد الجمار ليعد ما كنت أتوقع أن أجده عليها. وإن كان في نطاق هذا العمل. كان وسيم الطلعة إلى أقصى حد، وإن كان شعره القصير قليلاً لاستطاع أن يجمع ثروة إذا ما كان قد عمل "موديلاً" للرجال".

قلت له لطيف منه أن يهابيني. فقال،

"عفوا. لو أنك لم تأت إلى لندن، لجنّت أنا إلى إيرلندا".

سرنا نحو ميل حتى بلغنا المكان الذي ترك فيه سيارته من طراز "ميني ماستور". في الطريق إلى حيث يأخذني مضيفي، سرد علي بالتفصيل ما كان قد أخبرني به في الهاتف. كان أخوه غوردون قد مات في الثامنة والعشرين من عمره. بعد عام واحد من زواجه. وكان آخر من تبقى من عائلة جليتي. وأصبح فصر جلوسي ملكية مشتركة بين الستير

وبين زوجة شقيقه، وكان الستير ما يزال يدرس في كلية سانت أندروز. وكانت الضرائب الفرويض على التركة قليلة، وحينما تمت عملية تصفية حسابات الستير لم يكن قد بقي له إلا القليل بالإضافة إلى قصر جلوسي (رغم أن الستير كان له دخل مستقل ورثه عن جنته لأمه). كان قصر جلوسي نادراً مثل قبل أبهى، ولكنه أيضاً كان مثاليًا فقد أكد لهم الوكيل أنه لم يكن يساوي مئاعب جميعه، وأن الثمن المحتمل لن يكفي لتغطية الرسوم القانونية للبيع. ومع ذلك فقد قرر هو وزوجة أخيه أن يبيعا. وفي خلال أسابيع قليلة تسلما عرضاً كبيراً إلى درجة لا تصدق من رجل أعمال كندي كان يريد "قاعة اسكتلندية" لكي يستخدمها كمقر له في إجازاته. أبرما الصفقة بسرعة، وقرر الستير أن هذا هو الوقت المناسب لتحقيق أمله في تكوين فرقة للفناء "القبوب" فانتقل إلى لندن. ولكن مشروع الفرقة لم يتحقق، فاصبح يعيش بهدوء في هولنديمارك ويدرس فن التصوير على أمل أن يصبح مصوراً صحفياً.

سألته كيف أصبح مهتماً بدونيللي.

"أظن أنه من الأفضل أن أترك أنجيلا لكي تشرح ذلك. إنها زوجة شقيقي غوردون. وهي تنتظرنا في السفدة.

يجب علي أن اعترف بأنني شعرت بنوع من خيبة الأمل. كان الستير جليبي شاباً لطيفاً يبعث على البهجة بشكل واضح، غير أنه كان من الصعب أن يبدو في صورة تلاءم وبهني عن دونيللي. ولكنني ظننت أنه من الممكن أن يكون لمسة ساخرة في مقدمتي كتاب "مذكرات أفان إيرلندي" إذا أنا ذكرت أن لورد جليبي الحالي مفتي "بوب" فاشل وأنه يطمح في الدخول إلى عالم الصحافة. ولأنه - على الأقل - مهتم بتاريخ أسرته، فقد خص لي ما حدث لهم في القرن التاسع عشر، وكيف حدث أن تزوج اللورد اسكتلندر جليبي - جده - وزدة أمريكية في عام ١٩٠١. فاستعاد بذلك ذروة الأسرة. ولكن والده عاد بهم إلى الفقر بإقامته في لندن واتخاذ نصف "دستة" من العشيقات.

وصلنا إلى شقته في حوالي الثالثة والنصف. كان عصرًا ناعماً ذهبياً، واحتاجني فجأة إحساس بالرخاء وسعادة الحظ وأنا ألق على رصيف الشارع في "هولنديمارك" أراقبه وهو يخلق السيارة. وكانت هناك توقف في النافذة وتنتظر إلينا، وتلوح لنا. فقال لي: "هذه هي أنجيلا".

كانت أنجيلا جليبي "اسكتلندية" جداً بشكل ما، نحيفة، جميلة، حيوية، ذات شعر منموج في تجمعات صغيرة ووجه مخدوب قليلًا. كانت ترتدي ثوباً صوفياً كان ان يبلغ ركبتيهما، وبنطالاً من التيل.

"أتود شرب الشاي؟ أم مشروباً آخر؟"

قلت إنني أفضل الشاي في هذه الساعة، فذهبا معاً إلى المطبخ ورحلت لنظر إلى الكتب على الرفوف وإلى الصورعلقة على الجدران. كان من الواضح أن الستير قد جاء بكل تلك الكتب من غوردون. فقد كانت هناك مجموعة جيدة من كتب سكوت وجون جالت في طبعتها الأصلية، ولعدد كبير آخر من الكتاب الإسكتلنديين الذين لم اسمع بهم من قبل. كانت ظهور الأغلفة الخلفية للكتب تحمل اسم هوراس جليبي. ولكن التواريخ للمصاحبة للأسم دلتني على أن هذا لابد أن يكون هوراس الابن، منفذ وصية دونيللي.

في ركن رف الكتب رأيت كتاباً يحمل اسم "خطابات من أحد الجبال" تأليف ريفالد سميتسون. لم يكن على الصفحة الأولى اسم الناشر ولا تاريخ نشره. ولكن احدهم كتب تاريخ "١٧٨٠" على ورقة ملصقة بالغلاف. كان هناك رسم على الصفحة الأولى - يمثل جبلاً تعلوه شجرة جرداء وظلياً طويل القرنين. شعرت فجأة بأن فيه شيئاً مألوفاً لي بصورة غريبة. أحسست فجأة بالدوار، وجلست، وأغمضت عيني. بدا لي أن صداعني ما زال مستمراً حينما أغمضت عيني أصبح الدوار عنيفاً كما لو أنني سقطت في دوامة، ففتحت عيني ثانية ونظرت إلى الكتاب. وحينئذ وفي وضوح كامل عرفت ما كان يحدث. صكت "قد أصبحت" أبرز موند مرة أخرى. ولكنني في هذه المرة لم أكن أرى العالم بعيني. وإنما كان الأمر كما لو كنا نفتسم رأسي. فنرى الأشياء بصورة مزدوجة وبمعنيين مختلفين. ولكنني عرفت الآن لماذا كان الكتاب مألوفاً لدي. صكت قد رأيت من قبل، فأنا لذي إحساساً بالتصور. كان شيء، منفر غير سار مرتبطاً به.

نظرت في الكتاب، وإلى ما وراءه شاعراً بصدمة مفاجئة. فتح الباب، ودخل منه هوراس جليبي، حاملاً صينية: نظرت إلي وقال:

"أنت بخير؟"

اختفت الرؤية الزوجية، وتعرفت إلى للتكلم وكان الستير جليبي. قلت:

"أجل، إنني أعاني من صداع خفيف، هذا كل شيء".

نظر إلى الكتاب على حجري:

"أوه، أنت تعرف ذلك الكتاب؟"

"كلا".

دخلت انجيلا، فقال:

"ليس هذا منهشاً يا انجي؟ لقد عثر على كتاب "خطابات من أحد الجيلال" ألا يثبت

هذا شيئاً ما؟

كانا قد أعدنا بعض الشطائر، فذهبت انني كنت جائعاً. وبينما كنت أتناول الشطائر واحدة بعد الأخرى، اختفت آخر آثار الدمار. كنت قد أصبحت "نفسي" تماماً هذه المرة. واكتمل العلاج بثلاثة أفداح من الشاي الساخن. وفي أثناء الأكل سالتني عن السبب الحقيقي وراء اهتمامهم بإيزموند دونيلي. فبعد موت زوجها، قررت انجيلا أن تكمل دراساتها الجامعية التي كانت قد هجرتها لتتزوج، فدرجت اسمها في جامعة ألبيرة، وكان استاذها هو البروفيسور ديفيد سميثلي. كانت ترجمة جيس هوج، وحينما اكتشف سميثلي أن انجيلا هي لادي جيليني، سر وشارت جميعته العلمية. كان يكتب تاريخاً عن مجلة "ألبيرة وبيفو" وكان جيليني واحداً من كتابها الأصليين، ولكنه كان قد أبعد عنها على يد الدكتور جيلبرت ستيوارت، وهو رجل كانت سمته للميزة الأساسية هي الحقد والضعف. كانت حدة التهمة سبباً في أن حققت مجلة "الريفيو" نجاحاً قوياً منذ صدور عندها الأول في شهر يونيو عام ١٧٧٢. وكان جيليني قد كتب في العدد مقالاً نقدياً ممتازاً عن لورد مومبيودو، كما كتب عرضاً فيه شيء من الخشونة لكتاب في التاريخ من تأليف الدكتور هنري، وهو واحد من أكثر الكتاب الإسكتلنديين نجاحاً في ذلك الوقت. وأخيراً، وبشكل واضح، بدأ جيليني يشعر. مثل عدد كبير آخر من الناس، بأن كل هذه البرادة والسخرية لم تكن لتبلغ أي هدف، فكتب إلى ستيوارت خطاباً طويلاً. في أكتوبر ١٧٧٢. موضحاً إحساسه بأن على مجلة "ريفيو" أن تهدف إلى أن تكون أكثر قوة وبناءً، وأنه لا شك في أن كلا من هنري وروبرتسون وبلاير يتمتعون بقيمة حقيقية، مثلهم في ذلك مثل عدد كبير آخر من الكتاب الذين حفر من شأنهم على صفحاتها. وكتب ستيوارت رداً ودياً ومعقولاً، ولكن يبدو

أنه شك في ذلك الوقت من أن جيليني قد وقع تحت تأثير هنري أو بلاير، فكتب خطاباً ذاتياً وصف فيه جيليني بأنه "كتاب حراسة مكهنوتي". (أو كان هنري (كاهناً) مسيحياً).

ويمكن أن يعثر القارئ على ملخص لهذه القصة من كتاب إيزاك ديزرائيلي "خصومات المؤلفين ومعاركهم". وفي شهر نوفمبر، نشرت مجلة "سكوتس مكارزين" وهي مجلة منافسة، دفاعاً قوياً ودكياً عن هنري وروبرتسون. اختتم بهجوم ماهر مميت ضد ستيوارت، ويقتطف ديزرائيلي هذا الدفاع كله. وعلى صفحات مجلة "ريفيو" أكد ستيوارت أن كتاب الهجوم - الذي وقع بحروف "م د" - كان هوراس جيليني، وأجاب جيليني بخطاب على الفور، يقول فيه لستيوارت أنه بينما يوافق على كل ما جاء في الهجوم، فإن كتابه الحقيقي كان صديق إيزموند دونيلي. وكانت نتيجة هذا الخطاب نقداً عنيفاً لكتاب دونيلي "ملاحظات عابر في فرنسا وسويسرا" في عدد فبراير من مجلة ستيوارت ويقول ديزرائيلي أن جيليني أراد أن يتحدى ستيوارت بما يمتلكه من أدوات، ولكن دونيلي منعه من ذلك وضبط من عزمه.

استمرت المعركة، حتى بعد أن انهارت مجلة ستيوارت، ذهب ستيوارت إلى لندن وساهم بالنظام في الكتابة لمجلة "جنتلمان مكارزين". وفي هذه المجلة، وفي يونيو عام ١٧٨١ تحدث، حدث أن ظهر عرض قصير وإن كان فيه شيء من سوء النية المقصود لكتاب "خطابات من أحد الجيلال" وصف فيه الكتاب بأنه، "البخره عقل مختل بسبب الشهوات المريضة والحماس الهوائي". وفي العدد التالي من المجلة، أعلن أن مؤلف كتاب "خطابات من أجل الجيلال" كان في الحقيقة هوراس جيليني.

مات ستيوارت بعد ذلك بخمس سنوات، في سن الرابعة والأربعين، مليناً بالمرارة. يمحور صدره بالكرهية، مقتنعا بأن أعداءه قد تأمروا لكي يحطموه.

كانت هذه هي القصة التي سردها علي انجيلا جيليني. وكان من الممكن أن تثيرني أكثر مما فعلت بالفعل. لو أنني كنت أقل تعصباً. في كل مرة ذكرت فيها اسم هوراس جيليني، كنت أنظر إلى الستر جيليني. والتعجب إن كان حقاً يشبه جدك كل هذا الشبه الذي خيل لي. فإذا تحققت من ذلك، لحصلت على برهان يثبت أنني كنت على اتصال نفسي (أو روحي) بإيزموند. وحينما انتهت من حكايتها، سألت إن كان هناك صورة لهوراس جيليني في جلوسمي.

"أوه، أجل".

"كيف يبدو؟"

نظر أحدهما إلى الآخر وضحكا. قالت أنجيلا.

"إنه يشبه الستير إلى حد مذهل. وهذا هو السبب الذي يجعله مهتماً به إلى هذه

الدرجة؟"

ومذلك لم يكن هناك أي احتمال للشك. وبدلاً من أن أحس بالاستثارة لهذا الكشف، شعرت بالانقباض.

التقطت كتاب "خطايا من أحد الجبال" وفتت.

"ما موضوع هذا الكتاب؟"

"أوه، إنه عمل معقد متشابك. يظن دكتور سمبلي أنه متأثر بكتاب "الواظن العالي" الذي كتبه غولد سميت. إنه في الحقيقة أقرب الشبه بالروايات القوطية - أقرب شياً برواية "قلعة اوترانتو" التي كتبها والبول. إنه كتاب مذهل حقاً بالنسبة لعصره - حينما تضع في اعتبارك أن مسز رادكليف وماتهورين لم يكونا قد شرعا في الكتابة بعد".

"أيمكنك أن تسردني علي ملخصاً لقصة الكتاب؟"

"القصة تدور حول صديقين اسم الأول ككونراد والآخر رودلفو. إنهما يشبهان داود وجوناثان في الكتاب المقدس. حينما يقعان في حب نفس الفتاة، يحاول كل منهما إقناعها بأن تقبل الآخر. يذهبان إلى الجامعة معاً ويقسمان علي الصداقة الأبدية وأخوة الدم - أنت تعرف مثل هذه الشعائر - . وذات يوم، بينما كان رودلفو واقفاً في إحدى المكتبات، يقترّب منه مراكشي غامض يدعى عبدالله صباح. يعرض عليه أن يقرأ له طالعهم. يقول له أن من القدر له أن يكون واحداً من حكام العالم، ثم يدعو للمجيء إلى بيته. وينهب رودلفو - رغم تحذيرات ككونراد - فيقع في حب فتاة تدعى نوري - من المفترض أنها ابنة عبدالله صباح..."

عند هذا، فاطمة الستير فائلاً. "من المؤكد أنه لا يريد أن يسمع كل كلمة جاءت في هذا الكتاب".

أكدت له أنني أريد هذا. استمرت أنجيلا في سردها بشرتك المراكشي رودلفو في احتفالات طقوس سحرية تتضمن فكرة من البلور. يقفان في أنفاتها فوق قمة برج مرتفع تحت ضوء القمر للكمال وينظر رودلفو إلى الكرة البلورية. يرى فيها شعباً ضخماً ينظر إليه بعينيه الصفراوين، ثم يبدو أنه يتفحص عليه. وتنفذ نوري رودلفو من السقوط من فوق البرج. ومن ثم تصبح عشيقته وتعلم بأنها ستزوجه إذا وافقت أسرته على ذلك. وتعرف له بأن عبدالله ليس والدها، وأن العملية كلها مؤامرة الهدف منها ضم رودلفو إلى جمعية سرية هرعية تخطط لتدمير أوروبا.

وفي اليوم التالي يكتشف أن نوري و"أباها" قد رحلا. يمتلكه اليأس ويبحث عنهما في كل مكان. وذات يوم، وفي كنيسة قديمة يرى تمثالاً للعبان ضخم مصبوب من البرونز قبيحته بعدد قليل من الكرونات. ثم يكتب كتاباً في لب الرخلات، يصف فيه الأماكن التي زارها في أثناء بحثه عن نوري، ويطلع على الغلاف صورة الشعبان. وبعد بضعة أسابيع يتلقى رودلفو مخطوفاً مغلفاً يحتوي على رسم للعبان، وأمر بأن يحرق كل نسخ كتابه. وينفذ رودلفو الأمر بأن يشعل النار في مخزن نشره في لندن. ويموت عدد من الناس في الحريق الذي انتشر حتى اشتعل في المنازل المجاورة، وحينما يتم ذلك. يتصل به المراكشي مرة أخرى، فيصيح في مقبوره أن يرى حبيبته وسيدة أحلامه. وبذلك يصبح عضواً كاملاً في الجمعية الشريرة المعروفة باسم "أمر الشعبان". ويشعر أعضاء الجمعية بأن لنوري تأثيراً سيئاً أو بالأحرى طيباً - عليه، فبأمرونها بالابتعاد عنه ولكنها ترفض هيقنلونها. ولا مكان رودلفو قد أصبح خاضعاً تماماً لأوامر الشعبان فإنه يقبل بدلاً منها عشيقه جديدة تدعى فاتيما، وهي الأخرى ساحرة...

قد يكون من المثل أن تلخص بقية القصة المضطربة والميلودرامية. ولا يمكن أن يكون ثمة شك في أنها تلين بالكثير لرواية "قلعة اوترانتو" وأنها بدورها قد أثرت في كتابات مسز رادكليف وماتهورين. إن رودلفو يقع فريسة الإغراء بالقيام بأعمال أكثر شراً باستمرار. على الرغم من محاولات ككونراد إنقاذ حياته. وأخيراً يؤمر بأن يقتل ككونراد. ولكن هذا كان أكثر مما يحتفل. إن الرابطة التي تربطهما والتي تشبه علاقة داود وجوناثان قوية إلى درجة كبيرة رغم تعاقب السنين. وفي اللحظة الأخيرة يرمي رودلفو بالخنجر ويتعاقق هو وككونراد. ويمتلك اليأس رودلفو بسبب أعماله الشريرة، فيقرر أن الذهاب إلى جبل اشوس

القرفة حينة وذهاباً. وبينما كنا نسير منجهرين إلى المطعم، قال، "هل تعرف أن هذا هو أكبر اكتشاف أدبي منذ اكتشاف أوراق البحر الميت؟". وكان فكاهياً فقد شرعت أنا وأنجيلا على الفور في الضحك.

ولكنهما لم يثارا حقاً إلا حينما أخبرتهما بأن إيرموند كان قد أعيد إليه هوراس جليبي منفذاً لوصيته الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي. مكانا باملان في العنور على بعض ما تركه جليبي من مواد في جلوسي، فأصبح من الممكن الآن أن يعثر أيضاً على بعض من أوراق إيرموند هناك. وأشارت أنجيلا إلى أنه من الممكن أن يعتبر الستر منفذاً لوصية إيرموند الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي طالما أنه حفيد مباشر لهوراس جليبي الابن. ولم يكن هناك من بقي على قيد الحياة من أسرة استون. وهذا يعني أنه إذا نشر المزيد من أوراق إيرموند فإن الستر وأنجيلا يمكن أن يشتركا في الأرباح. وكنت قد حصلت بالفعل على أكثر مما يكفي لطبعتي الخاصة من كتاب "مذكرات آفاق إيرلندي".

جلسنا حتى الثانية من صباح اليوم التالي نتبادل الحديث عن إيرموند وهوراس جليبي. وكان لدمهما الرئيسي بالطبع صادراً من أن أحداً منهما لم يهتم بحياة جليبي قبل بيع قصر جلوسي. وتذكرت أنجيلا أن زوجها كان قد أطلعها على حجرة في قصر جلوسي حيث وقعت في الماضي جريمة قتل - إذ عثر على رجل ميتاً في ظروف غامضة. وظن الستر أنه يتذكر شيئاً من هذا النوع هو الآخر. ولكننا حين وصفت الحجرة، لم تكن هي التي تذكرها الستر باعتبارها "حجرة القتل".

نمت ليلتي على أريكة في حجرة الجلوس، وكانت أنجيلا تحتل السرير الموجود في حجرة الضيوف. وكان الستر يريد أن يرحل إلى اسكتلندا في صباح اليوم التالي. ولكن أنجيلا قالت أنه ما يزال عليها أن تقوم ببعض البحوث في مكتبة المتحف. وقررت أنا أنه من المناسب لي أن أذهب معها. قضيت الصباح هناك. وعثرت على نسخة من نشرة "مارتل وسيمبسون" التي كتبها عن جماعة العنقاء. شعر تيم موريسون بالحرج حينما أشرت له إليها، وقال أنه لم يلتفت إليها في بحثه لأن عنوانها كان "جمعية العنقاء". ولكن أقارن بينها وبين النسخة التي رأيتها معه من قبل، طلبت منه أن يصورها لي لكي أحمل الصورة معي.

تناولت أنا وأنجيلا طعام الغداء في مطعم يوناني بالقرب من سيرك كامبريدج. فلبت لها هبة أنه كان عطفاً من جانبهم أن يثقوا بي ككل هذه الثقة. نحن على أي حال،

لكي يطلبا للغرفة. وفي المرحلة الأخيرة من رحلتهم، يستيقظ رودلفو في الليل على صوت نوري البهتة، فيعشي في أثر الصوت الذي سمعه، ولكنه يسقط من فوق قمة الصخرة. وحينما يعثر على جثته، يكون الوجه قد تشوه تشوهات فظيعة حتى أن رهبان جبل اتوس رفضوا دفنه في أرضهم المقدسة. معلين أنه من الواضح أن هذه جثة شيطان. ويقوم ككونراد بنفسه بنقله في وسط منطقة جرداء. ثم يذهب إلى جبل اتوس. حيث يكتب قصته على شكل خطابات إلى القسيس الكاهن الذي يتلقى اعتراضاته.

بينما كانت أنجيلا جليبي تلخص حبكة الرواية، اختفى ما كنت أشعر به من انقب. عرفت في تلك اللحظة أن بعني عن دونيللي قد دخل مرحلة حرجية. إن أكثر أجزاء لعم الخطوط المتشابهة أهمية قد كشف عن مكانه الصحيح. كنت أعرف أن إيرموند كان قد تلقى - في الحقيقة - رسم العنقاء بعد طبع كتابه "ملاحظات" عام ١٧٢١ بوقت قصير. وكنت أعرف أن الطبعة كلها كانت قد دمرت في حريق أثنى على مخزن الناشر في لندن. والآن كان من المستحيل أن أُنسك في أن إيرموند قد تلقى رسالة اتصال من جانب جماعة العنقاء في عام ١٧٢١. إلا أنه في ذات الوقت، لا يمكن النظر إلى بقية القصة بجدية. فإن إيرموند لم يشترك في أية خطط شريفة بعد ذلك التاريخ. وظل هو وجليبي على صلة ودية وثيقة بعد ذلك طوال سنوات، والقالة المنشورة في مجلة "سكوتس مغازين" في عام ١٧٢٤، قد كشفت عن أنه كان ما يزال قارئاً مخلصاً لكتب الصلوات. ولم يحدث أن كتب جليبي رواية "خطابات من أحد الجبال" إلا بعد ذلك بعشر سنوات.

أني مدين بهذا المفتاح الرئيسي لكل من الستر وأنجيلا جليبي. ولذلك، فقد كان من الواضح أنني أدبني لهما بحكاية القصة الكاملة لبحوثي الخاصة. وهكذا، فعندما سألني أنجيلا: "والآن، ما الذي اكتشفته عن إيرموند دونيللي؟" اقترحت أن تشرب كأساً من الويسكي، ثم سررت عليهما القصة الكاملة، بالصورة التي كتبتها بها هنا، استغرقت عملية السرد ثلاث ساعات، وانتهت منها في مطعم في نوئينج هيل ونحن نتناول طعام الغداء. كنت أحمل معي مذكرات إيرموند، بالإضافة إلى خطابات جليبي. كنت سعيداً بهما لأنه كانت هناك أوقات لاح لي الأمر كله سخيلاً لدرجة أنه كان من بواعث الراحة أن أقع نفسي بأنه لم يكن حليماً متشاكاً الأطراف انتابني وأنا غارق في النوم. أصغت أنجيلا دون أن تنبس ببنت شفة، ولم تصرف عينيها عن وجهي طوال الوقت. وظل الستر يريد، "يا إلهي" وهو يتمشى في

متنافسون من الناحية التكنولوجية. فقد كان من المحتمل أن يقوموا - عاجلاً أو آجلاً -
وأكبر احتمالاً أن يكون ذلك عاجلاً - بالبحث عن أوراق جليبي في قصر جلوسبي، وأن
الاكتشاف في تلك الحالة - إذا افترضنا انهما حققا أي نوع من الاكتشافات - كان سيعزى
إليهما بشكل كامل. قالت:

"كلا، إني سعيدة بانضمامك إلينا. إننا نثق بك."

قلت لها شكراً لك. قالت:

"في الحقيقة، إني مبتهجة لمجيتك. أتعرف أن الستير كان بعيد أخاه غوردون، وكان
الستير هو الذي اتفهمني بالزواج من غوردون في الحقيقة. كان مصراً على التحدث عن
فصائله والإسراف في إبرازها لكي يقنعني بأن التقى به،

وينبغي أن تعرف أنني كنت صديقة الستير في البداية."

"ألم يجرحه زواجك من غوردون؟"

"أوه، كلا. لقد ابتهج بذلك. اتفهم ذلك؟ هذا الزواج قريبه من غوردون أكثر - كان
يعني هذا أنه قد منح لغوردون شيئاً ذا أهمية حقيقية. على أي حال، إنما أردت أن أقول لك
في البداية أنني أظن أنه مال إلى أن ينظر إليك بنفس الطريقة التي كان ينظر بها إلى
غوردون."

"ولكنه لم يعرفني إلا منذ أربع وعشرين ساعة."

"لا يؤدي هذا إلى أي فرق. والشيء القريب هو أنك على شيء من التشابه مع غوردون.
من الناحية الجنسية."

توقفت عن الكلام، وطلعت أن وجهها علاء شيء من الاحمرار. شربت جرعة كبيرة
من الجعة الممتعة لكي تغطي احمرار وجهها. أدركت ما كانت تفكر فيه. وهو أنه إذا كان
الستير قد أهداها إلى غوردون، فإنني يجب أن أعثر صاحب المكان التالي من بعده. غيرنا
الوضوع وتحدثنا عن دوشيلي. وحينذاك تذكرت شيئاً كنت قد نسيت ذكره من قبل،

الخطاب الذي جاءني من كلاوس دنكمان. كنت أحمل عنوانه ورقم تليفونه في كراسة
العناوين التي أحملها. قالت:

"لماذا لا تتصل به؟ قد يكون على شيء من الأهمية؟"

"أعتقد أنه يجب على ذلك."

ذهبت إلى تليفون الصلح. أجابني امرأة ذات لكمة أجنبية، ولاح على صوتها شيء من
العداء حتى ذكرت لها اسمي. فاصبحت ودية للغاية، وقدمت نفسها باسم أناليزا دنكمان
وسرعت لتحدث بإسهاب عن كثير. وأخيراً جاء زوجها لكي يكلمني بالتليفون؟ سألتني إن
كان بوسعي أن أزورها وأتناول معهما طعام الغداء. قلت أنني سأتي إليهما في الموعد المحدد
ولكنني سألت إن كان بوسعي أن أذهب في وقت متأخر من عصر اليوم. فاتفقنا على موعد في
الساعة الرابعة.

لم أكن سعيداً سعادة كاملة بهذا التطور. وبدأ لي أنه لن يؤدي إلا إلى طريق مسدود.
ولكن أتعجلاً قالت: "جيد جداً، إنه يبدو على شيء من الأهمية. ابرعحك أن أتي معك؟"

أمضيت ساعة أخرى في التحف. ولما كان عصر اليوم ذهباً ومشمساً فقد قررنا أن
نتمشى حتى هامبستيد. سرنا عبر حدائق بلو مزيري على طول كامدن تاون، ثم أخذنا
سيارة عامة إلى بلزي بارك. كان عنوان أسرة دنكمان في كيتس جروف.

فتح الباب فظهر وراءه رجل ملوّل نحيل يرتدي نظارة سمكة جداً جعلت عينيه
تبدو بعينين وغريبتين، مثل الخطبوط ينظر من وراء حوض زجاجي كبير. بدت عليه
دهشة ضئيلة حيناً رأى النجلا، دعانا للدخول بطريقة مهذبة. تبعناه عبر ممر طويل حتى
قاعة عمل (أستديو) تسطع بنور الشمس. كانت الأرضية مغطاة بتراب الأحجار المنحوتة.
وكانت هناك تماثيل هائلة الحجم لنساء أمازونيات ذوات أذنء وأرداف هائلة. تقدمت إلينا
لتحييتنا امرأة ضخمة الحجم رملية الشعر بعد أن وضعت على الثانية مطرقتها وأزميلها.
صافحتني بحماسة فضضة مثل قبضة مصارع، وأومات في لا مبالاة ميكانيكية إلى النجلا.
كانت أقل طولاً من زوجها، إلا أنها كانت تملك بنية مصارع حقيقي. وبدأ أن ذراعيها
الكسوفتين تحت الكمين الشعريين إلى ما فوق للرققين - فادرنا على الإطاحة بأي واحد منا

بضربة واحدة. فكانت لكتبتها الألفية أوضح من كتنة روحها، ولكنني لن أحاول إبرازها هنا، ولن أحاول إبراز تكوينات جملتها الغربية. وضعت يداً على مكتفي وقالت:

- "حسناً، لقد كنت أنتظر نافذة الصبر تماماً. فمَنْذ أن قرأت كتابك "اليوميات الجنسية" أردت أن أقابلك، هل لك أن تأتي معي قليلاً إلى حجرتي الصغيرة الخاصة". ثم انفتحت إلى أنجيلا وابسعت وقالت: "تسميحين؟ أريد أن أتحدث إليك على انفراد. كلاوس سيقرك على الحقيقة".

كانت دهشة أنجيلا أقوى من أن تسمح لها بالاعتراض. أما السيدة فتكلمان فقد جذبت ذراعي بقيضة من حديد، ونهعتني تصعد بضع درجات. التفت عيناها بعيني أنجيلا للحظة، فرفعت حاجبها وعضت على شفتها السفلى.

فانقني أنا - اسمها الأول الذي اصرت علي أن أدعوها به - على الفور - إلى غرفة صغيرة مريحة كانت تفوح منها رائحة التبغ. في الخزنة الجانبية المفتوحة، كانت هناك ثلاث زجاجات سعة كل منها "غالون" تحتوي بالنقالي على مشروبات الجن والويسكي والبراندي. عرضت علي أن أخذ كاساً، ولكنني قلت أن الوقت مبكر جداً على الشرب، صبت لنفسها كاساً ضخمة من الجن، ثم ملأته حتى الحافة عصير الليمون الحامض، ثم أشعلت سيجارة وضعتها في "ميسم" للتدخين لا يقبل طوله عن قدمي، وألقت نفسها على مقعد مريح ذو مسندتين وقد صالبت ساقيها، وفي نفس الوقت، شعرت بالقلق وعدم الراحة لقدرتي على رؤيتها تفعل الكثير من الأشياء، ورؤية جزء كبير من جسدها في مثل هذه اللحظة الخاطفة والنظرة القصيرة، ذلك أن الأزرار القصير للصنوع من صوف التويد لم يكن يبلغ الطرف العلوي لجوربها الطويل إلا بصحوية وهي واقفة. أشارت إلي للجلوس على المقعد المقابل لها الذي لم يترك لي فرصة سوى النظر إليها وتأملها.

- "أجل، إنك تتمتع بقدرية على النفاذ أكثر جداً مما يسمح به لشاب صغير. كم عمرك؟ حقاً؟ إنك تبدو أصغر بكثير. حينما قرأت كتابك قلت لكلاوس! ٥٣، نشد ما أسف لأنه لا يعيش في لندن. هناك الكثير الذي نستطيع أن نعلمه إياه". وهالنت الآن هنا لمدة يوم واحد يا له من أمر شنيع! ماذا يمكنك أن تفعله في يوم واحد؟

قالت لي أن كل مكتبي تشهد بانني أمثلك فتراً كبيراً من الذكاء، والجدس العظيم، ولكن التجربة هي ما ينقصني. "يجب ألا تشعر بالغضب إذا قلت لك أنك غير ناضج في جوانب كثيرة". قلت إنني لست غاضباً، حينئذ، ودون أن تكلف نفسها مشقة تفسر تحول مجرى الحديث، بدأت تتحدث عن مؤهلاتها الخاصة التي تسمح لها بتعليم الشباب. وكان المفروض أن أصبح مدرسة مثل أمي، ولكنني لا أملك صبراً مع الأعداد الكبيرة من الطلبة. إن ما أرتب فيه هو لنان أو دلانة من التلاميذ النجباء. إنني خلقة مبدعة، اتفهمه لايد لبيدي من تشكيل الحجر والطين، ولايد لعقلي من تشكيل الأرواح".

نظرت في عيني بطريقة نفاذة وقالت: "والآن أريد أن أسألك سؤالاً صريحاً. حينما تمارس الجنس مع امرأة ما، هل تستطيع أن تسيطر على ذروة نشوتك فلا تيلقها إلا بعد أن تعطىها كل ما تحتاج إليه من متعة؟"

هكرت في ديانا، ثم قلت إنني أضن أنني أفعل هذا.

- "كلا، كلا. ليس هذا ما أردت سماعه. إنما أردت إجابة مخلصية صريحة. يجب أن تفكر في اعتباري طبيببة - كما لو كنت طبيبتك النفسية..."

أخلت جرعة طويلة من الجن، ومدت يدها لتأخذ سيجارة جديدة. وفكت تصالب ساقيها. كان من الصعب أن أحتفظ بعيني مركزتين على وجهها. صرخت نظرها عني لحظة، ثم رمقتني بنظرة سريعة، وكان من الواضح أنها تأمل أن "تضبطني" وأنا اتفحص جسدها، ثم ألقت برأسها إلى الوراء فاستندته على وسادة للبعد. وأصبح وجهها مصوباً إلى السقف. وأغمضت عينيها. تساءلت إن كان في هذا الوضع نوع من الاختبار. فكانت ترددي سروراً داخلياً ربما كان مصنوعاً من السيلوفان القرميز، وكانت تواجهني بقدميها اللتين رفعنهما على وسادة جلدية عن الأرض، وقد انفرج ما بين ركبتيها... فكانت مؤخرتها وساقها جميلة. لكن الذراعين القويتين والكتفين العريضتين والشعر الرمادي. جعلتها تبدو كما لو كانت وحشاً أسطورياً، نصفه الأعلى من جنس يختلف عن نصفه السفلي. نظرت عامداً إلى ناحية اللقاة الخلفية، وركزت نظري هناك. كانت تقول:

- "أحس أنك شخص بالغ الخجل يحاول أن يخفي تلك الحقيقة. في هذا أنت تشبه كلاوس إلى حد ما. إن كلاوس هو ابني بالطبع..."

- "ملك؟" صدمتني الدهشة لسماعي ذلك.

- "ليس حرقياً أعني أن علاقتنا هي علاقة أم بابنها. إنني الطرف الخلاق في العلاقة. الأرض الأم. مثل "أردا" عند فاكسر. علاقتنا قوية جداً. إنني مدرسته. لو أنك سألته لقال لك إنه قد أصبح شخصاً مختلفاً منذ أن عرفني. أكثر عمقاً وأكثر حساسية. إنني أمك تلك القدرة على نقل مواهبني إلى أولئك الذين أحبهم. وحينما أقول "الحب" أعني بالطبع حب المدرسة للتلميذ. لأنه ليس هناك ما هو أعمق من هذا الحب..."

صكتني التي عليها نظرة سريعة من حين إلى آخر. لكي أكتشف أنها قد غرقت في مفهدها أكثر. حتى أنها كانت تجلس في وضع الجماع على الظهر. ولكنها ظلت تتحدث دون علامة تدل على الحرج. كما لو كانت تقف في مواجهة صف من التلاميذ تناقش رسماً توضيحياً على اللوحة. لاح لي أن ما كانت تسأل عنه - بطريقة معقدة وملبوسة - هو ما إذا كنت أود أن أنضم إلى سكلأوس كواحد من تلاميذه. لكي أمنص برحمتها معرفتها وموهبتها الخلقة. فكانت تشرح لي الفرق بين ذهن الأني وذهن الذكر وذكائهما. حينما سمعنا طريقة رفيقة على الباب تجاهلتها واستمرت في الكلام. توقفت منها أن تضم ساقها. أو أن تعتدل قليلاً في جلستها على الأقل. ولكنها ظلت في وضعها دون حركة على الإطلاق. أصل سكلأوس من الباب لينظر إلى الداخل.

- "هل ستأين إلى الطابق الأسفل يا شارل؟"

- "بعد لحظة".

كان منظر ساقها النقر جتين من المكان الذي نظر هو منه أقل قرباً إلى عيني - فقد كان بوسعي أن أنجني إلى الأمام فأدس أصبعاً - ولكنه كان يستطيع أن يستوعب هذا للنظر كاملاً. لم تلج عليه الدهشة. قال:

"ربما أرادت السيدة الشابة أن تتناول كاساً هي الأخرى. وهذه الحجرة صغيرة جداً حينئذ سمعت خطوات "السيدة الشابة" وهي تصعد الدرجات. كان علي أن أعجب بتوقيتها المناسب. للحظة، ظننت أنها كان تعني أن تظل ساكنة في وضعها لكي تسمح لأنجيلاً بالتصمام إلى التفرع حين. ولكن قبل وصول خطواتها إلى الباب بتوان قليلة، تأنيت، وضمت ساقها واعتدلت جالسة وقالت،

- "أذن، فلنذهب".

وتجهت إلى الباب. وناولت سكلأوس ضربة مداعبة ولكنها قاسية على مؤخرته. وأشارت إلي وهبطنا إلى الطابق الأسفل في "ملاهور" واحد. حينما وقعت عيننا على تجلأ فطبت تقطعية خفيفة. كما لو كانت تجد صعوبة في تذكر من تكون. ثم لاح علي تعبير من استطاع أخيراً أن يتذكر وهو يقول لنفسه "تعباً"

ذهبنا إلى حجرة أكبر وأوسع. اثالثا أكثر طبيعية. قبلت كاساً صغيرة من الشراب وكذلك فعلت أنجيلاً. ولدهشتي أصبحت السيدة دنكلمان الآن وديعة جداً مع أنجيلاً وربما كان ذلك لأن أنجيلاً قالت لها ثم تقابلني. إلا بالأمس فقط. سألتها كم من كنتي لمرات؟ وحينما اكتشفت أن الإجابة كانت إلا أكاد أكون فرت له شيئاً على الإطلاق. أشارت إليها بسبابتها اليمنى وقالت، "عليك أن تبدئي قراءتها على الفور". وبذلك كانت أنجيلاً قد لفيت القبول في القطيع بوصفها تلميذة. وسمعت محاضرة عن القدرة على الإبداع والخلق. جلس سكلأوس في أحد الأركان. وهو يرشف ماء الصودا ("ليس من المسموح له أن يشرب فالشراب يجعله مسرف العاطفية") ودون أن يبذل أية محاولة للتدخل في الحديث. وحينما توقفت أنا عن الكلام لكي تأخذ كاساً آخر. طلبت منه أن يقص علي شيئاً عن سكورنر. قال بسرعة.

- "بنتي لا تصحك بأن تهتم به أو تنزعج بشأنه. إنه "شارلطان" مهرج حتى "النفخ"

قالت زوجته: "ليس هذا القول عادلاً تماماً. إنني أوافق على أنه قد أصبح مهرجاً ولكنه لم يكن كذلك دائماً". ثم وجهت كلامها إلي: "هل تعرف شيئاً عن رايخ؟"

- "ليس الكثير".

- "مكان علاماً سيكولوجياً عظيماً - في مثل عظمة هرويد. وقد أمن بأن الطريق الوحيد الفردي إلى خلق مجتمع صحي هو الحصول على أناس لا يعانون من أي كبت جنسي".

- "هذا يماثل ما جاء به هرويد".

أيالناكيد، إن افكاري الأساسية تشبه تلك التي جاء بها فرويد إلى حد كبير، وخاصة مساهمته العلمية العظيمة في مجال معالجة الأمراض العصبية، لقد آمن بأن أنواع الكبت تشكل نوعاً من الصلابة أو الرارة الصلبة فوق الشخصية، مثل السلحفاة، اتعرفها؟

لوت وجهها السواد شبيحة ورسمت بيديها حركة تشير إلى الشرع التي تجعله سلحفاة. أشارت إلى زوجها وقالت:

"حينما التقيت به أول مرة كان وجهه يشبه القناع، كانت شكل عضلاته متوترة مشدودة. كان من الضروري أن أعلمه بكيفية استرخي استرخاء كاملاً وأن يحب أعضائه التناسلية"

جفت أنجيلاً لسماعها التعبير الغريب، سألتها بحذر:

"ياي شكل؟"

"ياي شكل؟"

"أن يكون صريحاً وواضحاً في كل ما يتعلق بوظائفه الجنسية. كان من عاداتنا في ستوكهولم أن نعقد اجتماعات للعلاج النفسي الجماعي. كان علينا أن نجلس دون أي بنطالات أو ثياب، وندير مناقشة فيما بيننا، نشرب القهوة، ويشجع الرجال على أن يلعبوا بأعضائهم التناسلية. تماماً مثل الأطفال. كان هذا رائعاً"

قال كلاوس بوفار:

"تعودت أن تأتي فتجلس إلى جواركي ثم تجلد لي بحميرة بينما نحن نناقش مشاكلنا. كان في هذا تخفيف عظيم لكل التوترات. أن أعلم ألا أحجل من اللعب بالأعضاء التناسلية. حينما كنت صغيراً، كان من عادة مربيتي أن تضربني إذا لست عضوي. وقد علمني رايخ أن العضو التناسلي ليس سوى أداة للتواصل الاجتماعي. تماماً مثل اللسان أو اليد"

نفذ صبراً لكل هذه المقاطعة، فضربت ذراع السفدة بقبضتها وقالت:

"لو فهم الناس نظريات رايخ فهما صحيحاً، لكنك الحرب الأخيرة مستحيلة لك. استخدم هتلر الكتب الجنسية كسلاح سياسي. إن الألمان هم أكثر الأمم سكاناً في العالم وهذا هو السبب في عدوانيتهم الشديدة"

سألتها، "وماذا من أمر كورنر؟ إلى أين وصل؟"

"إنه هو الذي نظم جماعات العلاج النفسي في ستوكهولم. إنه هو منكر فكرة الكتب الجنسية الجماعي وليس رايخ. كان رايخ ما يزال تلميذ نجيباً صغيراً. أنت تعرف هذا النوع وفي ذلك الوقت كان ما يزال مصرراً على تلك الأفكار الجنونية حول الطاقة الأصلية العضوية، قائلاً إنها زرقاء اللون - وقال إن الطاقة العضوية الأصلية هي التي تجعل النساء زرقاء"

قال كلاوس بكابة:

"في هذا الوقت، أمنا بأن كورنر وحده هو الذي يحفظ التعاليم الحقبة في نقائنا الأصلي. ولذلك فإنه حينما جاء إلى لندن، جئنا معه"

"وهل مضيت في عقد اجتماعاتكم للتعبير الجنسي الذاتي؟"

"نعم، أجل. أكثر من ذي قبل. وكانت هذه هي المشكلة. كان رايخ قد حذرنا من أننا إذا لم ننتبه بما فيه الكفاية، فإن هذه الاجتماعات لن تظل ذات قيمة علاجية، فتنحول إلى اختلافات جنسية صاخبة. ولكن كورنر لم يلق أنشأ صاغية لهذا التحذير. وكانت تسبب عليه فكرة معينة مؤداها أن يظهر الدافع الجنسي كان هذا هو تعبيره عن فكرته. قال أن الجنس يجب أن يتخلص من كل خجل، وعلى أي حال، فإن أكثر الحساسين من الناس مصابون بالخجل الاجتماعي، فإذا كان عليهم أن يقفوا على منصة مرتفعة وأن يخطبوا في جمهور محنشد، يصابون بما يسمى "الخوف من النصة". إلا أنهم بسهولة يستطعون التغلب على هذا الخوف. وحينما يتقبلون عليه يعبرون عن أنفسهم بحرية، دون خوف. لقد أراد كورنر أن يتغلب الناس على خوفهم الجنسي من النصة"

كان قائل هذا الكلام هو كلاوس. كانت إنكليزيته أكثر طلاقة بكثير من إنكليزية زوجته. كانت أنجيلاً تقطع حاجبها، قالت:

"ولكن ألا يكون من نتيجة الحرية الجنسية الزائدة كثيراً عن الحاجة تدمير كل ما

فيه من مثة؟"

"كلا! كذلك صاحباً في لحظة واحدة. استكت أنا زوجها بنظر صارمة، ثم استمرت

تقول في تصميم:

"بالعكس، إن الضجل الشديد الذي يملك الناس هو الذي يملئهم من أن يتعلموا

كيفية الاستمتاع بالجنس، برأيك لماذا ككل هذه حواشٍ الاغتصاب وجرائم القتل

الجنسية؟ لأن هناك جذراً سميكة بين الجنسين، يركب رجل سيارة عامة، وتكون هناك

هناة جميلة، فيصبح مثل الثعلب مع الدجاجة، إنه لا يختصها لأنه ليست هناك فرصة

لذلك، وربما كان خافاً من القانون. هذه ليست علاقة طبيعية بين الجنسين، المجتمع

مقلد جانع جنسياً في مجتمع صحي، يستطيع أن يجلس إلى حوارها، وأن يقنعها بأن تجد له

عميرة، دون أن يوئلي أي إنسان للأمر أية اهتمام. لم لا أنت - "انطلق بصيغها هجاء نحو

الجيلا، التي كانت تجلس منحنية إلى الأمام وقد وضعت معصمها على ركبتها - "لماذا

تجلسين في هذا الوضع؟ لأنك تظنين أنه وضع طبيعي، ولكنه ليس كذلك، إنك ترندي

"تنورة" قصيرة لأنك تظنين أنها جذابة، لماذا لا تفتحين ركبتك في جسارة؟"

استسكت انجيلا - ولقد تراجعت قليلاً إلى الخلف - وحاولت أن تحول الأمر إلى

نكتة، وقالت:

"إذا فعلت هذا فأنتي قد اغتصب."

"كلا ليس هذا منطقياً! لماذا ترندي النساء "تنورات" قصيرة؟ لكي يثيرن اهتمام

الرجال. إنك تلعبين مباراة مع نفسك لكي تنظري إلى أي حد يمكنك أن ترفعي "تنورتك" إلى

أعلى. ألا ترين ما يحبه هذا؟ إنك تردين استعراض أعضاءك التناسلية، ولكنك خائفة. إنك

تردين أن تجعل الرجال يحلفون عليك، وتكتك خائفة من الاغتصاب. أليس هذا دليلاً على

أن ثمة خطأ في مكان ما؟"

بشكل تلقائي استكت انجيلا بطرف "تنورتها" وحذبتها إلى أسفل. اكملت الأخرى

تقول:

"أترين؟ لماذا ترنديها إذا كنت تردين أن تزلزها إلى أسفل؟ لماذا لا تجلسين هكذا؟"

انحنيت في مقعدها إلى الوراء وفتحت ركبتها، حتى استطاعت انجيلا أن ترى نفس

النظر الذي كانت قد رأته في الحجرة الصغيرة الخاصة بالطابق العلوي. غضت انجيلا من

بصرها، دون أن تضم أناسها ذاتية، مضت تقول:

"كلا! إن علينا أن ننمي وجود مجتمع متحرر تماماً من مخاوفه الجنسية ودون

رغبات محبطة مكبوتة، إذا أراد الشاب الذي يركب السيارة العامة معك أن يعرف أن كنت

تردين سروالاً أو مشدأ، فإنه يجب أن يسمح له بإلقاء نظرة ليتأكد."

تدخلت لكي ألقت الأنظار عن انجيلا،

"لماذا نقولين أن كورنر أصبح مهرجاً؟"

"لأنه بنظرية مثل تلك، يمكنك أن تجلب كل الناس غير الناسيين الذي تدفعهم

كل الأسباب غير للناسية، هذا هو ما فعله. إنه يقول بأن غرضه هو أن يعلم الناس الوصول

إلى النشوة الصوفية عن طريق الجنس. ولكن ككل ما يفعله هو تنظيم حفلات للفسق."

كان من الصعب إيقاف هذا الفيضان من الكلام الذي استمر على هذه الصورة لمدة

نصف ساعة أخرى وبها لي ما قالته في صورة فهم جيد إلى حد ما لبعض المشاكل النفسية،

من الحق أن أكثر الناس يسيطر عليهم هاجس جنسي من نوع ما بطريقة سلبية. ولكنني

حينما فكرت في ديانا وفي موبسي، وفي مكتبي التي تحيط بها الكتب على الجدران من كل

جانب، طرأ لي أن هناك أشياء كثيرة أكثر أهمية من الجنس. ليست الطريقة المثلى لمعالجة

رجل يسيطر عليه هاجس الجنس هو أن أقول له أن يجلد عميرة في السيارات العامة، ولكن أن

أقنعه إلى أن يتعلم كيفية الاستمتاع بالموسيقى والأفكار والشعر، وحينما اقترحت ذلك

لأسرة ديكمان، وجهت يانفجار من الاحتقار العاصف.

"ليس هذا سوى ما دعاه فرويد بالإعلاء، إنه رفض لواجهة للمشكلة الحقيقية. إنك

تكبت مصدر المشكلة، ثم تتظاهر بالاهتمام بشيء آخر.

بدأت أشعر بنفاد الصبر. كانت الساعة - على أية حال - قد قاربت الساعة - وكان

لا بد أن يبدأ الستير في التساؤل عن مكاننا. قلت أن علينا أن نرحل. حاول أن يقنعنا بالبقاء

لتناول العشاء، ولكننا التحلنا بعض الأعداء. قالت أنا أنها سوف تكتب إلي خطاباً طويلاً، والتي ربما أجد الفرصة لمساعدتها في إنجاز تأليف كتابها حول الحرية الجنسية للجميع.

وحينما وقفنا استعداداً للانصراف، سألت أنجيلا،

- "بالناسية، هل تعرفان شيئاً عن جماعة العنقاء؟"

هزت أنا صكتفها وقالت،

- "وما تلك؟ جماعة مهووسة جديدة من الشبان؟"

كان من الواضح أن الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة لها، لم تلح أنجيلا على طرفي الموضوع. وعند الباب، قال دانكلمان،

- "لنك مغادر لندن اليوم، صحيح؟"

"نعم".

- "أمل أن نلتقي حينما تأتي إلى هنا في المرة القادمة".

نحنى التحاءة بإبسة، قلت،

- "يجب أن أكتب إلى البروفيسور كورنر"

قالت أنا، لن تكون هناك أية فائدة من ذلك. لقد أمرته الشرطة بمغادرة إنكلترا فعاد إلى ألمانيا.

"أوه، إنني أسف لذلك، ولكن، لماذا؟"

قال كلاوس، لم يكن أكثر من صاحب بيت دعارة محترف.

في سيارة الأجرة، وفي طريق العودة إلى هولانتبارك، قالت أنجيلا،

- "من المؤكد أنك تبدو كما لو كنت قد قابلت أناساً يبيعون على الدهشة. من المؤسف حقاً أننا لا نستطيع أن نقابل الدكتور كورنر".

- "ولكن من المحتمل جداً أن تكون هذه طريقاً مستوددة. علي أن أعرف بأن دانكلمان قال لي أن كورنر كان أول من ذكر إيزابيل دونيلي، وتكلمي أفترض ببساطة أنه كان قد قرأ كتابه "عن الفراع العذري".

تحدثنا عن أسرة دانكلمان، قالت أنجيلا،

- "لا أظن أنك على صواب في النظر إلى كلاوس باعتباره زوجاً ضعيفاً نسبياً عليه زوجته، لقد اجتاحتني إحساس غريب جداً حينما نظرت إلي أول مرة".

- "بأي شكل كان هذا الإحساس؟"

- "أحسست إحساساً غريباً بأنه كان يريدني أن أفتح ساقي. لقد رأيت الوضع الذي كنت أجلس به - حتى زوجته لاحظت ذلك".

- "إنني أظن - على أي حال - أنها نصف شاذة جنسياً".

- "ما كنت لأدهش من هذا، لم يسبق أبداً أن شعرت بمنزل هذا المتعور السيئ الذي اجتاحتني وأنا أتحدث معهما، هل لاحظت ذلك؟"

- "أي نوع من المشاعر السيئة؟"

- "حسناً - إنهما "قبيحان" جداً، وهما حقاً منفردان جداً حينما يتحدثان كل هذا الحديث عن الجنس. ومع هذا فقد كان لحديثهما - من جانب آخر - سحر من نوع خاص".

كنت أعرف ما تعنيه، فحتى ذهابتنا إلى أسرة دانكلمان، كنت قد نظرت إلى أنجيلا كونها شخصية تبعث على السرور إلى حد كبير، ولكن دون مزيد من الاهتمام الجنسي الذي يزيد عن شعوري إزاءها لو كانت شقيقتي. أما الآن وأنا أجلس إلى جوارها، فقد وجدت نفسي أنظر إلى استدارة عنقها تحت الصدر الصوفي الأسود، وأشعر بأن علي أن أكتب رغبتني في مداعبتها. كانت أنا دانكلمان قد دفعتني إلى هذا الشعور بشكل ما، بتوجيه الانتباه إلى أنجيلا باعتبارها موضوعاً جنسياً.

قالت فجأة، "أنا سعيدة لأنك كنت هناك". وارتجفت وهي تتحرك لتصبح أقرب إلي. كان من الطبيعي أن أضع ذراعي حول صكتفها. بعد لحظة، ارتفع وجهها نحو وجهي،

وكنيت أقبلها بانفعال عاطفي حلفت أتا لقوته. كان الأمر مثل اتهام ملء فم من الطعام، ثم تكتشف بعد هذا أنك جائع جوعاً وحشياً، تعانقنا بقوة متعلقين أحدينا بالآخر. ولساني داخل فمها، ويدي تسحق الهند الذي كنت انظر إليه منذ لحظة واحدة. لم تكن هناك مجرد رغبة بسيطة في ملاطفة جسدها، ولكن كانت الرغبة هي جرحها، عصرها، اتهامها وامتناسها. كانت متعلقة بي في استسلام كامل، وحينما تركت يدي إلى أسفل، ضاعطة بقوة على ضلعوها، ثم على معدتها، انفرج ساقها (...) كنت في حالة حادة من التعب في جلستي، بعد أن وصلت إلى هذه النقطة، كان الأمر الطبيعي أن أخلع ما تبقى من ثيابها. ولما كان ذلك مستحيلاً، فقد تحول جسدي إلى غضيب حديدي من الشهوة.

انحرفت السيارة مرتين متتاليتين لكي تتفادى سيارة أخرى وكانت تتدفع ناحية باضوتها الباهرة. انفصل أحدينا عن الآخر متفلاً بالاحساس بالإثم.

قالت، "سفة".

"لماذا؟"

"كانت هذه غلطتي لقد كنت أريدك أن تفعل هذا منذ غادرنا منزل دانكمان".

حكنا ما نزال متعاقبين، وكان قلبي ما يزال يصرب بعنف حتى كان من الصعب أن تكلم، قالت،

"لم أفعل هذا أبداً من قبل - ليس بهذا الشكل - لا أعرف إن كنت ستصدقني ولكنني صريحة متزمته تماماً من الداخل"

قلت، بطريقة نصف نهكية: "نقد بومانا مغانطيس!"

نظرت إلي بعينية وقالت: أفن أن هذا يمكن أن يكون صحيحاً إنني واثقة من أن لهما قوة غريبة من نوع ما، سوف أقول لك شيئاً يصدك من الدهشة، لو أنني هناك بمفردي، لانتهيت إلى أن أمنح نفسي لهذا النقر كلاكوس".

قلت ضاحكاً: "ولو أنني ظللت وحيداً في تلك الحجرة الصغيرة لمدة عشر دقائق أخرى، لانتهيت إلى ممارسة الجنس مع أتا"

"ولكنها منقرة إلى حد مروع؟"

أخبرتها بما كان من جلوسها وقد فتحت ساقها، وكان صحيحاً ما قلته من أنني لو بقيت جالساً أمامها بمفردي لمدة خمس دقائق أخرى، لانحنيت إلى الأمام لكي أسها (...) ومن المؤكد أنه كان من البلاء أن أرفض ذلك.

توقفت سيارة الأجرة خارج المنزل. قالت:

"من الأفضل أن أرتب ثيابي".

أدركت ما كانت تعنيه، فقد كنت اتوهم أنا أيضاً أنني مهووش الشعر والنياب كما لو كنت قد نهضت من الفراش لتوي. دهعت الحساب لسائق السيارة بينما مرت بسرعة على شفاهاها بإصبع الأحمر وجرت للشط في شعرها على عجل.

فتحت أعجيباً الباب لفتحها، ودخلنا إلى الشقة. كان كل شيء ما يزال على حاله كما تركناه في الصباح. نادت قائلة، "الستير". ولكن لم تسمع إجابته. هزت رأسها وفانت، "لا" وعرفت أنها لم تكن تعلق على غياب الستير، وضعت يدي على صدرها. قالت، ليس هناك وقت، ولكنني أدركت أنها لم تكن جادة. كنت ما أزال ساخناً مفعماً بوهج الشهوة الغريبة العنيفة، التي كانت تكون كالحمى. جذبت طرف الصدر الصوفي فلزعت من تحت وسط الأزوار وذاست يدي تحت الصدر. كانت تتركني حمالة صدر. وبحركة جنب بسيطة عريت التهلين. أخذت الحلمة بين سبابتي وإبهامي ودعكتها. اندفعت إلى حضني وفتحت فمها مرة أخرى (...) وقدتها إلى غرفة النوم...

نادراً ما وجدت الجنس ميوخاً كالدوران بهذا الشكل. وأظن أنه لو ظهر في تلك اللحظة حشد كامل من الصوريين عند الباب بإلات تصويرهم ذات الأضواء الخافتة، لظلنا على ممارستنا للجنس، عاجزين عجزاً مطلقاً عن الفصل بين جسدينا. كان الإحساس الشبيه بالحمى ما يزال قائماً مضافاً على الغرفة جواً غير واقعي. بدونا كما لو كنا قد غرقنا في مياه العرق والإفرازات الرطبة... فكرت بأن الستير قد يدخل الآن في أية لحظة، ولكن كان هناك نوع من السعة من التفكير بأن يراقبنا شخص ما. ثم أصبحت اللذة أكثر حدة من أن تكبح أو تمنع من الوصول إلى ذروتها.

بعد عدة دقائق، رفلنا جنباً إلى جنب، وبدأ العرق يبرد. فتحت عيني ونظرت إليها، وتبينت مصدوماً أن أنجيليا هي التي كانت بجانبني، الفتاة الإسكتلندية الرزينة المحتشمة التي بدت لي في صورة الفتاة "اللطيفة" ولكنها ليست من النوع الذي أحبه. فتحت عينيها، ولاحظ أنها جففت عندما رأته، وفجأة، تدفكرنا معاً أن نصف ملايسنا ملقاة على الأرض في الحجرة الأخرى، وأن الباب كان مفتوحاً. نهضت وذهبت إلى الحجرة الخارجية لكي أحبي؛ بالذات. وحينما عدت وكانت الفتاة تشد سروالها الداخلي إلى وسطها، ذهبت إليها وقيللتها أعطتني قهقهة بطريفة كئيب، كما لو كان تمنحني قبلة ما قبل النوم بشكل عادي كل يوم. ثم، كما لو كانت تناسف على ذلك، وضعت ذراعيها حول عنقي. قالت:

"ما الذي حدث لنا؟"

أدركت ما كانت تعنيه. لم يكن ذلك جنساً "عادياً"، الجنس الذي يمارسه شخصان قرر أن أحدهما يروق للآخر وإراد كل منهما أن يكتشف جسد صاحبه ويرثاه لنفسه. إنما كان نوعاً من التوبة العصبية، كما لو كنا زوجاً من الحيوانات، ولكنني كنت الآن "مسز سورم" مرة أخرى، وكانت هي قد عانت فاصبحت لادي أنجيليا جليني، وكنا شخصين راقين كل منهما للآخر، ولكن لسنا عاشقين، بالطبع. فيما عدا أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا ألا نكون متركبين أن كلا منا قد أقتى نفسه في جسد الآخر منذ قبل.

قالت فجأة، "يا إلهي، لقد نسيت. هذه أسوأ فترة من الشهر".

وضعت يدي برفقة على معدتها، قلت: "إذن فمن المحتمل أن يكون هناك سورم صغير هنا بالداخل".

"هذا محتمل".

"هل يزعجك هذا؟"

ضحكت فجأة.

"كلا. لا أظن ذلك".

دق جرس التليفون. كان السنير هو المتكلم، ليقول إنه يجتسي ككاساً مع بعض الصلصال دراسته، وأنه لن يعود إلا بعد ساعة أخرى.

دخلت أنا وأنجيليا الحمام وتحممنا معاً. أحسست بأني منتعش رطب الجسد بشكل غريب، مسرّح تماماً. وفي كل مرة نظرت إلى أنجيليا، عانيت حسرة وأهنة كلما لو كان ما حدث مجرد خيال جنسي حدث داخل رأسي فحسب.

بعد نصف ساعة، وبينما كنا نجلس متقابلين أمام جانبي الدفأة، نجتسي ككؤوس الهودكا، قالت:

"أظن أنهما وضعنا لنا شيئاً في ككؤوس الشرب".

"تعتنين عقارة مثيرة للشهوة الجنسية؟ لا أظن هذا. إن للذيادة الإنسانية تأثيراً مزعجاً ومنهياً للفصارة العوية - وقد ذقت شيئاً منها في الجزائر".

"ولكنك بالتأكيد لا تعتقد أن الله هنا كان نفسياً. اعتقد ذلك؟"

قلت: "سأقول لك ما اعتقدته. اعتقد أن ككلاوس أراد أن يمارس معك الجنس، وأنها أرادتني أن أمارس الجنس معها، ولو أننا تناولنا العشاء معهما، لانتهى كل منا إلى الفراش مع صاحبه. ولكن ما حدث. وأيا كان ما فعله بنا، هو أنهما جعلانا يرغب كل منا في الآخر".

وحينما عدت بذاتكرتي لكي أفكر في عنف وسخونة ممارستنا للجنس، عرفت أنه كان على شيء من الغرابة.

قالت: "إن هذه القرابة تجعلك تتساءل عما إذا كان هنالك حقاً شيء ما في تلك القصص التي نحكي عن تماثل الحب - مثلما قبل في أسطورة تريستان وإيزولده، وما إلى ذلك؟"

"لقد عرفت رجلاً بوسعه أن يقول لك - رجلاً يدعى ككارفوك صكتينفهام".

"أجل، إنني أسمع عنه، لقد قرأت كتابك. ولا أظنني أحب أن أقاليله".

حينما جاء السنير بعد نصف ساعة، وكانت تظهر في حبة طعام، وكانت الشقة مفعمة برائحة الخل والنوم. قال:

"أرجو ألا تكونا قد سئمتما من الضجر بلوتي".

فأنت أنجيليا، "كلا، لقد وجدنا الكثير مما نفعل".

"تفعلان؟"

"أعني مما نقول ونتحدث عنه".

كان ينكت بالطبع؟ كان يعرف أنه لا أنجيليا ولا أنا من النوع الذي يمكن أن يقع في

حب الآخر في خلال ساعات من اللقاء الأول.

- ١٧ -

□ في الليل، انتابني أحلام مزعجة لا أستطيع تذكرها. ولكنني حينما استيقظت كنت أيزموند مرة أخرى. كان هذا هو أغرب ما أحسست به حتى ذلك الحين، كنت قد شربت قدرًا كبيرًا من عصير التفاح الخمر بعد العشاء، ورغم أنني لم أسكر أو أفقد وعي الحقيقي، إلا أنه انتابني ذلك الإحساس بالانفصال البسيط عن الواقع، وباللامعنى، ومن الجانب الآخر، كان أيزموند مستيقظًا بقطة كاملة، بالنسبة له. بدت هذه الحجرة ذات السقف المرتفع مألوفة بشكل كاف، وكان العنصر الذي يسبب له قدرًا بسيطًا من عدم الفهم هو صوت سيارة ركوب أو شحن عابرة تجري على طريق هولاند بارك. كان إحساسي بالعودة إلى القرن الثامن عشر أكثر قوة مما كان في دبلن، ربما لأنه لم تكن هناك عناصر تشتتت في وسط الظلام. غرقت في النوم مرة ثانية، وشعيت في أحلام مشوشة عن هوارس والبوال، ولبتشيتريج وموزويل وجونسون. وعندما استيقظت في الصباح، كنت أذكر جونسون بوضوح تام وهو يقول مؤكداً بقوة - وهو ينثر الرذاذ بشفته السفلى الكبيرة للتدلية، "إن الرجل متشرد محتل وغد شرير يا سيدي، وسوف تحسن صنعاً لو أنك تجنبته تماماً".

أخذنا طائرة في الحادية عشرة والنصف، فوصلنا أدنبرد بعد ساعة ونصف. تناولنا طعام الغداء في غرفة خلفية يراعى الجانبات مع الدكتور دافيد، سيميلي، استاذ أنجيليا. وهو رجل ضئيل الحجم له وجه مكوج مكنب صيد صخري. كان قد كتب ذات مرة

عرضاً شريراً بشكل خاص لأحد صكتي، ولذلك فقد ألتسم بخنوع وهو يقدم إلي، ولكنه حينما أشار إلى الموضوع إشارة متعمدة، تظاهرت بأنني لم أقرأ المقال وأن علاقتنا طيبة بشكل كاف. لم تكن بي حاجة إلى أن أتحدث كثيراً. فقد أراد بكل من استر وأنجيليا أن يخبراه بكل ما يتعلق بأيزموند دونيلي، وباكتشافاتي. أنصت بانب لرهة، ثم قال:

"أخشى أن أقول أنني لا أرى السبب الذي يجعلك تنظر إليه بكل هذا الاهتمام، إنه يعلم لي كما لو كان اتفاقاً نموذجياً من أواخر القرن الثامن عشر. هل حدث أبداً أن فكر في أي شيء آخر باستثناء الجنس؟"

نظرت أنجيليا إلي. واطن أنها كانت تميل إلى الموافقة. قلت:

"بمعنى ما، كلا. وبمعنى آخر، فإن الجنس لم يكن بهمهم على الإطلاق".

قال بخبت: "ليس هذا هو ما يدعى بالتحايل الشرعي على القوانين؟"

لم يكن متعاطفاً أو لطيفاً، ولكنني قررت أن أحاول الشرح. قلت:

"كلا. إنما أرى أيزموند صكر جل تملكته وسيطرت عليه مشكلة المعنى".

"معنى ماذا الوجود الإنساني؟" تذكرت أنه كان قد كتب عدداً من التعليقات الحادة المرفوعة النيرة في مقاله عن صكتاي حول ما دعاه بأنه "هاجس العجز الديني التسلط علي". ولكنني أرت أن أوضح الموقف للآخرين، فقلت:

"إنها مسألة إما أن تفهم أو تعجز عن الفهم. بالنسبة لي، إنها مشكلة واضحة في حد ذاتها. أحياناً تبدو الحياة منيرة بالاهتمام بشكل واسع وعميق مضمة بالمعنى. فيبدو هذا المعنى حقيقة موضوعية، مثل ضوء الشمس. وفي أحيان أخرى تبدو عقيمة خالية من المعنى مثل الريح. إنما نقبل هذا الخواء من المعنى، هذا الانهيار في وجوده، مثلما نقبل تقلبات الطقس. إنني إذا استيقظت مصاباً بالصداع أو بنزلة برد سيئة، فإنني أبوء كما لو كنت غير قابل لإدراك أي معنى. والآن، إذا استيقظت وأنا مصاب بصمم حقيقي أو وأنا نصف أعمى حقاً، فإنني سأحس بأن ثمة خطأ ما في جسدي وسوف أذهب لاستشارة طبيب. ولكنني إذا كنت غير قابل لإدراك أي معنى، فإنني أقبل هذا الوضع كما لو كان شيئاً طبيعياً. ولكن أيزموند لم يضل به كشيء طبيعي. وقد لاحظ هو الآخر أننا في كل مرة نستشار فيها

حسباً، يعود إلينا العنى، يمكننا حينذاك أن نسمع من جديد، هكذا فقد الح في طلب الجنس باعتباره سبيلاً لاستعادة العنى".

سالت أنجيلا، "وماذا من أمر هوراس جليبي؟"

"كلا. إنه لم يكن مهتماً ببحث أيزموند عن العنى. لقد أعجب بايزموند، ولكنه لم يفهمه".

قتل سيميللي على عدم اقتناعه وقال: "لني وقد قرأت كتابه "عن افتراء العذارى" فإني لم أجد شيئاً يمكن فهمه". قلت:

"لني لا أعتقد أن ايزموند يكتب هذا الكتاب".

"لم يكتبه؟ إذن من كتبه؟"

"لا أعرف، ولكن أسلوبه ليس أسلوب ايزموند".

هز كتفيه كما لو كان يقول أنني أستطيع أن أغرق في أي نوع من الخيالات يروق لي، ولكن هذا ليس من شأنه. قلت:

"هل حدث أن رايت التاريخ المكتوب على الطبعة التي قرأتها؟"

"بالطبع، كان ١٧٨٠".

أثارتني هذا، وكانت الطبعة التي رايتها في غالوي قد طبعت في لايبزيغ عام ١٨٣٠.

"من الذي طبعتها، وأين؟"

"لم يذكر اسم المطابع، ولكن قائمة الجامعة تقول أن الكتاب طبع في مطبعة خاصة في أنسرة".

"أنت واثق من هذا؟"

"ليس من عادتني أن أخلط بين ما أقوله من حقائق". تذكرت أن هذه مكان واحدة أخرى من لزماته القارصة لي، وهكذا فقد تجاهلت الموضوع، ولكن الأدب والمعاملة اللذين

ألبينتهما وأنا أصفحه منذ نصف ساعة مضت لم يكونا قد وهنا تماماً. هكذا أوضح جزء آخر من الفز وطرح سؤاله الجديد. وبدأ أحد الشكوك التي كانت قد راوتني من قبل يظهر في صورة أقل عيشية. لأنه إذا افترضنا أن كتاب "عن افتراء العذارى" كان مزيفاً ومنحولاً، فمن الممكن أن يكون قد كتبه؟ من الواضح أنه شخص كان يهتم بأن يظهر أيزموند في صورة الأفاق يكتب أدب الدعارة. من السهل أن نفترض أن الكاتب هو جيلبرت ستيفورت، الذي كان على علاقة ودية مع هوراس جليبي، والذي كانت له مصلحة في أن يطلع سمعة ايزموند بالوحد. ولكنه كان قد مات في عام ١٧٨٠. وهذا يدفعني إلى التفكير جدياً في مرشح واحد فقط لتأليف الكتاب، وهو جليبي نفسه. وإذا كان كتاب "الافتراء" قد طبع في أنسرة، فإن التفكير يصبح قوياً إلى أقصى حد.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر عندما غادرتا أنسرة أخيراً في سيارة استأجرناها وشرعنا في مسيرتنا الطويلة نحو الشمال. وهي مسافة تكاد تبلغ المسافة بين لندن وأنسرة نفسها. قطعنا السر في مدينة بيتلو شيري، وغادرناها في ساعة مبكرة من الصباح. وفي الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كنا نقطع الرحلة الأخيرة من رحلتنا، وهي المسافة من بلدة دورنوش إلى جلوسي. وكانت الروح البرية الواسعة ومناظر البحر الفاجئة شديدة الوقع، ولكن الشيء الذي شغل افكاري حقاً هو الجهود الغائص الرامي إلى استعادة نفس هذه الرحلة في عام ١٧٧٠. في عربة متارحجة، فوق طريق كانت أحسن قليلاً من "الطافات" الزبينة القنطرة. من المحتمل أن اكتسب فاضلي جلوسي لم يسافروا إلى أبعد من دورنوش أو أنشرفنيمس. فلا أعجب إن كان هوراس جليبي موضع كحل هذا الإعجاب بعد عودته من رحلاته الأوروبية. توقفنا في القرية للاتصال بمفرانكلين ميلر - المالك الجديد للمنزل جلوسي - ثم اتجهنا إلى الشمال الشرقي. يقع قصر جلوسي فوق منحدرات جبل بين هورن، مطلاً على بحيرة لوش برورا. وبينما كنا نقطع هذه الرحلة القصيرة الأخيرة من الرحلة، حاولت جاهداً أن استرخي، وأن أراها بعيني ايزموند، ولكن لم تكن ثمة جدوى. كان الأمر كله بالغ الغريبة. سطعت ومضة من التعرف كالكسرى وأنا أنظر إلى الشيدان والمنزل الرمادي. ولكن مكان من الممكن أنني أخدع نفسي.

كان هناك عند كبير من الدعامات الخشبية مرتفعة أمام واجهة البيت، ومن الواضح أن المالك الجديد كان يصلح المنزل. كان الطريق الخاص المؤدي من الشارع العام إلى

لبنى قد أعيد وصفه، وسيت أحواض الحقيقة في حالة جيدة. كان من الممكن أن يكون
قديماً فخماً غالياً.

كان فرانكلين ميلر رجلاً ضخم الجسد ودوداً بدا فكماً لو كان قد ولد لكي يكون
ماتكاً من ملاك الأرياف. وبدأ مبتهجاً حقاً لـ "حصوله" علينا ضيوفاً في منزله الجديد. فأتينا
إلى المكتبة الضخمة، حيث كانت مدفاة ضخمة - تعمل بكامل الخشب - مشتعلة بنار كبيرة.
قبلنا كؤوس الشراب، وقابلنا مسز ميلر التي رجتنا أن نبقي عندها أطول مدة ممكنة. بعد
أن تمسيتها حول الحقيقة وهبطنا إلى جانب المنحدر الملحق بالقصر، سألت إن كان بوسعنا أن
نمضي ساعة قبل العشاء لنلقي نظرة على الطابق العلوي (السقيفة) حيث كان السنير
قد رأى رزماً من الأوراق القديمة. قال لنا مضيقنا أن نعامل المنزل فكماً لو كان مالكه لم
يتغير أبداً، وخرج لكي يرى ما كان عماله يفعلون.

قال السنير، "إنني أعرف أين يجب أن نبدأ. يجب أن ننظر إلى كتاب العائلة المقدس. إنه
يضم قائمة بتواريخ ميلاد وموت كل من عاش من أسرة جليني في جلوسي".

كان الكتاب المقدس في المكتبة، موضوعاً فوق رف مرتفع - كان مجلداً فخماً، ذا
غلاف من الجلد اللامع، وكان وزنه ما لا يقل عن خمسين رطلاً. كانت نسخة من "الكتاب
المقدس العظيم" - طبعة غرائمر التي صدرت في ١٥٣٩. وخطر لي أنها يمكن أن تساوي مثلاً
نصف في منزل جلوسي نفسه. ولكنني لم أحب أن أقول ذلك. كانت الصفحات الست في نهاية
الجلد مغطاة بكتابات صفحة بعد أخرى في خط كان خربشة لا يقرأ، كتب بهيم ذوى لونه
وبهت، بدأت باسم إسكندر جليني، الذي مات في عام ١٥٧٩ (قبل أن يصادف شكسبير بلدة
سزاتفورد أون لافون) وهذا كان من الواضح أنه نال مرتبة فارس من الملك هنري الثامن.
كانت أسرة جليني قد رفعت إلى مرتبة النبالة على يد جيمس الأول. وفي بعض الأحيان
كانت تتلو الأسماء أسباب الموت: "حمى"، "تسمم كحول"، و"خسر مكسور" (أي كان
معنى ذلك). كانت هناك سطور تعليقات عديدة بخط تعرفت فيه على خط هوراس
جليني. كان اسمه متبوعاً بتاريخين: ١٧٤٧، ١٧٩٦. ولكن لم يكن هناك ذكر لسبب الموت. مات
والده في عام ١٧٧٨، فأصبح أخوه موراي هولورد جليني. وهتل موراي بسبب "السقوط من فوق
ساري"، (هل كان يقصد "ساري" للوخزة في سقيفة؟) في عام ١٧٨١، مما أدى إلى أن ورث أخوه
الأصغر لقب الأسرة.

كان في هذا بعض العون على الأقل، فقد عرفت ساعتها تواريخ ميلاد وموت هوراي
جليني على وجه الدقة. ولكنني لم أعرف سبب موته. سألت السنير إن كان يستطيع أن
يتذكر الغرفة التي قيل له أنها "غرفة القتل".

"أوه، أجل، بالطبع." فإدني إلى خارج المكتبة، وصعدنا السلم الرئيسي، وعلى طول ممر
بين بعض الحجرات. طرق الباب، ثم فتحه. كان من الواضح أن الحجرة الآن هبتت لتكون
غرفة نوم الضيوف، كانت تطل على المنحدر، وكان أحد العمال يصفر على "السقالة" خارج
النافذة.

قالت أنجيلا، "بالتأكيد لم تكن هذه هي الغرفة التي أطلعني عليها غوردون كانت
الأخرى في الجناح الآخر".

وبعد بعض التردد عثرنا على الغرفة الأخرى. كانت تطل على القسم الخلفي من
المنزل، وكانت النافذة تؤدي إلى مسقط عميق يؤدي إلى فناء صغير. كانت حجرة عارية
باردة، ولم يكن أحد جدرانها يحمل أي شيء من الزخرفة أو التجميل. كان حجر العرقيبت
قد سحج حتى أصبح مسطحاً ناعماً. أشارت أنجيلا إلى أثر طولي بني اللون جرى فوق ذلك
السطح حتى بلغ الأرض وقالت: "قال لي غوردون أن هذا الأثر كان لبعض الدماء - وإن
القتيل كان يرفد على السرير حينما أطلق عليه أحدهم النار من النافذة".

كان هذا ممكناً. وقد بدا الأثر فكماً لو كان أثاراً للدماء فعلاً. ومن جانب آخر، بدا
لي أنه من الأمور البعيدة الاحتمال أن ينام سيد المنزل في حجرة بهذا الشكل. وكان الأمر
احتمالاً أن أثار الدم هي التي أدت إلى خلق قصة عن جريمة قتل.

ثلاثة منعطفات أخرى من الدرجات فإدنا إلى السقيفة العلوية التي وجدناها مظلمة
ومزربة حتى اضطر السنير أن يهبط ثانية لكي يستعير مصباحاً. جلست أنا وأنجيلا فوق
صندوق ادراج قديم، بعد أن نفخت الثراب بمنديلي. كنا متعبين، فقد كانت الرحلة
طويلة وكنا بحاجة إلى راحة طيبة تلك الليلة. وضعت ذراعي حول كتفيها، فمالت برأسها
واسندته على كتفي. تركت خدي يستريح على شعرها وأغمضت عيني. كان المكان دافئاً
الهدوء، ولم يكن ثمة صوت سوى هسهس الرياح إذ تصطدم بجوانب الجدران العليا بالخارج.
مصحوبة بسقسقة طائر بعيد. كان إحساسي بدفئها ملاصقاً لي إحساساً ممتعاً. وفجأة

وبدون مقدمات، تذكرت، أو بالأحرى، تذكر ايزموند، وكانت رائحة الزئبق مألوفة، كذلك كانت رائحة شعر أنجيلا. تحققت من الخطأ الذي لم أتبينه من قبل. فإنا حينما نرى أياكن جديدة بالنسبة لنا، يجدها العقل غريبة، فيمثل "مجهوداً" لكي يحبط بها من أجل أن يتواءم معها ويقبل بوجوده داخلها. وهذا المجهود هو ما يدمر الألفة الفريزية للذاكرة. كنت شديد التحلف إلى دخول حزانة هذا المنزل، لكي أتذكره، حتى إنني كنت أحتلق لطباعاتي عنه اختلافاً. وأذن، للحظة، سكفت عن النظر إليه باعتياري غريباً، استرخيت وشعرت كما لو أن صورة قديمة قد طبعت نفسها بقوة فوق لطباعاته الجديدة عن المنزل، ثم امتزجت معها. كنت أعرف هذا المكان، كنت أعرف المنحدر والتلال ومنظر البحر البعيد تحت الوادي، وكنت أعرف أيضاً أن أنجيلا كانت على صواب. لم تكن الحجرة التي رأيناها منذ لحظات هي الحجرة التي قُتل فيها هوراس جليبي. ولكن أنجيلا كانت مخطئة في نقطة واحدة، إنه لم يطلق عليه الرصاص، لقد طعن بصل حاد. شعرت بيقين عجيب من هذا.

عاد أستير يجز وراءه حبلاً طويلاً من السلك الكهربائي وواحداً من تلك الأقفاص المعدنية المزودة بمصباح في داخلها والتي يستخدمها مصلحو آلات السيارات. وصلنا طرف سلك بنقطة توصيل كهربائية في الطابق الأسفل، وعلقنا المصباح داخل ففصه فوق دعامة خشبية منخفضة في سقف السقيفة. ثم أخذنا في مسح المكان. لم يكن ثمة شيء واضح أكثر من أن هذا المكان لم يطاه إفسان منذ سنوات. ولم يستطع أستير أن يتذكر أنه قد بحث فيه عن شيء حتى في طفولته. كان كل شيء غارقاً تحت عدة بوصات من التراب مع نوع من الزغب المندوف، وكان نصف السقيفة مغطى بواسطة سلسلة متتالية من نسيج العنكبوت التي جللها التراب حتى صنعت ستارة كثيفة عازلة. (وكنتم دائماً نتعجب من كثيفة ملاحظة العنكبوت على حياته في الأمكنة المغلقة). ولكن كان هناك الكثير - بوضوح - الذي لا بد من استقصاء حقيقته، بما في ذلك حكومة من الغلابين الكبيرة المخطمة. مع كل خطوة نجر كناها كان التراب يفرز أنوفنا، حطمت نسيج العنكبوت بمحرك ملهنة معدني قديم، ونظرت إلى القسم الثاني من السقيفة، كانت هناك بكل أنواع الصناديق والعلب الورقية والكموم من دفاتر الحسابات وحزم الأوراق، حاولت أن أفك إحدى تلك الحزم قبل أن الأوراق تنهشم تماماً كما لو كان الورق الذي صنعت منه قد جفف بالنار. وكانت حزم أخرى غارقة في نوع من الطلاء الزيتي جعلها مستحيلة القراءة.

بعد نصف ساعة من هذا البحث أصبحنا جميعاً في غاية العطش ورحنا نعطس مرة كل دقيقة. صعد أينا هرتكين ميلر لكي يستقضي أمرنا. ونظر حوله لمدة دقيقة أو اثنتين ثم انصرف وهو يقول: "الأفضل أن تبحثوا أنتم. لا أنا". وأخيراً قال أستير: "أظن أنني ساهبط إلى الطابق الأرضي لأشرب زجاجة من البيرة. هل يأتي أحدكم؟" قالت أنجيلا: "أتية معك"، ولكنني قررت أن أبقي هناك لفترة أخرى. ولكن خمس دقائق كانت كافية. بدأت أفكر باشتياق في قدح من الجعة كبيرة وبارد في الحانة المحلية. كانت غيناى تدمعان وكان صبري ينفذ بسرعة، حتى إنني كنت كلما تحركت ارتت معي قدراً من القبار والتراب لا ضرورة لمزيد منه. شعرت كما لو كنت بحاجة إلى حمام جيد. وكما لو كان شعري قد امتلأ بعناكب صغيرة خرجت لتوها من بطن أمها. وبعد أن جذبت درجاً هائل الحجم من قلب خزانة، وكافحت من أجل أن اصل شريطاً جليداً ربطت به إحدى الحزم وتجمدت حتى صار في صلاية الفولاذ. تحركت إلى الباب الواطن لكي أستنشق بعضاً من الهواء النقي. جلست عند الباب، أثناء، وأفكر في أنه إذا كان ايزموند ينوي أن يساعطني فإن الآن هي اللحظة المناسبة لتلك المساعدة. سار عنكبوت فجأة على عنقي، فوقفت على قدمي محضلاً حتى أنني ضربت رأسي في إحدى الدعائم الواطئة، فجلست على الأرض وراحت الأضواء تراقص ملتمة وحشية أمام عيني. جلست في مكاني محملاً بانزعاج في العنكبوت الذي تعلق هارباً بخيطه طويل منديل من فجوة صغيرة ثنت هبها شيء مثل توصيلة كهربائية قديمة علق في السقف بمسمار كبير. تسلفت السلم هابطاً، وجسدي يحتك بالحاجز هابطاً نحو الأرض وأنا أنظر بجنس إلى رجل يصيد السمك من هارب في البحيرة القريبة.

ملتت يدي إلى أعلى لكي أقطع التوصيلة الكهربائية التي كانت تضيء السقيفة، حينما خطرت الفكرة فجأة على ذهني. إذا لم تكن هناك إضاءة في السقيفة، لماذا كانت هناك تلك التوصيلة الكهربائية التي تعلق بها خيط العنكبوت؟ صنعت السلم ثانية وتناولت منفضة، ونفضت نسيج العنكبوت الذي كان يغطي مساحة الورق الغرود. وتطورت نظرة أكثر تدقيقاً، فعرفت السبب الذي جعلني أخطئ فأظن الشيء الذي رأيت أنه توصيلة كهربائية. كانت مساحة الورق صندوقاً كبيراً رسمت على ظهره رسوم دقيقة، ويحتوي على عدد كبير من الصناديق الصغيرة التي ربط بعضها إلى البعض بخيط واحد. كان على كل صندوق حروف كتبت فوق ظهره. وعلى أحد جوانب كل صندوق كانت هناك

قائمة أخرى من الحروف الأبجدية التسلسل، وهناك كتابة أمام كل منها. لم اكن أعرف ماهية تلك الصناديق وأنا أحملها إلى أسفل. كان حنسي يعمل مرة أخرى. كان الراب كتيفاً عليها حتى عجزت عن قراءتها في هذا الضوء العتم. هبطت إلى الطابق الأسفل، ونفضت عنها الراب بعناية مستخدماً منديلاً، وأخذتها إلى قرب النافذة. وقد كانت "رسماً" توضيحياً للسقيفة نفسها. ولو أنني فكرت فيها بعناية منذ رايته، أو لو أنني فكرت في السقيفة نفسها منذ أقيمت عليها نظرتي الأولى. لكنني قد لاحظت ان الخزانات المختلفة والعزم الوجود في السقيفة كانت موضوعاً بطريقة مرتبة ومنظمة توحى بأن شخصاً ما قد وضع هذا النظام، وأياً كان الشخص الذي رتبها فإنه قد صنع أيضاً هذا الرسم كدليل لمن يريد البحث عن أي شيء فيه.

سمعت الستير ينادي: "ألن تهبط الآن يا جيرارد؟ سيعد العشاء بعد نصف ساعة".

قلت: "من كان الشخص الذي سمع ج. راليون؟"

"جورج راليون؟ كان شيئاً كالساعة العام هنا في زمن جدي. وقد عاش حتى بلغ الواحدة والتسعين وهو يسكن منزل البوابة. ماذا؟"

اربته الجانب الآخر من الرسم. كان التوقيع الواضح يقول: "ج. راليون". جريت بإصبعي حتى توقف عند حرف "ك": "أوراق. ل. حثي ٩. لورد جليبي" كان هذا هوراس جليبي. قلبت الورقة إلى الزاوية القابلة. كان "ك" موجوداً في الركن القصي من السقيفة.

تبيئت ان "ك" كان خزنة ضخمة من الصفيح أو الصاج، وكان القبض قد علاه قصاً حتى أصبح قنحه عسراً. فتحناه عنوة بالاستعانة بمحرك اللهاة. كان مزدحماً موشأ بكراسات الحسابات، والخطابات والأوراق الساذبة، فاما ان أحداً قد عبت به منذ عهد "ج. راليون" وإما ان محتوياته قد وضعت دون محاولة لترتيبها بالداخل. فتحت خطاباً. وكان يبدأ: "عزيزتي ماري" وبدأ من الضموم ان الخطاب كان حول مشكلة عائلية عن بيع أحد المنازل في مكلفورد. دفعت يدي في الخزنة، وفتحت علداً آخر من الخطابات عشوائياً. كان أحدها موحياً إلى ميس فيونا غوثري، وكان يبدأ: "عزيزتي ميس غوثري" وينتهي بعبارة: "الخلص الذي يحزم لك". كان هذا مؤرخاً في أغسطس عام ١٧٦٦، وموجهاً من

غوثريين. وهذا معناه أنه ارسل قبل شهر قليلة من الأحداث التي وصفها في خطابه إلى أبرموند.

حاولت أنا والستير ان نحمل الخزنة لنهبط بها السلم ولكنها كانت ثقيلة جداً. فقررتا تركها في مكانها، وسرنا شاعرين بالانتصار فهبطنا إلى حجرة الطعام للإعلان عن الاكتشاف، فأثرنا من الانفعال ما كان مكافأة معقولة ومؤقتة لي. تركتهم بعد قليل وصعدت ثانية لكي أفحص الخزنة، بينما كنت احتسي كاساً من الجعة الثلجة. ثم ذهبت لكي أستحم. وحينما عبت إليهم، كانوا قد كوموا حزماً من الأوراق واللفات على بساط اللهاة، وكانوا ينظرون إلى ما فيها. نظرت إلى ما تم العثور عليه، ولكنني لم أجد شيئاً ذا أهمية.

تأخر العشاء نصف ساعة، فأكلنا كميات كبيرة من شواء الحجل وطيور الغاية وشربنا نبيذاً يوحوليه، الأمر الذي جعلنا جميعاً نشعر بالنعاس، فذهبنا إلى الصالون لكي نشرب القهوة ونشاهد التلفزيون. في التاسعة والنصف سألت إن كان بوسعي ان استخدم التليفون، وأني لم اكن قد اتصلت ببينا منذ تركنا لندن.

كان الخط التلفوني جدياً، فكان بوسعي ان اسمعها كما لو كانت على بعد ميل واحد. أخبرتها بما جرى - عن أنني قد عثرت على شيء من أوراق جليبي، ولكن لا شيء يمكن ان يبعد بشيء كثير. سألتها إن كان لديها أي أخبار.

"ليس الكثير. هناك خطاب من فتاة تريدك ان تذهب لكي تعيش معها في ميامي. وخطاب آخر من رجل يريدك ان تؤلف كتاباً تحمل فيه على العقول الإلكترونية. وهناك خطاب قصير من رجل يدعى مكورنر يقول أنه يجب أن يراك حينما تذهب إلى لندن في المرة القادمة".

"كيف تتجهين هذا الاسم؟"

"ك. - و. - ر. - ن. - ر."

صحت، ماذا؟ ما اسمه الأول؟

"لا أتذكر، هل أبحث عن الخطاب؟"

٣٠. أجل، أرحو له."

عادت بعد دقائق قليلة. وفترات لي الخطاب. كان للرسل هو أوتو كورنر، الرجل الذي قالت لي أسيرة دانكمان أنه أبعد عن البلاد. كان يعيش في ويست هامبستيد. قال أنه قرا خطابي عن أيزموند دونيللي في الملحق الأدبي للتايمز، وأنه يود أن يتحدث معي بشأنه، وكتب رقم تليفون في النهاية.

حينما انتهت ديانا المكالمة، انتفعت إلى حجرة الجلوس، صائناً وأنا أرقص ملوحاً بالورقة التي تحمل عنوان كورنر. شعرت بأن هذه الخطوة ستكون انطلاقة كبرى إلى الأمام - ليس لأنني توقعنت من كورنر أن يعرف شيئاً عن دونيللي لم أعرف أنا به بعد، وإنما لأنني شعرت بأن هناك من يقف إلى جانبي. كاد سرور ميللر بهذه الأنباء يعادل سرورنا. كان قد شرع يقع في شبكة "البحث عن أيزموند دونيللي". قال: "لماذا لا نتصل به الآن على الفور؟" ولم أكن بحاجة إلى مزيد من الحث أو التشجيع لبعث خمس دقائق، كنت أسمع صوتاً مثل صوت ممثل كوميدى يقف استاذاً المائياً عجوزاً، يقول:

"جميل جداً أنك تكلمت، يا زورم، حينما (عندنا) الكثير الذي يجب أن نناقشه).

قلت، "لقد رأيت دانكمان وزوجته في لندن منذ يومين. وقد قال لي أنك عدت إلى ألمانيا".

"ماذا! إنهما يعرفان أن هذا غير صحيح! يجب ألا تتق بهما..."

استمر بتحدث طوال عشر دقائق عن دانكمان وزوجته، مستخدماً كلمات من الألمانية من حين إلى آخر. وانتهى إلى أن نصحني بقوة ألا أعود إلى رؤيتهما مرة ثانية حاولت أن أكتشف السبب الذي يجعله يعاديهما إلى هذا الحد، ولهذا قلت له إنهما يبدوان كزوجين لا ضرر منهما. صاح يقول:

"ماذا! لا ضرر منهما؟ وكيف، إن هذا الرجل قاتل".

"كنت واثقاً".

"وافق تماماً" إنه قاتل. لقد تزوج فتاة ثرية في سويسرا ثم سلق جسدها في وعاء صنع الفراء. كان في هذا الوقت يعمل مصنع للفراء - واختفت بعد زواجها منه بأسابيع قليلة. وقد قام طبيب بتحليل عينة من الفراء الذي أنتجته في تلك الفترة وقال أنه كان مصنوعاً من عظام ادمية. ولكنهم لم يستطيعوا إثبات أي شيء. وأنه جدير بأن يسجن ثلاث سنوات بتهمة تعدد الزوجات".

بلت لي القصة مثيرة إلى درجة تجعلها غير قابلة للتصديق. (وفي الحقيقة، اكتشفت فيما بعد أن كورنر لم يسرد علي أكثر التفاصيل رعباً - وهو أن هكلأوس مزق جسد زوجته السويسرية قطعاً صغيرة بشفرة حلاقة، وأطعمها السمكة البيرافا المتوحشة التي كان يربها في منزله). تحدثت مع كورنر لعدة دقائق أخرى، ووعنته بأن اتصل به في طريق عودتي إلى إيرلندا. قال: "حسناً. أرحو أن تمضي في لندن عدة أيام، إن لدي الكثير الذي أود أن أقوله لك".

لح لي الأمر وكانه محملاً بالتعود الطيبة. عدت لكي أغير انجيلاً بالتفاصيل الجديدة عن هكلأوس دانكمان، وانتهينا إلى سرد حكاية زيارتنا بالتفصيل لمضيفنا ومضيفتنا، ولكننا حينما ما حدث بعد ذلك.

- ١٨ -

□ كنت بالغ التعب حتى أنني نهيت مسكراً إلى الفراش. وتكثرت استيقظت في السابعة من صباح اليوم التالي، فارتديت معطفاً فوق سترتي، وجلست على مقعد صغير واصلت في السقيفة، ورجحت أحمل بعناية ككل حزمة أو ملف من الخزائن، وأضعا الأوراق السالبة في كومة مستقلة مرتبة. كان قد مضى علي نصف ساعة من البحث قبل أن ألتقي بأول اكتشاف منبش للأمل. حزمة من الخطابات ربطت بشريط جميل. وقد كتب العنوان على كل منها بخط بناتي مستدير: "السيد هوارس جليبي، فرديناند سزاسه رقم ٩ (منزل فور هير يوليش) غوبتغين" كانت مكتوبة تلك الخطابات هي هيوغا غوتري، وأرسلتها إلى هوارس جليبي، وبدأت في فبراير عام ١٨٦٧. بعد شهر من حادثة اغتياله من اغواها. كانت الخطابات

- ٢٤٨ -

- ٢٤٧ -

من فتاة واقعة في الحب، والأكثر من هذا، كانت خطابات من فتاة شعرت بانها مرتبطة ومختوبة. وكانت الخطابات مليئة بما يدور في ببتها من إشاعات وهمسات، وعن شقيقته ماري، وعن كلب كان قد أعطاه لها، وحببت قراءة تلك الخطابات منيرة للشفقة، لأنها أعطت لكاتبها مساحة من الحقيقة الواقعية - تلميحاً تقنع في الحب لأول مرة، فتاة مسحت حبيبها شيئاً من الحرية في التصرف معها لأنها لا تستطيع ان ترفض له أي طلب - ونظراً أنه يفكر فيها باستمرار بنفس الطريقة التي تفكر بها هي فيه. كانت هناك ملاحظة من ماري في أحد الخطابات تقول: "أرجو أن تكون لفتيات عندك في مثل حب الحميم" ويبدو أن هوارس قد أجاب عليها إجابة مطولة، وراح يذكر إيرموند بحماس كبير. لأن هيونا تقول: "أنا ولقعة من أن صديقك إيرموند دونيلي طالب متقدم (أو ذكي) ولكنني (أنا) لا أستطيع حقاً أن أعجب به دون أن أقابله... إنني أفضل أن اسمع تفصيلات عن أعمالك أنت". فمن الواضح أن هوارس قد استهلك الكثير من الوقت في النقاء على إيرموند.

في عيد الميلاد التالي (١٧٦٧) يبدو أنهما تشاجرا بسبب إحدى الخادمتين "إنني أتمنى لو أستطيع أن أفهم لماذا تحب أن نلعب مثل هذه الحلقة اللوثة بالبحر"، الأمر الذي يفسر دون شك السبب الذي جعل هيونا تحافظ على غفريتها عاماً آخر. ولابد أنه كان عيد ميلاد مائياً بعوامل الإحباط بالنسبة لجلبيني بعد فشله في محاولة الإغواء المخططة التي قام بها في لوزنا بروت.

وضعت خطابات هيونا جانباً لكي أتمكن من دراستها فيما بعد دراسة أكثر دقة، ومضيت في عملية إفراغ الخزانة. بالقرب من القاع، بدت لي المحتويات أقل فوضى وأكثر ترتيباً. وقد حكومت دوائر الحسابات في ركن واحد. آخر حيث كل هذه البطائر، وحيثما تركزت آخرها، رايت صندوقاً معنياً أسود اللون مدفوناً تحت حزم كثيرة من الأوراق. آخر جتته بجهد، ووجدت أنه يبلغ حوالي ثمانين عشرة بوصة طولاً. وأن عمقه يبلغ حوالي تسع بوصات. لم يكن مغلقاً، ففتحته، فوجدت نقسي انظر إلى الصفحة الأولى من مخطوطة كتاب كنت بخط اليد، وتقول: "خطابات من فوق أحد الجبال" تأليف "جورج سيمشسون، د.د." عثرت على الكراسة الصغيرة التي استخدمها لأجمع مادني عن دونيلي، وكان الأمر كما قدرت هو أن الطبعة المنشورة من كتاب "خطابات من فوق أحد الجبال" كانت من تأليف رينالد سيمشسون. ولكن النشرة المكتوبة حول "جمعية العنقاء الشريفة" كانت من

تأليف هنري مارتل وجورج سيمشسون، د.د. وكانت هذه النشرة قد صدرت بعد عشر سنوات من صدور الرواية. ومع هذا فإن جلبيني قد غير الاسم الأول للمؤلف. وتفسير ذلك عندي أن جلبيني كان قد كتب النشرة قبل كتابة الرواية، وقد غير الاسم للوجود على الرواية لكي يتجنب تكرار ذلك الاسم الذي وضعه على النشرة.

تناولت حفنة من الأوراق بطريقة عشوائية وألقيت عليها نظرة فاحصة. وعلى الفور تقريباً وقعت عيني على عبارة "جماعة العنقاء". قرأت النص. لم يكن هناك احتمال للشك في المخطوطة الأصلية - وقد وضعت التصحيحات والتغييرات أن هذه المخطوطة كانت هي المخطوطة الأصلية حقاً للرواية - كان جلبيني قد أشار إلى "جماعة العنقاء" وليس إلى "أمر النحبان". من الواضح أن كان قد قرر أن يغير اسم الجماعة. آخر حيث المخطوطة كلها من الصنفوق. لم تكن الأوراق التي كتبت عليها موحدة الحجم. ولكن تلك التي كانت في قاع الصنفوق من حجم أصغر. ثم رايت أنها لم تكن جزءاً من المخطوطة، وأنها كانت مكتوبة بخط إيرموند دونيلي، وقد بدأت الصفحة الأولى كما يلي:

جلبيني العزيز

أرجو أن تصدقني حينما أؤكد لك. مقصداً على كلمة الشرف الأكثر صدقاً من أي كلمة، أنك مخطئ في خوفك على سلامتي. وأستطيع أيضاً أن أؤكد لك أنك مخطئ تماماً في تصورك عن طبيعة جمعيتنا. إنها ليست "سرية" بالمعنى العادي لهذه الكلمة. هل يمكنك أن تقول أن الجمعية الملكية سرية؟ ومع ذلك فإنه إذا حدث أن تسأل شحاذ إلى اجتماع للجمعية الملكية فإنه سوف يعتقد أنهم يتحدثون بلغة غريبة لكي يخفوا عن القريباء أغراضهم الحقيقية.

- ١٩ -

■ نملككني نشوة لذيذة، وأنا أحصل على الاكتشاف الكبير الذي استطعت الوصول إليه اليوم. وهو الاكتشاف الذي كنت أحلم به في لحظات بقطتي طوال الأسبوع الماضي، وهو حصولي على دليل حاسم ومؤكد على انضمام إيرموند إلى جماعة العنقاء. وهكذا

رجعت إلى غرفة تومي وأنا أحضن صندوق الصفيح الأسود الذي وجدت فيه المخطوطات والأوراق والخطابات. استخدمت التليفون الموضوع بجانب الفراش - والذي أدخله مضيقنا بناء على فكرة صائفة - لكي أسأل الطبخ إن كان من الممكن أن يرسلوا إلي إقطاراً خفيفاً في حجرتي. لم يزعجني أحد أو يقطع علي وحدتي. رغم أنني سمعت الستير يمر أمام باب حجرتي في طريقه إلى السقيفة. وفي خلال الساعة التالية عرفت عن أيزموند أكثر مما عرفته في خلال أسابيع البحث السابقة.

لن أنقل هنا تلك الخطابات كاملة، لأسباب ضيق المساحة، فإنها قد تحتل خمسين صفحة. كانت القصة التي جمعت أجزاءها من الخطابات كالتالي، كان أيزموند قد عرف بوجود جماعة العنقاء من مصدرين: روسو ورستيف دي لا بريتون. وكان الأخير عضواً فيها، مثلما اكتشف أيزموند فيما بعد. وكان أيزموند قد وصل بنفسه إلى أفكار هريية من أفكارهم مثلما رأينا - ومنلما وضحت تلك الخطابات توضيحاً كاملاً. عرف بوجود الجماعة، ولكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية الاتصال بها. وهكذا فقد أصدر كتاب "ملاحظات على فرنسا وسويسرا" ورسم على الغلاف صورة العنقاء، وأضاف إلى الكتاب قصة مختصرة تحكي تاريخ الجماعة وعزاها إلى الراهب اللوئري (توممي) والذي لم يكن له وجود.

ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك، فقد وصلته بالمريد صورة العنقاء الجميلة الرسومة. ومن كان أول شخص يصله بالجماعة بصورة فعلية؟ من الضحك والسخيف معاً أن تكون هي أول فتاة أدخلته عالم مباحج الحب. خادمة شقيقته ماري، أو مينو. كانت مينو قد استأنفت حياتها القعبة بالخدمة الجنسية في باريس، وأصبحت عشيقته أحد أعضاء الجماعة الذي راى في عبادتها الخالصة من أي هوى لأعضاء الذكر التناسلية جوهر الإيمان الحق بأفكار الجماعة.

كان جليبي وأيزموند صديقين حميمين. ولكن جليبي يفتقر إلى الليزة الأساسية اللازمة لعضو الجماعة، السعي الذي لا يكل وراء الجنس باعتباره تجربة تسمو على أي تجربة شخصية. ورشحته أيزموند لكي يكون عضواً، وأمضى جليبي يومين في باريس بصحبة أيزموند وعبدالله مؤمن (الذي يظهر في رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" باسم عبدالله الصباح. وقد اختار جليبي هذا الاسم بعد أن استعاره من الأستاذ الأعظم لجماعة

العشاشين)^(١). ولكن ما حدث في خلال هذين اليومين ليس واضحاً، فيما عدا أن أيزموند تعارف مع جليبي فدخل جليبي غاضباً. وبعد شهرين التقى بايزموند مرة أخرى في لندن، فتصالحا وسويا خلاهما، وكان ذلك بمبادرة من جليبي فيما هو واضح. وخلال هذه الزيارة، حدث أن قابلاً ماري وشارلوت انجسر، ابنتي إيرل فلامستيد، اللتان كانتا تقبيل مع ابنة عم أيزموند، إليزابيث مونتاجو، وعقدتا اتفاقاً فكاهياً (ببذرو جان بمقتضاه من الفتيات على أن يقتسماهما فيما بينهما). وفي أحد الأيام طلب جليبي من أيزموند أن يشرح بما يعرفه عن جماعة العنقاء. وفي لندن قابلاً رستيف أيضاً مرة أخرى. وكانت النتيجة مشاجرة أخرى. أو بالأحرى، انفجاراً غاضباً آخر من جانب هورس جليبي (وقد أكد كل ذلك تخميني السابق من أنه كانت في هذه العلاقة، من جانب هورس جليبي، ميول شاذة جنسياً). واستاجر جليبي منزلاً صغيراً في شارع جرب ليقيم فيه بيحونه، وكتب نشرة "حول جمعية العنقاء الشريفة". ووصلت أخبار هذه النشرة إلى أيزموند، فالتفت جليبي لا ينشرها. ووافق جليبي، فكرس خريف عام ١٧٧٢ لإغواء ماري انجسر. بينما التقى أيزموند حصاراً ناجحاً حول شارلوت. ولكن وقعت في نوفمبر مشاجرة أخرى، وعاد جليبي إلى اسكتلندا وكتب هناك رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" في الفترة بين ديسمبر وفبراير التالي. كتب إلى أيزموند لكي يقول إنه بينما يقبده وعده بالآ نشر النشرة التي كتبها، فإنه شعر بأن هذا الفعل الروائي الخيالي كان شيئاً مختلفاً لكل الاختلاف. (وقد كان هذا التصرف محاولة لجذب انتباه أيزموند بأي ثمن؟) وكانت النتيجة تلك الخطاب الطويل الذي وصل من أيزموند وهو الخطاب الذي وجدته في نهاية المخطوطة.

لقد كنا صديقين - أنا وأنت - سنين عديدة - ولا أقول شقيقين. كثيرة هي الزجاجات التي أفرغناها معاً، وكثيرات هن الخدمات اللواتي حررناهن من - الضيلتين بملاطفاتنا وأرجعاتنا المتبادلة. فلماذا، إذن، تختار هذا الوقت بالذات لكي تتهمني بأنني أتعامل على الوجهين؟ ما الذي حدث لتلك الأخوة التي أقسمنا عليها في الفندق في هانديرخ، حينما مررت ذراع شخص سافل، وضربت أنت سافلاً آخر على عينيه حتى أغميته؟

(١) العشاشين - جماعة أسبها الحسن من الصباح في القرن العاشر عشر في شمال العراق وإيران. وكان من الصباح من الغاضبين الإسماعيليين. فسحت حوله وجماعته العديد من الأساطير. وذلك بسبب سرية تطلعاتهم. واحتمانهم بقلمة (النوت) والتي اعتمدها اتباع ابن الصباح حمة الله الحقيقية. كانت لابن الصباح وجماعة العشاشين إزاء متطرفة، خاصة أنها جهم سياسة انتهازية وبموبة في نشر حركتهم رغم سرية الحركة في مراحلها الأولى.

يبدو هذه الذكريات عن الصداقة القديمة، عن وجبات الطعام التي تناولها معا
ونساء اللواتي اشتركا في اغوائهن. يبدو شيئاً لا قيمة له ونصرفاً لا جدوى منه من جانب
أيزموند. مكان هوراس جليبي محبوباً من عنصر أكثر خشونة كان هو يعرف ذلك.
وكان ما يقوم به في تلك اللحظة شيئاً أقرب إلى ابتزاز أيزموند، - وكان - كلاهما -
يعرفان ذلك. كانت علاقتهما علاقة أستاذ يتابعه. لقد التقيا حينما كان التفوق -
أيزموند - قد اكتشف مباحج الجسد الأنثوي، فراح يعط حواريه الجديد عن موضوع اغواء
نساء بحرارة ثوري وحماسته. ولقد رأينا كيف استجاب جليبي لهذه المواقف - في قصته عن
ليونارد وماري. ومن قائمة الأسماء التي ذكرها أيزموند، يمكننا أن نستخلص انهما اشتركا
معا في عدد كبير من العشيقات في غوتيفين. ولكن أيزموند لم يكن مهتماً بصورة أساسية
بالجنس في حد ذاته. بالنسبة إليه كان الجنس مفتاحاً لحل لغز معين. وكان هذا اللغز هو
ما يثير اهتمامه. ولكن هوراس جليبي - من ناحية تكوينه المزاجي - كان ينشأ في كثير
من الجوانب مع كازاتوفا، الذي كان قد قابلته ذات مرة في أوترخت. كان يحب طبيبات
الحيث وقد أحب من بينها النساء. ولم يستطع أن يفهم لماذا لا يستطيع أيزموند - استاذة في
فن الإغواء أن يعيش في لندن عاصمة إنكلترا ليشارك في نادي نيران الجحيم الذي كان السير
فرانسيس دافنود قد ترك رئاسته. بالنسبة لجليبي كانت لندن هذه - مدينة شريدان
وويلكيز ودانودود - هي أكثر مكان في العالم سحراً وجاذبية، صراع الديوك وسباق الخيل
ومباريات اللاكمة بالقبضات العارية (رياضة كانت جديدة تماماً) وليالي دروري لين،
وصحبة النساء الجميلات، هما الذي يريده أيزموند أكثر من هذا! لماذا أصبح مفسداً لجمال
العبية إلى هذا الحد؟ وقد كشف اغواؤهما المشترك للشقيقتين انجسر عن أن زمايلتهما كانت
قوية كعهدهما أبداً. فمن كان هذا العربي الذي لا يقاوم والذي يتحلى الفرسة بطلاقة
كاملة والذي لا يبدو أن من الممكن إبعاده عن أيزموند؟ وحينما اعترف أيزموند أخيراً بأن
الرجل ينتمي إلى جماعة العنقاء، بهت جليبي. كان أيزموند ما يفنأ يحدثه عن هذه الرابطة
الأخوية التي تربط أعضاء الجماعة، فقد سحرته منذ حدثه عنها روسو. ولكن جليبي لم
يصدق أبداً بوجودها. وهاهو أيزموند. الآن يصبح عضواً فيها! لقد فسر "ذلك" شكل شيء. أن
أيزموند لم يعد مطاردًا خراً للنساء لأنه وقع بين أيدي جمعية - سرية يديرها بعض
الأجانب، كان هذا العربي العملاق ذو الدببة الواضحة نموذجاً لأعضائها. كان رد فعل
جليبي مزيجاً من الخوف والاشتياق والغيرة - مع غلبة هذه العاطفة الأخيرة. فراح يتحدث

بصرامة في كل مكان زاره في لندن عن جماعة العنقاء - ولابد أن جونسون التقط في أحد
هذه الأماكن ما كان يقال عن أيزموند همساً وفي الشائعات - فكتب نشرته. ولو أن أيزموند
كان أقل إخلاصاً لصديقه لكان قد عاد إلى إيرلندا وقطع علاقته به. ولكنه بدلاً من هذا
حاول أن يهدئ ثأرته. وربما كان الأصدق أن نقول أنه حاول أن يفهم جليبي ما طرا عليه
من تغيرات منذ أيام وجودهما معاً في غوتيفين.

"كنت أؤمن دائماً بالرأي القائل بأن هذا العالم في فراغه عالم سحري. وأتساءل إذا لم تكن
سحرة فإن الخطأ يقع على عاتقنا نحن. إن ديدرو يجعل دالامبير يقول: لماذا نكون على ما أنا
عليه؟ فإن هذا يبدو لي في صورة أكثر الأشياء تحكيمية وإطلاقاً في العالم" إنني قد اكون أي
شيء أو في أي مكان. قد لا يكون شكلي أكثر ثباتاً من قبضة دخان تتصاعد من نار مشتعلة.
في صباح ساكن الهواء، قد تبدو قبضة الدخان ساكنة ثابتة مثل عمود من الرمر. ولكننا
نعرف أن أقل هبة هواء يمكن أن تغير شكلها وأن تبددها في الفضاء دون نهاية. لقد جلست
ذات صباح على أحد الجسور ورحلت أنظر ليلال انياه الذي يسقط بالقرب من مونت بلانك،
ونملكنتي فجأة فكرة أن الناس تحاصرهم قوى يعجزون عن فهمها، ومع ذلك فإنهم
يتوهمون أنهم يألون بقاء الصخور في العصور التي عاش فيها الناس كصيادين ومحاربين لم
يكن لديهم من الوقت ما يكفي للتوقف والركود. لقد أدركوا طبيعتهم الخاصة. ولم يظنوا
قبضة الدخان عموداً من الرمر. وفي هذا الجانب يمكن أن نقول أنهم فهموا العالم بشكل
افضل من فهم مستر ديدرو أو مستر فولتير له. ولكن الأبله وحده هو من يجب أن يعود إلى
الحياة التي عاشها التوحشون الرعاة، وبالنسبة للنفس، فإنني لست بالصياد ولا بالحارب
ولكنني طالما لاحظت أنني حينما يغرق مهري النطق في بيته الذي كان ينتظره، سواء كان
ذلك البيت بين فخذي سيدة ذات لقب رفيع أو خادمة في اصطبل، فإنني كنت أرى لحظتها
أن العالم شري دون حاجة إلى برهان. وأنه دافئ ولا نهائي. تسقط الغمامة التي تعميني عن
عيني، وينزاح الثقل الذي يكمل حواسي. أأرى في لحظة واحدة وعلى التو أن الإنسان قد ترك
ما كلفه له ميلاده من حقوق نهياً لنسارقين والناهيين. ولكن إذا كانت هذه الرؤية
السحرية هي حفي بحكم الولد، فلماذا ينبغي علي أن اتقبلها في شكل شذرات متفرقة غير
موصولة، مثل كعك يختلط مرقاً من اللحم بلبقها إليه على الأرض سيده؟ إنها ملكي، إن
أمسكها وأفيض عليها باليمين؟

هذا ما أمنت به دائماً، وأنا أعرف الآن ما يكفي من اللاهوت لكي أعرف أن حق الموند هذا هو ما فقدته البشر بسبب خطيئة آدم. ولكن وكيف لنا أن نأمل في العثور على ما فقدناه لا بالبحث المنهجي المنظمة لقد أمنت دائماً بأنه لابد أن يكون ثمة سبيل لاستعادة تلك القوة الضائعة. ولقد اكتشفت الآن أن هناك رجالاً كرسوا حياتهم للبحث عن هذا السبيل، وأنه يمكنهم أن يعلموني شيئاً من أساليبهم، فهل يمكنك حقاً أن تصدق أن مثل هؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا أسراراً، وأن هدفهم هو أن يستولوا على رוחي الخالدة؟ وما الذي يمكن أن يعنيه هذا حتى ولو كان صحيحاً ما تقوله عنهم؟ لأنني، ولا أنت، اصدق أن الروح يمكن أن تسلم رهينة أو سبية، إلا إذا أسرتها البلادة والغلظة وكثرة الاهتمام بما لا أهمية له.

كلا، إنني أسعى وراء شيء أكثر أهمية بكثير من بركات الفتيات اللواتي لم يسهن نشر قبلي.

ولكن ما الذي كانت جماعة العنقاء تفعله بالتحديد؟ يعبر أيزموند عن هدفها الأساسي في جملة واحدة: لباس هدفنا هو تلوين الأحاسيس الدينية، أو الانحدار بها عن طريق التلذذ الحسي، وإنما هو الصعود بالتلذذ الحسي إلى مستوى الأحاسيس الدينية. ولكن كيف كان من المفروض أن يتحقق ذلك؟ يعتمد أيزموند أن يكون غامضاً في هذا الصدد. كان لديه السبب الذي يدفعه إلى عدم الوثوق في جليبي، ولكن كان من الواضح أنه حينما جاء إلى غلوسين - في إبريل عام ١٧٧٢ - أخبر جليبي بالتفصيل أكثر بكثير مما كان على استعداده لأن يسجله كتابه، وكتبت جليبي بدوره بعضاً مما أخبره به أيزموند، بنية أن يستخدمه كمادة في كتابه الروائي الذي أزمع كتابته. وأظن أنه من المستحيل أن نشك في أن جليبي كان ينوي دائماً أن ينشر الكتاب، وأنا شخصياً مرّدد في أمر إدانته. إن الكتاب عمل جدير بالإعجاب، رغم كل ما يحتويه من سخافات عابثة. وقد يكون من حق المرء أن يقول أنه يكون ما أو كليله هوراس جليبي من مهام إلى الأجيال القادمة. فهل يمكن أن يواجه اللوم إلى كتاب لأنه لم يدمر أحسن أعماله بيده؟

من خلال مذكرات جليبي - التي سوف الخصها أكثر مما اقتطفها كاملة هنا - يبدو واضحاً أن جماعة العنقاء تشرك في الكثير مع جماعة "الصلب الوردي" أو لاسونيين الأحرار. كان هناك أستاذ أعظم، لديهم أشبه بالبابا، تنسب له لجنة تعرف بـ "لجنة الشرفين"، ويسمهم بالإنكليزية The dominoes جاءت ربما من كونهم كانوا يرتدون عباة ذات

الشفعة تعطي رؤوسهم، من النوع الذي يرتديه الرجال في الحفلات التنكرية. وكان لكل بلد مشرف واحد. في فرنسا كان للمشرف هو الكاتب شوبيرول دي لاسكوت، مؤلف رواية "العلاقات الغرامية المحظرة" وقد أصبح أيزموند فيما بعد هو المشرف في إيرلندا.

والشيء الواضح تماماً، من مذكرات جليبي ومن كتابه "خطابات من فوق أحد الجبال" هو أنه كان هناك دائماً نوع من الخلاف الأساسي في الرأي داخل الجماعة حول نقطة جوهرية من نقاط القانون الأساسي. كانت الجماعة تؤمن بأن الإنسان ينظر إلى معنى العالم باعتباره "لقراً سحرياً" بصورة أكثر دواماً من خلال الفعل الجنسي مما يحدث من خلال الدين أو الفن. (والكلمة اتهام هنا هي كلمة "الدوام". إن أحداً لم يفكر أبداً ما تحفقه التعليقات الصوفية من أنواع النشوة يمكن أن تبلغ أعماقاً أعظم من أي أعماق يمكن أن يبلغها الإنسان عن طريق الجنس. ولكن الإنسان من ناحية أخرى، يستطيع أن يقترب من أسرار الجنس بكل يوم).

وقد لاح لي أن كل أعضاء الجماعة وافقوا على أن مجرد الاتصالات الجنسية غير الشرعية، دون سيطرة، ستؤدي إلى الضجر والذل. ولكن كان هناك اختلاف كبير في الرأي حول العلاج المفترض لذلك. كان التقليد الذي اتبعته الجماعة - منذ أربعة قرون - هو أنه لابد أن ينظر إلى النساء باعتبارهن أوعية تحتوي السر الأعظم الغامض. وقد دفع آباء ورهبان جنوبي روسيا بهذه الفكرة إلى اكتمل تطور لها في القسم الأخير من القرن السادس عشر. ومن جانب آخر، فإن الهولنديين - وهم جماعة نشأت بين قبائل الألمان (استمد اسمهم من اسم ربة الزواج التبوثنية)، كانوا أقرب إلى أولئك "الرهبان" الأوائل الذين ارتكبوا جرائم الاغتصاب كلما أمكنهم ذلك، فقد آمنوا بأن الجنس يصبح أكثر إشباعاً ووصولاً إلى السر الغامض كلما كان عنيفاً ومفاجئاً. وفي القرن الثامن عشر، كان الانضمام إلى جماعة الهولنديين، يعني أن العضو يحاول ولوج أكثر عند ممكن من الأعضاء الأنثوية، والأفضل أن تكون لعزراوات. وكان هوراس جليبي هولندياً دون أن يعرف ذلك، وكذلك كان أيزموند في أيامه الأولى. وكان لاسكوت هولندياً، وكذلك كان الأستاذ الأعظم، عبدالله يحيى، وخلفه هنريك فان جريس، أما الرجل الذي كان مسؤولاً عن انضمام أيزموند، عبدالله مؤمن، فقد كان ينتمي إلى تقاليد أبناء الكنيسة الروسية ورهبانها الهيكومونيين Hegumenos.

وكان الهيكمونيون الأوائل (الذين أخذوا اسمهم من قائدهم الأول) الأب الراهب
 ضرود من النبر. والذي كان عضواً راهبياً بين جماعة من رهبان الأبراج) قد اختاروا فتاة
 صغيرة جميلة ككنوع من الكاهنة الأولى. واختاروا اثنتي عشرة فتاة أخرى بوصفهن وصيقات
 لها. وكانت هؤلاء الأخريات ككاهنات أيضاً، وعبدت النسوة بوصفهن مكانات مقدسة.
 ولكن الأعضاء الذكور في الجماعة كانوا يتمتعون بقدر معين من الحرية مع هذه الكائنات
 مقدسة، وهي الحرية التي كان من الممكن حتى أن تصل إلى مرحلة الجماع الجنسي الكامل
 ومن أجل الوصول إلى هذه المرحلة، كان على الذكر أن يصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع
 طوال عدة شهور قبل أن يتم الاتصال، ثم يمر بسلسلة من المراحل المحددة بدقة يقرب فيها
 من السر بالتدريج. فإذا استطاع أن يرفد عازياً على درجات "العبد" الحجرية في ليلة شتائية -
 من الخسوف حتى الشروق - فإنه سيسمح له بأن يقوم بدور الخادم لثلاث من الكاهنات لمدة
 ساعة كل يوم، فيحمل إليهن الطعام وينظف حجراتهن. وكان يسمح له بأن يأكل بقايا
 طعام. وبعد مزيد من الاختبارات، تتضمن غمرس شظايا من الخشب تحت أطرافه، ولسم
 نفسه بالنار عند الأجزاء اللينة من ذراعه، فإنه سيسمح له بأن يصبح "خادماً خاصاً" لثلاث
 كاهنات أخريات، فيفسل شبابهن، ويخيطها ويعسل لهن شعورهن. وكانت إهرارات
 أجسادهن تعتبر أشياء مقدسة. وكانت وظيفة هذا الخادم الخاص أن يأخذ تلك الإهرارات إلى
 مكان قصي من الغابة فيبدقنها هناك حتى لا يستطيع أي ذكر آخر من القبيلة أن يعثر
 عليها. ولكنه - وحده - كان يسمح له بأن يلوث نفسه ببرازهن، ثم يحمم جسده ببولهن.
 وهذه ميزة كان يحسد عليها كل ذكور القبيلة الآخرين. وكان مزج السائل اللوي
 للعباد بإهرارات "للقدسات" ينظر إليه باعتباره المرحلة الأولى من مراحل الاتحاد بالكائن
 مقدس. فإذا استطاع أن يمر بالمزيد من ألغام المتزايدة الصعوبة والألم، فإنه كان ينال الإذن
 بممارسة المزيد من الامتيازات، حتى قد يصبح واحداً من الرجال الثمانية الذين يقومون
 بدور "الخدم الخصوصيين" للكهنة الأولى المقدسة نفسها. وفي هذه الحالة فإنه قد يكون
 الشخص الوحيد الذي يختار بالقرعة من بين الثمانية لكي يشترك معها في طقوس الاحتفالات
 التي تقام ليلة اكتمال القمر بعد الحصاد، ثم يجامعها مرتداً جلد عاجل. كان عضو
 الكاهنة الأولى وعضو عابدها الذي شاركها في إقامة الشعائر يجفان بقطعة مقدسة من
 نسيج التيل بعد الاحتفال، ثم تمزق قطعة النسيج وتقسم إلى ثمانية أقسام ويعطى كل

واحد من الخدم الثمانية قطعة منها، يعلقها كل منهم على رأس عضوده طوال ما بقي لهم
 من زمن يقضونه في وظيفتهم السامية.

واضح أنه من الممكن أن نرى أن الفكرة الأساسية لدى الهيكمونيين، كانت هي
 محاولة بناء حالة من الشبق والتوتر الجنسي مرتبطة بالولع الديني، وأن كل مرحلة صعبة
 أو مؤلمة كانت مرسومة بحيث تمنع الطامع في الوصول من أن يصبح بأي شكل مسترخياً أو
 غير مهبال بمهمته. فإنه إذا فقد حالة انعاضه في أي وقت في حضرة الكاهنات، فإنه يجلد ويماد
 إلى القبيلة محقراً مهاناً. وكان معنى هذا أنه أصبح يعتمد على خياله إلى حد كبير، ويجب
 أيضاً أن نلاحظ أن وضعه الحقيقي كان أشبه بوضع خادمة إحدى السيدات، فكان يعمل
 باعتباره امرأة، حتى يشعر بالهانة، وحتى تصبح ميوله الجنسية قوية ومنمعة. وتقدم
 الفكرة كلها على أنه لا ينبغي أبداً أن يعامل الجنس كشيء "هوق السنوي" أو كشيء
 عادي، أو أن ينظر إليه كشيء من التسلمات. كل شيء مرتبط بشعائر الطقوس أصبح
 مقدساً مخيفاً، ومثيراً جنسياً. وأصبح عضو الكاهنة هدفاً مقدساً نهائياً وينظر كل ذكور
 القبيلة بحسد إلى الخدم الثمانية لأنهم يحملون على رؤوس أعضائهم قطعة النسيج المبللة
 بإهرارها الجنسي.

وقد فضل أيزموند تعاليم الهيكمونيين على تعاليم اليهودانيين. وقسم كبير من
 الخطاب الطويل الذي كتبه إلى جليبي مكرس للمناقشة ضد النوع من الإغواء الذي كان
 أيزموند يدعو له من قبل. ويظل يردد أن هذا النوع ليس له تأثير دائم، أنه يؤدي إلى
 الإشباع.

والقصة التالية تعد واحدة من أكثر قصص العلاقة بين أيزموند وجليبي أهمية.
 ومن أسوأها تسجيلاً. وقد أمكنتي أن أجمع أجزاءها من عدة مصادر، بما في ذلك بعض
 خطابات أيزموند - تلك التي وجدت في الصندوق في السقيفة - وخطابات وبوميات كتبها
 هوراس جليبي. وخطابات أخرى كتبتها ماري وموريس أنجستر. أما القصة التي يمكن
 استخلاصها منها فهي كالتالي:

حيثما تم الصلح بين أيزموند وهوراس جليبي في لندن في شهر أكتوبر عام ١٧٧٢،
 كان أيزموند يقيم في منزل ابنة عمه صوفيا في سانت جيمس. كانت صوفيا تسمى
 صوفيا بلاك وود بعد أن تزوجت السير آدموند بلاك وود. وهو مالك نري لأحد مصانع

المربوب. وكان والده أحد من ساندوا الموسيقار هاندي. وكانت لادي ماري وشارلوت أنجست تقيمان مع إليزابيث مونتاغو، صاحبة الجيوب الأزرق، التي كانت تلقيتها علم الفلك والتنجيم. واثنان إيزموند بشارلوت اللذيذة المينة، التي كانت عند ذلك في التاسعة عشرة ونصف من عمرها. أما جليبي فقد أسرته لادي ماري. الفسكية الجميلة والأكثر تماكاً نفسها من أختها. رغم أنها كانت تصغرها بعام كامل. (وهذا الاختلاف يعبر بنسبة بمودجية عن الاختلاف بين شخصيتي الرجلين. إن إيزموند الماهر الشيطر، قد فضل الحلاوة والراء، وجليبي غير الوائق بنفسه تماماً. دوخته الأكثر ذكاء وثقافة بين الاثنين).

وبينوا أنه من المحتمل أن جليبي ما كان يمكن أن يرمي إلى مثل هذا الهدف البعيد لولا تشجيع إيزموند. فقد كان يشعر براحة أكبر وهو يفوي من هم دونه في الوضع الاجتماعي. أما ما كان مصدر التأثير على إيزموند، فهو أن أكثر الرجال نباهة كانوا ينجلون من ابنتي أنجست لما تشهر عنهما من ذكاء وثروة كبيرة. كانت جماعة رياضيين تعقد مراهنات سخيفة عليهما، وكانوا يشعرون بصعوبة منال الفئتين فرجعتي العقل والركز الاجتماعي، أما المحرمون من الشباب - الذين من المحتمل أنهم كانوا يبدون في صورة فريية من شخصية "دارسي" التي رسمتها حين أوسدين أو مستر بنجلي - فإنهم كانوا يغمرون الفئتين بكلمات الشاء والجمالة وكانوا يحاولون فتح المناقشات لنفاية معهما. أما استجابة إيزموند فكانت أكثر بساطة. لقد فكر فيهما معاً باعتبارهما فئتين للينتين، وقال لجليبي أن الرجل جدير بأن يقضي ليلة مشهودة بينهما معاً.

وكان جليبي يعرف أنه حينما يقول إيزموند شيئاً من هذا القيل، فإنه لا يكون يعبر عن مجرد أمنياته التي لا سبيل لتحقيقها. ولو كان هناك أي رجل في لندن قادر على إغواء ابنتي أنجست، فإن هذا الرجل هو إيزموند. كان يتمتع بالمؤهلات المثالية لإغواء الفتيات اللواتي اللزبات على التعامل الاجتماعي، العقل الجيد. فقد كان هو وليتسنجس إبرز والأفضل طلبية الرياضيات بين جيلهما في غوتيفين. وكانت ابنتا أنجست تعرفان ليتسنجس بالفعل - فقد حدث أن قدم إليهما عن طريق شخص لا يقل مرتبة عن تلك نفسه، في هامبتون سكورن. وفصحيت الفئتان منظار الملك العظيم هناك تحت إشراف ليتسنجس. ومن الواضح أن إيزموند لم يكن يجد صعوبة في أن يلتقي كثيراً بأبنتي أنجست، طالما أنهما كانتا تقيمان عند إليزابيث ابنة عمه صوفيا. وكان منظر إيزموند الجاس - الذي قام بصنعه مصنع

شوارمر في لندن - هويأ قوة غير عادية، فأقامه في حجرة السفينة في منزل صوفيا بلاك وود. ونبت رسومه التوضيحية وخرافته بالدبابيس في الحائط، ثم دعا إليزابيث مونتاغو وحبيقتيها الساحرتين لدراسة النجوم معه ومع ليتسنجس، وكان إليزابيث متلهفة إلى هذا العمل. وكان من حسن تصرف إيزموند أن أعد وجبة صغيرة في "مراقبه" - من دجاج الحجل وطيور الغاية (نقار الخشب) والسمان، والخنزير الإيرلندي. وبعض الطهييات الرفيعة الأخرى. طرحت السيدات أسئلة عديدة، وحققن في المنظار لمدة تزيد على الساعة. ثم تنقذت الحادثة إلى الفلسفة، وراح إيزموند وليتسنجس يتناقشان في لينتز وهولتر وهيوم، وفي لغاية الافتتاحية للألماني الكبير إيمانويل كانت التي يقول فيها الحقيقة غير قابلة للمعرفة. والحواس هي التي تعطي شكل معرفتنا لكل الظواهر. (كان كتاب "النقد" الذي تطورت فيه هذه الأراء لم يكن قد صدر بعد، إذ لم يصدره كانت إلا بعد ذلك بتسع سنوات). تأرد إليزابيث مونتاغو تأثراً عميقاً، وقالت أنها لم تستمتع أبداً إلى مثل تلك المناقشة الشعبية الشاملة للقلقة. كلا، ولا حتى من بيرك وجاريك، ولا حتى من جونسون نفسه. لقد كانت شيئاً قديماً على الرأس، تلك الفلسفة النقدية الألمانية. ولكن التأثير المطلوب كان قد تحقق وقالت إليزابيث مونتاغو فيما بعد أن إيزموند كان واحداً من أكثر "العازمين" الشباب نباهة في لندن. والفتح إيزموند بالفعل بأنه قد ترك انطباعاً طيباً عند شارلوت. أخذ يدها للحظة متظاهراً بأنه يساعدها على الهبوط في رصن مظلم من السلم. فسمحت له بأن يستلقي يدها في يده لمدة دوان أكثر من اللازم.

ولم يكن هوراس جليبي حاضراً في تلك المناسبة. ونحن نعرف السبب بالتحليل لأز إيزموند يفسره في واحد من الخطابات الموجودة في مخطوطة "خطابات من فوق أحد الجبال". كان إيزموند يعرف أن جليبي لن يستطيع أن يترك تأثيراً قوياً على السيلتين، لأنه على شيء من الخجل (ولكن ما كان إيزموند يعنيه بوضوح هو أن جليبي ما كان يمكن أن يلاحظه أحد وسط جماعة تضم ليتسنجس وإليزابيث مونتاغو وهو نفسه). كان عليه أن يحسن اعتدال "مدخله". واكتشف إيزموند ما كانت ماري أنجست تقراه، وأمضي جليبي أربعاً وعشرين ساعة في تلمص الكتاب ووضع ملاحظات ذكية. خرج إيزموند للركوب في الحديقة مع الشقيقتين بعد يومين من ليلة المنظار. وحكى لهما عن شخصية صديقه جليبي الرفيق الخجول النبيل. قال لماري أن جليبي قد نشئ بأسلوب ديني مشرمت، وأن معرفته بالفلسفة الألمانية تدمر عقيدته، ثم اخترع حكاية مؤثرة بشكل خاص عن جليبي في

كاثرة في تشارلوت. وهو يسأل والدهم في عينيها، "هل كل هذا الجبال مجرد نصب
تذكاري لقنرة الإنسان على أن يحدد نفسه؟". وهكذا فإنه حينما أخذ جليبي لزيارة
إيربيت مونتاغو بعد ذلك بيومين، لم تكن هناك حاجة لتشجيع ماري لكي تهتم به. فقد
لنهرت أول فرصة لكي تأخذه إلى ركن هادئ، حيث تستطيع أن نسائه بإخلاص عن
شكوكه. وكانت الثغرة أكثر نجاحاً مما كان يتوقعه أي منهما. فقد وافقت على أن
تخرج للركوب مع جليبي في الحديقة في اليوم التالي، وقضت الليلة في حفظ الحبيب التي
أوردها بتل وتيلوتستون للرهنة على وجود أثر صناعة الله في الطبيعة. وفي مقابل هذا، قام
جليبي ببعض العمل التثري لصالح إيرموند. بإشارات غامضة عن أحزان سرية وحب
مفقود. ولا شك في أنهما كانا يكوّنان فريقاً قوي التأثير.

وتم اختيار إيرموند لكي يشكل مكاناً مثالياً بتكليفه بتمضية قدر كبير من الوقت
مع شارلوت. كانت إيربيت هي ابنة عمه، وكانت الفتاتان قد أصبحتا صديقتين لصوفيا
بلاك وود. ولم يكن بمقدور أحد أن يظن أنه من غير الطبيعي إذا سارت شارلوت من ماري فير
حتى سانت جيمس لكي تزور صوفيا وتناقشها في الثوب الذي ينبغي أن ترتديه في حفلة
الخريف التي تقيمها لادي ساندويتش. فإذا لم تكن صوفيا في البيت، فلماذا لا تمضي ساعة أو
لحوها في مناقشة الفلك وليتأهزيا مع ابن عم صوفيا؟

وعندما وصل شهر أكتوبر إلى منتصفه، كانت شارلوت تعرف لاري بأنها ستكون
مبالة إلى القبول لو أن إيرموند تقدم لخطبتها، ولحت ماري بذلك إلى جليبي الذي أخبر
إيرموند. وذهبت حينما لم ير أن صديقه بغمرة سرور من نوع خاص لسماعه هذه الأنباء.
ولكن إيرموند كان يرى الأمور بوضوح صافٍ إلى درجة ككافية لكي يرى أن الموقف كان
ينطوي بسرعة أكثر من اللازم، وأنه بدأ يبدو موقفاً خطيراً. فإذا كانت صوفيا وإيربيت
وماري قد عقدن عزمهم على القيام بخطبة، فإنه قد يجد نفسه مرتبطاً بخطوبة قبل نهاية
الوسم. كان الوقت قد حان للقيام بمراجع مؤقت.

عند هذه النقطة قرر هوراس جليبي أن يريد من وضوح قصته عن "الحب المفقود"
وأن يضيف إليها تفصيلات ضرورية فاسر إلى ماري أن إيرموند مرتبط بابنة كاهن
سويسري، وأن والد إيرموند قد اعترض على فكرة ارتباط ولده بابنة سويس كالفيني وأنه
قد بحرمانه من الإرث. وأن إيرموند، مثلما قال جيبون، "تهج كما ينهد العاشق، وأطاع

كما يجدر بالذين أن يطلع". وأن العاشقين قد انفصلا منذ ما يقرب من العام، وأن الفتاة قد
كثرت إلى إيرموند تقول له أنها قد خطبت إلى تاجر نسيج من جنيف، ولكن إيرموند قد
بلغه أخيراً أن هذا غير صحيح، وأنها ما تزال دون زواج وأنها لم تخطب. وأنها ربما كانت
تنتظر إيرموند.

استبد الغضب بإيرموند حينما أخبره جليبي بما فعله. لم تكن لديه رغبة في أن ير
غيره شارلوت ولا أن يشعرها بالنعاسة، وإنما أراد فقط أن يختفي لمدة طويلة حتى تها من
الغاضبات. أما الآن فقد اعتقد الجميع أنه أراد أن يعود إلى سويسرا لكي يلقي نظرة أخرى
جديدة على حبه الضائع. ولم يكن من صالحه أن ينكر وجود مثل هذا الحب، فإن أحد ما
كان ليصدفه.

وفي إحدى الأيام عندما كان ركباً مع شارلوت في مارلبورن فيلدز سألته أن يظل
لندن حتى يستطيع أن يصحبها إلى حفلة لادي ساندويتش. وعرف إيرموند أن هذا التصرف
يمكن أن يكون فائلاً. فشرح لها استحالته ذلك، وعادت شارلوت إلى البيت باسكية. وفي يوم
التالي ذهبت ماري لتجسس لزيارة صوفيا، واشتركت الاثنتان في الإبحار عليه للبقاء. وفادت
صوفيا أنه من السخف. وليلة العقل أن يرح لندن في قمة الموسم، وأن عمله في إيرلندا يمكن أن
ينتظر. وحاول إيرموند أن يقتل من الضغط الوجه إليه بالقول بأنه سوف يعود إلى لندن
حالاً ينتهي من أعماله، لكن لم تكن في هذه أية فائدة. فقد كانت شارلوت مفتتحة بأنه إذا
غادر لندن الآن، فإنه لن يعود إليها ثانية أبداً.

جاءت إلى المنزل في عصر اليوم التالي وكانت صوفيا بالخارج - وحاولت إقناعه
بالبقاء. واعتذر لها إيرموند بلهافة قائلاً أنه لا بد أن يرحل للقيام ببعض الأعمال العائلية
للضجرة المتعلقة بالزراعة، سألته بصراحة عن طبيعة هذا العمل، ولماذا لا يستطيع أن ينتظر
ثم لجأت إلى البكاء، ووجد إيرموند نفسه بلاطفها ويهدئها ويربت عليها. كان في الرابعة
والعشرين وكان كثير الشكوك. وكانت هي فائقة الجمال. وقد كتب يقول في خطاب إلى
لاكلو بعد ذلك بعدة سنوات،

لقد كنت أؤمن دائماً بالرأي القائل بأن أكثر الفتيات فضيلة وبراءة، هن أولئك
الواتي تربتهن طبيعتهم أفضل تربية على هن الإغواء، فإذا وقعن في الحب، فإن مقاومتهن
تكاد مستحيلة. والمرة الوحيدة التي وقعت أنا فيها فريسة للإغواء، حدثت على يد عدو من

هذا النوع. وقد حدث أن صديقاً غيباً جعلها تصدق أنني أنوي أن أسرع إلى الزواج من امرأة أخرى كنت قد برهنت لها على جداتي بحبيها. وجاءت ذات يوم - كنت فيه وحيداً في المنزل، لكي تقبليني، وحتى تلك اللحظة لم أكن قد فعلت معها أكثر من تقبيلها. وحوادث في البداية جاهدت وبأمانة أن أقنعها، قلت لها أن صديقي كان ابله، ولني لم أكن أنوي أن أذهب إلى سويسرا. فسألني عن السبب الذي يجعلني - في هذه الحالة - مصراً على الرحيل والذي يمنعني من البقاء عدة أسابيع أخرى. ثم راحت تبكي فأخلفتها بين ذراعي. حينما قلتها كفت عن البكاء، ثم بدأت تقبليني بشغف وحرارة وحتى أنني بدأت أقبلها عما إذا كانت فاضلة حقاً بالشكل الذي كنت أظنها عليها. دلتني ذوقي على أن الوقت قد حان للثوقف عن تبادل القبلات، ولكن حينما حاولت أن أهبطها، أغلقت فمي بالقبلات وضممتي بشكل الهوى. ثم قالت أنها تشعر بأنها على وشك الإغماء، ثم جلست على أريكة، قلت أنني سأذهب للبحث عن بعض الماء، ولكنها رجعتني أن أبقى وأن أجلس إلى جانبها، والأذن. هل يمكن أن تعتقد أنه من غير العقول - في ظل تلك الظروف - ألا أفترض أنها لم تكن بريئة - أو أنها لم تكن تتعمد التأثير الذي أحدثته بالفعل على العضو الذي أعيدتها به؟ دلتني منطقتي على أنني إذا جابهتها بما اكتشفته عن نواياها، فربما صدمت وتخلت عن نواضعها ولجأت إلى التظاهر الكذب. وبذلك، فأنني بعد أن ركعت إلى جوارها ووضعت رأسي على صدرها، دسست يدي تحت صدر ثوبها الفتوح وحررت أحد نهجها من حمائلته المشدودة. وحينما لم تتحجج، ارتكبت أنها سمحت لي بذلك لأنها أحست أنها بهذا الشكل تكسبني وتأخذني من الفتاة الوهمية التي تنتظرني في جنيف. ودار قصوتي لاكتشاف الذي الذي يمكن أن يصل إليه بها هذا التفكير. تحولت بشفتي إلى قدميها لم تكن ترتدي جورباً وكانت ساقها ناعمتين لينتين. وحينما بلغ رأسي ركبتيها، دسست أصابعها في رأسي، فظننت أن هذا كان بهدف منعي من القيام بأي تقدم آخر. ولذلك فقد تقدمت فعلاً ولكن بتصميم أشد. ولكنها لم تبذل أية محاولة لإيقافي. حتى حينما رفعت ذبول ثيابها الداخلية إلى أعلى، حتى وسطها وكشفت عن تل صغير ناهد (...) قالت الآن "لا لا" وحركت ردفها إلى جانب من الأريكة، ولكنها - فيما عدا هذا - لم تبذل أية محاولة جادة لمنعني (...) ورفعت بعد ذلك في مكانها، وقد احتضنتني بقوة، عارضة أنها ليس لها الآن أن نخشى أي هجرات، وربما كان من العقل أن تنتظرني أقدم لخطبتها. شعرت بأنها مكسبت انتصارها بسهولة بالغة. ولذلك فأنني بعد أن استعلت لهواي الحيوية، ذهبت إلى الباب فأغلقتة بانفتاح وألقيت مزيداً من كتل الخشب في

النار. ثم علت إليها - وكانت وافقة تنظر في منظار هلكي كان منصوباً على حامل منخفض - وشرعت أحل الشرطة ثوبها. احتجيت ولكنني تجاهلتها، لأنني شعرت بأنها إذا كانت قد عزمت على أن تصبح زوجتي فإن عليها أن تبدأ في أداء واجباتها على الفور. ولم تكن الاحتجاجات مقصودة بشكل جدي، لأنها سمحت لي بأن أخلع عنها كل ثيابها قطعة قطعة بعد ذلك جعلتها ترفد أمام نار التدفئة، ورحلت أبدل جهودي مع نهديها بإزادة هوية...

وبعد أن سمحت لها بارتداء ملابسها، هبطنا إلى الطابق السفلي ودققنا الجرس طلب للنشاي، وأقمضينا نصف ساعة نتحدث عن الزواج. وبعد ذلك، ولما كنا ما نزال وحيدين، قلت لها أن تأتي معي إلى حجرتي لكي نبذل محاولة أخرى واحدة، فجاءت معي على غير رغبة منها...

هكذا نعرف كيف تحقق ما كان يبدو من الظاهر مستحيلًا، وسلمت لادي شارلوت أنجست عذريتها لرجل كان مصمماً على أن يرفضها، ونادراً ما تدخل خطابات إيزموند إلى تلك التفاصيل الجسدية. فقد كان كل من الرجلين مهتماً أكثر بمناقشة الخصائص النفسية للنساء. ففي من الرابعة والعشرين، لم يكن إيزموند يملك الخبرة الكافية لكي يدرك أن شارلوت أنجست كانت تتميز ببعض خصائص الشخصية الأساسية الواضحة، لقد أرادت أن يمتلكها الرجل القادر على أن يأمرها أن ترفد على الأرض وأن تفتح ساقها. أصبحت عشيقته إيزموند، وراحت تتابعه في كل مكان بنفس الطريقة التي تابعت بها لادي ككارولين لامب فيما بعد اللورد بايرون. ومما يشير أيضاً - بنفس القدر من الأهمية - إلى مزاجها الاستسلامي أنها بعد أن أصبحت عشيقته كفت عن حديث الزواج. فمرة أخرى، أثارت نزعتها الأساسية في إدخالها وضعها الشاذ غير السوي.

ولابد أن تلخص ما حدث بعد ذلك باختصار. ربما كانت بعض الإشاعات قد وصلت إلى أدني إيرل أوف فلاكستيد عن انته مع إيزموند. فقد أخبرها ذات يوم بأنه قد اختار لها زوجاً. وهو بارون اسكتلندي محرم يمضي جل أيامه في الصيد في أحرانه الشمالية. فذات أنها تريد أن تتزوج إيزموند، ولكن إياها أجابها بأن عليها أن تنسى كل شيء من هذا القبيل. إن إيزموند لم يكن شيئاً مذكوراً. إذ هو ابن أحد ملاكي الأراضي الإيرلنديين لا يملك ما يكفي من المال لإعالة بيت محترم في لندن. وكانت هناك مواقف مشهودة كثيرة، وتعدت نوبات الغضب والبكاء. فأخذت الفتاة وأعيدت إلى بيت الأسرة في ويستون على نهر تريت،

حيث سقطت مريضة لعدة أسابيع. وكتبت ماري أنجست إلى صوفيا، تطلب منها أن تنصح إيرموند بالعودة إلى أيرلندا، لأن أباهما كان مصمماً على إبعاد شارلوت عن لندن طالما كان إيرموند موجوداً فيها. ورحل إيرموند. ومن الغريب تماماً أن ماري أصبحت معادية لشقيقتها بعد تلك الأزمة. ربما كانت حاتقة للسهولة التي أسرت بها هذه الفتاة الرقيقة الحلوة الطباع شخصاً مثل إيرموند، الذي كان ملائماً أكثر لماري نفسها.

فماذا كانت الفضيحة التي عرفت عن لادي ماري والتي أخبرني بأمرها الأنيستانت دوتيلي؟ كانت القضية هي أن ماري قد فضلت إيرموند على هوارس جليبي الذي تزوجته في أغسطس عام ١٧٧٣. وكانت هذه غلطة جليبي إلى حد كبير. فبعد أن أسكن زوجته في الجناح الغربي من قصر كلوسبي، ودعا شارلوت لكي تأتي للإقامة عندهما، لم يتأخر عن دعوة إيرموند. ولبي إيرموند الدعوة على الفور، واستأنف علاقاته بشارلوت فور وصوله. أمضت الفتاة كل ليلاتها في حجرته، لتعود إلى حجرتها عند الفجر.

وقد وصلنا وصف الحادثة في خطاب كتبه إيرموند إلى لاسكلو، حيث ينتقد إيرموند قصة وردت في كتاب بريفو "ذكريات ومغامرات رجل ذي حيثة" يصف فيها كيف دفعت سيدة فاضلة خادماتها للنوم مع حبيبها حتى تستطيع أن تحافظ على طهرها، ويقول إيرموند أن هذا كلام سخيف ومستحيل إلا إذا كانت الحبيب سكران.

لقد حدث منذ بضعة سنوات أن كنت مع أحد الأصدقاء.. وكنا نشرب البورت أمام نار الدفأة، بعد وقت طويل من انصراف زوجته وشقيقتها - كل إلى غرفته، للنوم. ودفعنا الحديث إلى مناقشة اختلاف بين مزاج كل من اثنتين. فقال إنه كان من الممكن أن يكون أكثر سعادة لو أنه تزوج شقيقة زوجته. وناقشنا كيف يتعكس مزاج كل منهما في طريقة ممارستها للعجن، وسرعان ما اكتشفنا أن الشقيقتين تشابهان في شيء واحد. وهو أنهما إذا كانتا نالمتين، فإنهما تسمحان لجليهما بمواقعتهم دون أن تستيقظ إحداهما بفضلة كاملة. وأدى بنا هذا إلى فكرة أننا قد نجرب أن نكتشف ما قد يحدث لو أنه اتبع لي أن أنهب للنوم مع زوجته، وأن يذهب هو للنوم مع شقيقتها التي هي عشيقتي. يثبت لنا الفكرة مسلية، فحربناها... ونجحت...

ولكن ما لم يذكره إيرموند في ذلك الخطاب، هو أنه نتيجة لتلك الليلة التي قضاها مع ماري، شرعت هي تعامله بصراحة كما لو كان زوجاً ثانياً لها - والأمر الذي كان فيه

مهانة شارلوت، وبعد أن قضيا هذه الليلة معاً، لم تعد ماري تشعر بحاجة إلى إبقاء مشاعرها إزاء إيرموند. كانت مفتونة به منذ البداية، منذ ذلك اللقاء الأول الذي سرح فيه مع لينتشيرج فلسفة كانت العقلية. أما علاقتها بزوجها فكانت مختلفة اختلافاً كاملاً. كانت مغرمة به ولكنها لم تستطع أن تعجب به، وكانت تدرك أن عقله - على صورته في عرفها - كان بأكماله تقريباً من صنع إيرموند - إلى درجة أقل - من صنع لينتشيرج. وحينما عاد إيرموند إلى لندن - وكان في ذلك الوقت قد اشترى المنزل الطويل الضيق في فليت ستريت قريباً من منزل الدكتور جونسون - تبعته ماري، وأقامت عند صوفيا بلاك وود. وسرعان ما انتشرت إشاعة تقول أن إيرموند نام مع شارلوت وماري في فراش واحد ونيس هناك دليل يثبت هذا، رغم أنه من الأكثر احتمالاً أن إيرموند ظل عشيقاً للرائتين معاً. ونحن نعرف أن إيرموند كتب إلى إيرل أوف فلاكستيد في ٢٢ نوفمبر عام ١٧٧٣، طالب يد ابنته بشكل رسمي، وأنه في ٢٨ من نفس الشهر، تسلم رداً بارداً مختصراً يقول فيه الإيرل أن شارلوت كانت مخطوبة بالفعل "لسيد نبيل من نبلاء كنت". ونحن لا نعرف أي نوع من الضغوط استخدمه الإيرل ضد ابنته التي كانت ما تزال أقل من سن الرشد. وقد كانت شارلوت فيما بعد لماري أنه هدهدها بأن يحلق شعر رأسها ثم يرسلها إلى دير بلجيكي. وبعد يومين من عيد الميلاد التالي، تزوجت شارلوت بهدوء من السير راسل فريزر، لورد أوف سيفير أوكس. وهو نبيل يشر إليه بالبول بقوله أنه "محتوه". ويقال أن الإيرل قد قال لوبد توماس جريفي، كاتب اليوميات الشهور: "إنها الآن قد حررت من يدي، فلا يعنيها ما تفعله بنفسها". أما القصة التي يحكيها جريفي عن مباراة حدثت بين إيرموند وبين ولد شارلوت فتبدو واحدة من تلك الاختراعات الخيالية التي لا يمكن اقتفاء أثرها لاكتشاف سدرها. وإذا كان فريزر "لعتوه" قد عرف مقدماً بقصة لفتتان زوجته بإيرموند وتعلقها به، فإنه يكون جديراً بالإيغار من بعد. ذلك أن إيرموند وجليبي كانا زائرين كثيري فريد على "بليدز هاوس" في سيفين أوكس خلال الأعوام التي تلت عام ١٧٨٠. لقد نهبت شارلوت إلى فريزر منقاداً تماماً، ويقال أن فريزر كانت له عشيقة فرنسية في دوفر. وعلى ذلك فإن الأمر يبدو كما لو كان صورة نموذجية من تلك الاتفاقات المتحضرة التي تميز بها القرن الثامن عشر. وقد وصفت صوفيا بلاك وود صديقته شارلوت بعد عام من زواجها قائلة أنها "تزدهر وفي غاية السعادة".

□ وربما كانت قصة مورين أنجستر - أصغر الشقيقات الثلاثة - هي أكثر القصص الثلاث أهمية وإمتاعاً، ولكن سوء الحظ، أنها أسوأها تسجيلاً وحفظاً. ويقتطف بوزويل من هوراس والبول قوله أنها لابد أن تكون تجربة مبهجة أن ينال الرءى حب مثل تلك الشقيقات لعمليات الثلاث. وأنها تجربة لابد أن يحاول كل رجل أن يعر بمثلها خلال حياته. وكانت مورين - عندما تزوجت ماري من هوراس جيليني - في الثالثة عشرة من عمرها فحسب. ورفض والدها أن يسمح لها بالذهاب إلى لندن لكي تقيم عند اليزابيث مونتاجو، بعد أن عرف - دون شك - بما حدث لابنتيه الأخريين هناك. ولكن طالما أن ماري قد تزوجت، فقد كان من المستحيل أن تمنع مورين من الذهاب إلى كلوسي والبقاء هناك. ومن الغريب تماماً، أن الإبرل كان يقدر هوراس جيليني تقديراً عظيماً، وفي عام ١٧٨١، بعد أن ورت جيليني الحب من أخيه، وصفه الإبرل بأنه "أكثر الرجال عطفاً وبهجة في إنكلترا". وهذا جانب من جانب جيليني لابد أن نتذكره. ولما كان صديقاً ملازماً لأيزموند، فإنه عندما كان يقف بالقرب منه، كان يظهر في صورة غير مناسبة، ولكن إذا لم تأسره الغيرة، أو إذا لم يحاول أن يقلد أيزموند أو أن يعتمد التفوق عليه، فإنه يبدو كما لو كان رجلاً جذاباً منير بالإعجاب. أصبح بالتدريج نموذجاً من نماذج الأرستقراطيين الرياضيين. (وهناك جانب آخر من طبيعته، يتمثل في اهتمامه بالحكايات الشعبية الاسكتلندية. وكان اقتناعه بأن ملحمة "وسيان" كانت عملاً مزيفاً هو الذي دفعه إلى اكتشاف قصص الترغفات الشمالية الشعبية الأصلية، التي قام بتجميعها، في شكل القرب إلى شكل مجموعة نونروت كالفالا، حولها إلى بناء قصص واحد تحت عنوان "تخاثر الشمال" في عام ١٧٩٢).

وفي الخطابات التي وجدها في نهاية مخطوطة جيليني، لم أعر إلا على إشارة واحدة لما حدث بين أيزموند ومورين أنجستر. ففي الخطاب الثاني، يكتب أيزموند قائلاً: "تؤمن قبيلة جرمانية معينة تعيش في المناطق الشرقية العليا من الدانوب بأن بعض العناصر لها قدسية خاصة، وأنه يجب النظر إليهم باعتبارهم الحافظات المقدسات لأسرار الخليفة.. ويمكن معرفة مثل تلك النسوة من خلال ما يبدو في عيونهم من قدرة دائمة على الحلم والنبوءات. الأحلام في الآخرين، مع رقة في التعبير الصحوية بالرشارة الطبيعية الجديرة برية من الربا. وحينما ينقضي الرجال بعنق تلك النساء، فإنهم يصبحون غير مطالبين إلا بأداء واجب واحد:

أن يعينوهن. ويعينتهن، أعني تأكيد حلال البرية في قدسيتها الأبسية". وعلى هامش هذا الخطاب إلى جوار تلك السطور، هناك سطر بخط هوراس جيليني يقول فيه: "لهذا فإن بندكاه، بمورين أنج".

وكانت هذه، حتى تلك اللحظة، هي كل معلوماتي عن مورين أنجستر. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، فمت أنا والجيلي والنستير بمحضر كل ما وجدناه في الخزانة التي أخذناها من السقيفة. ولكننا لم نعر على المزيد الذي يمكن أن نفعنا في تحقيق هدفنا وسوف أكتب في مكان آخر عن الرواية التي كتبها أيزموند في مسرحة باسكرة - في مسرحة التاسعة عشرة - تحت عنوان "الأرفيس وليونيتا" - حينما كان في عشرينين، وعن قصيدته الطويلة "في ذكرى تشارلس تشيرشيل" التي كتب في نفس الوقت تقريباً. وقد عثرت على الرواية والقصيدة معاً في الكتبة الكبيرة في قصر كلوسي. ولا شك أنهما وصلا إلى يدي هوراس جيليني تشيلاً لوصية أيزموند. والقصيدة لا يمكن أن تكون خالية من أي قيمة. كان تشارلس تشيرشيل واحداً من أفضل الشعراء المعروفين في عصره. كان فسيحاً ساخرًا في أسلوبه. مصارعاً (فقد كان ذا جسد هائل القوة) وكان عضواً في نادي نيران الجحيم. مات في سن الثالثة والثلاثين نتيجة إصابته بعدوى الحمى عندما كان يزور ويكليز في فرنسا وقابله أيزموند، وأعجب به بوضوح، وفي مخطوطة رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" يذكر تشيرشيل (كذا) باعتباره "واحداً من أسوأ أعضاء جماعة العنقاء شهرة، فإذا كان هذا صحيحاً - وهو محتمل تماماً كما نعرف من خلال كل المعلومات المنقولة عنه - فإن هذا يثير الاهتمام باحتمال أن تشيرشيل كان أول من أخبر أيزموند بأمر الجماعة.

بلغت استنارتي بسبب اكتشافي لذلك المزيد من المواد جداً جعلني أكتب خطاباً طويلاً إلى فليشر من قصر كلوسي - النقص له فيه اكتشافاتي حتى تلك اللحظة - بما في ذلك بعض المعلومات عن جماعة العنقاء - مقترحاً أنه من الأفضل أن أكتب هذا الكتاب (الذي نشره الآن) كمقدمة مستقلة للذكرات أيزموند. وكانت ما تزال هناك بعض الأسئلة دون جواب. كيف مات هوراس جيليني؟ ما الذي حدث لمورين أنجستر؟ وقبل كل شيء، ما الذي حدث لأيزموند في سنواته الأخيرة؟ ولكن كان من الممكن أن تترك هذه الأسئلة جانباً لتكون موضوعاً لأبحاث أخرى.

وقبل مغادرة قصر كلوسي - بعد يومين من كتابة هذا الخطاب - اكتشفت أجوبة جزئية لأثنين من تلك الأسئلة. كنا قد قررنا أن نرحل في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، لكي نحاول الوصول إلى انبرة في وقت متأخر من الليل. تناولنا طعام الإفطار مبكرين. وبينما كانت انجيلا تحزم آخر ما سوف نأخذه معنا في الدفائق الأخيرة، درت أنا دورة حول المكتبة. كان الكثير من الكتب قد أفسدته الرطوبة أحياناً، وكان أحدهم قد صنع حكومة من تلك الكتب الثالفة في أحد أركان الحجرة، ربما بنية أن يرسلها لكي يعاد تغليفها في مكان ما. كنت أعرف أن هذه الغرفة لابد وأنها تبني بنفس الصورة التي كانت عليها حينما اشترك أيزموند وهورس جيليني في الشرب في أواخر كل ليلة هنا - ثم قررنا أن نبني الفراش.

حاولت عدة مرات أن أضع عقلي في وضع أو حالة سلبية، لكي أحاول أن "أنتفي" أيزموند (كما يتلقى جهاز الاستقبال رسائل لاسلكية) ولكن المنزل كان يعج بالحركة وأصبحت عاجزاً عن التركيز. وهجاء تماماً، وصلت الرسالة. أصبحت المكتبة مألوفة لي بطريقة غير مألوفة. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أصف بها إحساسي. إن إحساسنا تجاه الأماكن تصنعها غالباً ذكرياتنا وما يمكن أن نبغته لدينا تلك الذكريات من تفاصيل داخلية. ولكن ذكريات أيزموند عن تلك المكتبة كانت مختلفة كل الاختلاف عن ذكرياتي. وهكذا، أصبحت للمكتبة - بمعنى من المعاني - مكاناً مختلفاً. ووجدت نفسي أنظر إلى رف مرتفع في أحد الأركان قريباً من النافذة. عبرت الحجرة إلى هذا الرف. كان "أيزموند" قد حكاك يتلاشى الآن بالفعل. كان الرف خالياً، والخشب المشغول من خلفه كان مكشوطاً وقد بللته الرطوبة ولزوجة الطلاء الجديد. وخطر لي أنه لو كانت هناك كتب فوق هذا الرف قبل طلائه، لكانت الآن موجودة بين الأكوام المتراكمة في ركن الحجرة. ذهبت إلى تلك الأكوام ورتبتها على شكل صف طويل على الأرض. وقد قلبت مكوها إلى أعلى. ولم يبد لي أي عنوان من عناوينها ذات أهمية خاصة، كتب صلوات، وكتب رحلات، قصائد كاور، بعض كتب سكوت. بل كانت هناك نسخة من طبعة توشفيتز لأحد كتب هنري جيمس رحت أفتحها، واحداً بعد الآخر، عشوائياً، ملقياً نظرات سريعة إلى صفحات العناوين الداخلية الأولى. التقطت نسخة من كتاب "تقرير عن جزر ساندويتش" وكانت قد أفسدت بشدة الرطوبة، والصفحات تعجنت من البلل. وحينما نظرت إلى صفحة العنوان الداخلية الأولى، عرفت أنني وجدت ما كنت أبحث عنه. كان

الكتاب بقلم مورين انجسر. وهو من نشر موراي، ناشر اللورد بايرون، في لندن عام ١٨١٢. في العام الذي بلغت فيه مورين عامها الثاني والأربعين. كان الكتاب مهدى إلى "ذاكرى هورس لورد جيليني". وتحت هذا الإهداء، كتب أحدهم: "طعن في عينه اليمنى بيد أحد القذاة الجهوليين في ٢٨ يوليو عام ١٧٩٦". كانت الكلمات قد تبللت إلى درجة سيئة وأخرج لهم بالياق الورق متشعباً منتشراً حتى أصبحت قراءتها عملاً على شيء من الصعوبة.

وهكذا، قبل أن يغادر قصر جلوسي في ذلك الصباح، كنت قد عرفت شيئاً آخر عن عائلة جيليني أن هوراس قد طعن ولم يطلق عليه الرصاص. وأن مورين انجسر قد سافرت إلى الشرق في أيامها الأخيرة، وزارت اليابان وإسبانيا وجزر ساندويتش. وقد تأكدت فيما بعد من أن الكلمات التي كتبت تحت الإهداء كان كاتبها هو ابن جيليني.

كنت مسروراً من نفسي إلى درجة كبيرة. لم تكن الزيارة قد أثمرت بالدرجة التي كنت أرحوها. ولكن كانت كل ثمارها ثمينة وذات قيمة كبيرة. كان السير والتجيلة سعيدين أيضاً. لم يكونا قد عنرا على بقية مذكرات دونبلي. ولكنهما كانا قد عنرا على نسخة من الكتاب المقدس تساوي عشرين ألفاً من الجنيهات.

زودتني معرفتي بأن جيليني كان قد طعن بمادة للتأمل، وخاصة بالنظر إلى ما أضفاه أيزموند على خطابه الأول بعد التوقيع عليه: "لني أرجو أن تدمر. أو على الأقل أن نخفي هذا الكتاب عن الأنظار، ليس فقط باسم صداقتنا. ولكن من أجل سلامتك أنت وسلامتي". فهل كان أيزموند يواجه أي خطر تهدد به الجماعة؟ هل يمكن أن يكون موت جيليني نتيجة لتجاهله تحذير أيزموند؟ كانت هناك سمة واحدة غريبة - على الأقل - في جريمة القتل، إنها حدثت في حجرة صغيرة بالطابق الثاني، فإذا كان جيليني قد طعن وهو في الفراش وقتل هنا، فلماذا لم يكن نائماً في إحدى حجرات النوم الكبيرة المظلة على البحيرة والبحر؟ ووجدت نفسي أتمنى لو كان يوسفي أن اتصل بأيزموند لكي أسأله. ولكن لم أحظ بأي خبر من التركيز يعطيني الفتاح الذي كنت بحاجة إليه.

عننا إلى شقة الستير في لندن في الساعة الثانية من عصر يوم الجمعة. كان يوماً مشمساً. وفي الحقيقة كان أكثر حرارة من أن يسمح بالراحة. ووجدت نفسي أتمنى لو كنت قد أتيت معي بملايس الصيف. كنت أفكر في أيزموند الذي كان جسده يذوب

ويتلاني في قلب مقبرة العائلة منذ أكثر من مائة عام - هاتمنى لو استطعت بشكل ما أن
أناضكه رجليه.

كان السهر مشغولاً بعمل ما في التبننة. فتناولت أنا والجيلاد غداء متأخراً. من
شعيل أن تقوم بين شخصين علاقة حميمة على حين فجأة وبشكل عنيف، دون أن
يستمر في التفكير أحدهما في الآخر - بمعنى من المعاني - بوصفهما عاشقين. ولكن اللذة
التي شرع ينمو بيننا لم يكن من ذلك النوع الذي ينمو بين الرجل وبين زوجته. وجدت
نفسى آخرها بتلك التجارب الغريبة التي "أصبحت" في أثنائها أيزموند، وكيف أدت بي آخر
تلك التجارب إلى العثور على كتاب مورين أنجستر. توقعات منها أن تجد في الأمر ما يبحث
على الاهتمام، أو أن تنظر إليها باعتباره شيئاً مسلماً. ولكنني لم أتوقع منها أن تجده أمراً قابلاً
للتصديق بشكل كامل. فقد كنت على كحل حال، أغرق نفسي بشيء من العمق في
أيزموند، وربما إلى درجة أكثر من اللازم. ولكن رد فعلها أدهشني. ارتبكت وبدأ عليها
الانزعاج. قلت:

"لا شيء يستحق القلق. إنما نظرت إلى الأمر ككثير من الاهتمام."

وجدتني أحتاج بوجهة النظر العقلانية التي توقعت منها أن تأخذ بها. ولكنها قالت أن
السهر قد تحدثت معها عن شعوره بالغربة في قصر جلوسبي وأنه تساءل عما إذا كانت
حجرته مسكونة."

بعد الغداء بنصف ساعة. وبينما كنت أفضص مخطوطة رواية جليبي. قالت:

"هل تعلم أنه يحاول أن يقول لك شيئاً؟"

"من؟"

"أيزموند."

حاولت أن أوضح لها أنني لا أشعر - أو أنه ليس لدي إحساس - بحضور أيزموند. وإنما
أنا أرى الأشياء - ببساطة - بعينه هو كما لو كنت أنا أيزموند

والمرء لا يحاول أن يخبر نفسه بشيء ما."

قالت. "أظن أننا يجب أن نتصل باليدكتور كورنر"

كنت قد قررت ذلك فعلاً قبل أن تقول له أنجيلاد. ولكنني كنت أريد أن أؤجل ذلك
الاتصال لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى. كنت أريد أن أمضي أعمى هادئة في قصر الأورق
المتلفة التي جئنا بها معنا من كلوسبي. قالت أنجيلاد:

"السبح لي بأن اتصل به."

"حسناً. إذا كنت تريد ذلك."

وبعد عشر دقائق. قالت:

"لقد دعوتك لشرب كاس معنا في الساعة السادسة."

وفي حوالي الخامسة والنصف. دق جرس التليفون. فرفعت أنجيلاد السماعة. وضعت
يدها على السماعة وقالت:

"أنا أنا دكتورمان..."

هزرت رأسي بقوة لكي أؤكد لها أنني لا أريد محادثتها. فقالت لها أنجيلاد أنني بالخارج
وأنني لن أعود إلى وقت متأخر. ذهبت إلى الحمام بينما كانتا تتحدثان. واغتسلت. وحينما
عدت بعد عشر دقائق كانت أنجيلاد ما تزال تتحدث. ولكنها أنهت المكالمات بينما كنت أيدل
ملابسي في حجرة النوم.

"تلك المرأة مرعبة تماماً. أتمنى لو أنني لم أعطها هذا الرقم."

"ماذا كانت تريد؟"

"لأبد أنها تملك حاسة سادسة. لقد قالت أنها قد سمعت الآن تواء كورنر موجود في
لندن وأنها أرادت أن تتصل بك ألا تراه. ثم راحت تسرد علي قصصاً طويلة متشابهة عن مقدار
ما يملكه من شر وقسوة على الإيذاء."

"ماذا قالت من أفعالها؟"

"و... مشاجرات عما كان يعنيه رايخ وما إلى ذلك. ولكنها قالت انه ينبغي عنهما
إباعات كاذبة، وأنها تنوي أن تقاضيه بتهمة القذف. أما كل ما كانت تقصده فهو أنها
تريدك أن تتجنب كورنر. فإذا حدث أن قابلته، فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول".

كنت جالساً على الفراش، أعقد رباط رقبتي، اقتربت مني أنجيلا وغرست أصابعها في
تجري السبل. انسابتي دهشة بسيطة، ولكنني اقترضت أن هذه الكلمة قد صدمتها بشكل ما
وأنها تريد شيئاً من التذليل. أحضنت حصرها بذراعي وضغطت عليها قليلاً. أخذت يدي
بكلتا يديها وضغطت بهما على نهديهما، نهضت واقفاً، وانحنيت عليها ومنحنها قبلة لكي
تطمئنها. فوجدت نفسي أضمرها بقوة حتى التصقت بي، وأصبح جسداً كتلة واحدة
مندمجة. وبعد أن تبادلنا القبالات للحظة، قالت بصوت متوتر:

"إنه شيء مرعب... ولكني أريدك أن تمارس الجنس معي".

"لا يكاد يكون هناك وقت".

ولكن كان باستطاعتها أن تشعر بي وأنا أتصلب في التصاهي بها.. وكانت أكثر من
مستعدة لممارسة الحب. وحينئذ، هماً، انفلتت من بين ذراعي وابتعدت عني. قلت:

"ماذا حدث؟"

انفجرت باكية وقالت:

"إنني أكره نفسي".

"لماذا؟"

"إنها هذه المرأة الكريهة العفنة. أعنفد أنها تستخدم التنويم المغناطيسي. فحينما

كانت تتحدث معي..."

لم تستطع الاستمرار في الكلام. احتضنتها مرة أخرى، ولكن دون رغبة في هذه المرة.
قلت لها مؤكداً أنه من الصعب القول أنه من السخيل أن يكون المرء قابلاً للتأثر بالإيحاء. وبعد
قليل من الأسئلة اكتشفت أن السيدة دنكلمان قد تحدثت عن الاختلافات الجنسية
الجماعية. قالت أنجيلا:

"أعرف هذا، ولكنها مسألة تبدو صعبة جداً. لقد أردت أن اغتصبك".

"لا تسمح لي بأن أظن شعلتك اللتهبة".

ولكننا نعرف معاً أن نوبة الحمى قد انتهت. ولكيؤكد ذلك، أرفدتها على الفراش
وقبلتها برفقة، ثم ربت على نهديهما وفخذيها بيدي. استرخت مثل طفلة صغيرة وكان
يوسعنا أن نمارس الجنس في تلك اللحظة. ولكنه كان سيصبح جنساً رقيقاً هائلاً مثل
يمارسه زوجان طبيان، كما لو كان امتداداً لقبلائنا، ولن يكون حمى مسعورة متأججة
وبعد عشر دقائق، حينما كان جرس الباب يدق، كنت أشرب سكاناً من المارتيني لتنت
حاجتي إليه، وكانت أنجيلا تتحمم في الحمام.

□ كان كورنر رجلاً غريب الهيئة، طويلاً، مخلوب الكتفين، رأسه يكاد يكون
أصلع. وقد ذكرني على الفور بفائد الفرقة الموسيقية فورتنو كنكر. لاح لي صدغه ضيقاً
ولم ينم الوجه - بشكل ما - عن عزيمة قوية. ومع ذلك فقد كان الأثر العام الذي يخلقه
هذا الشكل الغريب هو الإحساس بدعاء داخلي وقاد غير مألوف. كان صوته مرتفع النبرة
إلى حد ما. ولكنه كان رقيقاً، يكاد يكون ذا تأثير مغناطيسي منوم بعد أن يتكلم عدة دقائق
كانت التكنة الألمانية قوية، وببت بذلته الرمادية عالية الثمن، ولكنها ظلت تليس منذ وقت
طويل حتى علنها لغة خفيفة.

رفض أن يشرب سكاناً، "إنني لا أشرب سوى قليل من عصير الفاكهة" ثم جلس على
حافة مقعد كبير عميق ذو مسندين وقد وضع يديه البارزتي العظام بين ركبتيه، عاملاً
على أن يبدأ في وقت واحد بمظهر فيه كثير من الاسترخاء وعدم الراحة معاً. حينما دخلت
أنجيلا، ففز واقفاً على قدميه، وانحنى مقبلاً يدها بدعائه وتهنيت طبيعيتين، وفي رشفة
بلت تعبيراً عن شخصيته الداخلية. اقترحت أنجيلا أن يجلس على الأريكة. وفي هذه المرة،
فدلف بنفسه إلى الخلف في أحد ركني الأريكة بتلقائية مبالغ فيها ثم وضع ساقي على ساق
سكاناً عن حوربه للصنوع من الحرير ذي الخط الأبيض الناصع الطولي. ثم بدا يتكلم:

"حسناً، يا عزيزي مستر سورم، هذا حقاً شرف عظيم لي. إنني أعرف مكتبك معرفة جيدة بالطبع. (وقد اتضح لي فيما بعد أن هذا صحيح، فقد كان يقتبس منها اقتباسات طويلة في حديثه بطريقته الألمانية التعليمية) وأسمح لي أن أقول منذ اللحظة الأولى أنني نعتني أن نجد في بعض أرائي ما يثير اهتمامك، مثلما أجد أنا في رأيك."

كان بوسعي أن أرى أن تعجباً تكاد تموت من لهفتها إلى أن تسأله عن أسرار ديكمان. ولكن كان من الصعب أن نوقف مجرى الحديث الدائر عن الأفكار والآراء بالإضافة إلى أن المرء كان جديراً بأن يشعر بتفاهة مثل هذا الموضوع بالمقارنة إلى مناقشة أفكار هوبنرلين وباسرز."

لن أحاول هنا أن أنقل تقريراً كاملاً عن محادثته. فقد مضى في حديثه باستمرار ونبرات تقريباً، حتى غادرنا عند منتصف الليل. وبدأ حديثه من النزعة الرومانتيكية الألمانية وليبتاهيزيقا الفلسفية عند فلاسفة الألمان. حتى وصل إلى أفكار رايخ وتطويرة هو تلك الأفكار. ولا يمكن هنا سوى أن أقدم صورة سريعة لأفكاره المحورية الرئيسية.

كان ديكمان وزوجته قد لخصا لنا وضع ويلهلم رايخ. ولكن كورنر وصفه بشكل أكثر اكتمالاً، فقد قسم مراحل الفكرية إلى ثلاث مراحل، بدءاً من عمله بوصفه أحد أتباع المدرسة الفرويدية، ثم انفصاله وابتعاده عن فرويد إلى "تحليل الشخصية" - التي قد يعتبرها أكثر علماء النفس مساهمته العظمى في هذا العلم - وأخيراً، مرحلته "النزعة" أو للهووسة، حينما اعتبر نفسه "عالمًا طبيعيًا". وحينما اعتقد أنه قد اكتشف نوعاً غامضاً من الطاقة يدعى "الأوركون" يمكن أن يركز بطرق مختلفة. ولكن ما ادهشني كان ما أثبتته كورنر من أن رايخ كانت له نظريات مادية النزعة - بقدر ما من المادية - حول الأمراض العصبية (وقد كان رايخ عضواً في الحزب الشيوعي حتى فصل منه بسبب آرائه المعارضة لأراء الحزب حول أسباب الفاشية).

وقد بدأت أفهم كورنر بصورة أفضل حينما تحدثت عن فكرة رايخ حول "درع الشخصية". وكيف يحمي الناس أنواعاً مختلفة من الشعور الصلبة حول شخصياتهم لكي يغطوا أنواع قصورهم ونقاط ضعفهم والشغرات التي يخشون منها على أمنهم الداخلي، وكيف يمكن لتلك الشعور في الوقت المناسب أن تتحول إلى درع قوية - مثل الحلة الفولاذية التي كان فرسان القرون الوسطى يرتدونها في الحرب - تخفي الشخص في داخلها. ومن

الواضح أن كورنر قد آمن بهذه الفكرة إيماناً مطلقاً واستقرت في أعماقه. ولاح لي أن هذه قد أصبحت ألا تكون لشخصيته أي دروع على الإطلاق. وبدأ لي فكراً لو كان في حالة سيئة كاملة دون حماية - أو تحصين - من أي نوع، ومرد علينا بصراحة كيف عالجه ريج من إصابته بتصلب العضلات كانت تسبب له الآلام تقصصت الياف العضلات الضمية. وكان هذا التصلب راجعاً بشكل أساسي إلى المرح الذي يمكن أن يشعر به رجل شليد انحراسية. منذ تبدأ صفة تلميذ تتصلب وتنشج يده حينما يطل المدرس إلى كراسمه من فوق كتفه أثناء الكتابة.

وبعد كل ذلك كان من الصعب أن أفهم كيف حقق كورنر تحولاً إلى نظريته عن الوعي الباطن - رغم أنه هو نفسه قد اعترف بأنه لا يرى أي ترابط بين الفكرتين وفكرته - أساساً - تشلخص في أن الحضارة والعقل المنطقي قد دفعا الإنسان إلى حالة اصطناعية زائفة. وقد نظر إلى قدرة الإنسان على التفكير باعتبارها نوعاً من التسقوط من حالة النعيم المبارك، شكلاً من أشكال الخطيئة الأصلية. وقد أطلق على الوعي اسم "ضوء النهار الصناعي"، وفارنه بالضوء الكهربائي الذي ساعد الإنسان على أن يرى في الظلمة. ولكن الضوء الذي كان من نتيجته أن عزل الإنسان بحدوثه عن الليل الممتد خارج نافذته. قال إن الحيوانات بشكل ما تتطابق مع الطبيعة، أما الإنسان فقد وقع في شرك حجرة وعيه ذات الضوء الكهربائي.

ويظهر هذا بشكل خاص في المجال الجنسي، لأن الجنس ينتمي بشكل أساسي إلى ذلك "الليل" الممتد خارج النوافذ. الحيوانات تنزلق إلى الجنس مثل تمساح ينزلق من ضفة النهر الرميلة إلى المياه (هذه صورة كورنر)، أما الإنسان فلا بد أن يقفز إلى المياه من فوق منصة مرتفعة. إنه يصل إلى هناك لا خلافاً. ولكن إن لم يكن غواصاً ماهراً، فإن تأثير القفزة والعوص للمفاجئ يمكن أن يدمره. قال أنه من الحق أن الجنس يعتمد على الانفصال القائم بين الذكر والأنثى، مثلما يعتمد مولد الكهرباء على التناهر بين قطبي المغناطيس. وتكنا بالغنا في هذا الانفصال حتى أصبح "قفلاً" آخر إضافية وضع على باب السجين. وتكاثر أنواع الإحباط والخيبة، أصبحنا معزولين غرباً عن المجتمع وتحسنا عن الآخر. بالإضافة إلى اعتبارنا عن الطبيعة، وتبدو مظاهر المرض في تزايد نسبة الجريمة، وفي الطبيعة البربرية الغريبة التي تبدو بها بعض الجرائم - وقد أشار هنا إلى بعض الجرائم المذكورة في مكتبي.

الإجابة. أو الحل طبعاً لما يقوله كورنر بسيطة بسيطة جميلة، إن الجنس ينبغي أن يظهر "حتى تصبح العلاقة الجنسية بين البشر طبيعية مثلها هي بين الحيوانات. فإذا ما تمكنا من إزالة الحاجز الجنسي الهائل بين الناس، عادت الرابطة القوية القديمة بين النوعي والنوعي الباطن إلى سابق عهدها، وسوف يستفيد الإنسان من حضارته - التي لن تعود وحشاً مثل وحش فرانكشتاين كما هي الآن - بالإضافة إلى استفادته من بساطة الحيوان الصحيح للتكوين. إن "سفر التكوين" مصيب في قوله أن "الخطيئة جاءت من وعي الإنسان أو شعوره بالخجل الجنسي. يجب أن يختفي "كل" خجل من أي نوع.

عند السير إلى البيت حينما كان كورنر يشرح آراء رايخ، واثنين به السير حتى أنه لمسي أن يصيب لنفسه ما يشربه. وبعد ساعة، انخرجت أن نخرج جميعاً لكي نتناول طعام العشاء، ولكي نمضي في "النافشة" (التي كانت أن تكون محاضرة تقريباً، رغم أنها كانت تلقى بأكثر الأشكال العادية وغير الرسمية سحراً وحادية). طلبنا عصير نبيذ تشابليس الفرنسي مع الطعام، وشرب كورنر كاسين بعد أن أضاف إليهما الماء. ثم سرتنا حول الميدان مدة من الزمن - فقد قال كورنر أنه يحتاج دائماً إلى الحركة الجنسية إذا كان عقله يعمل بصورة جيدة - ثم عدنا إلى الشقة. كانت لدي تحفظات معينة إزاء أفكار كورنر، ولكن كان موسعي أن أرى أن صاحبي الآخرين سوف ينتظرون إليها كشيء من الماحكة، وبنوع أي تردد، وصفت انجبالاً ما كانت تجده من كوابح جنسية في طفولتها، وقال لنا السير وكيف أنه لم يتخلص أبداً من الإحساس بالخجل والعار حينما نظر إليه شخص ما من فوق حاجز الرحاض في المدرسة فضبطه وهو يمارس العادة السرية. رأيت انجبالاً وهي تجلس إزاء هذا الاعتراف، واعتقد أنها لم تتخيل أبداً أن الصبية يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من الحيوية الجنسية، ولشدة دهشتي، مضت انجبالاً لكي تصف ما حدث لنا حينما زرنا أسرة دانكمان لأخر مرة. وظننت في البداية أنها لم تكن تريد إلا أن تعبره بأن أنا دانكمان أصرت على أن تعري نفسها، ولكنه بعد أن احمر وجهها وعمقني بنظرة سريعة، انتقلت إلى الحديث عما حدث في السيارة. وكان هذا هو دور السير في الجفول، إن لم يكن في الظهور بمظهر الصدم. وانتهت بقولها، "كيف يمكنك أن تفسر ذلك؟"

لاح الاهتمام والاستغراق في الموضوع على كورنر، وظل يوميء برأسه ببطء.

"إنهما ماسكران" ماسكران جداً. لقد كان علي أن أطردهما من مجموعتنا لأن أراداه حقاً كان هو أن ينظما جمعية للاحتفالات الجنسية الداعرة. (حينما قالت انجبالاً "هذا هو ما قاله عنك"، أوما برأسه في حركة أكثر وفاراً) أفهمون؟ إنهما لبسا من البس المتحضرين. إنهما ينتميان إلى مرحلة من مراحل تطور المجتمع أكثر بدائية - مرحلة (الحرمان) والتضحية بالبشر كالتقربين، سأروي لكم ما أدرك إلى انفصالنا النهائي. كان علي أن أذهب إلى ألمانيا للقيام ببعض الأعمال القانونية. كنت أعرف أن رايخ كان ينقذ بهم، ولذلك فقد تركت لهما مسؤولية الإشراف على مجموعتنا. وجاءت أنا ذات يوم إلى الاجتماع حاملة رمزاً ضخماً لعضو التناسل الذكري مصنوعاً من الخشب - يمكن أن تطلقوا عليه صفة الشيء الخرافي، وزعمت أن هذا الرمز الخشبي الضخم كانت تستخدمه قبيلة إربيل في احتفالات اقتراع العذارى الأسيرات قبل تقديمهن ضحايا وقربان للالهة. وأنتم تعرفون أن واحداً من أهم مبادئنا هو أن تمريناتنا على خلق الألفة بين البشر تقوم على التوقف قبل الاتصال الجنسي الكامل. وليس هنا لأننا نعتبره شيئاً سيئاً، وإنما لأنه يخفف التوتر بسرعة كبيرة، والتوتر ينبغي أن يتصاعد حتى يمكن أن يستخدم في تحويل اتجاه العقل. (فكرت في الهولنديين واحتفالاتهم مع العذارى القديسات)، ولم يحاول هذان الاثنان - دانكمان وزوجته - أن يعارضا هذه الفكرة بطريقة مباشرة، ولكنهما أصرا على أن تمريناتنا على خلق الألفة ينبغي أن نتصاعد حتى تصل إلى أن يمارس شخص مثل الكاهن الجنس مع إحدى النساء باستخدام رمز خرافي لعضو الذكورة التناسلي، ثم يعلق لبنا داخلاً في لحظة بلوغها ذروة النشوة. وقد استمتعوا جميعاً بهذه العملية بالطبع، وأصبحت الفتيات يصرخن من التهيج حينما تبلغ المرأة ذروة نشوئها. وكان كلاوس دانكمان بالطبع هو "الكاهن" في كل مرة. وكان دائماً يصصر على أن يرتدي ملابس كاملة، فكان يرتدي حلة كاملة فاتمة اللون، ولكنه يخرج عضوه بارزاً من فتحة بنطاله بعد أن يظليه ببعض الألوان الزاهية مثل النعيمان. (وكان رايخ يقول أن دانكمان وزوجته يعانيان من كل أنواع الانتكاس الجنسي التي وصفها فرويد). ونحن الحظ عمت أنا بعد بداية هذه العمليات بوقت قصير. وطالب دانكمان وزوجته بتصويت ديمقراطي بين الأعضاء لتوضيح من يريد الاستمرار في هذا "النمرين". (هنا احمر وجه كورنر، وبرزت عروق جبهته)، قلت لهما أنه لن يكون هناك تصويت. فإن هذا كان منافساً لأفكاري، فإذا لم يوافقا عليها كان بوسعهما أن يلجأا لتكوين مجموعتهما الخاصة. وعرضت أنا أن أستقبل لكي أكون مجموعتي الخاصة في مكان

حبر. ولكن لم يكن هناك من يريد ذلك بالطبع - فقد كنت اكتسبت شخصية الأب بوصفه بالنسبة للمجموعة. ولم يكن هناك من يظن أنها فكرة طيبة سوى دانكمان وروحته. فكان علي أن أطردهما. وبعد ذلك حاول أن يكونا مجموعتهما الخاصة، دون نجاح. بينكنكم ثرون (هنا رفع إصبعه إلى السماء لئلا يملكان أي أسس فكرية. باحتصار لئلا تغفل لهما" ثم أشار بإصبعه نحوي. "وهذا هو سبب لهفتكما إلى اكتساب تاييلتك. فإن الأفكار تستطيع أن تكسب لهما اللذين والأمنصار. إنك يمكن أن تكون عشيقة للسيدة دانكمان..."

قلت: "معاذ الله!"

"ولكنك قد تكون. لئلا تعرف كيف تسبطر على الرجال، مثلما رأيت. حينما كانت عضوي جماعةنا، كانت دائماً ترتدي أجمل الملابس الداخلية، كلما لو كانت فتاة صغيرة مرمجة بالحياة فواراة الرغبات بدلاً من أن تكون امرأة النصف ذات الأربعين عاماً. وأنا أعرف أنها وجدت عشاقاً عديدين..."

سالت أنجيلا: "هل تظن أنها تملك نوعاً من القدرات لغناطيسية إذن؟"

"بالطبع لا. إن ما قلت له الآن ثواباً هو ببساطة برهان على ما كنت أشركه لك. إن الهوية الجنسية التي تفصل بين البشر ليست هوية طبيعية. ولكن حتى أكثر الناس صحة ونفسية ملبثون بأنواع الكبت. إنك فتاة طهرية متمزجة إلى حد ما. وإنني أعلي استعداد للقول بأنك لم يكن لك سوى عشيقي واحدة (أومات براسها) وهكذا هو الأمر. إن هذه المرأة لا تشعلت فقط بصراحة عن الجنس وعن الاحتياج إلى التخلص من كل أنواع الكبت، وإنما هي تظهر بنفسها وتتعري لكي تثبت بجسدها ما تقول وما تعني. وهكذا يخلل التوازن القائم بين عقلك وبين طاقاتك الجنسية. وتنفجر الطاقات مثل الحزم المتفجرة من برصكان. فتظن أن أنت أنها سحرتك، بينما أنت التي تقومين بكل شيء."

ابتسم بسعادة عندما اكتملت فكرته وتلاقت خطوطه بهذا الشكل الواضح. قالت

أنجيلا:

"هذان حدث حينما اتصلت بالهاتفون هذا المساء..."

"لقد حدث التأثير مرة أخرى؟ فقد تذكرت ما حدث في المرة الأولى؟"

فجأة أدرك ما قالت، صالح بها: "هل اتصلت بذلك؟ ماذا؟"

أخبرته أنجيلا بالسبب فلهز رأسه وقال:

"أه، الشيطانان الماركان. هل قلت لك أنه كان قاتلاً؟ لقد كان جديراً بأن يعود في أي بلد باستثناء سويسرا" "السويسريون متسامحون جداً".

حينما دقت الساعة معلنة منتصف الليل، نظر إلى ساعته ثم قفز وفقاً على قدبه مثل أحد رجال سلاح الفرسان يهب لصيحة "انتباه". قال:

"يجب أن أترككم، أن الغد يوم صعب بالنسبة لي".

نظر إلينا متكرراً، ثم قال: "لا بد أن أكون صريحاً معكم. إن مجموعتي تربطها علاقة قوية شديدة الانسجام لأننا عملنا معاً لسنوات عديدة. ولذلك فإن الأعضاء الجدد يبقون طويلاً في مرحلة الأعداد كمرشحين للعضوية. ولكنني أشعر في حالتكم أن الإسراع له ما يبرره. ولقد قررت بالفعل أن أدعو صديقي جبرار لحضور اجتماع جماعة الألفة. فإذا راق لك أنتما الاثنين أن تأتيان معه..."

لو أن هذه الدعوة وصلتتهما منذ ست ساعات فحسب لرفضاهما على التو دون تردد. ولكنهما الآن كانا واقفين تحت تأثيره حتى اتفهما وفقاً مع إبداء كثير من الامتنان التحمس سألته عن الموعد فقال:

"غداً بعد الظهر، لديكم سيارة؟"

أوما السنير براسه

"حسناً. سوف أرسل شخصاً ما للمجيء بكم في منتصف نهار الغد. وسوف تتيبنون السبب الذي يجعلني عاجزاً عن إعطائكم العنوان"

خبط بكعبيه وهو ينحني الحذاء خفيفة، ثم رحل. توفعت أن يسرع السنير وأنجيلا إلى فراشيهما - وكنت مستعداً للنوم. ولكنني نسيت أنهما يصغران في الخامسة عشر عاماً على الأقل، شرعاً في مناقشة ما قاله لهما، وضلاً بطالباني بإبداء رأيي. كنت مرهقاً لدرجة

نسمي من الحديث عن تحفظاتي. ثم سألته انجيلاً عما إذا كان قد صدم بما روتته عما حدث في سيارة الأجرة. أحجم أولاً عن الكلام. ثم برز لمواجهة الحقيقة. قال:

"لم تكن صدمة على وجه التحديد، إنما كانت اقرب إلى الخيرة. اعتقد أنني أفكر فيك كما لو كنت أحد أفراد العائلة".

سألته: "وكيف ستفكر في الخيرة لو أننا اتبعنا جميعاً أفكار أوتو؟" (وكنا جميعاً متنادي باسمنا الأول).

"لا أعرف. الحيوانات أيضاً تعار. اليس كذلك؟"

"ليست هذه حالة واحدة. إنها ليست نفس الخيرة. لقد قال أوتو أننا لا نحاول العودة إلى حالة الحيوان، إنما نحاول أن نمزج بين طبيعيات الحيوان وذكاء الإنسان ونهنته".

كان يوسعي أن أرى كيف يمكن لها أن تكون تلميدة جديرة بالإعجاب، فقد طوعت نفسها ككل الإجابات الطولية على ككل الأسئلة المتوقعة.

قال مسالماً لكي يتجنب المناقشة: "اعتقد أنك على صواب".

"بالطبع أنا على صواب. إنني أحب جيرار (طارقت عيناها من الدهشة) وأنا أحبك أنت أيضاً. وأنت ترووق لجيرار وجيرار يرووق لك. فلماذا لا تعامل أحدهما الآخر كما لو كنا ننتمي لنفس العائلة؟"

شعرت بأن منطقها كان قد بدأ يشوبه نوع من الاضطراب، ولكنني تمسكت بصمتي. وأخيراً، نشأبت وأشعرتهما بأنني أريد أن أنام. كانت الأريكة (التي نتحول إلى سرير للنوم) موجودة في حجرة الجلوس، وعندما أتيت رغبتي في النوم افترحت أنهما يجب أن يتركانني. وأن يذهبا لتابعة المناقشة في حجرته. فتحت الأريكة واعلنتها للنوم، وبدلت ثيابي فارتديت البيجاما، فغرت في النوم بعد دقائق. استيقظت بعد وقت لا أعرف مقداره حينما صفق الباب بخفة، على ضوء التور القادم من النافذة، رأيت جسداً لم أستطع أن أثبت إن كان جسد الستير أم جسد انجيلاً - متجهاً إلى الحمام. ثم خرج الجسد مرة أخرى، فعاد إلى حجرة النوم. عدت فغرت في نومي. أيقظني ضوء الشمس في حوالي الخامسة صباحاً، فتحدث عيني فتملكني شيء من الدهشة حينما رأيت رأس انجيلاً إلى جوارتي على الوسادة. وحينما رجعت

رأسي، تزايدت دهشتي عندما وجدت أن التفسير كان يتنام إلى جانبها من الناحية الأخرى ذهبت إلى الحمام، ثم رجعت في فرائس انجيلاً الحالي. فتمت لمدة أربع ساعات أخرى، إنني أعارض "الألفة"، ولكن لكي "أنام" أفضل أن أكون في سرير مستقل خاص بي.

دق جرس التليفون خمس مرات في ذلك الصباح. ولكننا افترضنا جميعاً أنها إذا افكر فنزكناه يذوق دون رد. وفي المرة السادسة، أجابها السئير. فكانت أنا والكممان بالفعل. قال السئير إنني وانجيلاً بالخارج وأنا سنبقى خارج المنزل طوال النهار، ثم قطع للكافة قبل نشوء ثوب من التعقيدات.

قبل ربع ساعة من منتصف النهار، دق جرس الباب. ولما فتح أحدنا، وجدنا وراء الباب شاباً فوي البنية، رأسه مثل طفلة الرصاص. دعوانه للدخول، فجلس على الأريكة بشي الحجل. رفض شرب الشاي أو القهوة. وقال أنه شرب شايه وقهونه قبل أن يأتي بقليل، سأله عما ينبغي أن نأخذه معنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، هز رأسه بغموض وقال:

"إيه... لا شيء".

كان اسمه مكريس رامزي. وكان بعيداً عن أن يشبه تصوري عن تلامذة سكوير. فكانت تبدو عليه سمة من سمات البراءة تجعله محبباً إلى النفس إلى حد بعيد، ولكن كان من الصعب أن نقول أنه صاحب أفكار أو من نوع الرجال المفكرين. تحدث عن الصارعة والانزلاق على الماء والغفر بالظلمة من الطائرات. ألفنا قليلاً من الملابس في حقيبته واحدة وخرجنا من المنزل مع مكريس. كان يقود سيارة رياضية صغيرة، فافرح أن أركب أنا معه. على أن يتبعنا صديقاي في سيارة انجيلاً من طراز سكورتينا. مضينا بالسيارتين حتى بلغ طريق ادكار رود، ثم عبرناه في مواجهة حانة "بارنيت ومورز". عبرنا ضاحية ويلويس كاردن سبني، ثم استدرنا إلى الطريق الرئيسي. بعد نحو ميل وصلنا إلى حائط طويل من الفرמיד الأحمر، تبعد وراءه بعض الأشجار. استدرنا بين نصيين على ناصيتي طريق جانبي مصنوعين من الإسمنت فدخلنا الطريق الصغير المليء بالحفر الصغيرة. كان المنزل كبيراً إلى درجة واضحة ولكنه كان يحمل علامة تقول إنه من بناء وكالة "ريجيني" للتنشيد وكانت جدران الحليقة المقواة بالنباتات المتسلقة وأحواض الزهور - بشكل عام - في حالة أحسن من حالة المنزل.

كان عصر ذلك اليوم معتدلاً طيب الجو، تقوى في هوائه رائحة الحشائش المقطوعة، وقد سمعت أصوات المياه في مجرى صغير يجري وراء المنزل. أخبرتني كريس بأن المنزل كان مملوفاً لإحدى جماعات جيوردييف، ثم أخذته جماعة كورنر منهم. ولما كان سكان القرية الجاورة قد اعتادوا على الضرائب التي تصدر من تلامذة جيوردييف، فإن قضاة لهم زاء الجماعة الجديدة كان محذوناً. وكان هذا صحيحاً كما تبين بال فعل. وإن كانت هذه الجماعة جديدة بأن تقدم مادة جيدة لتحقيق لأذع في مجلة "نيوز فوف ذي وورلد"، ثم ثبت لي ما كنت أفكر فيه على الفور. فطالما كان كورنر ما زال مختفياً، أو أنه لم يكن قد وصل، فقد رحبت انعمشي حول المنزل، عبر الحشائش البتلة (فقد امطرت السماء مطراً خفيفاً حينما كنا نعب ضاحية ويلومين). بالقرب من الجانب الخلفي للمنزل، وتحت ظلال الأشجار، كان هناك جسدان عاريان يتدحرجان ملتصقين على الحشائش. جلسا، ويتسما ني، ثم استمرا في دحرجتهما. كان أحد الجسدين لفتاة مملنة - وإن كانت جميلة، في نحو ثمانية عشرة من عمرها؟ وكان الجسد الثاني لرجل نحيل مفتول في منتصف العمر. قلت: "معنرة" وأنا أشرع في الابتعاد. صاحبت الفتاة: "تعال وانضم إلينا".

"انضم إليكما في ماذا؟"

"إنها دورة الألفة مع الطبيعة. الحشائش البتلة تعطيك إحساساً لذيذاً".

وضحت لها أنني جئت إلى هذا المكان لأول مرة. سألتني:

"أنت خجول؟"

"كلا". كان سؤالها نوعاً من التحدي.

"إذن تعال".

لأج على الرجل أنه مرحب بانضمامي قدر ترحيب الفتاة، ولو كنت في مكانه لرفضت تفضل طرف ثالث. خلعت كل ملابسني وتم يكن في هذا أي خرج. لأن من عادي أن أسير في منزلي عارياً لمدة من الوقت بعد أن استيقظ من النوم - ثم ذهبت إليهما لكي اجلس بجوارهما، قال الرجل:

"اجلس، جرب ما تفعله".

جلست ثم تمددت على الحشائش وتدحرجت. شاعراً بشيء من الغناء ولكنه طر على صوبتي؟ فقد غمرني إحساس لذيذ من ملامسة الحشائش البتلة للجلد العاري. بعد تدحرجت حتى شعرت بقشعريرة البرد، ذهبت فرففت في الشمس التي سرعان ما جنسي كان الرجل لحظتها يرفد على ظهره. وكانت الفتاة تجلب بينها حزاماً من الحشائش وتدلكت بها جسده، تلاطفه بها. بعد دقائق قليلة من تلك اللطفة، رفدت على ظهرها، وقد باعنت ما بين فخذيها، ففعل معها نفس الشيء. وهو يجذب حزاماً كبيرة من الحشائش ونشف التربة البتلة ما زالت عالقة بجذورها. وظل يدلك نهديها ويطنها برفقة متناهية بها بجذبه. قال لي:

"تعال وساعدي".

فضلت أن اجلس عارياً ركبتي أمام صديري لكي أداري اهتمامي للزيادة بالغناء. كانت ساقاها الفتوحتان بغير استجابات بالهوائية. ولكن بعد أن اختفت هذه الاستجابات بمجهود خاص من جانبي قمت فذهبت إليهما وجذبت قبضة من الحشائش. وكان قد تحرر كما بعد أن جردا البقعة التي كانا يرفدان فيها - حاولت أن أدلكها مثلما كان يفعل الرجل. وسرعان ما تخلت عن هذه العملية وتبعت ما أملتني علي غريزتي، فرفحت أفرد أطراف الحشائش البتلة من جسدها حتى لمست نهديها، ثم هيضت بها أكثر لكي تلاصق النهدين برفقة. نجحت في تجربتي الجديدة. فسرعان ما شهقت شهقة المستمتع، وحركت ردهيها حركة شهوة واضحة. قالت للرجل:

"إن له لسة رائعة".

استخدمت الحشائش بالطريقة التي كان يمكن أن أستخدم بها لساني لو كنت أحاول أن أستمر شهوتيها. وحينما وصلت إلى السرة، زادت من تباعد فخذيهما.

عند هذا، التفت الرجل إلى الناحية الأخرى وقال:

"أظن أنني سأذهب لاسنجم في مجرى الماء".

سار مسرعاً وقد أوتانا ظهره، قلت:

"أخشى ألا يكون على وشك الموت نهضة إلى خطايا الجسد".

فانفجرت في صكر ككرة من الضحكات الطويلة. قطعتها شهقة حينما لمستها بقبضة باردة جديدة من الحشائش. قالت حائلة:

"أتمنى لو كنا في حجرة نوم".

"ألم يكن أظن أن مثل هذه الأشياء مسموح بها لكم".

هذه الأمور ليس مسموحاً بها. ولكننا لا نتمتع جميعاً بسيطرته على أنفسنا

نحسرت على مرفقها وهي تتنهّد. ثم دفنت رأسها بين فخذي. كان دهن فمها من حولي للهدأ، ولكنني كنت متوتراً خشية أن يأتي أحد إلينا. كنا مكشوفين تماماً دون غطاء أو حجاب. والنزل على أحد الجوانب - مكشوفين لأي شخص يمكن أن يحل من أحد النواهد - والرجل الذي يمكن أن يعود من مجرى ناء في أي لحظة. وضمت يدي بين شعرها ثم ابعدتها برفة وفلت لها "هيا بعد. ليس الآن".

قالت: "هنا وعدة".

قلت أجل، فزاجعت إلى الحشائش لترقد من جديد. وسمعت سيارة تتوقف عند الجانب الآخر من النزل. وكان الرجل قد لاح عائداً من المجرى. قلت:

"أظن أن علي أن أذهب لكي أرى الدكتور كورنر".

وبينما كنت أرتدي ملابس دانية، لاحظت أن فقداني للسيطرة على نفسي قد خفف من درجة التوتر الذي شعرت به من قبل. رقدت الفتاة في مكانها تحت الشمس، وقد انغمضت عينها، وبعثت ابتسامة على شففتها النقرتين، ولاح عليها كما لو كانت تبلغ ذروة نشوة بطيئة الاشتعال.

لم يكن الدكتور كورنر هو من وصل بالسيارة، وإنما كان أربعة نسوة يرتدين النظارات. بشبهن مدرسات في مدرسة لتعليم عمال الحقول الإلكترونية، ومعهن رجل نحيف يضع على عينيه نظارة رفيعة، ولكنني وجدت الدكتور كورنر داخل النزل. في الهواء الواسع الخالي الذي بدا لي وكأنه مليء بالتمانييل الصغيرة لهشمة لقائفات البراعم والزهور. والبريات الإغريقية حاملات عنقود العنب. لاح الانشغال على كورنر وهو يلقي توجيهاًته

عن الأماكن التي يجب أن نوضع فيها التمانيل، ولكنه حينما رأيته، جاء إلي وعلى وجهه ابتسامة دافئة، وصافحني بحرارة. ثم رفع يده طالباً الصمت. جاء الآخرون وانتموا حولي. فقدمني إليهم كورنر واصفاً إياي بالؤلف المعروف والفيلسوف. بدا عليهم جميعاً أنهم تنادى بتقديمه لي. وشعرت بالحرج في داخلي يتزايد ويشتد. كانوا ينظرون إلي كما لو كانوا يتوقعون مني أن أرتفع ببطء فوق الأرض لكي أطفئ في الهواء. أخذني كورنر من درتي وقال:

"أحد أعضاء جماعتنا سمسار للعائيات القديمة، وقد أهدانا تلك التمانيل. إن بعض ليس على قيمة فنية كبيرة. ولكننا سوف نخصصها كرموز لشخصيات بعض الأعضاء".

"رموز؟"

"لكي يجعلوها موضوعاً لتأملاتهم" ومن الواضح أنه شعر أن جملة كانت واضحة وضوحاً كافياً لأنه أضاف بقول: "سمح لي بأن أطلعك على بقية المنزل".

كان المنزل كبيراً أشبه بمعسكر مهياً لنزول العشرات، من النوع الذي لا يمكن إلا لليونير أن يجعله مريحاً للساكين. كان كورنر وتلاميذه يحاولون تجهيزه بأنفسهم. وبس يؤكد أن عدداً قليلاً من الحجرات كان مؤثلاً ثانياً مريحاً للغاية، مما يشير إلى أن بعض التلاميذ على الأقل يستطيعون أن يذهبوا ثمن هديا من الأثاث الجيد.

أطلعني كورنر على حجرة نوم تضيئها أشعة الشمس وقال:

"هنا ستنام أنت. إلا - بالطبع - إذا كنت تفضل أن تنضم إلى جماعة خلق الألفة بالطابق الأسفل".

"هل ينامون معاً؟"

"أجل. ولكن مع روح خرة كاملة بالطبع. ليس صعباً عليهم أن يكتبوا جهاج رغباتهم. إنهم يعرفون أنهم يربحون عملاً جيداً لأنهم بهذا العمل".

استمر يتحدث بصريقته التي تشبه أسلوب إلقاء المحاضرات، وهو يلتقط حزمة من الأسلاك الكهربائية كان أحد عمال الكهرباء قد تركها على مقعد تحت النافذة.

"انظر إلي، إن السبب الذي يجعل الجنس مخيباً للآمال بالنسبة لعظم الناس بهذا الشكل، هو أنهم يشبهون سلكا رقيقاً لا يتمكن من حمل أي ثيار. هل ستوافق على أن النشوة الجنسية تشبه تياراً كهربائياً. فإذا كنت صحيح الجسم، ثم سكبت رغباتك لمدة طويلة في التيار، سيصبح ذا شحنة عالية. وهذا هو كل هدفنا - أن نتحول إلى سلك سميك ثقيل، مثل هذا. ونوح تحت انفي بالسلك السميك الثقيل النحاسي. ثم مصى يقول: "إذا استطاع لسلك أن يحمل التيار. فإننا لن نشكو من نقص التيار نفسه. اظنك جيداً بالواقعة على هذا".

قلت أنني أوافق، كنت أعرف أن التنظيم الذاتي الكثيف يزيد من قدرة البرء على بلوغ نشوة والاستمتاع بها. ولكن قبل أن أتمكن من طرح بعض التحفظات، وضع كورنر يده على ذراعي

"والآن، أريد أن أتحدث إليك. سوف تدرك أن لي هدفاً من الإتيان بك إلى هنا، نعال فاجلس". من الواضح أنه كان يشعر بجذبة حديثة. جلسنا في ضوء الشمس على الأريكة تحت النافذة.

قال:

"ليس الأمر ببساطة هو أنني أريدك عضواً في جماعتنا - فهذا واضح دون حاجة إلى سؤالك. إنك مؤهل تماماً لهذه العضوية. إنني أحب أن تكون ثاني في القيادة، خلفي، والرجل الثاني من بعدي في الوقت المناسب".

رفع يده لكي يمنعني من مقاطعته، واستمر يقول:

"ليس عليك أن تتخذ قرارك الآن، بل ولا حتى في الأسبوع التالي أو الشهر التالي. إننا أريدك أن ترى كيف تعمل. انظر إن كان بوسعنا أن نساعدك. أو إذا كان بوسعك أن تساعدنا. سمع إنك تملك ما يكفي من التناسق والتسليم. إن أكثر من حوالي ثلاثين جيلون، ولكنني حتى الآن لا أعرف المميزات التي يحتاج إليها القائد. لقد أراد دنكمان وزوجته أن يكونا قائلين - ولكنهما كانا جديرين - ببساطة - بأن يجولا مجموعتنا إلى بيت للعزاة، حريم خاص لكل منهما. إن عملاً مثل هذا يحتاج إلى تكريس خالص للنفس، يحتاج إلى الروح العلمية. وأنت تملك هذه القدرة وتلك الروح".

أضللت بعض الأصوات اللينة على الاعتذار، ثم قلت أنني بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير واتخاذ القرار. ولكن في أعماقي، كنت أعرف أن هذا ليس من الأمور التي يفكر أناقشها، إنني وحيد متفرد، ليس ببساطة يحكم ميولي، ولكن يحكم طبيعتي. إنني لم أزد اختلط بكل هؤلاء الناس.

ربت على كتفي وقال: "بالطبع، خذ من الوقت ما تشاء. ولكن هناك شيء واحد من الأفضل أن أقوله لك بصراحة. فقد حاولنا حتى الآن أن نحافظ على ابتعاد نشاطاتنا عن الأنظار، لأنها من الممكن أن يساء فهمها، ولكن ربما قد أن أوان الخروج وإظهار أنفسنا بوضوح لكي نكتسب الأنصار، ولكي نعلن أهدافنا على العالم. لأن هدفنا هو أن نثبت أن الحضارة تستقر أبداً حتى يفكر شكل إنسان بالطريقة التي نفكر بها".

كان قد أصبح جاداً كالك الجنية. ولم أكن أنا حالياً من كل تعاطف معه، ولكن رحت فجأة أفكر في الصورة التي رسمتها أنا دنكمان عن الغرباء الذين يتبادلون جلد عمري في السيارة العامة، فوجدت أنه من الضروري أن أظل قليلاً من النافذة حتى أتمكن من السيطرة على تعبير وجهي، وبينما كنا نهبط إلى الطابق الأسفل، قلت:

"أظن أن هذه فكرة عظيمة. لقد امتلأ الستر وتجيلاً بالجماس إلى حد الانفجار في الليلة الماضية. لقد اكتسبت أمس نصيرين متحمسين".

"هنا شيء جيد. ولكننا لن نقتنع حتى أتمكن من أن أقول نفس الشيء عندك".

وحينما انصرفنا من الجماعة الذين كانوا ما يزالون مشغولين بترتيب التماثيل، قبض على ذراعي وقال "مؤقتاً" احتفظ بسرية ما قلته لك بشكل كامل".

□ في الساعة الثانية ظهرًا، أعلن أن الغداء قد أمد. في حجرة الطعام، التي تطل على الحديقة الكبيرة الخضراء، كانت وجبة بسيطة قد وضعت على التوالد الخشبية البسيطة الخشنة - كان هناك صحنان كبيران عميقان مملووان بالحساء، وصحنون صغيرة فيها

تقوم من مكعبات العجين، وكعكك من طحين القمح وكعكك آخر مزود بالسكر. قدمني ككورنر إلى رجل شاب ذا لحية كبيرة اسمه بول، بدا لي أنه مساعده. كان بول يضع نظارت ذات إطار صنع من قرن حيوان، لكننته شمالية واضحة، واسلوب في التعامل بالغ لحيية.

قال،

"لنأ نحاول أن نأكل وجبات خفيفة، ولا أأكل الوجبة مشاكل كثيرة في هضم الطعام، فيفسد النظام ولا يؤدي إلى أية فائدة. أما هذه الوجبة فهي وجبة كبيرة إلى حد بعيد، أما مجموعتنا الأخرى - وهي مجموعة من تعدوا الأربعين - فتأكل أقل من هذا بكثير".

فهمت أن ككورنر يحافظ على الفاصل بين المجموعتين، وأن لكل من المجموعتين موعداً خاصاً لاجتماعها كل اسبوعين. قال بول،

"لأبد أن تكون عمليين في هذا الصدد. نظرياً، ليس هناك بالطبع حد يفرضه السن، ولكن تجربتنا دلت على أن المتقدمين في السن يهتمون بالجنس أكثر من اهتمام الشباب. فإذا سمحنا لما هو أكثر من اللازم منهم بالانضمام إلينا لزمكنا الشباب. إن الكثير من الفتيات الصغيرات لا يبدو عليهن الانزعاج من الرجال الأكبر عمراً، ولكن ليس كثيراً أن يختار الأولاد الأقل عمراً نساء يزيد عمرهن على الأربعين. من الطبيعي أن المجموعتين تستطيعان الاختلاط فيما بينهما، ولكن هذا يحدث في حدود معينة، ويدعوت خاصة".

وكان واضحاً أن هذا يفسر حضور عدد من الرجال والنساء يزيدون على الأربعين، بل على الخمسين.

كان عدد الحاضرين في البهو يبلغ الستين تقريباً، مع أغلبية قليلة من النساء. وبدت لي المجموعة عينة عادلة من الناس. لاحظت أن هناك ما يشبه الزى الشائع بين نساء المجموعة، تغلب عليه الثياب ذات الأكمام الطويلة والنظارات ذات الأطر الثقيلة إلى حد ما، الأمر الذي يعطيهم مظهر الدارسات المجددات. لم يكن هناك مراقبون يقل عمرهم عن العشرين، وكانت الفتاة التي رأيته في الحديقة تبدو واحدة من أصغر الحاضرين. لاحظت أن نسبة كبيرة من الرجال يبدوون ذوي بنية قوية، أو يرتدون صدارات صوفية مغلقة مرتفعة

الأعناق عريضة الصدر لكي تعطي الطباعاً بضخامة حجمه من يرتديها. ولم يكن سوى عدد قليل جداً من الحاضرين هو من يبدو وسيم الطلعة بشكل ملقت. ولكنني لم أر شخصاً واحداً يمكن أن يقال عنه أنه غير جذاب من الوجهة الأولى. وبشكل عام، كان للنساء مظهر النضج وارتفاع المستوى الذهني بشكل يزيد عما يتمتع به الرجال. لقد رأيت عدداً قليلاً جداً - بينها - من الرجال، يمكن أن يقال أنهم من النوع العصبي في النشاط الذهني الزائد، ويسبب ماذا عليهم من سمات تدل على أنهم مجموعة "متوسطة"، مثل عينة عادلة. أحسست بأنهم يريدوا تجاوزاً نتيجة اختيار دقيق بأكثر مما يظهر لمن يراهم للمرة الأولى.

لاحظ عليهم أنهم يعرف أحدهم الآخر معرفة جيدة جداً. كان هناك قدر كبير من الضحك، ومن التجاذب والعاكسات، من المصافحات والقبلات بين المعارف والأصدقاء. مع قيام بعضهم بتقديم صحاف الطعام وأطباق الحساء للآخرين. أحسست بالتأثير القوي لهذا الجو الودي، رغم أنني شعرت بأن من وراء هذا الجو يكمن توتر من نوع ما، ويوشك أن يكرر اعتقاراً إلى التلقائية والتصرف بطريقة مسريحة.

ذهب بول لكي يتحدث إلى شخص ما. قال صوت في مقالي، أهلاً، فوجيت نفسي أمراً نحو العينين البينيتين للفتاة التي قابلتها وسط حشائش الحديقة الخضراء المبتلة. كان لرجلها يخييط بنا معاً، وبينما رفعت وجهها وأدارته نحوي مبتسمة لي، امتلئت بدوها من ورنها وفحصت عضوي فرصة ودية. قالت،

"اسمي تيسا" ثم أشارت إلي لكي أحتي رأسي نحوها، همت،

"لا أريد تناول الغداء، فلنذهب إلى الفراش".

"إنني أشعر بالجوع".

"إلى جانب أنهم قد يلاحظون انصرافنا معاً. إنني أتلقى تدريجياً خاصاً"

عاد بول، ورمى الفتاة بمنظرة مقطوعة تدل على عدم موافقته. أحسست أنه يعتبرونها ذات تأثير مفسد وغير صحي.

أكلت خبزي ولحمة العجين وشربت حسائني، ثم خرجنا من نوافذ الشرفة الفرنسية ومنها إلى الحديقة الكبيرة. كانت مجموعة من النساء تقف على شكل دائرة، وبدأنهم

يؤدون نوعاً ما من التمرينات، وضع كل منهم يده على كتف الشخص الذي يجاوره، ثم تحركوا إلى الأمام حتى تلاصقوا، ثم انحني كل منهم إلى الأمام بحركة واحدة حتى أصبحوا كالمقعدة على هيئة البداية في لعبة "الركبي" ذات الخمسة عشر لاعباً. قال بول:

"هذه جماعة من جماعات الألفة في مرحلة التسخين. إنهم يحاولون التخلص من صغوب الحياة البدنية - يلمس أحدهم الآخر، يقومون ببعض الأشياء معاً يحاولون التخلص من الإحساس بالانفصال والعزلة".

كان رجل شاب يرتدي صداراً ذا عنق مرتفع باقي بالتعليمات للجماعة، ويتحرك من حين إلى آخر وسطهم ويصفع بعضهم برقة على الكتفين أو على الظهر. وبينما كنت واقفاً في مكاني، اتجه إلى امرأة في نحو الأربعين، وفعل شيئاً ما يتهديها - من الواضح أنه كان يبدل من وضع مشد صدرها من فوق صدارها الصوفي - وانتهى بأن صفع رقبها صفقة حادة كما لو كانت بقرة تقاد إلى الحقل. قال بول:

"هائنت تريك، إنهم يحيون أن تلقى عليهم الأوامر. إنها تساعدكم على التخلص من الإحساس بالمسؤولية - مرض الحضارة العصائي. والغرض هو جعلهم يشعرون مثل شعور الأطفال الأبرياء مرة أخرى".

لاحظت أن كل البشر في هذه الجماعة من "جماعات الألفة" كانوا يرتدون ملابس ثقيلة إلى حد ما، بالنسبة لحرارة الجو. وفسر لي بول ذلك بأنه جزء من عملية التدريب، فبينما يشجعون في التخلص من إحساسهم بالظفر، يمكنهم أن يرتدوا ملابس أخف نقلاً. وقال في النهاية، "سوف ترى ما أعنيه يعنيك في المساء".

ذكرت له الفكرة الأساسية التي ساورتني وهو أنه طالما باقى الجنس للبشر بشكل طبيعي إلى هذا الحد، فإن كل الأهداف الشديدة التعقل لجماعة مثل هذه - لابد أن تتجه نحو تبادل الاستنارة الجنسية في النهاية، ورغم أن الجميع، أو ما برأسه موقفاً، وقال:

"في مجموعة بهذا الحجم، لابد أن يحدث هذا في حدود معينة بالطبع.. ونحن نحاول أن نتخذ الاحتياطات اللازمة. ولكنك سوف تدهش إذا عرفت مقدار قلة حدوثها. ليست هنا محرمات، ولا صكوبات، أو موضوعات للكبت، وهذا يؤدي إلى فرق كبير".

عندما قد دخلنا المنزل، سألته عما كان يعنيه بكلمة "احتياطات" فقال: "سوف اطلعك عليها".

صعدنا إلى حجرة في الطابق الأول. كنت قد عرفت أنها حجرة نوم جماعية للنساء، دخلها بول دون أن يطرئ الباب. كان هناك ست من النساء يرتدن على الأسرة، أو جالست بعدن ترتيب زينتهن، وكانت إحدهن جالسة بسروراتها الداخلي ومشد صدرها وهي تخط جوربها. ابتسمت لنا، ولم يبد عليهن الاهتمام. اتجه بول إلى سرير فوقه حقيبة مفتوحة فقلب محتوياتها على السرير. نشر المحتويات وبعثرها على سطح الفراش - ثوب قصير رمادي من الصوف، مشدات، زوج من الملابس الداخلية، بعض أدوات التجميل - ثم القى نظرة على حقيبة غسيل فرمزية اللون. لم يبد على إحدهن أنها نظرت نحوه أو انتبهت إلى ما يفعله قال:

"إنني أبحث عن مواقع للحمل. إنها أفضل طريقة لتأكيد أن شخصاً ما ينوي أن يكسر القواعد المتبعة".

التقط حقيبة لراة التي كانت ما تزال ترتدي ملابسها. قالت:

"أوه، بحق السماء لا تبعر كل شيء. دعني اطلعك على ما فيها".

أخرجت الثياب من الحقيبة قطعة وراء أخرى، وفردت كل قطعة وتفتشتها. أشار بول إلى سروال طويل فرنسي وردي اللون وقال:

"لبس هذا جميلاً جداً".

"أعرف هذا. ولكنني غادرت المنزل في عجلة والفتيت في الحقيبة بأول شيء رأيته أمامي".

وفي خارج الغرفة قال موضحاً:

"لدينا نقاط تفتيش كل عطلة من عطلات نهاية الأسبوع، لكي نرى إن كانوا قد جاءوا معهم بمواقع الحمل أم لا. وبالطبع، ليست لدينا وسيلة نعرف بها إن كانت النساء قد تناولن "قرصاً" قبل مجيئهن أم لا".

"لا يفسد هذا من تأثيره بشكل ما؟"

"أوه، لا. إن أوتو يتحدث إليهم ضد "أفراص منع الحمل" على أي حال، لأسباب

صحية".

"وماذا عن الرجال؟"

"النساء تفتشهم، من المسموح لكل واحد أن يقتش أي شخص آخر. إننا نحاول أن نكون

نبرة واحدة".

"لماذا تعرضت على السروال الوردي لثلاث الفئات؟"

"فتحات الساقين واسعة. ليست هناك قاعدة بشأنه بالطبع، ولكن إذا كان في نية

ناس أن يمارسوا الجنس، فإن هذا النوع من السراويل هو النوع المثالي - فإذا اضيئت الأنوار فجأة، بنت الفتاة في كامل ملابسها".

"إذن فإن من المفترض أن تظل النساء مرتديات سراويلهن الداخلية؟" هكذا سألت وأنا

أفكر في نيسا وهي رائدة على حشائش الحديقة الخضراء البتلة.

لأح أنه قد صدم تقريباً، صاح، "أوه، لا. إن هذا جدير بأن يبعدك تماماً عن الهدف الأساسي لمجموعتنا - الألفة. ولكن إذا شرعنا في تلقي اللاطفات من أحد الرجال، فإن عليهن أن ينزلن سراويلهن، على الأقل حتى الأخاذ" واستمر يتحدث بإخلاص شديد، "لا يبدو عليك أنك تفهم. إننا لا نحاول أن نجند الناس أو أن ننظمهم في كتائب صارمة النظام كالجنود. ولكنك تعرفت بنفسك أنه كلما زادت العقبات كلما زاد ما تثيره من اهتمام. ولهذا فإننا نحاول أن "نصف" لنساء مجموعتنا أن يرتدين السراويل الحريرية ذات فتحات الشيطان الضيقة المحكمة إلى حد كبير، وبذلك فإذا حدث أن رغبت الفتاة في ممارسة الجنس فإن عليها أن تخلعه تماماً. إننا لا نحب السراويل المصنوعة من النايلون أو السراويل الفرنسية الواسعة لأنها يمكن أن تجذب جانباً بسهولة كبيرة. وبعض هذه الأشياء لا تشكل أية حماية على الإطلاق.

سمع صوت جرس نحاسي صادر من البهو، سألته، "ماذا يحدث الآن؟"

سجبت محاضرات حتى الساعة الخامسة، وأنا نفسي ينبغي أن ألقى محاضرة. ولذلك سيكون علي أن أتركك. إن حضور المحاضرات إجباري بالناسية. وأي شخص "يزوغ" من المحاضرات لا يكون جاداً حقاً. ونحن لا نقول ذلك للقادمين الجدد، لأن هذا يساعد على التخلص ممن يأتون لمواقع لا تتفق مع أهدافنا".

نصحتني بأن أتجول بين فاعات المحاضرات المختلفة، وأن ألقى الأسئلة إذا رغبت في هذا

عملت بنصيحته. انقسم "الطلبة" إلى أربعة مجموعات. تحدث كورنر إلى المجموعة الأولى، ويول إلى المجموعة الثانية، وكريس إلى مجموعة ثالثة، وتحدثت للمجموعة الرابعة امرأة جذابة، وإن كانت تبدو عليها مسحة طفيفة تجعلها أشبه بمدرسات المدارس الثانوية. تدعى جوينيث. كنت سعيداً بأن أرى الستير وأنيجلا يجلسان بلهفة في الصف الأول من مجموعة كورنر، التي كانت تجلس في الحديقة. جلست في الصف الأخير من تلك المجموعة لمدة عشرين دقيقة أو نحوها، وسمعتهم يشرح الأسباب التي تجعله مدياً. قال،

"يعتقد الناس أن أشياء مثل الحياة والفكر والأفكار يمكن أن توجد "بمعزل عن" المادة، بمعنى من المعاني". وكانت حججه ضد هذا الرأي كاسحة، ومقنعة تماماً بالنسبة لي. ولكنها لم تبلغ هدفها، بقدر ما يتعلق الأمر بما أهتم أنا به. إنني أوافق على أنه لا يمكن أن تفضل العقول والعمليات العقلية عن المادة. ولكنني ما زلت أعتقد أن الحياة - بشكل ما - قد دخلت للمادة من "خارجها"، وليست أيضاً منبثقة عن المادة، مثلما تنبثق النار عن الفحم.

أحسست بأن كورنر لن يرحب بتوجيه أية أسئلة، ولذلك فقد انتقلت إلى المجموعة التالية، التي كانت تحاضرها السيدة الدعوى جوينيث. كانت تقدم ملخصاً متحمساً - وإن كنت قد رأيتها مشوشاً - لأفكار رايخ. ولاح لي حينئذ عن "السائل الحيوي" الذي يراكم بين الضلوع لحظة الاستثارة الجنسية، لأح لي قريباً إلى درجة خطيرة من الطلاقة العصبية التي قال بها رايخ، تساءلت في داخلي عما يمكن أن يحسن به كورنر إزاء هذا. حاولت جوينيث نشاط أن تجرني إلى المناقشة، التي سرعان ما دبت فيها الحياة. بنت لي مجموعتها مقبلة الضحك والفهم. وأكثر استقلالاً عقلياً مما توقعته - فقد رفضوا الاتفاق معها حول عدد كبير من النقاط. بذلت بعض المحاولات لشرح نظرياتي الخاصة عن أصل الدافع الجنسي. نظرتني حول الاستجابة الرمزية، ولكن كان بوسعي أن أرى كيف نظروا إلى هذه الأفكار استغراب كامل، وأنها - كما قالت إحدى السيدات، "مجردة بشكل لا ضرورة له". أصبحت

لناقشة ساخنة حتى لقد ذهبنا جميعاً حينما زحف أعضاء المجموعات الأخرى إلينا في الحديقة وقالوا ان وقت الشاي قد آت.

ولكننا في الحقيقة لم نشرب شاياً - وهو الذي يمزجه كورنر - وإنما شراب السانكا، وهي قهوة متفاد من الكافيين. اكلنا أيضاً مجنات مسكرة ذهنت بطريقة خفيفة من الزيد. تحدثت علي جوينيث وقالت لي انها التلعت بافكاراي. وراقت لي هي جداً. وكانت في نحو أربعين من عمرها. ذات مزاج دعوي جار. وأسان كبيرة بيضاء أضفت على ابتسامتها لطفاً وجاذبية. وكانت تعيل إلى البالغة في صورة المدرسة المجسدة التي لاحظت لي انها الصورة التي يستعها "قيادة" المجموعة لتسانها، يتوبها الأسود الطويل الأكمام، وعقدتها ذي الوريقات الذهبية والصليب في وسطها. أدركت انها عضو في المجلس البلدي الذي يتبعه مسكنها، وانها تنقل وظيفة حسنة في مكتب للعلاقات العامة. وكانت تتعن بطريقة حماسية مشوشة قليلاً في مناقشة الأفكار ذات الجاذبية الخاصة أو السحر بالنسبة لها. ولكنني لم استطع ان تخيل كيفية تضامنها إلى مجموعة كورنر.

بعد شرب الشاي ذهبنا إلى جميعاً إلى الحجرة الرئيسية. ثم يكن فيها سوى اثاث قليل، لكنها كانت مزودة بأبسطة جيدة، بدت كما لو كانت قد شكلت المجموعة ثمناً يساوي ثمن شكل الاثاث الموجود في المنزل. (قالت جوينيث ان هذه الأبسطة كانت "هبات" قدمها الاعضاء الأكبر سناً. وقد انتابني شكوك حول ان بعض الاعضاء الكبار السن قد اشروا عضويتهم في المجموعة بالهدايا الغالية التي تريد كثيراً - وبالإضافة - إلى الرسوم المقررة).

ورغم ان المرد كان يتزايد بالخارج، فإن هذه الغرفة كانت داكنة بسبب مبهاة الخشب الذي كان يحترق في نارها الكبيرة.

انقسم الناس في الحجرة إلى جماعات ألفة صغيرة، ورحلت اثقل من مجموعة إلى أخرى، مراقباً نشاطاتهم باهتمام. وسرعان ما اتضح لي ان القسم الأول من النهار لم يكن سوى مقدمة مبدئية مثل افتتاحية الأوبرا الموسيقية. أما هذا القسم الآخر فكان هو القسم الحدي والهام. تشابكوا في حلقات ضيقة، متلاصقين بشدة ادهم إلى الآخر، ويرى كل منهم بيديه على أجساد الآخرين، ياديين من الكاحلين، متجهين إلى الرؤوس. انقسمت جماعات كثيرة إلى أزواج. وكررروا عمليات الضغط والتدليك. لم تكن هناك تصرفات جنسية بشكل خاص في هذه العملية، ولا حظت ان أيدي لا تلبث إلا قليلاً عند المناطق

الحساسة، ولكنها بدت أكثر اهتماماً بالرؤوس والأذرع. جنبتني فتاة نحيلة طويلة إلى داخل إحدى المجموعات حينما سكنت وفقاً أرائها، وبدلت ترتبت علي، ضاغطة بكلتا يديها عن بطني أو صدري ثم تباعد بينهما وتضغط بقوة أكثر. بعد ذلك فعلت معها نفس الشيء، وبأوقف ورائها. ضغطاً بيدي الاثنتين بقوة على بطنها، ثم مدلكاً جسدها حتى أصل الردين تكررت هذه العملية على نهديها وعلى الفخذين. ثم - طبعاً لتعليقاتها - بدلت أرتبت عن ظاهرها السابقين، بدلت من الخصر، جازياً بيدي فوق ثوبها، هابطاً إلى القدمين. لاحظت لي كانت شرتدي حزاماً لرفع الجوربين مع الجورب نفسه. وبعد ذلك بدلت تلاطف صديق وذراعي ورأسي. جارية بأصابعها في شعري، وعلى صدغي، فاتحة فمي لكي تدس طرف أصبعها داخله، ثم تدس أصبعها الصغير (بنصرها) في أذني. وكانت ما تفعله هو ملاطفتي كما لو كنا عاشقين، ولكن لما كنا قد بقينا بكامل ملابسنا، فقد كان للعملية خاصية غريبة من الاستثارة، وفكرة غريبة على ابراز ما هو محرم وممنوع. ولو اننا كنا مغربين وقد خلعنا بعض ملابسنا، لانتتهت العملية بالجماع في خلال دقائق. ولكن هذا التبدل الطويل الذي في حجرة مشاركت فيها أكثر من خمسين شخصاً، أدت إلى خلق مجموعة جديدة من الاستجابات، محطة شكل العادات القديمة.

لاحظت ان بعض الأزواج الآخرين قد جاؤوا بأوان ملينة بالماء وراحوا يتبادلون غسل الوجوه والشعر. قاموا بذلك بالقرب من نوافذ الشرفة المفتوحة. حيث لم تكن هناك أبسطة كثيراً ما اخترق الأزواج وتبادلوا الشكر كاء. وبعد عشر دقائق من ملاطفة الفتاة النحيلة الطويلة، حصلت على امرأة ثقيلة البنية متوسطة العمر. شعرت في البداية ان التغيير ثم يكر مفيداً. ولكن بعد خمس دقائق من اللاتقة لاحظت اننا حققنا الألفة المطلوبة، ووصلنا إلى ان يعرف أحدهما الآخر وأن يروق أحدهما للآخر. بعد ذلك حصلت على تيسا التي ابتسمت وهمت لي بطريقة فيها قدر من التفكه، "أخشى ان لايد أن يكون هذا ذروة مضادة، هوذا مقابلة للذروة "antielimax". كانت على صوب إلى درجة ما. لم يخف بنطالي عنها أي سر. كما لم يخف ثوبها عني أي سر. ولكن الإحساس بنعومتها تحت الثوب كان مثيراً اختلقت شيئاً كالفتكاهة من هذا الموقف. فتمست يدها تحت صدري الصوفي وفحصت نعلي بقوة. وحينما دلكتها ودفعت ثوبها بين فخذيهما قالت، "أرجو ألا يفحصني الآن أحد إنني مبتلة". سألته

"هذا من المحرمات؟"

"بالطبع. ولكن ماذا يمكنني ان افعل؟ إذا لمسني الناس مجرد لسة هنا، بلغت ذروة شغوني على الفور. لقد بلغتها مرتين الآن".

بعد بضع دقائق قالت: "انني جائعة إلى درجة لعينة. عندي كثير من الشوكولاته في جبرتي، إذا كنت تريد بعضها".

"هذا مسعوج به؟"

"ليس بشكل حقيقي. ولكن كل هذه الألفة تثير نهمي إلى الطعام".

في الساعة السابعة والنصف ارتفع صوت الجرس النحاسي فقالت نيسا:

"الحمد لله على ذلك".

اتجهتا جميعاً في حركة واحدة كالتيار إلى حجرة الطعام. كنت بحاجة إلى طعام، وكانت شكل هذه الاستنارة تجعلني أشعر كما لو كنت قد سرت عشرين ميلاً. كان لعشاء أقل قليلاً في شحمه من الوجبة السابقة: صحاف ضخمة من لحم البقر والخنزير البارد، وصحاف عميقة صغيرة من حساء الطماطم، وخضراوات ساخنة. ولدهشتي لاحظت أنه كان ثمة مشرب للخمور أيضاً. وقالت لي جرينويث - التي تولت أمر رغائتي - بأن في وسعي ان أحصل على بيرة أو على نبيذ. قالت أنه ليست هناك مشروبات ثقيلة قوية، ولكن قليلاً من الكحول يساعد أكثر الناس على الاسترخاء والاستمتاع بوجبتهم. لاحظت باهتمام أن "الألفة" استمرت في فاعة الطعام. فقد انتهز الرجال والنساء للتمازجة الفرصة لكي يلاطف أحدهم الآخر، بل وأن يتبادلوا القبلات. كان هناك قدر معين من القبلات في المرحلة السابقة، وأغلبها كان على الأثرع والأعناق. أما الآن فقد رأيت أنهم يحيون بعضهم البعض غالباً بالتقبيل على الفم. ورغم أن الألسنة لمعت دوراً في بعض هذه القبلات، فإن أحداً لا يستطيع ان يصفها بالشهوانية، بمعنى دلالتها على الرغبة في الذهاب إلى الفراش.

"أكلت بشكل جيد، وأنعشتني كأس من البيرة لعشاء كبيراً. وبعد تناول الطعام، شغقت طريقي إلى الرخاض، ولكنه كان مشغولاً. فشغقت طريقي إلى الطابق العلوي إلى مكان تذكرت أنني رأيته - وهو مكان ملحق بشفرة النوم تذكرت أنني رأيت على بابيه

قبيعة رجل وحقيقية يد نسائية. مع سهم تحتها يشير إلى نهاية الدهليز سرت في الاتجاه لنار البه. فوصلت إلى مرخاض من الواضح أنه كان قيد بنى حديقاً. مع عند من الأبواب للأماكن الخاصة مثل مرخاض عمومي. ولكن لم تكن هناك إشارة على الباب تدل ما كان كان المرخاض للرجال أم للنسيدات. وبينما كنت واقفاً هناك، سمعت صوت خطوات تتر من آخر الدهليز. وتنفست الصعداء حينما رأيت أن نيسا كانت هي القادمة.

"أنا مسرور لرؤيتك. أيهما للرجال؟"

أوه، أيهما أرئت، فليس لدينا اثنان. إنها الألفة، أترى؟ هل ستأتي؟"

"أعتقد هذا".

يجب علي أن أعترف بأنني أحسست بالخجل. ولكن كان يوسعي ان أرى عدم منصفية هذا الإحساس. ذهبت إلى المحل الأخير بين المحلات الصغيرة المتجاورة، ولشدة دهشتي اكتشفت أن الجدار الذي كان يفصله عن المحل المجاور كان مصنوعاً من الزجاج. ذهبت نيسا إلى المحل المجاور وبشمت لي. ثم - ودون أي إحساس بنفسها - جذبت ثوبها إلى أعلى. ثم جذبت سروالها الدخلي إلى ركبتها، وجلست.

قلت:

"يا الهي الرحيم. هل أكثر مما ينبغي. أليس كذلك؟"

"ظننت هذا حينما جئت لأول مرة. ولكنك سرعان ما تعود عليها".

"ولكنني لا أحب أن أتخفف من هوائي الفاسد حيث يمكن ان يسمعي أحد".

"نادا نهتم بذلك؟ الدكتور كورنر يقول أنه صوت طبيعي من أصوات الجسم. مثل صوتك وأنت تتكلم".

شعرت بالبلاهة وأنا واقف في مكاني، فانزلت بنطالي وجلست. ثم أشعر من قبل أبدأ بعدم الراحة التي شعرت بها في تلك اللحظة. ثم سمعت صوت مزيد من الأصوات بالخارج، ثم دخلت امرأتان أخريان. اتجهتا إلى المكانين في الطرف الآخر، وكشفتا عن مؤخرتيهما وجلستا - وكان الزجاج نظيفاً بصورة غير عادية. لم تلتفتا إلينا أقل التفاتة، وإنما استمرت في

نظر إلي وابتسم.

قال، "ظن أن بوسعي أن أخبرك ببعض الأشياء الهامة، ولكن يمكننا أن نتناقش ذلك فيما بعد. فإن لدينا الآن أشياء أخرى يجب أن نقوم بها".

تبعته، بشيء من الإجهاد، على السلم. استدرنا إلى اليمين، وظننت أننا ذاهبان إلى مهجع الفتيات المخصص لنومهن. ولكنه فتح باباً علياً لباب حجرة النوم، ودخل، تبعته. كانت الحجرة صغيرة المرتفعة. كان لأحد الجدران نافذة واسعة. ولدهشتي، رأيت جوينيث خلفها، تعيد ترتيب شعرها وتحديق نحونا.

"هذه مرآة عاكسة ذات اتجاهين، بالطبع".

كانت هذه أول مرآة من نوعها أراها في حياتي، سألتها،

"أنت واثق من أنها لا تستطيع أن ترائنا؟"

"ليس إلا إذا فعلت هذا" مد يده وأدار ذراعاً صغيراً. وعلى الفور، أصبحت النافذة مرآة. كان بوسعي أن أرى وجهي على سطحها. قال،

"تستطيع هي الآن أن ترائنا. لقد قليت أشجاء الانعكاس في المرآة".

أدار الذراع مرة أخرى، فابتسمت جوينيث لنا، ولوحت بيدها عبر النافذة. لوحت رداً عليها، ناسياً أنها لم تعد تستطيع أن ترائنا.

"ما الغرض منها؟"

"للملاحظة. سوف ترى أن النساء يبدلن ملابسهن الآن".

كان هذا صحيحاً، ففي المهجع المزدحم، كانت النساء يخلعن ثيابهن، وهمصانهن الداخليه، والأحزمة الزاهية الجوارب. أما جوينيث، فإنها دون وعي بما تفعله قد ملت يدها إلى ظهرها وفكت زرّاً في ثوبها، ثم جذبت الزمام. خلعت الثوب بعناية ثم فرتته على الفرائش. كانت ترتدي قميصاً داخلياً أسود اللون ذا حافة حريرية مشقولة بنيت مغرية جداً وجذابة. بدا عليها أنها نسيئنا. خلعت حمالة القميص عن كتفها، ثم تركته يسقط حول قدميها. من الواضح أنها لم تكن تفضل اللون الأسود وحدها للابسها الداخليه. كانت ترتدي حمالة صدر

بيضاء، وجزأماً أسود اللون يرفع الجوربين وسروالاً داخلياً أبيض من الثابتون الناعم مر الواضح أنها كانت مستنناة من القاعة التي توجب على النساء ارتداء سروايل داخلية لا يمكن أن تمط إلى درجة كبيرة. أما أكثر النساء اللواتي كان بوسعي رؤيتهن فقد التزمين هذه القاعدة. لم تكن إحدهن ترتدي السروايل الصغيرة الحجم. كانت أكثريتهن يرتدين تلك الأشياء الوردية أو الزرقاء التي تغطي ككل المعدة، والزودة يشريط مطاطي عند الوسط، وفيه أن تجريتي الخاصة مع ذلك النوع أثبتت لي أن المطاط عند فتحة الساق يمكن أن يخضع للتمدد بدرجة كبيرة، فإذا ما جلب إلى أسفل بوصة واحدة أو اثنتين، لم يعد يمثل أي مشكلة

انضم إلينا عدد آخر قليل من الرجال بينما نحن والفتان أمام المرآة. ورأيت أنهن حينئذ كن يرتدين الآن ثنائير قصيرة جداً رمادية من الصوف من النوع الذي كنت قد لاحظت وجوده في كل الحمامات التي فحصتها بول أمامي. وكان الرجال الذين جاءوا للوقوف معاً قد أصبحوا يرتدون الآن زياً مماثلاً يتكون من بنطال رمادي من الصوف وشميصاً رياضياً أسير اللون. ذهبنا نحو عنبر نوم الرجال في الطابق التالي. حصلت على إجابة السؤال الذي كنت على وشك أن أطرحه حينما فتح باب مجاور لباب العنبر فראيت عدة نساء واقفات هناك ومن الواضح أنهن كن يرتدين الرجال أثناء خلعهن لملابسهم من خلال مرآة أخرى ذات اتجاهين نادى كورنر بجدة.

"هيا يا سيدات. لا هرجة أكثر من هذا. لقد آن وقت تغيير الملابس".

أسرعن كلهن إلى الخروج، ولاحظت أن تيساً كانت بينهن. وبينما كنا ندخل العنبر، رأيت أنها تسلمت عائدة إلى حجرة المراقبة.

قال كورنر، "تعال. لقد آن وقت استبدال ملابسنا".

في عنبر نوم الرجال، بدا أكثر الرجال عراة تقريباً، وكان الشخص الوحيد الواقف بالقرب من المرآة عارياً تماماً بالفعل. سألت كورنر،

"ما الهدف من هذه المراقبة بالتحديد؟"

"أكثر الناس يشعرون بصفتهم الرغبة في الاستعراض، حتى أكثرهم شابات ورجالاً وأكثر الناس كذلك يحملون صفات "توم اليصاص". وهذا يمكنهم إشباع هذه الرغبات دون

بحساس بالإنهم. لا تكاد تكون هناك أية رغبة جنسية لأبد من إخفائها هنا في هذا المكان. إننا نحاول أن ندفعها جميعاً إلى السطح المكشوف، أن نجعلها صريحة مباشرة وتحت الأنظار بنطانية. والآن، أظن أن هذا البنطال الذي ترتديه سيكون مناسباً، إنك لا تحتاج إلا إلى لمبص.

استدعى بول، الذي كان يرتدي ملابس مكاملة لكي يعثر لي على لمبص. وبعد بضع دقائق، عاد بول حاملاً قميصاً رياضياً دون "ياقة" من القطن. لاحظت أنه كان طويلاً بشكل غير عادي، فأدخلته في فتحة بنطالي. لاحظت أن أكثر الرجال كانوا يرتدون سروال داخلية - من النوع الصغير الذي تجد إعلاناته في مجلات الصحة والقوة، وكانوا يرتدون أحذية "التنس" البيضاء. كان الكثيرون منهم يستحمون في الحمام المجاور. صفق كورنر بيديه وصاح قائلاً،

"هيا يا سادة، إن وقت ارتداء الملابس. ليست هناك سيدات في الحجرة المجاورة الآن."

تذكرت - مجفلاً - أن تيسا كانت هناك، وأنني كنت أدخل ملابسني على بعد اقدام قليلة من المرأة. تمنيت أن تكون قد استمتعت بالنظر. أو ربما كانت تراقب الرجال الآخرين.

في الحجرة الرئيسية، كانت شاشة ضخمة قد وضعت أمام اللهاة، التي كانت منخفضة الارتفاع. رأيت أنجيلاً وقد بدت حلوة جداً في تنورتها القصيرة الرمادية. لاحظت أنها كانت ترتدي جورباً مثل نساء أخريات كثيرات. وكان من الواضح أن ارتداء لجوارب إجباري. اهزيت مني وامسكت يدي. قلت،

"بم تشعرين؟"

"إنني بحالة طيبة. ولكنه أمر يؤدي قليلاً إلى الصدمة إذ تفقد الكثير من الكوابيت في عطلة نهاية أسبوع واحدة، ولكنها تجربة رائعة. لا أستطيع أن أقول لك كم أنا ممتنة لمقابلتك كورنر."

"تري، ماذا سيحدث الآن؟"

"ألا تعرفين مزيد من الألفة. كانت الفتاة التي تنام على السرير المجاور لي تصنع الآن. هذه اللحظة الكري. أرجو أن أحصل عليك. لا أستطيع أن أحتفل واحداً من الرجال الآخرين. فانا أكره التذكور ذوي الشعر الكثيف."

"ولكن ماذا؟"

قبل أن أتمكن من إكمال سؤالي، صاح صكريس قائلاً،

"هل نحن هنا جميعاً؟"

قالت أصوات عديدة، "أجل".

"حسناً، تكونوا الدائرة. بول، هل لك أن تطفى النور بالتدريج؟"

تساءلت عن الماهية الحقيقية في إطفاء بول للنور وبالتدريج. وبينما كنا نتحرك لكي نشكل الدائرة، والأيدي فوق الأحكام، أخذت الأصوات تخفت تدريجياً. رتب الرجال أنفسهم في سرعة لكي يصبح كل رجل تالياً لامرأة، ولكن لما كان عدد النساء يزيد قليلاً عن عدد الرجال، فقد كان من اللازم أن تصاحب بعض النسوة نساء أخريات. ثم أطبق ظلام كامل سالت أنجيلاً،

"ماذا نفعل الآن؟"

ولكن صوتاً غريباً أجابها،

"إننا نتحرك الآن جميعاً نحو المركز، نختلط ببعضنا، ثم نختار أول من نصادفه من الجنس الآخر."

ملأنا نتحرك إلى الأمام، حلت لحظات قليلة من الفوضى. عجبت كيف اميز الرجال من النساء، وانتهيت إلى أن لمس الصدر هو الوسيلة المناسبة لذلك. (واكتشفت فيما بعد أن هذه كانت هي الوسيلة المعتادة). عثرت على فتاة فامسكت بيها بقوة. صاح صوت بول،

"الكل مستعد؟"

تعاليت صيحات متضاربة، "أجل، لا".

ولكن الأضواء راحت تسطع بالتدريج. اكتشفت أنني كنت أمسك يد فتاة ضئيلة الحجم. شعراء الشعر كنت قد لاحظتها من قبل. لم تكن جميلة جداً، ولاحت لي عيناها مصابتين بقصر النظر، ولكن وجهها كان جذاباً ساحراً مقعماً بالحيوية. سألتها،

"ثم ماذا الآن؟"

"يمكننا إما أن نشرك مع الأزواج الآخرين، أو أن نبقى منفردين. أيهما تفضل؟"

"فلنبقى منفردين الآن."

"وهو كذلك".

نظرت إلى جاراتي اللامعة لي - الفتاة النحيلة الطويلة التي كانت معها في لحظة سابقة من النهار - فجعلت حينما رايت أنها كان توشك أن تخطو لكي تتخلص من سروالها الداخلي الذي كان ساقطاً عند قدميها. وكان الرجل الذي يقابلها يفعل نفس الشيء، وهو رجل وسيم إلى درجة ملحوظة، عصبي. يكاد يبلغ منتصف عقده الرابع، بهنقا احمر وجهه. ناولته سروالها وأخفت سرواله، وأخذت كل منهما يرتدي سروال الآخر وهما متواجهان.

"ما الفرض من كل هذا؟"

"هذه هي بداية الألفة. يمكننا أن نتبادل الملابس دون تفكير بأي حدود. وهذا هو القسم الذي رسم من أجل النوعين جنسياً بأشياء معينة، فيما أظن. هل تعني السراويل الداخلية شيئاً بالنسبة لك؟"

"إن لها دلالة جنسية محددة".

"في هذه الحالة، يحسن أن نتبادل سروالينا".

ودون أن يبدو عليها أي حرج، خلعت بسرعة سروالاً وردياً من النوع الطويل، ثم ناولته لي. استغرقت أنا وقتاً أطول في خلع بنطالي ثم في خلع سروالي الداخلي.

قالت، "وماذا عن قميصك؟"

"إننا رقيق لك ذلك".

كان ملتقى ساقبي سروالها مبتلاً، وولد احتكاكاً بما بين فخذي ومضة من شهيق الجنسي قضت على آخر آثار التعب. ومن الواضح أن مثل هذا الاحتكاك إنما هو أساساً احتكاك بين الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية يتم بحركة واحدة، وبدأت أرتد عناء كورنر بتعبير "النشوة الجنسية العلقة". كان ما فعله هو أن ملأ حجراً بالرجل والنساء، وجعلهم يعيّنون لحظة احتكاك جنسي - فعلي أو رمزي - أحدهم بالآخر، حيث يكون التأثير الجنسي في أقصى حالات قوته، ولكن الانضباط الجماعي يضع كل شيء تحت المراقبة. وقف كورنر إلى جوار اللقطة، يرقبنا بعينين طيبين سعيدين ووجدت نفسي أتساءل عما يشعر به الآن أو ما يفكر فيه.

أعطيت زميلتي - وكان اسمها نورما - قميصي الرياضي، وأخذت منها قميصاً القصير الذي كان بنفس الطول تقريباً. لاحظت حينما خلعت ثوبها أن حمالة صدرها كانت من النوع ذي الفتحة الهابطة التي تكاد تسمح للثدي بالخروج منها.

ارتديت بنطالي ثانية، وأحكمت خياط حزامه. قلت،

"لا أعرف لماذا تهتم بأن ترتدي هذه الملابس ثانية. هذه القمصان القصيرة طويلة بما يكفي للاحتفاظ بمظهر حسن".

"أعرف ذلك. ولكن الدكتور كورنر يظن أن عملية خلعه الفعلية لينطاله تدبر الكوابيت لدى الذكر. أما لدى الفتيات فإن العملية تتم بخلع سراويلها الداخلية".

أدركت ما كانت ترمي إليه. بدا لي أن بعض الآخرين يريدون أن يتبادلوا الملابس وما أن انتهى الرجل الوسيم المجاور لنا من ارتداء بنطاله حتى اقتربت فتاة أخرى. ورايت أنه في هذه المرة - لم يتبادل الملابس مع الفتاة، ولكن مع زميلها الذي كان - أو المفترض أنه يرتدي بالفعل سروالها وقميصها الداخلي.

قالت نورما، "هذا القسم من العملية يضجرني. دعنا نتبعد عنهما".

تحررنا حتى أصبحنا عند طرف الجماعة. قالت،

"هل أبداً أنا ممت. أم تبدا أنت محي؟"

قلت: "من الأفضل أن تبذلني أنت معي. إنني لا أثق في كيفية قيامي بالعمل".

"هل تفضل أن تقف أم ترقد؟"

"سيان، لا يهم".

رايت أن بعض الأزواج كانوا يأخذون مناظير مطوية، من كومة كانت في الركن، ثم يقيمونها في المساحات الخالية. كانت المناظير مصنوعة من الألمنيوم، وبدأ أن طولها يبلغ ستة أقدام. كان الرجل أو المرأة يرفد على المنضدة، كما لو كان يوشك أن يتلقى علاجاً فوريه للتدليك، ثم تبدأ "الألفة" بنفس الصورة السابقة. أثبتت نورما أنها أكثر خبرة من كل شريكاتي السابقات، أو ربما كنت أنا أكثر استنارة. وقفنا أمامي، وجرت بيديها على صدري، ومعدتي وفخذي حتى هبطت إلى القدمين. وحينما وقفت، حلت حزام بنطالي، ونلاحظت تساءلت أنا إن كانت ستمضي إلى أبعد مما ينبغي، ولكنها لم تفعل أكثر من أن ملئت يده إلى الداخل ودستها إلى أسفل حتى لست ساقبي، وهي تقرصني برفقة أو تربت بلطف حتى بلغت ركبتي. جعلتني أجلس، ووقفت ورائتي، وجرت بيديها في شعري، وداخل القميص. أو بالأحرى توبي النسائي، وفوق صدغي، وداخل شفتي. مدحت يدي إلى زمام البنطال لكي أغلقه، ولكنها جعلت يدي بعيداً وقالت:

"أزيد من الكوابيت؟"

"أسف".

انحنيت إلى الأمام، ومدت يديها إلى الداخل، ووصلت إلى فخذي هربتتهما، وتركت يديها تتجول بحرية. كنت قد تخلت عن كل محاولاتي لكبت ردود فعلي الطبيعية، مدت يديا فلدستها في خصر بنطالي، وتركت أطراف أصابعه تجري بقرعة صاعدة هابطة فوق معدتي، ثم إلى أسفل أكثر. سبخرت على صوتي لكي أسألها:

"هذا مسموح به؟"

"أوه، أجل، الأمر كله مزرك لنا، هل أتوقف؟"

"أخبرني أنه يكون من الأفضل لو توقفت".

انفجرت قهقهات ضاحكة إلى جوارنا. كانت امرأتان ورجل يضحكون على الرجل الذي استبد به الخجل وحمرة وجهه. وبدأ آخرون يضحكون بينما وجهه يزداد احمراراً. ولكن سكورسر، الذي كان يقف إلى جوار اللهاة بدت عليه الصرامة وهو يهز رأسه بهبط استمر الرجل وأسرع خارجاً من الحجرة. قالت نورما:

"مسكين مسر مالك مكان. إنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبداً. أخشى أن تكون النساء يتبادلته لكي يجعلته يفقد سيطرته على نفسه".

كان الأمر الغريب هو أنني لم أعد أشعر بأي إرهاق، كان تيار متوهج غريب قد بدأ يجتاحني من الداخل.

قاطعتنا مجموعة من ستة أشخاص، أربع نساء ورجلان، أرادوا أن يتبادلوا اللباس مرة أخرى. بدأ الامتعاض على نورما، ولكنها خلعت سروالها الداخلي على مضض، وتسلمت بدلاً منه سروالاً نسائياً صغير الحجم أسود اللون. أما أنا فاخذت السروال الفرنسي الطويل الذي عرفته عصر ذلك اليوم. استبدلت الثوب النسائي القصير بأخر أطول منه، وكانت ترتديه فتاة شاحبة عميقة النظرات. وحينما انتهت عملية الاستبدال قالت نورما:

"هيا. لقد حل دوري".

وحينئذ، اعتصرتني صدمة حينما تبينت أنني كنت أيزموند خلال الدقائق الخمس السابقة، وأن هذا هو ما يفسر السبب فيما شعرت من ارتياك إزاء تلك الثياب الغريبة لشكل بالنسبة "لي". كان الأمر كما لو أن أيزموند قد برز ظاهراً من قلب أعماق وعبي أنا لكي يكتشف لنفسه ما يجري. وحالها أصبحت واعياً بوجوده، تزايد تأثير النظرة لزوجته، حتى أنني للحظة شعرت بأنني موشك على الفتيان، واختفى التهيج الجنسي.

صكنا قد عثرنا على مكان هادئ عند حافة الجماعة المتراحمة، وكانت جوينيث، التي لم تعد تحمل الل سمة من سمات المدرسة الثانوية، منحنية إلى الخلف مستندة إلى الجدار. وقد اغمضت عينيها وارتسم على وجهها تعبير يكاد يكون مزيجاً من النشوة لتألة. وكان رجل راكعاً أمامها، ورأسه مستند إلى فخذهما. حينما أدار رأسه عرفت أنه السكير قال له أيزموند، "تحببتي، أيتها الصديق". وبدأ السكير كمن حفل فجأة. هبطت جوينيث فجأة إلى

نص، فأصبحت نصف جالسة نصف راكدة، وقد اغمضت عينيها، وانقر جيت ركبتها.
تبد غمز لي التسمير بعينه وقال:
"لا بد أن تجربها، إنها رائعة".

كان التعبير الشهواني للذكر الذي علا وجهه - أشبه بوجه آلة الرعاة الروماني قون -
هكذا علي، ولكنه لم يكن جديداً على أيزموند. تحققت أنه كان سلباً مباشراً لهوراس
بني

لم يعد تأثير الرؤية اللزودة شيئاً ولا مضاداً للسرور، كما لو كنت أنا وأيزموند قد
تنا صفة نحتل بمقتضاها جسداً واحداً دون محاكاة ولا نزاع. كان الإحساس الآن
قنر وضوحاً مما كان من قبل في أي مرة، ولم أعد قادراً على الاعتقاد بأنه لعبة غريبة
يوم بها وعمي الباطن في الخفاء.

وضعت ذراعي حول نورمان من الخلف، وداعبت نهديهما، ثم بحركة سريعة من
يدي، حررتهما من قيد اللشد الذي يمسكهم. ألقت بنفسها برقة لتستند علي، شعرت
بقسوة ثوبها على لحمي العاري. أحنيت رأسها حتى استند إلى كتفي، ورفعت وجهها،
أحنيت عليها ولسنت شفيتها، وحينما فعلت ذلك ملحت يدها وراء ظهرها وامسكتني بقوة،
قلت: "إنك تزدد تهيجا أكثر من اللازم".

مضيت أربت عليها، مستمتعا باستجاباتها، وكانت مثل قطعة قوسب ظهرها حتى
سنتي وهزت في اطمئنان. تبينت، في جزع مفاجئ، أنها قد بنفت "النشوة للعلة"، ثم تبينت
قد لحظة، أن أيزموند هو الذي عرف ذلك، وليس أنا. لقد كان أكثر خبرة مني بشكل لا
هائي في مثل تلك الأمور.

لحاة قالت نورما، "انظر، هناك منضدة خالية، فلنذهب إليها. لا يمكنني الوقوف
كثير من هذا".

وفي الحقيقة، لقد بدت ركبتها وكأنيهما تصطكان. ساعدتها حتى تسلفت منضدة
بالقرب من اللقاة، حيث كان يقف كورنر. ناظراً بارتياح ومعية إلى الحجر، يومئ برأسه
من حين إلى آخر ويبتسم، ربت على كتفي كورنر. قال له أيزموند،

"تحببتي أنها الناسك البشرة".

سقطت يد كورنر، وشحب وجهه شحوباً شديداً. انحنى إلى الأمام وحقق في وجهي

"أكنت تعرف هذا من البداية؟"

"إنني لست أبله، أنها للشرف". كذلك قال أيزموند. فقال كورنر بهنو،

"إذن فقد كنت تلهو بي".

لم يكن هذا سؤالاً، فأضاف قائلاً: "ولكن، لماذا؟"

أثارني تعبيره اللعوم بالوقار الحزين. أريت أن أشرح له الحقيقة، ولكنها كانت سبب
امراً يدعو إلى السخرية، ثم لاح على كورنر أنه يتعاسك. لوى شفيتها، وابتسم ابتسامة
مريرة، وهز كتفيه، ثم خرج من الباب وترك الحجر ومضى. قلت:

"ماذا تعني بحق الشيطان؟"

كنت أسأل أيزموند. ولكنه تجاهلني.

كانت نورما راكدة على المنضدة، وتبدو كالنائمة، ذهبيت إليها، وخلعت حذاءها.
بدت قدمها الصغيران أبيضين جداً. أحنيت وقبلت باطن قدمها، ثم أحنيت أطراف أصابعها
في شعبي. جفلت وتنهت. حركت رأسي إلى أعلى وقبلت فخذيها، وفي نفس الوقت بدت
يدي في وسط سرواليها. في هذه المرة، شهقت ولم تبذل أية محاولة لكي توقف عمليات
اكتشافاتي. وعلى الرغم من وجود الناس حولنا، فقد كان من الصعب مقاومة الإغراء
بالصمود فقها.

درت ببصري حول الحجر، فرأيت أنني وأيزموند، كنا من بين آخر من ظلوا على
أقدامهم. أدركت الآن لماذا كان البساط سميكاً إلى هذا الحد. كانت الأجساد للعدة راكدة في
كل مكان. استطعت أن أرى أنجيلاً راكدة على ظهرها، وسافها مفتوحاً، دون سروال
داخلي، وبدأ أنها غارقة في النوم. كان بول راكداً إلى جوانها، وإحدى يديه على فخذه، وقد
اغمض عينيها هو الآخر. أما جوينيث - التي بدت غير قابلة للتعب - فكان عارية في تلك
اللحظة، راكدة على البساط، ورجل يرضع نهديهما، وآخر يربث على ساقيها وبطنها، بينما

راحت أذناها ترتفع وتنخفض برفقة. كانت أجساد أخرى متداخلة في أشكال وتكوينات لا نفس لها، فبهت فكما لو كانت صورة تخيلها رسام صور داعرة لحظة إحساس ساخر منهم

كانت نورما تمسك بيدي بشدة، لكي تمنعها من الهرب، وراحت تحرك فخذيها مساعدة هابطة وبدي ممسوكة بينهما. حينما نظرت إليها، سقطت في ذهني ذكرى قديمة. حاولت أن أثبتها، ولكنها راوغتني. بذلت مجهوداً آخر، وأنا أحرق بقوة في لحم فخذيها النضبي اللين. خطر لي أن أيزموند نادراً ما مارس الجنس مع نساء لو حتم أشعة الشمس. ورغم أن عصره لم يكن يتميز إلا بالقليل من الاحتشام، فكما هو عصرنا، فإن الثياب كانت تعبر جزءاً رئيسياً من إنسانية الرجال والنساء، وكان التعرض العاري لأشعة الشمس يمكن أن يعثر نوعاً من الحضارة القريبة والخروج عن التألف. ولذلك فإن اتخاذ عشيقات أيزموند كانت دائماً بيضاء ناعمة.

حينذاك وبشكل هائل في فهمه. لم أعد أنا وأيزموند رجلين يحتلان جسداً واحداً، وإنما تطابقنا فجأة وأصبحنا رجلاً واحداً. إن تفسير هذا لابد أن يكون أكثر أهمية من وصف مجرد الأحداث الجنسية التي وقعت خلال الساعات القليلة التالية، ولكني لا أستطيع في الواقع تفسير ذلك. إن اللغة لم تصنع لكي تعبر عن أحوال الروح الإنسانية البالغة الشفافية والبلغة. لا يمكن إذن أن أقول سوى التالي، يكاد يكون من المستحيل - ابتداءً - أن تنسى الكائنات الإنسانية نفسها، ولا أن تغفل من تنشغالها الغلاب والمسيطر بنفسها، ولا من أن تتحقق من أن ثمة عالماً يقع خارجها. لقد أدرك بليك أن كل طائر يقطع الطريق الهوائي هو: "عالم هائل من البهجة، قريب من حواسنا الخمس". ولكنني في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، كنت فجأة وبسرعة الوهم الخاطف، قد أصبحت داخل وعي شخص آخر، كائن إنساني كانت حياته وتجربته مختلفة من كل جوانبها عن حياتي وتجربتي وقد جازني هذا الوضع بإحساس هائل من البهجة والحرية. كان أشبه بالخروج من منجم فحم منهار. وكان الشيء الذي اختفى فجأة، اختفاء كاملاً - هو ذلك الخوف الأساسي الذي يتسلل إلى عقول كل الأذكى والنشقين من الناس في لحظة ما من لحظات حياتهم. الخوف من أن لوحد منهم هو حقاً الشخص الوحيد في الكون، وأن الحياة فكاهة محكمة، عرض سينمائي يقدمه رب ثملكه الضجر يعرف أنه وحيد تعاطى - أو أعطى لنفسه - عقاراً ينسى به وحدته.

ذلك أنه في تلك اللحظة، كان هناك وعي أيزموند، حقيقي ومكتمل بصورة لا تقبل النكاح الإنكار مثل وعي أنا، معترج نوعي ومتداخل فيه.

وفي ومضة خاطفة أدركت معنى الجنس. إنه سعي حقيقي إلى تداخل نوعي وامتزاجه، رمزه هو تداخل الأجساد. ففي كل مرة يروي فيها رجل أو امرأة عطشه - أو عطشها - في مياه شخصية أخرى غريبة - فإنهما يلقيان نظرة بارقة على ضخامة جريتهما الشاسعة.

كانت ذاكرة أيزموند أكثر من قوة ذاكرتي بكثير. فبسبب القدرات التي استطاع أن يطورها في نفسه، كان يستطيع أن يستعيد المراحل الماضية من حياته في صورة مر الحيوية لا يمكن تصديقها. وقد عرفت الآن أن هذا هو السبب الذي دفعه إلى اختياري فقد كنت أعرف دائماً أن الحياة الإنسانية شبيهة بالحلم لأن أكثر الكائنات الإنسانية تعيش بشكل سلمي. إن وعيهم لا يزيد إلا قليلاً عن كونه انعكاساً لحياتهم. وعند حدوث نشوة الجنسية، تشتت قوة تبار عقولهم فجأة إلى حد الاصطحاب، فيدركون اللحظة - مؤقتاً - أنهم لم يعودوا مصباحاً كهربائياً لا تتجاوز قوته الأربعين "واط"، وإنما مائتين وخمسين خمسمائة، ألفاً... ثم ينخفض التيار، فيعودون ثانية إلى مستوى الأربعين "واط" دولاً احتجاج، لأنهم مثل البلهاء الفارغي العقول الذين لا يستطيعون تذكر شيء ما لأكثر من ثوان قليلة. إن الكائنات البشرية كالكائنات متوسطة القدرة والأذكاء حتى ليكاد يكون من الصعب القول بأنهم يملكون عقولاً بأي معنى حقيقي. في ومضة خاطفة أدركت الحقيقة الواضحة العابثة، لا شيء يستحق أن تمتلكه إلا عمق الوعي. هذه هي الحقيقة التي نلمحها لحظة النشوة الجنسية، فإذا أدركتها الكائنات الإنسانية - لو أن عقولهم لم تكن بهذا العمر عن فهم حتى أبسط الأشياء - لكانوا حذرين بأن يهجروا كل مطمح آخر من أجل تحقيق هذا الهدف. ما الذي يهم حقاً في أن تكون، وماذا تفعل، وكيف تملك، إذا كان عقلك محدوداً ضعيفاً قاصراً؟ تماماً مثلما لا تعني أكثر الأشياء جمالاً أي معنى بالنسبة لرجل يعاني من الحمى. ومن الجانب الآخر. ولأن أيزموند قد أدرك هذا، وراح يطارد السر ويسعى وراءه، فإنه قد دخل المشكلة التي شغلت بروست طوال الإنثي عشر مجلداً من روايته "البحث عن الزمن الضائع". مشكلة الكيفية التي نفتح بها الخزائن الهائلة غير التالفة التي نملأها ذاكرتنا. إنني إذ حاولت أن أتذكر طفولتي، فإن ذاكرتي سوف تكون نسخة معنمة بالكربون عن الشيء

لحقيقي الأصلي. ومع ذلك فإن حادثة ما، مثل كعكة بروسيت المغموسة في الشاي، تستطيع اللحظة مؤقته أن تبعث إلى الحياة زمناً بعيداً بصورة تماثل في حيويتها تذكرى لحادثة وقعت بالأمس. فلماذا تكون الذاكرة بهذا الضعف؟ لأن الوعي قانع بأن يجري بقوة أربعين "واط"، بينما كل ما في الكون من طاقة وقوة قريبة منه وفي تناول يده.

في هذه اللحظة، تنحكرت فجأة حادثة كان من الممكن أن تعلمني ما عرفة أبرز موند. فبعد سنوات قليلة، أرسلت إلي تلميذة صغيرة خطاباً عن أحد كتبي، شعرت من الخطاب بدكانها، فقابلتها في كورك - حيث كانت تدرس في مدرسة داخلية. كانت فتاة تسبب شوار - واحدة من تلك المنتجات الجميلة. العلاقة الوثيقة بنفسها والتي ينتجها بيت ثري مزود باصطبلات الخيول والحدائق الواسعة كالروج. وقد سحرتني - لا لأنها كانت تؤثر أي تأثير على عواطفني التي كانت متعلقة بكل يتعلق بديانا - وإنما لأن الكمال بسحر دائماً، سواء تبدى في صورة منظر جوي سباق جميل، أو سيمفونية قوية. وكان من الواضح أنني سحرتها أيضاً. لأنها أعلنت عن أنها تنوي أن تتزوجني، رغم أنها كانت كاتوليكية وكانت تعرف أنني متزوج. وقد توقعات أن تستخدم أسرتها نفوذها للحصول على إذن من البابا بذلك.

وفي أثناء العطلة السنوية، أرسلتها أسرتها إلى بديلين لكي تقيم مع عمه لها، فاصبحت قادراً على أن أجد فرصاً لرؤيتها مرة واحدة كل أسبوع تقريباً. كانت المسألة كلها بريدية بكل البراءة. من الناحية الجنسية. فإنها وهي في السادسة عشرة، وكانت عذراء رومانتيكية. كانت مفتنة بي، ولكنها تخاف من الجنس. وذات يوم، وقبل الموعد المحدد لعودتها إلى المدرسة بوقت قصير، بدا عليها بوضوح أنها قررت أن الوقت قد حان للسماح للعلاقة بأن تتقدم إلى الأمام خطوة واحدة. كان عصر يوم ممطر من أيام أغسطس، وكنت قد أوقفت السيارة في غابة ما على حافة مزرعة كبيرة. وبعد عشر دقائق أو نحوها من بداية جلوسنا متعاقبين في مقعد السيارة الخلفي، تبينت أنها قد قررت أن تسمح لي بأكثر قدر ممكن من الحريات دون أن تسلم عذريتها تسليماً فعلياً. ولكن هذا التحديد نفسه - الذي حددته لنفسها - غرس الخوف في قلبها. سمحت لي بأن أحل رباط حمالة صدرها، وأخلع سروالها الداخلي، ثم فجأة بدأت تبدي خشيتها من أن ينطلق أحدهم من زجاج السيارة - الذي كان مغطى بالبخار إلى درجة تمنع الرؤية تماماً، متوجعاً من الإحباط والشعور بالخيبة، أحكمت إغلاق أبواب السيارة لكي أطمئنتها. ثم شرعت بعمل لكي أنسيها إحساسها بالإثم بسبب تهيجها الجسدي.

واستغرق هذا وقتاً طويلاً - وقتاً طويلاً جداً - وخطر لي أنها قد شعرت بأنها أصبحت كالعاهرة دون سروالها الداخلية - وهكذا فقد البستها السروال مرة ثانية. وجعلها هذا تثير بالاطمئنان الكافي لكي تسمح لي بالرفاد فوقها، وقد ارتفع ذيل ثوبها حول وسطها ولكن حينما حاولت أن أتحرك لكي اتخذ وضعا يمكن للاختكاك فيه أن يشبع استنارتي كما يشبع استنارتها، نار خوفها مرة أخرى. وكان علي أن أعود ثانية من البداية. كنت قد وجدتها لنبيذة للدرجة أنني كنت على استعداد لأن أبداً من جديد مائة مرة. لقد أثارت في شهية الرجل الجائع، ولاح لي وجودي في هذا الموقف اللطيف أجمل فتاة قبلتها في حياتي، لا أذكر أكثر شياً يحمل بقطة جنسي منه بالحقيقة. ولم تكن عملية ممارسة الجنس النهائية لمراماً، فقد كان امتصاص أنوثتها كافياً لإرواء عطشي. وبعد ساعة، حينما تحققت من أنه قد بلغت حالة من التهيج لأبحث كل العقبات، تعمقت أن أحافظ على وعدي، فزجكت بذراع استنارتي التراسكمة لكي تنفجر دون ضرر. وكان هذا كافياً لجعلها تسحب كل إمبر التحريم السابقة.

ولكن بينما كنت أقود السيارة عائداً إلى البيت، بعد أن أنزلتها في طريق العودة على "كوليج جرين"، كنت أعرف أن وعبي لم يعد مستقراً عند مستواه القديم من الإحباط. كانت الساعتان اللتان قضيتهما في تركيز مكثف قد غرستا في "إعادة" التكثيف العميق عادة رفض السماح لطافاتي بأن تفرق ثانية لكي تختفي في منبعها من الوعي الباطن. وبينما كنت أسير بالسيارة ببطء في الظلام، كنت أعرف أن عقلي قد بلغ مستوى جليداً من القوة. كانت ضربات قلب حيويتي أكثر عمقا وقوة، وكانت ذاكرتي تعمل بشكل أحسن من المعتاد، وكانت قدرتي على الحس قد تعمقت... ولم يستطع طريق العودة الطويل أن يقلل من هذه الكثافة العميقة، ووصلت للنزل عند الفجر، شاعراً بنفس الانتعاش الذي أحسست به حينما بدأت رحلتي للذهاب من بديلين.

وعلى الرغم من ذلك فقد سمحت لنفسني بالانتكاس ثانية إلى المستوى القديم. فقد ضاع اكتشافي هكذا هدرأ، معرفة أن ساعتين من الجهود المركز يمكن أن تعمق العقل وأن تكثفه حتى يقترب من رؤية التصوفين. ولكني الآن في هذه الحجرة. وأنا محاصر بالرجال والنساء المبدعين على الأرض. أعدت اكتشاف هذه الرؤية الداخلية التي أبصرتها ذات مرة، ثم تكن هذه الحجرة مأوثة لي. إن التعود على شيء (أو الألفه، بمعنى مختلف عن معنى

تدريبات كورنر) وظليفة أو نتيجة من نتائج إجهاد الوعي، إما بالنسبة لعقل مكتمل (بقطة، فإن كل شيء يبدو جديداً وطازجاً.

كنت متحرراً من التهييج الجنسي. وكان إحساسي الرئيسي إزاء هؤلاء الناس هو الاحتقار للتسلي. وحيثما كانت نورما تتحرك حركة متشنجة محتكة بيدي شعرت بأنها وقعت في قبضة فعل انعكاسي لا مبطرة لها عليه. وفي نفس الوقت، بدا واضحا بقوة عظيمة لي أملك زمام رغبتني الجنسية بشكل كامل. وسواء اجتمعتني هؤلاء النسوة أم لا، فسوف يكون بوسعي أن ألوم بوظيفتي الذكرية بصورة كاملة تماماً. وكانت هذه فكرة مثيرة للاهتمام. رغم أنها لم تكن جذابة بشكل خاص. كان الأكثر إثارة للاهتمام بكثير أن استعيد ذكرى تخفيف صوت الدكتور جونسون والكيفية التي مضى بها شفته السفلى في تعبير عدواني واضح حينما قال، "سيدي..." أو أن أتذكر الانواء الماكرة الخبيثة التي جعلت تركن الأيسر من هم فولتير يتشنج قبل أن يطلق واحدة من تعليقاته اللاذعة الذكية، أو صوت شيللي المرتفع المتوتر وهو يقرأ لي قصيدته "أونيس" بصوت مرتفع النبرة. ولكن كان لأيزموند هدف أراد أن يصل إليه، وضالاً أنه كان معلمي الخاص. فقد كنت على استعداد للانتظار. في هذه اللحظة، أراد أن يظهر لي أن الرغبة الجنسية بشكل كامل مرجعها إلى الخيال - أو إلى "العمد" كما يحق لي أن أقول، إن اتجاهي إزاء نورما يمكن أن يتغير تبعاً لإرادتي الخاصة، وكان بوسعي أن أراها في صورة فتاة غبية شبيهة لا تستطيع أن تفكر في شيء أبعد من اللذة التي تحسها بين فخذيها، أو في صورة تجسيد لربة الأرض. فإذا اخترت أن أنظر إليها على هذا النحو، فسوف يكون علي أن أسدي لها لاحترام والتوفير اللازمين، مثل سكانها بقف امام النبح. وتبعاً لهذا، فقد خلعت سروالي. ثم خلعت سروالي. وصعدت فوقها. فتحت عينيها بهشة للحظة واحدة، ثم شهقت بحدة حينما ولجتها... ولما كان هذا عملاً من أعمال طفوس العبادة، وليس من الأعمال التي تدل على الرغبة، فقد ركزت على إعطائها أقصى قدر ممكن من اللذة، موافقاً بين حركتي إلى الأمام وبين حركاتها.

ورغم الفاصل القائم بيني وبين ما أفعله، فقد كنت أشعر كما لو أنني أمارس الجنس للمرة الأولى في حياتي. وأكثرتنا يعرف أن الجنس يكون أحياناً أفضل منه في أحيان أخرى. ومن الممكن أن يولد ولوج فتاة صدمة كهربائية تماثل الصدمة التي تحدث إذا وضعت أصبعك داخل توصيلة كهربائية بالصدفة، أو يمكن أن تبدو هذه العملية مكنية وعادية.

عملاً جسدياً لا يختلف عن أي عمل غيره. وهذا يرجع إلى القدرة الإنسانية على الدخول في حالة من البلاهة أشبه بحالة النوم مغناطيسياً، حالة من تقبل كل شيء على علته وإن أمكن لتقبل نورما على علاتها فقط، كما ينبغي من السمات، بل كنت مدرجاً لأني في نفس الوقت تشبه كل فتاة أخرى في العالم. شعرت كما لو كنت تسراً يحوم ذاتي في الهواء دون حركة، محلقاً إلى أسفل نحو فجوة هائلة بين الجبال.

كانت الطافة التي ولدها عملنا قد أثرت على الآخرين في الحجرة. شعروا بها كما لو كانت مهيجاً غامضاً: "عطراً خاصاً تحمله الريح" كما قال بليك. كان بعضهم يراهم يروح آخرون يقلدونني متجاهلين قواعد كورنر التي وضعها ضد الجماع الفعلي. شعرت به تجري برق على ظهري، وعلى ردي، ثم بين ساقي. كانت تيسا، متجنبة فوقي وعلى وجهي تعبير حالم بشكل غريب ومناقض لما كانت تفعله. تذكرت من مكانت تذكرني بها. ثم مينو بويز، أولى عشيقاتي أيزموند، لم أكن قد عرفت اسم أسرتها من قبل. ولكنني تذكرته الآن. زدت من سرعتي وأنا أشعر يتصاعد استنارة نورما. ثم بينما كان بطنها ينحني إلى أعلى وتضغط بقوة على بطني. تظاهرت بأنني بلغت ذروة نشوتي، شاعراً في نفس الوقت بأصابع تيسا وهي تنغرز وتقبض على لحمي. استرخت نورما ببطن، فسهبت نفسي. قال شخص ما،

"يا الهي". كانت جوينيث، التي كانت تقف إلى جوارنا من الجانب الآخر محبلة بإعجاب في العضو الذي بدأ - حتى لعيني - منتفخاً بشكل غير عادي. أما السنير، الذي كان لتود قد نهض من فوق فتاة ظننتها تلوهلة الأولى أنجبلاً فقد صاح مذهوشاً،

"غير معقول!".

أمسكت تيسا بمرقفي وقال،

"والآن، أنا".

دفعتها جوينيث جانباً، معسكة بي حتى لا انتهض تماماً وقالت بنصميم،

"كلا، أنا".

لم يكن عندي أي فرق بينهما. كان ايزموند - لأسباب تتعلق به... مصمماً على أن يمضي في الظاهرة حتى يبلغ بها نهايتها. ورغم أن ذاكرته كانت واضحة لي، فإن وعبي لم يستطع أن يدرك الغاية القصوى من نواياه. لم أعرف سوى أنه قد تولى أن يستخدم جسدي لكي يشبع أكبر عدد ممكن من النساء اللواتي قد يخزن أن يطلبن منه خدماته. وهكذا، فحينما استندت جوينيث بظهرها إلى الجدار، ضاغطة أداة المتعة... مددت يدي من ورائها، وأرشدته إلى للدخل الضيق... لم يكن الوضع مريحاً بشكل كامل، لأنني كنت أطول منها. كانت هناك مائدة هريفة خلفي، تحركت إلى الوراء وأرحت نفسي على ركنها. جاذباً المرأة معي. أثبتت وهي تنضغط إلى أسفل، ثم رفعت نفسها وهبطت مرة ثانية بسرعة. جذبها حتى التصقت بي، ممسكةً بها بقوة أمامي، وقد شعرت بشكل ما بأنها قد أصبحت مثل أداة موسيقية مألوفة لي. كان في نيتها أن تبقى في مكانها لأطول وقت ممكن. فقد كانت تبرزها على التماسك الجنسي دون حدود تقريباً، وقد تجاوب الموقف الحالي مع نزعة الاستمرار الكاملة في غلمتها. ولكن ايزموند كانت له خطط أخرى. كان متمرساً في استخدام مبدأ رد الفعل للنعكس الشرطي. دفعات حساسة رفيعة قليلة دمعت سيطرته، ثم جاءت دفقة لا يسعني أن أصفها إلا بأنها نوع من الكهرباء الجنسية جعلت نقاط اتصالها الحساسة - نقاط الحلمتين والفتحة الشرج للمتدة - تتوهج بقدر من اللذة لا يمكن احتمالها حتى الفزيت من الألم. أطلقت صيحة ألم، وهي تتلوى وتقبض. وكان علي أن أمنعها من السقوط من أمامي. وبينما أمسكت بها ملتصقة بي، خفت حدة التقلصات، وتحولت الأنات إلى تنهيدة عميقة. أبعثتها برفقة عن حجري، وأمسكت بها بينما كانت تهوي ببطء على البساط... فقبز رأس الإله الذي لا بكل إلى أعلى مثل "عقريت العلية"، وحملت حينما سمعت انطلاق التصفيق. جالساً وقد أوليت ظهري إلى بقية الحجرة. لم أكن واعياً بجمهور المشاهدين الذي تجمعوا للفرجة. كان بول وأنجيلا يقودان التصفيق ويصيحان. قال بول: "إنك استاذ". فتبينت مصدوماً أنه كان يعرف عن جماعة المتقاء أكثر مما كنت أعتقد. مكبحت جماح التعليق غير للتواضع الذي كان ايزموند قد شرع يطلقه. فتلذعت أنجيلا نجاحي. ولكن تيساً كانت قد وصلت قبلها وهي تقول:

"كلا. إنها أنا". ثم دفعتني إلى الوراء على اللبضة، وهي تحاول أن تصعد فوق. اغنتها على ذلك - طالما أنها كانت أصغر حجماً من جوينيث. ورفعتها قليلاً قبل أن اتركها تسقط فوقني. انحط رأسها فوق كتفي، وأطلقت تنهيدة طويلة، ثم بدأت تتحرك ببطء، كما لو

كانت متعبة. وهي تطلق صيحات خفيفة. مثل حيوان ضئيل الحجم يتلقى الضرب. دسست إحدى يدي تحت قميصها الرياضي وفحصت حلمتها فقلصت بركة واندمج لسانه الصغير في فمي وراح يدفعني من داخل فمي. وبينما كنت ادفعها برفق بعيداً عني، صاح رجل بئكتة استثنائية وصوت مرتفع: "إن الرجل فلانة عجيبة لا تتكرر".

كانت أنجيلا هي صاحبة الدور التالي، جذبني حتى أرقدتني على البساط أمام الدفء، وألقت بنفسها إلى أسفل وقد ننت ركبتيه. ومهما، اكتشفت اكتشافاً جديداً. كانت العملية مثيرة مثلما كانت بعد زيارتنا لأسرة دانكان. من الواضح أنها كانت تنمي بشيء ما، أو إنه كانت هناك صفة خاصة في تركيبة كل منا الجنسية النفسية، جعلت كلنا منا قادراً إلى درجة عجيبة على إعطاء صاحبه الحد الأقصى من المتعة. وهذا عنصر نادراً ما لاحظته الكتاب الذين كتبتوا عن الجنس، الذين يبدو أنهم يشعرون بأن اختلاف بين عملية جماع وأخرى إنما هو بشكل كامل مسألة تتعلق بالمعاني التي يختار الشخص أن يسقطه عليها. كانت العملية مبهجة مع أنجيلا حتى أنني شعرت بما يغريني أن أهدي من سيطرتي على نفسي وأن أكف عن حبس رغبتي في المشاركة، على الأقل بدافع من التهنيب. كانت خمس دقائق كافية لاسترداد طاقتي. ولكن هذا لم يكن جزءاً من العرض الذي يرمي إليه ايزموند. فقد لاح أنه مصمم على الاستمرار في العرض. لأسباب خاصة به. بدأت أشعر كما لو كنت محرك سيارة قوية وصل إلى درجة الأداء الكامل. لم يكن ثمة إجهاد أو نصب. وبدأ جسدي كما لو كان يدفع بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة، واكتسبت حرركات أرواني حركات موزونة إلى درجة غريبة، كما لو كانت بندولاً مضبوط الإيقاع. زنت من سرعتي لكي أصل بأنجيلا إلى ذروة نشوئها. وأنا أجذبها لكي أضغطها على جسدي حتى خبت حدة عنفها، ثم انتقلت إلى المرأة التي كانت تنتظر بالفعل إلى جانبي من الناحية الأخرى. شيء ما كان يحدث لي، أشبه بحالة إحساس حقيقي بالانفصال عن جسدي. وكان عقلي قد انفصل عن الجسد وطار في الهواء محملاً فوقنا. أنني حينما أفكر متذكراً حياتي الجنسية العادية، فإنها تبدو لي ضائعة لا نظام فيها، فهي كل مرة بلج فيها رجل فتاة، يستيقظ آله في داخله. إنه لا ترضيه الحياة الجافة ولا الوجود الشبيه بوجود النفس، الذي تعبشه، يعرف أن الإنسان قد صنع لكي يغزو أفاقاً شاسعة، غزوات لا نهائية ومن أجل أن يحقق بقاة سامياً وجليلاً للأرودة. وحينما يصطدم اللحم باللحم الغريب. يقع عقله في قبضة نوع حاد من وضوح الهدف يرفض أن يتسامح مع تشوش الجسد وثقله. يصبح مثل القائد

لهم، إنه يستطيع أن يجعل من هذا الركام من الأخلاط المشوشة التي ندعوها الجسد، مثلاً مثلاً صلباً مثل فصيلة جيدة التدريب منسجمة الأفعال. ثم تغير ذروة الشهوة إلى ما الوعي. وبغيب القائد في طيات النسيان، ويعود التشويش المضطرب من جديد.

لم يكن أيزموند يقوم بهذا متفكراً أو بهدف التنسيلية. فعلى المستوى الأول، كانت هذه المرة أو استعراضاً، بنون كلمات مكان يقول لنا أن الهدف الحقيقي الذي سعى وراءه زناؤها وموت جوان وهزال هاريس وزملائهم، هو أن يجعلوا من عمليات الإغواء التي رواها واحات من "القصد" في صحراء من الفوضى وعدم النظام، لقد خلقوا عالماً لثانية مدة كالنفسور، ثم انحطوا هابطين ثانية إلى المستنقع. كان أيزموند يقول لي أن الهدف أن "أبقى في الهواء". ماذا يمكن أن نقول عن قائد ساق قطعان الغزاة إلى خارج بلاده، ثم أجمع من المنطقة التي احتلها وسمح لهم بأن يعودوا على الفور ليس هذا سوى ما حدث ثم، وقد بالغوا في تسليمهم بهذا كما يسمون بالبدليلات حتى أن الغزاة عادوا مباشرة في شاب فؤخرة المراجعة، دون محاولة للتعزية أو للمساومة. وقد أراد أيزموند أن يظهر أن ثقافة الجنسية تهين لنا بصيرة داخلية في مثل حيوية الرؤية الصوفية، وأسهل في تحقيقها لير، ولكنها - لكي تكون مؤثرة، فالأبد أن يتم تنظيمها بحرص وأنفعال مسامح لحرص من أرسن تيوغا أو التنسك والصوم الطويل.

بعد المرة الخامسة، لم يعد الجنس يهمني أو يمتعني، كنت مبهوراً بالحقيقة التي كانت تحدث في وجهي طوال حياتي. ففي كل مرة نشعر فيها بسعادة عميقة، فإننا نعرف أنه ليس هناك سوى خير واحد، قوة الإرادة، وأنه ليس ثمة سوى شر واحد، أن نتنكر للإرادة. بو أن الحياة طيبة خيرة مثلما نعرفها في لحظات ابتهاجنا، لكن من الواجب أن ننظر إلى كل العقبات كما لو كانت من حصص الطريق، وكان المفروض ألا يكون الإنسان قابلاً لهزيمة. وحينما كنت أنظر حولي في الحجارة إلى هؤلاء الربات العاريات، تبع في داخلي فرح ميق. هؤلاء سكن الأمهات، والذات جنسنا، اللواتي استعبدن الرجال دائماً واحتقرنهن. لقد جنتهن مثل كائنات الهية مقدسة. إن ما بين أفعالهن هو مدخل الرجل إلى عالم الأحلام، إلى العظمة، وإلى الهدف الأول الذي يكمن وراء المادة. لم أراي فرق بين الواحدة منهن الأخرى، بين الصغيرة والجميلة وبين متوسطة العمر الجمدة. الرغبة في خدمتهن جميعاً كانت رغبة غير شخصية ومتحررة من الشهوة. وفقت وأخذت يد فتاة نحيلة عصبية

الشكل كانت تنتظر. ومضينا معاً إلى ركن الحجر، وقف جزء من كيانني خلف مبلغ مغطى بقطعة قماش حمراء، شيد في مذبح مبني من الحجر الرملي المنحوت، وارتكبت فتاة على شكل رأس طائر عظيم. ووقفت أربعون امرأة عارية في صف واحد أمام المذبح. أحسبش تلمع بالزيت، وشكل منهن تمسك في يدها قارورة ممتلئة بسائل فوار متوهج الخضرة ادرسكت أنا طبيعته وكنهه على حين فجأة.

□ عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، على اثر ملازمة أشعة الشمس لوجهي اجتاحني إحساس عارم بالسعادة، كان جسدي في أشد حالات الوهن، وكانت عضلاتي تؤلني. إلا أن جسدي كان لا يزال ينبض بطاقة عميقة مكبوتة. نظرت إلى الفتاة الرائدة إلى جوارى - فتاة لم أكن أعرف اسمها. وشعرت بنوع من الإشفاق بيجتاحني. ومن الغريب تماماً أنها كانت عنراء، وكانت قد قبلتني زوجاً لها، ولكنني كنت زوج ديانا ووالد موبسي. لم أذكر ديانا كثيراً في خلال سردي لهذه القصة، ولكنني كنت أطلبها بالتلفون كل يوم. وكنت أفكر فيها وقتما تكون لدي الفرصة للاسترخاء والتفكير. إنني عاشق للبيت. بعكس أيزموند. وقد أردت في تلك اللحظة أن أعود إليه.

انزلت خارجاً من الفراش برفقة، واتخذت طريقي عائداً إلى حجرتي وأخذت من حقبتي كوباً فضفاضاً من القطن ومنشفة من فوق المشجب، وذهبت إلى الطابق الأسفل. كان الصباح لنحيداً، مفعماً بروائح حشائش ليريل. اتخذت طريقي إلى المجرى الثاني الذي كان يجري على الجانب البعيد من صف من شجيرات الفوشيا عند حافة الحديقة الكبيرة هرع أرنب مذهوش إلى الحشائش الطويلة يختفي فيها دون إسراع. كان مجرى الماء ضحلاً، ولكن عمقه كان يبلغ خصر الرجل بالقرب من المنتصف. كان شديد البرودة حتى كان علي أن أخرج قدمي من الماء بعد لحظات قليلة، لكي أترك ألام يخفت بالتدريج، ثم هبطت بجسدي في الماء بالتدريج، وغسلت بالماء جسدي بأسفنجة جئت بها معي. بقيت في الماء حتى بدأت أشعر بالبرودة، ثم هزنت لتنشفة فوق الحشائش التي بللها الندى وتمددت تحت أشعة الشمس. وبعد عشر دقائق كان جسدي قد جف.

كنت أعرف أن علي أن أعادر هذا المكان قبل أن يستيقظ الآخرون.. ولو أنني بقيت، لتضأت ارتباطات شخصية مع عدد كبير جداً من الناس. فكل امرأة مارست معها الجنس كانت جديرة بأن تشعر بأن من حقها أن تأخذ معها جزءاً من حياتي. واعتراضي الوحيد على هذا هو أنهم مكن كثيرات جداً. وكنت جديراً بأن أستمع بالارتباط مع كل واحدة منهم وقد خول معهن في علاقات شخصية، ولكن لم تكن لي سوى حياة واحدة.

عدت إلى المنزل فابقضت اتجيبلاً وقلت لها أنني أريد أن أرحل. وكانت نائمة في حجرتها فلنأبست، ولبستمت، وفتحت ذراعها، قبلتها وهزرت راسي وقلت:

"ليس الآن".

"لا بد أنك متعب".

هبطت بيدها ودستها تحت ذوبي الواسع.

"يا الهي الرحيم!" وولج لسانها فمي. طوحت بالأغطية من على الفراش، وصعدت فوقها. وكانت ما تزال ناعسة. وكانت العملية دافئة وممتعة. ولكنها لم تكن متفجرة. حاولت أن انسحب قبل بلوغ ذروة نشوتي، لكنها هزت رأسها وامسكت بي بقوة، بعد ذلك، غصبتها ثانية.

"يمكنني أن أأخذ سيارتك؟"

"بالطبع، ولكن ليس عليك أن ترحل".

أخذت مفتاح سيارتها من حقيبتها وأخذت مفتاح باب الشقة، قلت:

"اعتذري لكورنر، وقولي له أن يوسع أن يجديني في الشقة اليوم، في أي وقت، وسوف يفهم".

بعد عشر دقائق كنت أقود السيارة باتجاه لندن. وقد تملكنتي سعادة مفاجئة غامرة، وعقلي يشع بالأفكار والرؤى.

كانت مسألة أيزموند هي ما شغلني أكثر من أي شيء آخر بالطبع. كانت دراساتي في علم النفس والظواهر الخفية ذات الطابع السحري (والتي كتبت تاريخاً لها) قد

أقنعتني بأنه من الممكن أن توجد شخصيتان في جسد واحد.. إن الحالة الغريبة التي تمثلها "وجوه حواء الثلاثة" هي حالة (كلاسيكية، نموذجية وتقليدية) في علم النفس لم يحاول أحد أن يفسرها، ربة البيت المتزوجة الهائنة الحسنة السلوك التي تنحول فجأة إلى مخبة لأفية لغز العشق. وأكثر ملامح هذه الحالة غرابة وهي الحالة التي صورها كل من ثيغين Ingpen وكنيكي Clochleg^(١) هو أنه بينما كانت ربة البيت المتزوجة جاهلة تماماً، حلت حينما استولت على جسدها الفتاة العاهرة، فإن العاهرة، كانت مطلعة على كل نشاطات "الأنا الأخرى" التي تشاركها نفس الجسد. وقد أخبرني ديانا بحالة شهادتها نفسها في صباها الأولى: فقد ذهب أحد أعمامها لكي يتسلق الجبال في سويسرا، واثت يوم بدأت شقيقة زوجته - التي كانت ديانا تقيم معها - تتحدث بصوته، مستخدمة نفس امتدادات لهجته ونغمة صوته ورغم أن صوتها بالطبع ظل صوتاً أنثوياً، واستمر هذا لمدة ثلاثة أيام، حتى عثر على جسد عمته في أخدود عميق بين الجبال، ثم توقفت عن الكلام بصوته.

إننا لا نملك أي تفسير لمثل هذه الأشياء، وقد لا يهم كثيراً أن أصبح لدينا أي تفسير أم لا. فمن المحتمل أن يكون تفسيراً خاطئاً، إن كل ما همني - بمعنى ما - هو أن أيزموند لا يكن ميتاً. كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة اللافتة للنظر والهامة.

كانت هناك مشاكل أخرى. ماذا كان ذلك الذي قاله أيزموند فأنشج ذلك التأثير العنيف على كورنر؟ وما الذي عرفه كورنر عن أيزموند، وكيف أتى له أن يكتشفه؟

ولكن هذا لم يكن سوى جزء صغير مما شغل عقلي بينما كنت أقود السيارة عائداً إلى لندن. أما الشيء المهم حقاً فهو ما تعلمته في الليلة السابقة. لقد اكتشف أيزموند طريقة ما يمتع بها نفسه من بلوغ ذروة نشوته، فيجعلها متوجهة طوال ساعات، وكان معنى هذا أنه قد خطا خطوة أبعد من أي إنسان شعر بالتهيج قبله. وأن ما سحرني فكرة جوانب نوعي والإرادة التي تفتحت أمامي، كنت قد شعرت بإرادي أكثر قوة بالفعل، شعرت بأن وعبي أصبح أكثر اتساعاً وعمقاً. لقد شعرت بنفسي - طوال حياتي - بأنني واقع بشكل ما في قبضة قوى تقع خارج ذاتي، وإنما بشكل ما، تحركني بطريقة من طرق التوجيه البعيد.

(١) "وجوه حواء الثلاثة"، تأليف كورنر هـ. ثيغين، هير في م. كننيكي. لندن سيمر وديربورج، ١٩٥٧، وصار "الوجه الثالث" هو حواء ذات الانقسام الداخلي بعد علاجها.

هكذا كنت متعباً، وشعر عقلي بالبلادة، فإني ألقى همتي بسهولة، فأصبح أداة سيئة لتلك القوى. ومن ناحية أخرى، إذا حافظت على إيماني، وسقت نفسي سوفاً شديداً، وحافظت على مستوى عالٍ من التفاؤل عن طريق الإرادة الخالصة والخيال، فإني أشعر بأنني أستخدم خدمته غرضاً يتجاوز أغراضه الخاصة، وأبدو كما لو كنت أحظى بقوة جديدة تفوق قوتي. هناك - لحظتها - يكون إحساسي بالاحتمية والارتياح، وأتعر بدهشة عميقة، مثل عصفور يجد نفسه فجأة صائراً جسداً يسرع صائراً غافلاً.

في قصيدة "هيفايين في السوق" يقول براونينغ أن الإنسان يشبه السباح إذ يطفو على ظهره فوق سطح بحر هادئ، إنه لا يستطيع أن يطر مثل الفراشة، فإذا حاول أن يرفع كتفيه إلى أعلى مما ينبغي فوق سطح الماء، غرق باقي جسده. فإذا هبط برأسه تحت المياه غرق. ويقول براونينغ أن هذا هو وضع الفنان، رأسه فقط هو الذي يستطيع أن يبرز من بحر الحياة، وأن يكتشف الحرية في عالم من الخيال، إما ما بقي منه فهو محكوم عليه بأن يظل في المياه، خاضعاً لقانون الأجسام العاطفية. وإني - باعتباري وجودياً ارتقانياً - لم أقبل أبداً هذه النظرة الرواقية الباردة، إنني متيقن من أن قوى الخيال والنشوة تلك، التي طورها ونماها الرومانتيكيون، كانت فاتحة مرحلة جديدة من التطور الإنساني. وفي قصيدة "هيفايين"، وهي عن "دون جوان" يقبل براونينغ فكرة أن الإنسان ليس ثابتاً مطرداً مستقر التكوين، وأن رغباته الجنسية تمنحه لمحات بارقية من حقيقة مراوغة من نوع ما، تختفي فتغادره منهولاً مرتبكاً مأخوذاً للذب. وكان ما ظننته دائماً هو أنه ليست هناك ضرورة لأن يكون الأمر على هذا النحو، إنما نمتلك قوى تادراً ما نص وجودها في أثناء دوران الحياة اليومية الكئيبة، قادرة على أن تجعل الروح تموج مثل عاصفة، أو تغرق في هدوء ساكن الهواء متلهفة إلى النشوة للاستحيلة. ومن أجل أن تكتشف تلك القوى، يجب علينا أن ندفع أنفسنا إلى أفق جديدة. أن الرجل الذي يتمسك بالعادة اليومية لا يستطيع أن يحصل على أية لحظة مرتجة من لحاح اكتشاف الذات. ولكن عملية ارتياد علم الجسد لا تقدم أية إمكانية تكشف جديدة، علينا أن نتدرب - وأن نجيد استخدام - تلك الحيلة القريبة التي تؤدي إلى إتاحة الفرصة للجسد لكي يظل ساكناً أو هامداً، بينما يندفع العقل لكي يكتشف الأفعال وسلاسل الجبال الداخلية.

وفي وضوح كامل، استطاع أيزموند بمعونة الجنس أن يخطو خطوة هائلة في هذا الاتجاه. فلا عجب أنه كان قادراً على أن يستغ بجسدي وعقلي وأن يستخدمهما. فقد كرس كل منا حياته للوصول إلى نفس النبل الأعلى. وعبر قرنين من الزمان، التقى عقلاً كما تلقي يدان امتداً للعصافحة، فتماسكا وتعانقا. هناك جوانب عديدة استطعت أن أراها أن أتقدم إلى أبعد مما كان في مقدور أيزموند أن يتقدم فيها، لأنني حصلت على فرصة معرفة ثمار قرن ونصف قرن آخرين من تطور الثقافة الأوروبية. ولكن أودته استطاعت أن تبلغ إلى أبعد وأعمق مما بلغته لرائتي. فما الذي يمكن أن يكون مستحيلاً بالنسبة لعقلي المتزحج؟

- ٢٤ -

□ وصلت إلى الشقة بعد الساعة العاشرة بقليل. كنت جائعاً إلى درجة فظيعة. وجلت قطعة جديدة من الفخ خنزير في الملاحة فطهوت ست شرائح منها مع ثلاث بيضات شعرت بتحسّن بعد أن أكلتها مع الخبز الحاف والربى وعصير التفاح والقهوة. واستمر الإحساس بالسعادة والإدراك العميق للمتد الآفاق. خطر لي أن مشكلة الوعي الإنساني الأساسية هي أنه يتركز على الحاضر معظم الوقت. وفي لحظات الاسترخاء وحدها - لحظات الإجازات - نستطيع أن نحقق حالة هي في نفس الوقت "يقظة كاملة" ولكنها "غير مركزة". وهذه حيلة، أن تظهر العادة القديمة، عادة السماح لوعي بأن يسترخي حينما لا يكون مركزاً هاهنا أنا، مفعم بالإحساس بقدره غريبة، وعقلي يقظ بقطعة تامة، ومع ذلك فإنه غير مركز على شيء. بالتجديد. وكانت النتيجة هي أن يملأني كل ما أنظر إليه تقريباً أو ما أفكر فيه بالاستثارة والروى الداخلية الدقيقة إلى درجة لا يمكن القبض عليها أو إمساكها.

كان لدي الستير - على رف الكتب - طبعة جميلة من قصائد تشاترتون^(١). ولم يكن قد قرأت ما جمعه له رولاى من قصائد. ومع ذلك أجبنا نظرت إليها، انتابني إحساس بالعرفه. بالألفه. أخذت كتاب القصائد من على الرف ونظرت إلى تاريخ حياة تشاترتون.

(١) توماس تشاترتون ١٧٩٤ - ١٨٠٠، واحد من أشهر الشعراء الإنكليز. في عصر (الأحياء القوطي). كان يعنى من لغة رومن شعر العاطفي والوجداني، مات منتعراً في ليلة ٢٤ أغسطس عام ١٧٩٠.

١٧٧٠، ١٧٧١، وكان أصغر من أيزموند بأربع سنوات، ومن الواضح أنه كان في لندن طوال شهر الأربعة الأخيرة من حياته - قبل أن يتناول جرعة من سم الأرسنيك. كان في وسع أيزموند أن يقابله، جلست على القعد القريب من النافذة، والكتاب مفتوح على ركبتي، وأفرغت عقلي. على التو كنت أنا أيزموند، ظهر مثل صديق قديم وراء عيني ناظراً إلى الكتاب. عرفت إجابة سؤالي. إنه لم يقابل تشاترتون أبداً - فقد كان في غوتينغن حينما كان تشاترتون في لندن؟ ولكن كان قد تحدث مع والبول عن تشاترتون في عيد الميلاد السابق. وكان والبول غاضباً بعنف لأن الصبي كان قد أرسل إليه بعضاً من شعره نسبها إلى شخص يدعى جون ابوت، وخدع والبول بالقصائد حتى أعلن الشاعر غراي أنها قصائد منحولة ومنسوبة خطأ إلى جون ابوت. وكتب والبول إلى تشاترتون، وأشار له بركة إلى أن من واجبه أن يستخدم مواهبه من أجل أغراض أحسن، فجاءه جواب وصف بأنه "مقالة سيئة للأدب وبذينة". وحينما سرد والبول على أيزموند هذه القصة أغفل أن يذكر أن غراي قد اكتشف عملية السرقة ونسب الفضل في الاكتشاف إلى نفسه.

دق جرس التليفون، فافترضت أنه لابد أن يكون المتحدث هو كورنر أو انجيل. ولكن حينما سأل الصوت الألماني الثقيل قائلاً: هل الستر سورم موجود؟ علمت أنني أخطأت بالاستجابة للربيع. قلت: "إنه هو المتحدث" بخشونة مفتعلة.

٣٠هـ، شكراً لله. أنا "أليزا دانكمان". كنت أحاول الاتصال بك طوال عطلة نهاية الأسبوع. كيف حالكم؟

تبادلنا الجملات اللؤبية للحظة، ثم قالت:

"اسمع، من المهم جداً أن أراك. هل يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

"إنني متأسف للغاية، فإن هذا مستحيل. فانا راحل إلى إيرلندا. عصر هذا اليوم..."

بينما كنت أتكلم معها، شعرت بوخزة غريبة بين الغاذي، وعادتي فجأة بوضوح عظيم صورة فخلطها الفتوحين وأعضائها التناسلية تحت الحرير الوردي اللون. خطر لي أن أيزموند جدير بأن يفهم هذا. ولكن كان شيئاً بالغ الصعوبة أن أحاول تصفية عقلي وتركيزه وهي تتحدث. فجأة انقطع الخط وانقطعت المكالمات. افترضت أن عطلاً فنياً قطع الاتصال، فوضعت السماعة. وخطر لي أن هذه اللحظة ربما كانت هي اللحظة المناسبة لكي

اتصل بيانا في ماي كوللان - حتى إذا اتصلت أنا دانكمان مرة ثانية وجدت الخط مشغولاً. اتصلت بعائلة الخط، وبعد بضع دقائق كنت أتحدث مع موبسي، التي قالت لي أن "مامي" في بيت تنهضة الزهور، في الحقيقة. بعد دقائق قليلة جاءت ديانا إلى التليفون، وقالت إنها كانت تحاول الاتصال بي منذ أمس. لقد استطاع فليشر أن يحصل على عرض من شركة سينمائية لإنتاج فيلم عن المادة التجمعة لديه عن دونيللي. وأنه يريد إجابة فورية. كان البالغ العروض كبيراً جداً بالطبع، ولكن فليشر اقترح أن يأخذ خمسين بالمائة، وهي نسبة بنت لي مبالغاً بها جداً. تحدثنا لمدة تقرب من العشرين دقيقة، وقلت لها أنني أرجو أن أعود في غضون يومين. وقلت لها ألا تفعل شيئاً بخصوص الرقبة التي أرسلها فليشر. وحينئذ دق جرس الباب. قلت لها "إلى اللقاء" بسرعة، وذهبت لكي أنظر من النافذة. كانت أنا دانكمان تقف عند عتبة الباب الخارجي.

شعرت بما يغريني ألا أحجب، ولكن بدا لي هذا نوعاً من الجبن، إلى جانب أن مر المحتمل أن تكون قد سمعت صوتي وأنا أتحدث بالتليفون - فقد كنت فتحت النافذة - ذهبت وفتحت لها.

ابتسمت لي بطريقة اسرة مليئة بالود.

٣١هـ، يا عزيزي جيرارد. جميل أن أراك مرة ثانية."

أمسكت بكلتا يدي. وأصقت نفسها بي في أنفعال للحظة. وجدت نفسي أتساءل إن كانت ترتدي السروال الخرم، وشعرت بوخزة بين فخذي.

الأمر اللطيف هو أنها كانت امرأة كنت جديراً بشكل طبيعي أن أراها منفرة على الفور وبشكل مباشر. لم تكن سيئة نظهر وكان جسدها جميلاً - وإن كانت تعمل في البذرة - ولكنني كنت أشعر لها ذات مظهر رجولي بشكل أساسي. وبشكل مناقض للطبيعة، لاح أن هذا يزيد من جانبيتها عن طريق إثارة الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين الذكر والأنثى، ويقيم بدلاً منه نوعاً من الصراحة الرفاقية، وكان علي أن أعترف بأنها كانت تتمتع بجانبية الشيطان وحسنه الظاهري.

كانت من الحكمة لدرجة أنها لم تشر على محاولاتها للاتصال بي، الأمر الذي كان من الممكن أن يتضمن نوعاً من التائب أو اللوم. كانت مقعمة بالدفع. فقد كنا - في نظرها - صديقين قديمين عاداً إلى الالتقاء وقد ابهجهما أن يرى أحدهما الآخر.

سألتني عن صديقي الشابين ابنهما. فقلت لهما أنهما سيبقيان بالخارج طوال النهار. مثلت أنبي اكتشفت على وجهها شبح ابتسامة تهنيئ بها نفسها. قالت:

"يا للخسارة. لقد أردت أن أقابل هذا الشاب. إنه يبدو ذكياً واسع الأفق".

فكنت أزرار معطفها. فأعنتها على خلعها. كانت ترتدي ثوباً من نسيج بني ناعم. جعلته نهداها الكبيران مشدوداً إلى الخارج. وكان الثوب بالغ القصر.

جلست على الأريكة. بطريقة أقرب إلى الاحتشام. وقد ضمت ركبتيها ووجهيها إلى الخارج. ولكن فصر ثوبها جعلها تعري ساقيها حتى طرقي جوربها بشكل حتمي. كما تعرت منطقة من الفخذين. عرضت عليها فداً من القهوة. قالت:

"كلاً أشكرك. إنما أريد أن أتحدث معك عن أشياء كثيرة. ونبدأ بمسألة هامة. إنك بإقامتك في إيرلندا تحتاج إلى مساعد أدبي "ليس كذلك؟"

قلت بحذر شديد أن هذا محتمل، ولكن لابد أن أعترف بأنني كنت قد بدأت اتساءل إن لم يكن مكورنر ببالح بشان دانكمان وزوجته. كانت تشع بالدفع وبهيوية عاطفية عارمة. قالت:

"حسناً. إن لدي الشخص المناسب تماماً. هناك فتاة شابة تدعى كلارا هيببيج. وهي مويسرية. حينما أخبرتها بأنني قابلتك، لم يكن يوسعها أن تصديق ذلك إلا بصعوبة. إنها تملك كل مكتبك، وملفاً كبيراً يضم كل ما كتبته عليك في الصحافة".

ابتسمت ببتة مطمئنة. ثم استطردت تقول:

"هذا بالطبع نوع من الافتتان الذي يحدث للفتيات الصغيرات - فإنها قد أنعت تعلميها في الكلية منذ وقت قصير جداً. وقالت أنها كتبت لك مرتين. ولكنها لم تحصل على أي جواب". (ومن الممكن أن يكون هذا صحيحاً. فإني لا أحجب على الخطابات إلا إذا لم يكن على

أن أكتب شيئاً آخر). وهذه الفتاة لديها الكثير من وقت الفراغ. فإن والدها يرسل إليها مبالغ جديداً كل شهر. وهي تقوم بالدراسة في جامعة لندن. وحالاً أخبرتها عن عملي في موضوع نوتيللي. عرضت أن تقوم بعمل مراسلتك الأدبية في لندن. وهي لا تريد شيئاً في مقابل هذا. إنها لا تريد إلا أن تعمل معك...

وحدثتني في الأمر ما يتعلق غروري. فإنه لا يوجد كاتب أصبح متخماً بالملذات. غير مهبال بها لدرجة ألا يستمتع بإعجاب النساء به. وحدثت نفسي أسيراً لسحر موضوعية السيدة دانكمان وعدم تحيزها. فمن الواضح أنها لم تكن من النوع الفيور. قالت:

"أصيب. لقد قلت لكلاً أنا قد نذهب كي نراها اليوم في أي وقت. إنها تقبني في نوتينج هيل حيث، وبهذا فإنها قريبة من هنا. لدي صورة لها".

فتحت حقيبة يدي، وأخرجت حافظة أوراق صغيرة. وففت لكي أأخذها منها. وففت هي أيضاً وبدأت تبحث في الحافظة. وكانت تضع نوعاً خافت الرائحة وإن كان معتماً من العطر. وقد زابت نغومة نسيج ثوبها من استدارات تهيئها وردفها. قالت:

"أه، هاهي".

تحررحت لتقرب مني. وضغطت أعلى فخذها بخفة على الفخذ. شعرت بخوذة من الرغبة وكانت تجعلني أفرز. كانت الصورة التي أطلعتني عليها لفتاة في ثياب الانزلاق على الجلند. والفتاة على قمة للزلق الجلندي للترتفع. بدت الفتاة جميلة ونحيفة. ولكن كان من الصعب التأكد من ذلك بسبب ثيابها الثقيلة.

ولكن ما أدهشني كان التعة التي كنت استمدها من الانحناء على أنا دانكمان. كانت ملتصقة بي التصاقاً خفيفاً. ثقل صور الحافظة المملنة بها. وبدأ لي أن ألتفت للنطلق من خلال ثوبها يتصل مباشرة بعضوي الجنس. لاح لي أنها تحمل صوراً عديدة لكلارا هيببيج. أطلعتني على صورة قريبة لوجهها رايت فتاة على شيء قليل من الذكورة ذات صدغين مرتفعين - جميلة - وشعرها الأسود منسل على كتفيها. ذكرتني بشكل غامض بمظهر أنا دانكمان نفسها.

وإذا ولغت في مكاني خلفها نظراً من فوق كتفها، أريكني عتف رغبتني، إن استجاباتنا الجنسية من التعبد بحيث أنه من الصعب أن نقول بنقطة لانه يتمتع شخص معين بجاذبية خاصة علينا، وفي هذه الحالة لم أكن مستعداً للتسليم بالقاء بكل المسؤولية على وعيي الباطن. نظرت دون وعي إلى صورة الفتاة، محاولاً أن أتذكر شيئاً ما. وهجاء قالت أنا دانكمان.

٣- "أشعر بدخء؟"

ودون أن تعي بذاتها، مدت يدها وراء ظهرها فلدستها بين أعلى فخذي وبين فخذي. تركت يدها في ذلك المكان لحظة قصيرة، مفتوحة... حينذاك فعلت ما كنت أفكر في فعله منذ أن دخلت الشقة إذ مدت يدي إلى ذيل ثوبها، ودستها فوق طرف جوربها. قالت:

"هذا جميل، إتينا صديقان. ليس هناك سبب يمنعنا من أن يعامل أحدهما الآخر بصراحة. إنني أكبر جداً من أن أكون عشيقتك، بالطبع، ولا يريد أحدهما ذلك. ولكن ما يزال هناك قدر كبير من التجاذب الطبيعي، تجاذب الأنثى والذكر - فيما بيننا. ويمكننا أن نكون صريحين فيما يتعلق بهذا".

كانت هذه هي الزاوية الصحيحة للنظر إلى السألة، فإن فكرة حمل أنا دانكمان إلى الفراش كانت جميلة بأن تزعجني. ولكنها لم تتوقع شيئاً من ذلك. قالت:

"سوف تجد أن كلارا أقرب جداً لأن تكون النوع الذي يروق لك. إنها فتاة حلوة. يمكننا أن نذهب لكي نراها".

فكرت في أن هذه قد تكون فكرة طيبة. كنت قد بدأت أشعر بنفس الاشتها غير الصحي الذي شعرت به في سبارة الأحرة مع انهيار، ذلك النوع من الشعور الذي من المحتمل أن يحس به الشخص للميل إلى الاستعراض... ومن الناحية الأخرى، لدني الجذر على أنه قد يكون من الأفضل أن اضطر هذه الفكرة من ذهني.

قالت:

٣- "أجل، لماذا لا نذهب إلى هناك الآن؟"

٣- "طيب، جميل، ولكنني أحب أن أقول لك شيئاً عن خططنا..."

أخذت يدي بشكل طبيعي تماماً وفادنتني إلى الأريكة. فأخرجت من حقيبة يدها عدد من الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة. قالت:

"هذا الكلام بالألمانية، هل تقرأ الألمانية؟ إذن سوف أقوم بالترجمة".

كانت جالسة في الوضع المألوف، مستندة بظهرها إلى السند، وفخذاها مكشوفتان فوق ذيل ثوبها المشدود إلى ما فوق أطراف جوربها. كان فخذاها بلمساتني. وشعرت بشيء من صدمة كهربائي واهنة تجري منها مباشرة إلى ما بين فخذي.

حينذاك، وعلى حين هجاء تماماً، كان إيزموند في مكاني، وتغير كل شيء. شعرت كما لو كنت قد خطوت فجأة خارجاً من جسدي، ولنتي انظر إلى نفسي من جزء آخر من الحجر. عبرت موجة الحمى وانتهت. وفي نفس الوقت، فهمت، دون أن أشعر ببذل أي جهد عقلي محدد، كانت أنا دانكمان نمتلك نوعاً من الطاقة، نوعاً غريباً يدياً من الطاقة التي تملكها كل النساء بشكل غريزي، ولكن هذه الطاقة - لدى معظم النساء - تكمن تحت الطبقات التي تكونها "الشخصية"، و"الكوايت". وقد تعلمت أنا دانكمان أن تحرر هذه الطاقة وأن توجها. لن يكون تعبيراً دقيقاً أن نتحدث عن هذا الإنجاز من جانبها باعتباره شكلاً من أشكال السحر، وإن كانت الطاقات الفعلية التي تملكها الساحرات تتمتع بنفس الطبيعة. وقد رأيت في ومضة خاطئة أن هذا هو السبب الذي يجعل من التقليدي أن يكون "يوم سبت الساحرات" حيث يجتمعن بالشيطان، يوماً مليئاً بالأعمال الشهوانية، مع خلع ملابسهن كلها، والمساعدة مع ذكران الماعز، وما إلى ذلك. فالساحرة تلقى عن نفسها كل أنواع الكبت وتتعلم كيف تركز كل طاقتها الجنسية الطبيعية.

لقد فهم إيزموند أنا دانكمان، فإنه كان قد عرف الكثيرات من نوعها، بل إنه عرف من هن أكثر موهبة منها. وحملت نفسي أنظر إلى داخل عقلي أنا دانكمان، فأشعر بافتتان مخيف. لم تكن مثل زوجها منحرفة جنسياً. فالانحراف ينبع بسبب عقبة سيكولوجية غائرة في نفس الإنسان. وكان كلأوس متسماً عن فكرة "الحرم" والمنوع. وكانت فكرة أن أي شيء يمكن أن يكون محرماً أو ممنوعاً كافية لكي تجعله ينتصب، إنه مثل ذي صائد أراد أن يكون شريراً، وأن يمضي حياته في البحث عن أشياء جديدة مذهشة يفعلها. وقد

تلاصحت نزعاً أنا داتكمان الجنسية الفياضية مع نزعته تلك وإشباعها إشباعاً كاملاً. فإن غريزة الأمومة لديها كانت قد تشوهت وتحولت إلى نوع من النهم الشره. رأيت بوضوح أنها كانت مزدوجة الرغبة الجنسية، وأن ككلار هيبيج كانت عشيقتهما. فإن موقفها من الجنس كان موقفاً ذكورياً بكل غريب، كانت تحب أن يأخذها كل رجل في العالم، وأن تملك هي ككل امرأة جميلة. وكانت تتمتع بفضول لا يشبع، كانت تريد أن تكون "في" داخل و فوق كل شيء. وقد رأيت أن هذا هو دفعها إلى البحث عني والاندياج نحوي. فقد كان يوسعي أن أضيف جواً من الكفاءة الثقافية على "مجموعتها" فتجذب بذلك الانبعاث والتلاميذ. وكانت خطتها أنه لايد لي من أن أخذها هي وككلار هيبيج قبيل أن ينقضي النهار، ثم تكون مهمة ككلارا هي أن نحافظ علي وأن نشدد قبضتها، من خلال ما تشيعه حولها من جو النابعة المقتونة.

لا أدعي أنه كان يوسعي أن أقرأ ما يداخل عقل أنا داتكمان. فقد كان ككل هذا - بمعنى من المعاني - نوعاً من التأمل، ولكنه كان تأملاً قائماً على أساس من تجربة أيزموند الهائلة. وقد بدا لي ككل هذا واضحاً شديداً الوضوح. ثم أدركت الآن أنه - أيضاً - قد بدا متيراً للعاطفة إلى حد ما، وكانت تمتلك الكثير جداً من الطائفة، وفرصة محدودة جداً لاستخدامها. فلماذا لا تقبض على أية فرصة تلوح لها؟ كان هذا أمراً مفهوماً.

ثم تكن واعية بأنها قد "فقدتني"، فقد جاء "استبصارى" الداخلي لها سريماً كالأميض، بينما كانت لا تزال تقلب الصفحات. أمسكت بالأوراق مفتوحة بإحدى يديها، وراحت يدها الأخرى تتحرك فيما بينها، لكي تزيد من قوة الاحتكاك. وفي تلك النقطة بدا أيزموند يسلي نفسه، كان ما فعله ببساطة هو أن ضغط على فواي الجنسية، وتوجيهها ضدها. وفي الحقيقة، لم يكن هذا غريباً علي غربة كاملة، فإنني كنت أفعل هذا دائماً دون وعي، في لحظة الاتصال بفناء كانت قد اجتذبتني إن امرأة - إذا رغبت في اجتذاب رجل ما - فإنها قد ترمش بعينيها أو تناوّد لكي تبرز مفاتها، ولكنها إذا كانت رزينة محتشمة فإنها ستحافظ على هدوء السطح الخارجي، ثم تستخدم السحر الداخلي القادر على الاتصال المباشر غير الظاهري الذي كانت أنا داتكمان تستخدمه الآن. أما الذكور فإنه نادراً ما يستعرض مراكب جاذبيته بشكل صريح. إن أسلوبه من البداية يعتمد على الظهور بمظهر غير اليادي

ولا أهتم. وعلى ذلك فإنني - بمعنى ما - كنت متفوقاً على أنا داتكمان في هذا الصدد ولكنني ما كنت أستطيع أن أعرف هذا دون المعونة التي أسديتها إلي خيرة أيزموند.

شعرت بالإثم بسبب هذا الموقف، فإنني لم أرد حقاً أن اجتذبها. ولكن علي أن أعترف بأنه كان في سلوكي هذا نوع من "العدالة الشعرية". العقاب الذي ينزل بالآثمين في الأساة التقليدية. كان الموقف قد تحول إلى مباراة، مباراة بسيف خشبية.

بدلت ترجم الكلام المكتوب بالألمانية، وحينئذ ارتعشت اليد المسكة بالأوراق، كانت تقاوم. وكانت قد اعتادت أن تكون هي الساحرة لا "السحرة"، وفي هذا الوضع الجديد ازعمها الإحساس الجديد المصاحب له وأخافها. قلت بأدب: "استمري"، وزدت من التبار الضاغطة. بدلت نقراً:

"إن القواعد التي تتبعها جماعة تعاونية من تلامذة رايخ..." ثم توقفت، وقالت:

"يجب أن نعتز على اسم آخر لهم".

قلت: "أجل، يجب أن نفكر في اسم آخر..." فاستعادت ثقتها وعادت نقراً:

كنت قد لاحظت أن لتوبها زمناً من الخلف، وأن الزمام يعلق عند قمته بزر ضخمة وقد أدركت في تلك اللحظة أهميته. كان فخذهما سلاحاً عدوانياً، فخاً للذكور إليه بفخ العناكب للذباب، ولكن نهديها كانا جزءاً من اثوثتها، الجزء الأموي منها. أشرت إلى جملة في الورقة تقول: "ماذا يعني هذا؟" فلمست عظيمة ساعدي قمة تهدها. جعلت حفلة ضئيلة واستعدت. وضعت يدي بقوة على النهدي وأمسكته، اللحظة فقدت السيطرة على نفسها وحاولت أن تبع يدي بعنف دون حساب، مثل فتاة صغيرة. ثم استعادت سيطرتها على نفسها مرة أخرى، وقالت بصوت ثابت بدرجة ملحوظة:

"إنها القنباس من رايخ...". شرعت ترجم الجملة كاملة، مدبت يدي وراء ظهرها.

وفي حرص حللت الزر الضخم، كتبت هي رغبتها في إيقائي، فقد كانت هي - على ككل حال - التي تحدثت عن "ضرورة أن يعامل احفنا الآخر بصراحة". جذبت الزمام إلى أسفل، فرائت أن ظهرها كان عارياً، باستثناء شريط حمالة الصدر. حللت رباط حزام صغير عند خصرها. وجذبت الزمام إلى أسفل حتى أقصى مجراه، تحت الطرف العلوي لسروالها الداخلي، قالت:

"لنك شئت انتباهي"، "لنك شئت انتباهي".

حاولت أن تضغط بظهرها على مسند الأريكة، ولكن محاولتها كانت متأخرة جداً. فقد سكنت نجحت في فك مشبك حمالة الصدر. ضغطت بظهرها على مسند الأريكة بقوة، وفعلت سيطرتها على نفسها تماماً للمرة الأولى. أصبحت فجأة غير واثقة من نفسها، وهي تشعر بما يقربها على قتالي، دون أن أنظر إلى وجهها، أمسكت بكتفي ثوبها، وجديتها إلى الأمام، ابتعد الثوب عن كتفها للذين كانا أبيضين مستديرين مثل كتفي تمثال. كانت جسيمة بأن تبدو في هيئة ممتازة وهي ترتدي ثوباً دون اكتناف في يهو حفلة راقصة في عصر الإمبراطورية الثانية. كان نهديها كبيرين، وما زال بحالة جيدة. انهشني بياضهما، واحمرار الحلمتين الناقض لذلك البياض. وضعت كل من إحدى يدي على أحد النهدين وشعرت بالدفع يتسلل طاقها في داخلها. كان هناك شيء يدعو إلى الإعجاب بالطريقة التي حاولت بها أن تستعيد سيطرتها على نفسها، ونجحت في ذلك جزئياً. سكنت أعرف ما كان يحدث لها من الطريقة التي تفرجت بها ساقاها. كانت تشعر بنفس الوخز المموم الذي شعرت أنا به من قبل. ملت يدها ووضعتها فوق بنطالي... فقلت: "لبي". ترددت ثم فعلت كما أمرتها. سقط الثوب على الأرض، ووقفت في مكانها بسروالها الداخلي الوردي، وحزام الجوربين فوقه، مع الجوربين. جذبتها حتى التصقت بي... أرقبتها على الأريكة، وخلعت كل ملابس...

جفلنا مكاناً عند سماع صوت جرس التليفون...

قال صوت رجل: "مستر سورم؟"

"يتحدث".

"لنك لا تعرفني. اسمي نيجيل سانت ليجير. ثري، هل يمكنك أن اجيء لكى أراك؟"

"أنت الـ"نيجيل سانت ليجير"؟"

أطلق ضحكة تدل على الحرج وقال:

"أعتقد أن يوسعك أن تقول هذا. هل يمكنك أن تأتي لكى أتحدث معك عن موت

هوراس جليتي؟"

"صليب، نعم، بالطبع. متى؟"

"لاني قريب منك جداً هذه اللحظة. أيمكنك أن اجيء إليك الآن؟"

"بالطبع. هل تعرف العنوان؟"

أوه، أجل. سأكون معك بعد دقائق قليلة."

حينما التفت ورائي كانت أنا وانكمان تشبك حمالة صدرها بالفعل... ثم قالت:

"أعتقد أنك تظنني بالغة الغباء؟"

"صلاً"، ولكنني لم أعرف ما أقوله عدا هذا.

كان يوسعي أن أشعر بها وهي توشك أن تغضب. أمسكت بمعصمها. قالت:

"لأننا لم نخبرني؟"

قتل أول شيء خطر على ذهني.

"ربما لم يكن هذا مسووحاً لي به."

حدثت في وجهي، وقد ناز اهتمامها فجأة. وللحظة طويلة ظلت عينها تحدقان في عيني. قالت:

"أظنني ألهم".

وكان هذا أكثر مما يوسعي أن أقول.

تحركت متجهة إلى الباب.

قالت بأسلوبها اللطيف الودي الخادع:

"حسناً، إننا نظل صديقين."

كانت قد عادت إلى سيطرتها على نفسها مرة أخرى. وقفت في مكانها، معصمها مفتوح، ويدها ممدودة، وساقاها منفرجتان ثابتتان على الأرض. ولكن الموقف بدا سخيفاً ولا

معنى له. تطورت إلى التهلين البارزين. وخضعت بصري إلى القنطين. كانت امرأة تتظاهر بأنها رجل.

حينئذ. احمر وجهها فجأة. لم أكن قد تبينت أن نظرتي واضحة ككل هذا الوضع. أنزلت يديها. واستدارت دون كلمة. وجذبت الباب بعنف ففتحته. لم أبدأ أية محاولة لتابعها. فإني أولاً. كنت مسروراً لرؤيتها ترحل. وثانياً. شعرت فجأة بالأسف. فربما كانت مباراة أيزموند لعبة ممتعة. ولكنها غادرتها مكشوفة ومعرضة للاختراق من أي نقطة. ماذا عساها تستطيع أن تفعله الآن؟ أتحاول أن تمني جانبها الأثوي؟ هذا أمر لن يؤدي فقط إلى الإحباط لو حاولته. طرأ على ذهني فجأة أن هناك فارقاً واحداً أساسياً بيني وبين أيزموند. لقد كان ينتمي إلى القرن الثامن عشر. قبل عصر "الحساسية". لم تكن هزيمة أنا دلتكمان بالنسبة إليه سوى شيء مضحك. والأكثر من هذا. لا أهمية لها.

ذهبت إلى النافذة حينما سمعت السيارة تتوقف بالخارج. تعرفت على تيجيل سانت ليجير قبل أن يخطو خارجاً منها إلى الرصيف. لم أكن قد رأيته أبداً في السلسلة التلفزيونية التي جعلته معروفاً لعدد كبير جداً من الناس. ولكن كان لدي كتاب عن فضايام وحالاته. مزود بعدد كبير جداً من الصور. كان أصفر حجماً مما توقعته. ولكن مشيته كانت تشبه نوع من التلحق القوي إلى الأمام دلت على شيء ما في شخصيته.

قابلته عند الباب. سألتني "مستر سورم؟"

صافحتني ولكن بتسامحه بدت لي باردة قاسية. تقدمته إلى داخل الشقة. كان رجلاً وسيماً. قوي البنية. في أوائل عقد الساتس. وكان بوسعي أن أتخيل أن نظرتي المحدقة النافذة الباردة قد أخافت عدداً كبيراً من الساجين في فصوص الاتهام.

قلت. "من أخرجك باتني هنا؟"

نظر إليّ بحدق. فكما لو كان يشعر بما يخبره لأن يقول: "أنا الذي ألقى الأسئلة" ثم أضاف قائلاً.

"الدكتور كورنر. بالطبع."

أخرج عليه سيجار من جيبه. وقدمها إليّ. هزأت رأسي. فخرّب مني وأنا واقف بالقرب من النافذة وحدثني في وجهي. قال.

"لنني لم أقرأ أي كتاب لك من قبل. ولكن سوف أحرص على أن أفعل ذلك الآن."

لم أقل شيئاً. توجه إلى منضدة لعب الشطرنج عند النافذة. ودون وعي. حركت أحد بيداق الشطرنج. قال.

"هل تلعب الدومينو. يا مستر سورم؟"

لم أقل شيئاً. كنت أحاول أن أحتفظ بنقاء عقلي. وقف سانت ليجير ينظر إليّ. مبتعاً ليأني بالفضل ما يملكه من نظرات الاتهام.

قال أيزموند.

"تحياتي. أيها الشريف."

جفل سانت ليجير. وبان عليه الانزعاج. ولكنه استرد سيطرته بالذهاب إلى الأريكة والجلوس عليها. قال.

"أفهم من هذا أنك تعرف الكثير يا مستر سورم. ولكنك لا تنتمي إلى منزلنا. والأستاذ الأعظم لم يسمع بك من قبل أبداً."

كنت أعرف أن من الأفضل لي أن أترك هذا الموضوع لأيزموند. فلم يكن هناك وقت أضيق في محاولة الاعتماد على نفسي. قال أيزموند.

"أذن فلا بد أن عليك أن تسمع عني. أليس كذلك؟"

أشعل سانت ليجير سيجارة.

"هذا هو الواضح. إن كان كل ما سمعته صحيحاً. حاول أن يسترخي. ثم استلرد بالقول.

"سمح لي بأن أوضح موقعي. لنني لا أنكر حقك في الانتماء إلينا. إن مؤهلاتك عظيمة بشكل مثير واضح. وبهذه المناسبة. أين تعيش؟"

"في إيرلندا".

"أوه".

ظننت أنه قد بدا عليه الانسراح والتفاؤل. قال:

"طبعاً. لم يكن هناك أي شيء في إيرلندا منذ سبعين عاماً. ربما كان علينا أن نفعل شيئاً ما هناك".

نظر في طرف سيجارة، كان لدي إحساس بأنه ليس وثقاً من الكيفية التي يعالج بها هذا الموقف. ثم نظر إلي. قال:

"كيف استطعت أن تكتشف الأمر. يا مستر سورم؟"

لم يقدم ايزموند إلي أي معونة. فقررت أن أقول الحقيقة.

"لقد طلب مني ناشر أمريكي أن أكتب عن ايزموند دونيللي. وطوال الشهور القليلة الماضية كنت أحاول أن أكتشف منكراته ولوراقه".

"ولم تكن تعلم شيئاً قبل هذا؟"

"كلا".

"أرى ذلك".

بدا عليه الارتياح. دق جرس الباب، فتحرك كل منا لدى سماعه. قال:

"هل تتوقع مجيء شخص ما؟"

"كلا".

"جميل. إذن اظنني أعرف من يكون. هل تسمح؟"

ولكن كانت أنجيلا هي القادمة. قالت:

"لقد أوصلني كريس، وقد اشتبك في مناقشة عنيفة مرعبة مع أوتو..."

دخلت إلى الحجرة، ورات سانت ليجير الذي وقف بأدب لكي يحييها. تعرفت عليه على الفور وبان عليها ذلك. قدمت أحدهما إلى الآخر. فتصافحا، وأظهر هو قديراً من التهذيب أكبر بكثير مما كان قد أبدى. حتى الآن. قال لها:

"أنت عضو في جماعة الدكنور كورنر. شيء ساخر أعتقد أنك أنت التي قدمت المستر سورم إليه؟"

سألته: "هل تعرف بامرهم؟"

"أوه. أجل أنا أعرف بامرهم".

نظرت إلي أنجيلا. تراجعو الحصول على بعض المعلومات لكي تفهم الموقف.

قلت:

"إن السر فيجيل هو اللشرف على المنزل الإنكليزي لجماعة العنقاء".

شحب وجه سانت ليجير للحظة ظننت أنه على وشك أن يفقد سيطرته على نفسه. قالت أنجيلا:

"هو يمزج؟"

بدا على سانت ليجير أنه فقد شهيته للكلام تماماً. قال:

"من المؤكد أن لديه إحساساً فكاهياً سبب التقدير والخط".

قالت أنجيلا:

"يظن كورنر أنك من جماعة العنقاء. ماذا قلت له؟"

قطع سانت ليجير كلامها بالقول:

"إذا سمحتم لي، اظن أن هذا موضوع من الواجب ألا نتحدث فيه. إنه قد يكون خطيراً".

قالت أنجيلا: "خطيراً؟"

حدث فيها سانت ليجير لعدة ثوان، ثم وقف واتجه إلى النافذة. توند لدي انطباع بأنه شعر براحة أكبر وهو واقف على قدميه، اطل من النافذة ثم قال:

"لقد سألتني عن اغتيال اللورد جليبي. وهذا موضوع لا اعرف عنه الكثير، ولكن يوسعي أن اقول لك شيئاً واحداً. إن جليبي لم يكن هو الضحية المقصودة. كان المقصود هو ايزموند دوتيلي."

حينما قال هذا، عصفت بي إحساس عابر بالدوار، كما لو كان قد احترق شيء ما داخل عقلي. وليس يوسعي أن افسر ما حدث. إنما كان صوت سانت ليجير وهو يقول: ايزموند دوتيلي هو ما فعل بي هذا. لقد قلت أنني كثيراً ما شعرت بنوع من الخلل في الأسبوع السابق كما لو كنت أنا وايزموند نحتل عقلاً واحداً. ولكننا كنا كالكريبيين، ولم تكن ذاكرته في متناولي. ولكن حدث في تلك اللحظة شيء ما جعل كل تلك الذكريات واضحة ومعمّدة، مثلما يتضبط مجهر حياة لكي يكرر الكائنات الحقيقة تحت عدساته، كما لو كان عقلي عقل ايزموند قد ارتبطا فجأة بمشبك فولاذي إذا بهما معاً. كنت قد عرفت أن هذا من الممكن أن يحدث منذ نحو أسبوع، ولكن التكيف النهائي بين العقل والواقع كان ما يزال مطلوباً. أما الآن فلم يعد هناك الزيد من الأسئلة. فقد امتزجت ذاكرة ايزموند بذاكرتي. وفي تلك اللحظة، حينما سألت انجيلا سانت ليجير عن كيفية معرفته بهذا، وجلت نفسي اقول:

"يمكنني أن اخبرك بذلك."

قال سانت ليجير: "ليس من المحتمل أن تستطيع معرفة هذا."

قلت: "كان خطأ جليبي الأكبر هو أنه حدد الأسماء. ففي النسخة الأصلية من كتابته "خطابات من فوق أحد الجبال" حدد أسماء عبدالله يحيى والأساذ الأعظم، وذكر أن هنريك فان جريس كان هو المشرّف على هولندا. وافنعه ايزموند بأن يغير الأسماء في النسخة المطبوعة، ولكنها ظلت تسبب تمرداً وانفجاراً داخل الحركة، وأراد فان جريس أن يتم اغتيال ايزموند، ورفض يحيى ذلك. وفي عام ١٧٩١ سمع فان جري يحيى وقتله. ومنذ ذلك الحين عرف ايزموند أنه لابد مقتول في أي وقت، وقد استيقظ ذات صباح في باريس، فوجد خنجرأ مفروساً في وسائته. وكانت هذه إحدى حبيلهم المفضلة. لكي يحطموا

معنويات الرجل بالخوف قبل أن يقتلوه. وقد استخدم الحشاشون الأصليون - الإسماعيلية هذه الخدعة على سبيل التهديد، وقد أجبروا صلاح الدين مرة على رفع حصار مكان قد ضربه على قلعة الأستاذ الأعظم بأن غرسوا خنجرأ في وسائته. وأدرك ايزموند هذا التحذير، فذهب إلى روسيا، ثم إلى اليونان، وحينما عاد، اكتشف أن جليبي قد ارتكب حماقته النهائية، كان قد نشر نشرته التي يهاجم فيها الجماعة، ويحدد اسم فان جريس بوصفه الأستاذ الأعظم الجديد. وكانت هذه هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل في عرف فان جريس، وكان لديه قاتل فرنسي محترف كان قد تدرب في تركيا - وهو رجل يدعى جاك كاريما - فأسلمه لطائرة ايزموند. وكان كاريما هو الذي قتل هوراس جليبي في فراش ايزموند."

"ولكن ما الذي كان يفعله هوراس في فراش ايزموند؟"

"كان قد سرد على ايزموند قصة سخيّة عن رؤيته لشبح في حجرته هو. ووافق ايزموند على أن ينام في الحجرة لمدة أسبوع - فقد كان لا يؤمن بالأشباح، ولم يكن جليبي بالطبع يصدق أنه يمرض نفسه لخطر حقيقي - فقد كانت الحجرة على ارتفاع سبعين قدماً، وكان يوصد الباب من الداخل. ولم يكن يعرف أن كاريما معروف باسم اللهبابة."

كان سانت ليجير ينظر إلي مذهوئاً، قال:

"قد يكون كل هذا صحيحاً، ولكنني أشك في ذلك. لا أحد يعرف التفاصيل. فقد أصبحت هذه التفاصيل بعضاً من أكثر اسرار الجماعة بعداً عن متناول الناس واندها حماية، ومن المحتمل ألا يكون هناك في العالم الآن من يعرفها سوى شخص واحد."

انتظرت منه انجيلا أن يستمر في الحديث، ثم لما راته بصمت، سألت:

"ومن هو ذلك الشخص؟"

قلت: "الأستاذ الأعظم الحالي."

قالت: "أذن فإنها مازالت موجودة؟" وانتظرت إلى سانت ليجير، وأضافت:

"ولم يكن يمزح؟"

صرفت سانت ليجير نظره عنها، وأدار رأسه بغضب وهو يقول:

"يا سينتي الشابة العزيزة، نصبحتي لك أن تلقى أقل قدر ممكن من الأسئلة. انني أسف جداً لعودتك في الوقت الذي علمت فيه. وانني لأكثر أسفاً لأن مستر سورم لم يكن مكتوماً إلى هذه الدرجة".

كنت قد بدأت أشعر بالغضب من سانت ليجير، أن أسلوبه اللبيء بالتفاخر قد بدأ يضغط على أعصابي. كنت قد أدركت الكثير وفهمت عنه الكثير. كان يتمتع بالاحتياج الرئيسي الذي يحتاجه مشرف في الجماعة، خضوعه للجنس ككهاجنس متسلط. وكان هذا مثلاً في سلوكه وأسلوبه في التعامل مع أنجيلا، كانت بالنسبة له وسادة هراش مناسبة. وكان بالفعل يتخيلها رائدة تحته وعيناها مغمضتان. كان رجلاً جندياً، جنسياً وشخصياً. وكان بعيداً جداً عن البلاهة. ولكنه كان ممثلاً. وقد ظهر هذا في الطريقة التي سار بها عبر الحجرة قبل إعلانه عن اغتيال هوراس جليني. وكنت أنا أمثل تهديداً جدياً له، هذا يفسر السبب الذي جعل أسلوبه معي حاداً إلى هذه الدرجة، شعرت بخيبة أمل لأن أول اتصال لي بالجماعة يتم عن طريق رجل مثله.

سمعت سيارة تتباطأ بالخارج. قال سانت ليجير:

"والآن، اظن أن علي أن أترككما".

ذهبت فوقفت إلى جواره. كانت سيارة أجرة من مطار لندن. وكان هو قد شرع يتحرك نحو الباب.

قلت:

"لا اظن أن رحيلك بغير شيئاً. فطالما أنك كنت تتوقع حضوره، يمكننا نحن أيضاً أن

نراه".

قال بهلوء، "هل تسمحان لي؟" ثم استدار إلى أنجيلا وقال: "ارجو أن تلقى ثانية".

تقدمت فتجاوزته، وذهبت إلى الباب. جاء خلفي وهو يقول بغضب: "حقاً يا مستر

سورم، إن هذا..."

كان رجل قد خرج من سيارة الأجرة وراح يتطلع إلى أرقام المنازل. كان بالغ الضخامة، وجهه بني اللون مليء بالنمش. التفتت عيناها بعيني. ثم رأى سانت ليجير بلهجة متسلطة:

"سوف أكون معتماً إذا انتظرتماني هنا لحظة واحدة". ثم تجاوزني وهبط الدرج لم أجد نفعاً في محاولة الإمساك به أكثر من هذا، قدخلت للنزل مرة أخرى. كانت أنجيلا تقف وراء النافذة. قالت:

"ماذا يحدث الآن بحق المجحوم؟ من هو هذا الرجل؟"

"أعتقد أن له علاقة بجماعة العنفاء، ولا أعرف شيئاً أكثر من هذا".

من وراء الستائر، راقت سانت ليجير وهو يتجول إلى الرجل الأسمر. قلت:

"إنه منزعج من وجودك هنا".

"أتحب أن أنصرف؟"

"قد يكون هذا هو أبسط الحلول".

الترب الرجلان في تلك اللحظة من المنزل، خرجت أنا لاستقبالهما. قلت:

"السيدة الشابة سوف تخرج الآن، إذا كنتما تريدان الدخول".

حدث في الرجل الضخم بطريقة مبهمه. ظننت أنه بوشك أن يتجاهلني. وحينئذ قال سانت ليجير:

"هذا هو المستر سورم. مستر السيد نوري".

وهنا مد الرجل يده ليصافحني وقال كيف حالك، تبينت أن صمته كان نوعاً من الحرص الشرقي على الشكليات. قال نوري:

"لا اظن أن هناك حاجة إلى إزعاج صديقك. إن مستر سانت ليجير لديه سيارة ويمكنه أن يأخذنا إلى بيتي".

"إن هذا ليسعدني" كذلك قال سانت ليجير في عصبية ظاهرة. لم يكن هذا يوم

معه.

قلت، "هل تسمح لي بلحظة؟"

عدت قد دخلت المنزل وأخبرت انجيلا بأنني ذاهب معها، ثم سألتها عما إذا كانت سمعت في حياتها عن رجل يدعى السيد نوري. بدت كما لو كانت قد جفلت، وقالت: "بالطبع".

"من هو؟"

"إنه مليونير من نوع ما. يقول فيما أضن. إن اسمه يذكر دائماً مع أسماء أوناسيس وبول جيتي. لا بد أنك رأيته."

قلت لها أن عالم الشؤون المالية العليا هو أبعد شيء عن اهتماماتي. قالت،

"انظر إلي. إنه شخص من النوع الذي يملك سلعة حقيقية."

خرجت ثانية وأغلقت الباب خلفي. تحرصت سيارة "ديملر" رمادية يقودها سائق خاص فاهزيت من المنزل، فتح السائق الباب لنا، وبينما كنا نجلس، قال نوري بطريقة تنم عن عدم موافقته، "بعيد جداً عن اللياقة".

احمر وجه سانت ليجير وقال: "إنني استخدمها دائماً".

رايت ظل انجيلا من وراء الستائر الشفافة بينما كنا نبتعد. من المحتمل أنها كانت تتسائل إن كانت جماعة العنقاء ما تزال تحتفظ بقرقة من القطة المحترفين.

ثم يتكلم أحدهما حتى استلونا متجهين إلى بارك لين. ثم قال سانت ليجير:

"كان عطفاً منك أن تقطع كل هذه المسافة لكي تأتي".

اعتبر نوري أن هذه كانت مجاملة، فقبلها بهزة من رأسه. ثم قال،

"ربما كان الأمر كما تقول. هاماً".

ولم يكن ههما قائمه إساءة أو غلظة، ولكن وجه سانت ليجير احمر ثانية.

كان إحساسي بخصور أيزموند قد اختفى مكان تلك الأحداث شيئاً غير مألوف لدرجة لا بد معها أن تدفعني إلى التوتر، وهذا التوتر هو ما جعل شخصيني أنا هي الغالبة بشدة. اسرحت بالتفكير في أنا دانكمان. فقد كانت تجربة مرضية دون شك. لقد كانت إحدى تلك التجارب التي أستطيع خوضها بنجاح باهر من دون أيزموند. كانت شخصيته تتمتع بتنوع من الثقة. بدافع لا يفتأ يدفعه إلى الأمام. وحبته أنا دائماً مساعداً على التحرر الحقيقي.

كنا قد توقفنا أمام منزل في شارع بروك. قال نوري، "لقد وصلنا" ثم نظر إلى سانت ليجير وقال، "شكراً لك على توصيلنا إلى هنا". كان ما يرمي إليه واضحاً. قال سانت ليجير،

"هذا يسعدني..." ثم فتح الباب لنا.

وقفت على الرصيف، أرمش بعيني تحت ضوء الشمس الساطع، ناظراً إلى ثياب الصيف الراحلة التي ترتديها النسوة في ميدان كروزفينور، شاعراً بأن ما يحدث الآن، غير مناسب بشكل ما مع هذا الانطلاق الحيوي القياض. انفتح الباب الأمامي قبل أن نصل إليه، بشكل ما كنت أتوقع خادماً شرقياً وراء الباب، ولكن الرجل الذي رأيته كان رئيس خدم إنكليزي عادي، انسحب وراء مصراع الباب لكي يسمح لنا بالدخول. وبدا أن نوري أصبح أكثر راحة وانطلاقاً بعد اختفاء سانت ليجير. قال،

"إنني لا أعيش هنا، ولكنني أحتفظ بهذا المكان للإقامة فيه إذا قضيت عطلة نهاية الأسبوع في لندن" إنه مناسب لي".

ثم ضغط على زر جرس.

كان منزلاً نموذجياً للرجل الثري، بما بدا عليه من راحة وتأنيت فاخر. ولم يشر إلى انتماء صاحبه إلى الشرق سوى سجاج الدرجات الداخلية. فقد كان مصنوعاً من الحديد الشغول بشكل دقيق، ربما كان قد أتى به من "حريم" أحد السلاطين.

صعدنا المرحلات إلى الصليق العلوي، وعبرنا حجرة للجلوس مزودة بآلة بيانو من النوع الكبير وبعض لوحات لاثيس^(١) على الجدار، ودخلنا مكتبة أشار إلي للجلوس على مقعد كبير عميق ذي مستلين.

"يمكنني أن أقدم لك ككاساً؟ أم ربما تفضل الشاي أو القهوة؟ لأنني لا أشرب سوى قهوة".

نظرت في تلك اللحظة إلى نوري عن قرب، وبدأ لي أنني لا أزال أحاول أن أتعرف عليه. ربما كنت قد رايت بعض الصور له. كان طوله يزيد على ستة أقدام، ووجهه وملامحه أقرب إلى وجهه وملامح جندي محترف. كان يرتدي بذلة رمادية، سترتها ذات صفيين من الأزوار. وكان شعره قصيراً - وقد تعمد هو ذلك - وبدا الشيب يفرزه. وكانت في وجهه بعض النعوب، ولكن كان وسيماً بشكل الجاذبية الباردة التي يتميز بها طائر من الجوارح. كانت حركاته اقتصادية، مختصرة كما لو كان يحس بالترشافة إذا تشبه بالنساء.

جلس في مواجهتي وعرض علي سيجارة رفضتها. أخرج سيجارة روسية سوداء ذات طرف ذهبي ونقر بها على علبة السجائر. قال:

"لقد جئت من باريس لكي أراك يا مستر سورم. لأنه إذا كان نصف ما أخبرني به سانت ليجير صحيحاً، يكون لدينا الكثير الذي يمكن أن يقول أحدهما للآخر. إذن هل أنت تعرف من أنا؟"

- "أجل، أنت الأستاذ الأعظم الحالي".

- "لقد خمنت ذلك، بالطبع".

- "لقد كان هذا استنتاجاً عادلاً. أنت لست مشرقاً، وإلا لما كان سانت ليجير قد أصبح عصبياً من وجودك بهذا الشكل".

ضحك فأبدى اسناناً بيضاء في حالة ممتازة. قال:

(١) هنري أميل بينوا ماثيس ١٨٦٩-١٩٥٢. من أهم الترماعين الفرنسيين في القرن العشرين، عرف عنه أنه أحد رواد حركة فن الطلعة. إلى جانب جورج روو والتدريه نيران.

- "إن هذا الرجل أبله. لا ينبغي له أن يكون مشرقاً".

- "إذن، فلماذا يحتل هذا المنصب؟ إنك تملك سلطة إيعاده".

- "لم يعد هذا ممكناً. قبحاً للخسارة، إن منظماتنا قد أصبحت أكثر ديمقراطية مما كانت عليه أيام أيزموند دونيللي".

دخل رئيس الخدم، وهو يدفع "عربة ثقيل" صغيرة أمامه، ثم خرج على الفور وبينما كان نوري يصب القهوة. قال:

- "لا ينبغي لنا أن نضيع الوقت يا مستر سورم. فإن لدينا الكثير الذي ينبغي أن نقوله. وعلي أنا أن أعود إلى باريس هذه الليلة. هناك الكثير مما يحيرني بشأنك. إنك تبدو كما لو كنت تعرف قدر كبيراً من المعلومات. وهذا يعني إما أن شخصاً ما لم يكن مكتوماً كما ينبغي. وإما أنك حصلت على بعض الوثائق التي لم تكن نعرف بوجودها".

لم أقل شيئاً. فعضى يقول:

- "كان من الممكن - حتى الآن - أن تكون أي إنسان بالنسبة لي. ولكنني أعرف الآن أنك أشبه بالعبقري، أو بالطفل العجزة. لقد أخبرني صديقنا كورنر أنك أنهيت عملاً استمر عامين بصبر ودأب بما يشبه ضربة خط عبقرية مستحيلة. وأنا أزع أنه لم يكن ببالغ".

لم أقل شيئاً أيضاً، فاستمر هو يتكلم:

- "لنني أفهم من صمتك أنه لم يكن ببالغ".

وضع قديم القهوة التركية الصغير أمامي. وهو يقول:

- "من أنت؟ من أين جئت؟ وكيف عرفت كل ما تعرفه؟"

- "أسمي جيرارد سورم. وأنا كاتب. أما عن وكيف أعرف كل ما أعرفه، فالإجابة هي أنني لا أعرف شيئاً".

قدم إلي نوري صحناً مليئاً بخلوى صغيرة مستديرة، وكانت فيها نكهة الفرفة. راق لي ظمعهما كثيراً.

قال:

"هذا قول غريب. أعجب إن كان يزعمك أن اتحقق من صحته؟"

ثم أقام ما عناه بقوله هذا، ولكنني قلت أن هذا لا يزعمني. بالطبع، من أيده وضغط على زر جرس آخر. ثم يتحدث أحدينا طول الدقائق القليلة التالية. كان الجلوس في صمت بولد لدي إحساساً مريحاً، كانت هناك سمة في شخصية نوري تجعل من هذا الوضع طبيعياً إلى حد كبير. فتح الباب بهدوء شديد، ودخل الحجرة ورجل. كان علي أن أنظر إليه بتدقيق شديد لكي أتبين أنه رجل. كان شعره ذو اللونين مجعناً وطويلاً. والوجه يبدو وكأنه لو أن شخصاً ما قد امتص من جسده كل قطرة من الدم، لكي تنهار العروق وتجف. كانت عيناه شاحبتين اللون حتى بدا لا لون لهما، ورغم أنه كان يرتدي ثوباً عربياً - عباءة صفراء قلزة - فإنه كان غريباً دون مشقة الشك. ثم بولد نوري أي اهتمام. جلس الرجل على مقعد صغير وأعطى بكاد يكون بيننا نحن الاثنين. رابت أصابع قدميه طويلة بارزة العظام، مثل شيء خارج من قلب فيلم من أفلام الرعب، وكانت أظفارها صفراء مثبوية مليئة بالنقاط البيضاء.

قال نوري: "هذا هو بوريس كاهن".

تجاهلنا الرجل، وهو بحلق في الفضاء. قال نوري:

"لقد كان يكسب رزقه بالعمل في الملهي قارئ لأفكار الناس ثم تطورت قدراته إلى درجة أخافته هو نفسه. فأصبح مدمناً على الهيروين. وقد عثرت عليه ذات ليلة يزحف عند مدخل المنزل وعينه مكسورة. وكان قد سقط من نافذة في الطابق الثاني. وهو الآن يسافر معي حينما يكون لدي عمل هام. إنه بلا عقل على الإطلاق، ولكنه يعرف الحقيقة حينما يتكلم الناس، لكنهم أم يصنفون".

أخذ سيجارة أخرى من العلبة، ثم قال:

"هل أخبرت سانت ليجير أنني الأستاذ الأعظم؟"

"كلا".

"بني لم أظن هذا. ولكنني أردت أن أتأكد".

كنت أنظر إلى "بوريس" بفضول شديد. كان يرمق شطائر القرحة في صحن بلهفة، قلت:

"كيف يفعل حينما يكذب أحدهم؟"

"قد يكون من السهل أن أطلعك على نموذج عملي".

أشار بيده إلى النافذة ورفاع بإصابعه. أسرع روبيس قعر الحجرة، وانحنى مرتين على الأقل مثل كلب منعور، ثم اندس فاختمى وراء ستارة ثقيلة من القطيفة. ضغط نوري على زر ثالث على المائدة. بعد حوالي ثلاثين ثانية سمعت صوت خطوات رفيقة ترحف على البساط في الحجرة المجاورة. فتح باب، واندهشت فتاة تجري إلى داخل الحجرة. وقفت عند الباب، ورمقتني بنظرة غريبة مليئة بالشك، ثم اندفعت تجري نحو نوري وطوحت ذراعيها فأحاطت عنقه وهي تصدر أصواتاً غريبة كالصياح ولا معنى لها سوى الرحب بمقدمه. كانت ترتدي سروالاً عربياً طويلاً وصداراً صغيراً من نفس الطراز، ولكنهما كانا من الشفافية بحيث كان الأفضل أن تكون عارية. يمكنني أن أقول أنها كانت في نحو السادسة عشرة من عمرها، ولكن جسدها كان نامياً نمواً معقولاً، وشعرها طويل داكن اللون. كانت تقبل نوري وتعود إلى تقبله، مثل طفلة صغيرة ترحب بعمها الذي تحبه. ابتسم في صفاء وتركتها تستمر في تقبله للحظة، ثم قال لي:

"هذه هي كريستي، طفلة جماعةنا الليلة".

أجلسها على ركبتيه وقال: "وكيف حال طفلتنا؟" واندست يده داخل سروالها الشفاف. فتحت ساقها طائفة، فتسللت يده بينهما ولست ملتفتي هخبتها. قال:

"هل كانت طيبة؟"

أومأت الفتاة برأسها بحماس، ووجهها خال من أي تعبير مثل دمية. خطر لي أن نوري يفضل من لا عقل لهم من الناس. سألها:

"هل كان لها أي عشاق منذ كنت هنا آخر مرة؟"

ارتسم على وجهها تعبير ينم عن الفضيلة، وهزت رأسها بثبات كيد من وراء الستار جاء صوت غريب، "شاك، شاك، شاك" كما لو كان حيواناً يسعل. انطلقت الفتاة نحو الستار، وجلبته جانباً، وجذبت بوريس من شعره فأخرجته، صرخت، "كذاب".

راقب مستسلماً على الأرض، وخده منتصب بالبساطة، ورفقاه مرفوعان في الهواء. وحينما رجعت بقدمها القظلى بحدتها الرقيق إلى الوراء ورصكلته في ضلوعه لم يتحرك. انطلقت عائدة إلى نوري وألقت ذراعها حول عنقه، وقالت،

"الطفلة ليست كذبة، هو الكذاب".

لاطف نوري ظهرها بحنان، وسألها: "كم كانوا؟"

"لا أحد" عاد تعبير الفضيلة الكاملة مرة ثانية وهي تهز رأسها، عاد الصوت للبحوح مرة أخرى يتعالى من حلق بوريس. كانت على وشك أن تغفر لكي تنقطع إليه مرة أخرى، ولكن نوري أمسك بها من معصمها، وكرر سؤاله، "كم كانوا؟".

تجهمت ومصت شفها استياء. قالت،

"ثلاثة".

سمعت الصوت للبحوح للقطع ثانية. صرخت في بوريس،

"سوف أقتلك".

قال نوري باستياء،

"طفلتنا بها شيء من الخلة الشبهة السيئة، أليس كذلك؟"

قالت الفتاة، وهي تبدو في صورة إحدى بنات الطائفة المتهزئين للترمنة، الذي يرفعهم ذكر الخطيئة، "لا، ليست كذلك".

"طفلتنا تستحق الضرب بالحزام، أليس كذلك؟"

"كلا". كانت تنوسل، "إنه كذاب".

"كم كانوا؟"

نظرت إلى بوريس بحقد وهي تقول، "سبعة".

لم يصدر عنه أي صوت. قال نوري،

"سبعة رجال، أم سبع مرات؟"

"رجال".

"سبع ضربات بالحزام، إذن".

وقفت، وجذبت سروالها إلى أسفل حتى رصكلتها، ثم رفدت على بطنها فوق رصكلتها. وجلب هو من تحت القميد شريطاً من الجلد، ورفع في الهواء، وهوى على الردف المستدير الوردي بضربة قوية. صرخت دون حرارة، أصبحت صرخاتها أعلى وأكثر تعبيراً مع توالي الضربات الست التالية. وعند الضرب السابعة ففرت من فوق رصكلتها. هز رأسه وقال،

"واحدة أخرى".

انحنت أمامه، فهوى عليه نوري بضربة واحدة قوية. ثم قال،

"الآن، احري".

حينما اختفت، قال نوري،

"والآن يا مسر مورم، اتقول أنك لا تعرف شيئاً عن جماعة العنقاء؟"

"لنني لم أقل ذلك. إنما قلت أنني أعرف أقل بكثير مما تعتقد".

"لنني لا أقهم وكيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً".

نظر حوله إلى بوريس، ونظرت أنا أيضاً إلى بوريس، الذي كان يجلس الآن على البساطة، محتضناً برصكلته، وكانت الحيرة تيلو على بوريس.

كان نوري ينظر إلى بوريس، قال، "ماذا يعني يا بوريس؟"

نظر إليه بوريس دون تعبير بعينه الشاحبتين، كما لو كان يحاول ان يتجنب
السؤال بان يتظاهر بعدم الفهم. ولكن حينما ظلت نظرة نوري الجامدة مثبتة عليه، قال
بصوت متلعثم فيه هافاة:

"إنه... انه... بو... يو. يعني انه، اكك، اكك، اكك، اكك، اكثر من شخص و... واحد."

قال نوري: "هذا ما تعنيه يا مستر سورم؟"

قلت: أخشى ألا يؤدي الشرح إلى أي نتيجة. إنك قد تشك في عقلي."

نظر إلي بوريس، وقال في صوت مثل فحيح سوط يهوي،

"ماذا يعني؟"

جعل بوريس، وقال في صوت ضعيف خارج من الحلق:

"إنه شخص ما، يدعى ايزموند."

زحفت عينا نوري إلي وراحتا تتفحصان، كان يوسعي أن يرى أن وجهه يستطيع أن
يكون معبراً عن التهديد العنيف. قال،

"أنت انت جيرارد سورم؟"

"أجل."

"من هو ايزموند؟"

"إنك تعرف، ايزموند دوتيلي."

جذبني في بقوة بالغة، كما لو كان يتساءل إن كان قد فهم ما قلته على الوجه
الصحيح. ثم، لدششتي، انسحب الدم من وجهه، وشحب لونه، وأصبحت نظرته ثابتة لا
حركة فيها. قال،

"هذا مستحيل."

ولكن صوته كان قد أصبح عريضاً مشروخاً.

حينئذ، راح ايزموند ينظر إليه بعيني، محققاً في عينيه بقسوة. تغير وجه نوري. لكم
كنت أحب أن انظر من مرة لحظتها لكي أرى ما كان يراد. وأياً ما كان ذلك الذي رآه، فقد
رأيت أنه الفهم، تطلب منه الأمر بضع ثوان لكي يستعيد السيطرة على نفسه. كانت شفاهه
قد شحبتا حتى أبيض لونهما، وبرزت الندوب الحمراء على وجهه الرمادي.

قال:

"إن فقدت كنت على حق. لقد عرفت كيف تعود."

لم يفعل ايزموند إلا أن أوما برأسه (براسي). كان بوريس ينظر إلى نوري نظرة
خائفة، مثل حيوان لا يعرف ماذا حل بسنده. وقف نوري وعبر الحجرة إلى خزنة جانبية.
التقط قنينة الخمر وراحت يده تهتز وهو يصبها في كاس الزجاج الكبيرة، ثم ابتلع كل ما
صبه بقعة واحدة. وأياً كان نوع ما شربه - كانت خمراً صافية مثل العرق - فقد جعلت
عينيه تغيمان مثل المياه العكرة. وحسب انفاسه للحظة. مسح العرق عن وجهه، ثم جاء
فجلس ثانية، وجعل يرمي ايزموند بنظرات خائفة كما لو كان يأمل أن يكون الأمر كله
خطأ من الأخطاء. قال،

"سامحتني. إنك لا تتوقع مني أن أقبل هذا الأمر بسهولة."

أسند ظهره إلى مسند القعد متجنباً إلى الوراء وأغمض عينيه. وإذا كنت أصدق من
خلال عيني ايزموند وجئت نفسي متحيراً مما أبدته من اقتناع سريع، انتظر ايزموند. كانت
هذه هي لحظة انتصاره. اعتدل نوري في جلسته وأشار إلى بوريس قائلاً، "أخرج" فأسرع
بوريس خارجاً من الباب. قال نوري،

"ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أستقبل من الأستاذية؟"

"كلا. لا أستطيع أن أكون استاذاً إذا أردت... فإن لدي مستر سورم أشياء أخرى ينبغي
عليه أن يقوم بها. ولكن لابد أن تكون هناك عودة إلى اتفاقية عام ١٨٢٠."

ذهب نوري إلى الخزنة الجانبية مرة أخرى، وصب لنفسه كاساً أخرى دون اعتذار.
قال،

"لا أرى كيف يمكن ذلك. سيعني هذا أن نحدث في قسمنا".

"هذا هو الطريق الوحيد. صدقني".

كان أيزموند قد أصبح صبوراً يحاول أن يفرس الثقة في صلب نوري. قال:

"اصغ إلي يا السيد، إنني لا أملك. لقد كنت استنذاً ممتازاً. ولكن هناك أشياء هامة تحدث. وحتى هذا الأبله كورنر "ليس سوى نذير" أو يشير - بالاستقيل. هناك بشر من نوع جديد في طور النشوء الآن، إن العقل الإنساني يكاد الآن يبلغ الأفاق والطاقت التي لم أستطع أنا إلا أن ألتحق بها بعيد. وفي جوانب عديدة، يعرف سورم هذا أكثر جيداً مما أعرف أنا. وإن عليكم أن تكونوا مستعدين لأن تلعبوا دوراً هاماً.. وأنتم لن تستطيعوا القيام بهذا الدور وأنتم جميعاً سرية".

قال نوري: "الشرفون الآخرون لن يوافقوا بأي حال".

"لن يكون أمامهم خيار. هذا الرجل سورم يعرف كل شيء عنا. وسوف ينشر كل ما يعرف. وسوف يكون عليك أنت أن تجمعه".

اعتدل نوري في جلسته مرة ثانية. كان على وشك أن يستعيد سيطرته الكاملة على نفسه، ولكنني ظننت أنه قد صكر في العمر عشرة أعوام دفعة واحدة. قال أيزموند بعطف:

"اسمع يا سيد، اسمح لي بأن أشرح لك. حينما انضممت إلى الجماعة، منذ مائتي عام، كانت جمعية من الفاسقين الفجار. وكانت فكرتهم الأساسية هي أنه لا بد أن تملك ألبية ممتازة صغيرة الحرية الجنسية الكاملة. وكانت هذه فكرة جيدة حتى ذلك الحين وقد قبلتها أنا. ورحت أعمل كل ما فعله الآخرون - فرحت أتجول متخفياً بالسحر والشعر والنشوة الصوفية التي تنزل كلما عرست ذكوري في عضو امرأة غريبة. وامتلك طائفة داخلية. وتطورت تلك الطائفة حتى لم يعد في وسع أي امرأة أن تقاومني لأكثر من يوم أو بعض يوم. وأنت تعرف بعض ما فمت به. لقد ألفت فتيات مذعورات في مدارس الأدبيرة الداخلية بأن يسلمن عنديتهن خلال أمسية واحدة. لقد تمت مع ثلاث ملكات، وبماني أميرات. وقد امتلكت نساء بعد أن عرفتهن بعشر دقائق فقط - نساء مكبوتات تخيلن بعد ذلك أنني سحرتهن. وفي سن الخامسة والثلاثين، صار من المحتمل أنني عشت تجربة جنسية أكثر اكتمالاً من أي

تجربة مماثلة عاشها أي رجل قبلي. ثم بدأت أنمو وأشب عن طوق هذه التجربة. تمتعت من الاستمرار في أن أكون مجرد أداة في يد قوة لم أفهمها. حينما شعرت بأنني شبيه برب من الأرباب في لحظة التحقق الجليل، طرحت على نفسي ذلك السؤال: هل هذا هو أيزموند دونيلي الحقيقي؟ أم أنه الأفاق من النوع الجديد الذي يستخدم ذكائه وإخلاصه لكي يوقع بالنساء لناهراتاً لقد رأيت، ذات يوم في موسكو، سائق عربية يضرب حصانه، وقبل أن تضربه حتى أظرت أسنانه من فكه، كنت قد شعرت بنوع من القنيان بسبب "ساديته" الطافحة وفي وقت متأخر من نفس هذا اليوم، أخذت صغرى بنات القيصر إلى منزل صيفي صغير في مروج حدائق القصر، وأقنعتها بأن تدعني أستولي على عنديتها، وبينما كنت أخذها، استولت علي فجأة رؤية رأيت فيها وجه سائق العربية، فعرفت أنني كنت أعمل الشيء نفسه، استمد المتعة من خلال "فرض إرادي" على مخلوق أضعف، فاستمتعت بالإحساس بالقوة وتبينت لحظتها أنني كنت أقوم بعمل نفس الشيء طوال عشرين عاماً، مكرراً نفس الفعل الذي كما لو كنت أسعى إلى أن تؤكد لنفسني أنني لست الأبله المضجر الذي يفبه بقية النبل - أصحاب الدم الأزرق - الشبان. وفجأة شعرت بنفسي بانساً مجللاً بالعار. واتخذ انقلابي النفسي هذا شكل الإحساس بالأسف على الفتاة، وهكذا فقد اندفعت حتى إلى التفكير في أن أسألها أن تهرب معي، ولكنني اكتشفت في اللحظة المناسبة أن هذا لن يكون سوى طريق مسدود آخر. هذه هي نهاية أكثر الأفافين شهرة، أنهم يحاولون أن يجعلوا أنفسهم يشعرون بالسمو الأخلاقي بأن يعاملوا الفتاة كما لو كانت إنسانة بدلاً من معاملتها كمدبنة تحت الحصار. ولكن هذا السلوك لا يزيد أخلاقية في الحقيقة عن إلقاء قطعة نقد معدنية في صندوق شحاذ لكي نرضي ضميرك وتهذه. لم يكن الحل هو أن أستبدل نوعاً من الغباء نوع آخر، بل كان هو أن أحاول أن أفهم طبيعة الأمل السريبي الخادع الذي ظللت أطارده تحت أنبال النساء.

"وحينما عدت إلى إيرلندا، رأيت فتاة كانت قد عرفتها منذ سنوات طويلة، فتاة كانت قد لغويتها منذ خمسة عشرة عاماً. ودفعت رؤيتها إلى ذاكرتي بصورة ذلك الصيف في الحظيرة خلف منزلنا. وقفت في الحظيرة وتذكرت كل شيء. وحينذاك عرفت الخطأ الذي وقع منذ البداية واستمر بعد هذا على الدوام. فحينما امتلكت في البداية ميتو ولفين، توقعنت لنفسني مستقبلاً من القدرة اللانهائية على الامتلاك. توقعنت أن تعاملني الحياة مثل طفل مدلل مفضل. ولقد عاملتني الحياة بهذا الشكل بالتأكيد. ولكنني سمحت لنفسني بأن

أصبح سلبياً أكثر من اللازم. لقد قبلت الحصول على الثقة، ولكنني فشلت في أن أبذل في سبيلها أي مجهود. في أول مرة ولجيت فيها ميتو، شعرت بأنني مثل إله من الآلهة القديمة. ولكن مئة انتصار آخر، وولوح مئة امرأة أخرى لم تقفل شيناً لكنني تفقدت هذا الوعود بالآلوهية. على العكس، لقد دمرت انتصاراتي وعدي القديم، لأنها لم تكن انتصارات حقيقية، وإنما أصبحت عادة تمارس مثل بقية العادات الباردة".

كف عن الكلام. وكان لصوته - الذي لا يعني أن أقول أنه صوتي، لأنه كان يبدو مختلفاً حتى بالنسبة لأذني أنا - التأثير الذي أراده بالضبط على نوري. ولابد أيضاً أن نتذكر أن إيرموند كان يستخدم دماغي لنا ولغتي وتداعيات ذاكرتي، ولما كانت هذه الأدوات - أدواتي - تستطيع أن تعبر عن أفكاره بنقطة أكبر من لفظة هو الخاصة فإن الكلمات كانت تنطلق من لسانه بسرعة فائقة حتى لكان من الصعب أحياناً أن يتابعه من يسمعه. كان مجهود التركيز قد هدأ نوري، وجعله يستعيد سيطرته على نفسه. قال إيرموند،

"هل تتابع سلسلة تفكيري؟"

"ليس ما تقوله غريباً بالنسبة لي، كثيراً ما تخاطر لي أفكار مشابهة، ولكنني لا أستطيع أن أعثر على أي حل".

"الحل أقرب مما تظن. ويكاد مستورم أن يكون قد عثر عليه بنفسه. لقد كانت لي ميزة طبيعية واحدة عظيمة - فقد فكرت في نفسي دائماً باعتباري الطفل للفضل. وهذا شيء مهم - التفاؤل، الدافع المحرك إلى الأمام. وكانت لدي الجرأة الكافية التي تدفعني إلى التساؤل عما إذا كانت حالات التشبه بالرب تمثل حقيقة وجودي الداخلي أم لا تمثله. وعندما قررت الإجابة على أن تلك السؤال هي "أجل"، لم يبق أمامي - ببساطة - سوى سؤال واحد، لماذا إذن يعود العقل فيغرق في حالة من الجلالة الكثيفة حينما تنتهي لحظة ذروة النشوة الجنسية؟"

"بالتأكيد. لأننا لا نستطيع الصمود أمام مثل هذه الكثافة، ليس لدينا ما يبقينا لنا. وليس لنا ما يحفظها في ألدتها. إن إزاء ماء لابد أن يفرغ سريعاً إذا ترك على النار".

"كلاماً. هذا تفكير مختلط مشوش. إن نشوة الذروة الجنسية ليست نتيجة لنطلاق الطاقة المحبوسة، وإنما نتيجة الرؤية التي تصاحبها. يمكنك أن تحصل على الذروة الجنسية

دون الرؤية، إذا كان عقلك متعباً. أو يمكنك أن تحصل على الرؤية دون الذروة الجنسية، إذا كان العقل مشبعاً بالشعر أو الموسيقى. هل يمكن أن تصبح مشبعاً أكثر من رجل أعمى لأنك ترى الأشياء التي لا يراها؟ كلا، العكس هو الصحيح. لأن الرجل الأعمى أكثر قرباً من احتمال الضجر، والضجر يؤدي إلى التعب، والسؤال هنا هي مسألة الرؤية وسرعان ما اكتشفنا أننا نفقد الرؤية لأننا تكف عن محاولة رؤيتها. إننا نسرخي، ننصرف عنها ونولبها ظهورنا، مثل رجل يتعذب ويقمض عينيه".

"لقد عرفت في حياتي رجالاً مقدسين، رجالاً ساروا فوق الجبال وعبر الصحاري كانوا يبحثون عن نفس الرؤية، الإدراك الدائم للعلم باعتباره لغزاً عاماً. ولقد عرفت الآن لماذا تسلط عليهم عشق الخلاء المكشوف. لقد طور الإنسان قدرته على التركيز على الأشياء الصغيرة، مثل صانع ساعات سويسري، ومثل صانع الساعات. أصبح قصير النظر، وتزايد قصر نظره حتى لم يعد بإمكانه أن يحدق في المسافات البعيدة. وكان الرجال القديسون يحاولون تصحيح نظيرهم بالبحث عن مساحات الخلاء المفتوح. وأبني لأرى الآن لماذا كان سعيهم إضافة للوقت والجهد، لقد كانوا يحاولون أن يستبدلوا ملكة بملكة أخرى. ويبحثون عن الجبال بنفس الطريقة للتعبئة المتكررة التي كنت أبحث بها عن النساء.

"هل تفهمني؟ أصبحت واعياً مكتمل الوعي بإمكانية الحصول على رؤية أكثر اتساعاً. اعترفت بأن هذا لابد أن يعتمد على تطور ملكات أخرى وقدرات جديدة للإرادة. في البداية، فعلت أوضح شيء يمكن أن أفكر فيه. ففي اللحظة التي كانت تنقبض فيها قوة الذروة الجنسية يتفرق عقلي. كنت أحاول أن أمسك بها فلا أدعها تفلت، وأرفض أن أسمح لها بالهبوط ثانية إلى المستوى العادي. وسرعان ما اكتشفت أنني كنت أحاول أن أطور قدرة كبيرة على التركيز. من الحق أنني لا أستطيع أن أتمسك بكثافة لحظة الذروة الجنسية أو أن أمسك بها. ولكن حالما يتحول عقلي إلى الخارج، مثل نسر صغير يحدق في السماء من عشه أترفع فيهحاول أن يثقل بنفسه إلى الهواء، فقد كان بوسعي أن أركز على توسيع نطاق رؤيائي. إن مشكلة الإنسان الرئيسية هي أنه جبان خائر العزم. ففي كل مرة يفقد فيها إحساسه بوجود هدف أمامه، يقف ساكناً، ثم يراجع، ويجعله الضجر يسير دون هدف وفي دوائر مغلقة، فيضيع معظم حياته في هذه الحالة. إن سعيه وراء الحب يمنحه اتصالاً واحتكاماً مؤقتاً بالإنابيع الخفية للقصد أو الهدف، وقد كان هذا هو أعمق تعبير لوجود

جماعتنا. ولكن احتياجنا الحقيقي بوضوح، هو أن تحول تلك البنابيع الصغيرة إلى منابع كبيرة لا يمكن أبداً أن تجف، لا بد أن يصبح الضجر مستحيلاً. إنه المعادل الوحيد لفقدانك الطريق في الصحراء. ولكن حالاً يمكن ابتكار البوصلة التي تحدد الاتجاه، فإن هذا لن يكون مشكلة بعد. ولقد رأيت أن مهمتي هي أن أركز حتى أتمكن من أن أطور هذه البوصلة، وهي المعرفة الواضحة لهدفي. لقد رأيت أن الضجر هو عدو شبيه الرعب، وأن كل هوائي ينبغي أن توجه نحو القضاء على هذا العدو".

قال نوري، "ولقد أنجزت هذا. لقد نجحت".

"أجل، وسوف تنجح أنت أيضاً، الآن، وقد رأيت أنه ليس بالهدف المستحيل. وسوف ينجح سورم. وحينما ينجح اثنا عشر رجلاً، سوف تتبعهم بقية الجنس البشري. إن بنابيع القصد أو الهدف ليست مدفونة إلى عمق كبير تحت الأرض، وحتى هذه الفتاة الصغيرة التي كانت هنا تملك القدرة اللازمة إذا عرفت فقط كيف توجهها. إنها حيلة عقلية، مثلها مثل القفز من الأرض لامتناهات حصان يجري".

كانت الصورة التي وضعتها في عقل أيزموند هي صورة رجل يستفيد من موجه قوية لكي تحمل لوحة الطفلي فوق الماء، ولكنه لم يستطيع أن يفهم الصورة. كان أيزموند يفتقر إلى التصورات واللفاهيم اللازمة للتعبير عما يريد تعبيراً كاملاً، فكرة "الارتقاء" من مستوى للوجود إلى مستوى آخر، ومعرفة أن الشخصية الإنسانية سلسلة من المستويات. ولكنني كنت أملك تلك التصورات واللفاهيم.

قال نوري، "هل لي أن أطرح بعض الأسئلة؟ أين أنت الآن؟ هل هناك عالم آخر - بالمعنى الحرفي لكلمة العالم - وراء أو تحت هذا العالم الذي نحياه؟"

ضحك أيزموند. قال،

"إن ما تدعوه 'هذا العالم' هو ما يمكنك أن تراه من خلال شق صغير في الباب المغلق. وهذا يماثل أن تسمي هذه الغرفة التي نجلس فيها الآن عالماً بأكمله. يوسع مسر سورم أن يشرح لك هذا بشكل أفضل مني. إنه يتحدث عن حياة - العوالم - أما فيما يتعلق بآين أنا الآن، فليس بوسعي أن أوضح هذا بسهولة. فحينما استطعت أن أطور قوة إرادتي، بدأت أفهم أشياء لا بد أن تكون واضحة من تلقاء نفسها كالبداهيات. فحينما يملكك التعب، تصبح الروح

مقيدة بشدة بين أضلاع الجسد. وكلما زدت صحة وحيوية، كلما زدت إحساساً بأنك تسيطر على جسدك من مسافة بعيدة، مثلما يسيطر مدرب الصقور على صقره الطائر في الفضاء. وعند نقطة معينة من الدائرة العقلية، يصبح من الممكن أن نحقق درجة من السيطرة على هذا الجسد لا يمكنك حتى أن تتخيلها. وحينما يحدث هذا، تصبح كل الأشياء القريبة ممكنة الوقوع - فإني أستطيع، على سبيل المثال - أن أعرض ما تدعوه أنت بجسدي الوهمي من على مسافة عظيمة".

"وكان هذا هو ما حدث حينما ظهرت في اجتماع برلين عام ١٩٣٠؟"

"بالضبط. ولكن لا تبالغ في تقدير أهمية تلك القدرة، إنها ليست سوى منتج ثانوي. إن ما يهم حقاً هو درجة السيطرة الجديدة على الجسد. لأن هذه القدرة إذا ما تحققت مرة، يكاد يكون من المستحيل أن تموت بعد ذلك".

قال نوري، "ولكنك مت".

"مثلما ترى".

"ولكن جسدك مات في عام ١٩٣٢. ودفنت في 'سرداب مدين الأسرة' في إيرلندا".

لم يقل أيزموند شيئاً، كانت ذاكرته مغلقة مطبقة ثانية حتى بالنسبة إلي أنا. قال بعد لحظة،

"لا تدعنا نضيع وقتنا على ما لا أهمية له. ولنصرح فقط بأن مسر سورم قد كان أداة ثمينة لا تقدر، وأنت ينبغي أن تعامله بنفس الثقة التي تعاملني بها. وسوف يكون قادراً في مقابل هذا، على أن يقدم لك الكثير من العونة. إن مسر سورم، مثلي أنا، ليس مهتماً بالجنس بصورة أساسية. إنه رجل كالتطهرين. ولكنني أضنه قد اكتشف بعض الإمكانيات ذات الأهمية في جماعة كورنر. وتستطيع أنت أن تطلعه على أشياء أكثر أهمية بكثير، إنني أعتمد عليك".

"وماذا عنك أنت؟ هل سترحل الآن؟"

- "كلا. ولكنني حقاً لا أستطيع أن أضل افترض نفسي على مستر سورم. إن لديه عمله الخاص الذي ينبغي عليه أن يقوم به".

قلت بصوت مرتفع - لصالح نوري: "إنني أرحب بمقدمك ولتتما تحب ذلك".

- "أشكرك. إنك مضياف حقاً".

قال نوري: "ما الذي تريد مني أن أفعله على الفور؟"

- "لا شيء. ركز على تعلم حيلة القفز فوق صهوة الجواد السريع. وتذكر شيئاً واحداً. التشاؤم أفضل من الرصاص يحيط بالقدم. الهزيمة دائماً نتيجة اختيار ذاتي. يستطيع مستر سورم أن يشرح تلك الأشياء بشكل أفضل مني - إن له نسقه الخاص في الفلسفة الذي يقوم على أفكار رجل يدعى هوسرل. والآن يا عزيزي السيد. سوف أغادرك. وإنني سأكون أيضاً في غاية الامتنان لك لو أنك مددت حمايتك كي تشمل لورد جليبي الحالي، ابن ابن صديقي هوارس. إنه يملك عدداً كبيراً من نفس العناصر التي كان هوارس يمتلكها وبذلك فإنك تستطيع بمعنى ما أن تعتبره تجسيدا جديداً لجدد الأكبر وتلك العناصر. لا تقل شيئاً عما حدث لذلك الأبله سانت ليجير. إنه ليس جديراً بالثقة".

بعد ذلك اختفى، وأصبحت أنا ونوري وحيدين. لم يكن نوري واثقاً من أنك حتى قلت: "لقد رحل".

وقف وقال: "حسناً يا مستر سورم. اظننا نستحق كأساً. ويسكي؟"

- "كأساً صغيرة. مع الشكر".

وبينما كان يصب الكاسين، سألت: "كيف عرفت أن أيزموند كان ينوي أن يعود مرة أخرى؟"

"هناك قصة تقول يا مستر سورم بأنه لم يمت أبداً، وأن الجسد الذي دُفن في سرداب ملهين الأسرة كان جسد شحاذ عجوز. ولقد قال هو نفسه شيئاً يقرب من هذا في يومياته للوجود الآن في منزلي على جزيرة هيندورابي. وسوف تكون أنت وأسرتك ضيوفاً مكرمين

هناك إذا شئت أن تأتي لكي تفحص تلك اليوميات. وهذه اليوميات تتوقف بعد عام ١٨٠٠، الأمر الذي حيرني دائماً. ولكنني أفهم ما حدث الآن".

- "هناك شيء واحد أحب أن أسألك عنه. هل أفلح عن الجنس بعد ما حققت من استبصار وإدراك؟"

- "أظنني أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال. إنك تعرف أنه قد اختار صغرى الشقيقات أنجست لكي تكون شيئاً مثل الكائن المقدس، وقد أصبحت فيما بعد كاهنة في قيادة الجماعة القسطنطينية؟ يمكنك أن تقرأ عن هذا في اليوميات. وأنا أعتقد أنه قد اختارها لأنه قال عنها أنها تمتعت بنوع سري خاص من النعم الإلهية جعلها أكثر نقاء في أنوثتها من أي امرأة عرفها من قبل. وعاملتها الجماعة باعتبارها كائناتاً مقدساً، بعد أن أصبح أيزموند استاذاً أعظم في عام ١٨١٠، وبعد ذلك احتلت ابنتها ثم حفيبتها مكانها. ومما يصدق كل العارفين أن أيزموند كان والد ابنتها الحقيقي".

- "من الذي كتب الكتب النسوية إلى أيزموند، "افزع العذارى" وما إلى ذلك؟"

- "لقد كتب جليبي نفسه هذا الكتاب، في وقت أراد فيه أن يزعم ثقة أيزموند بالجماعة، ولكن كانت هناك تزييفات أخرى كثيرة بعد هذا. فإن أيزموند باعتباره استاذاً أعظم كان جديراً بأن ينحل أعمالاً مزيفة مثلما نحل كتاب عصر اليزابيث الصغار أعمالهم لشيكسبير، وخاصة السرحية منها".

- "ماذا كان السبب المباشر لموت أيزموند؟"

قال: "هذا شيء يحيرني؛ فالقصة التي يوردها كاتب ترجمته، عصمت الاصطخري تقول بأنه أصيب بتزيف دموي في الدماغ بعد احتفال ضاحك فيه خمس عشرة امرأة. وهذا بالطبع محتمل، فباعتباره استاذاً أعظم، كان من مهامه أحياناً أن يشترك في مثل تلك الاحتفالات. ومع هذا فإنني لم أكن قادر أبداً على أن أقبل هذه القصة قبولاً كاملاً. وأنا الآن أقل ثقة منها مما كانت من قبل".

- "هل هذه الترجمة مكتوبة بالإنكليزية؟"

- "إنه بالعربية لسوء الحظ. ولكن يمكنني أن أمر بترجمتها لك".

نظرت إلى ساعتى فدهشت حينما وجدت أنها قد تجاوزت السادسة. خطر لي أن أنجيلا ستكون الآن قلقة بشدة علي. ولذلك فقد سألت إن كان يمكنني أن أطلبها بالتليفون. وقد كنت على حق، فقد كان أنجيلا الستير يتناقشان في تلك اللحظة حول إن كان عليهما أن يتصلا بالشرطة أم لا، فإن تلميحات سانت ليجر العتمة حول اغتيال جليبي أزعتتهما. وبينما كنت ما أزال أتحدث في التليفون، تسلل إلى جانبي رئيس الخدم الصامت وقال:

"اعذرني يا سيدي، ولكن مستر نوري اقترح أنك قد تحب أن تدعو صديقك لتناول لعشاء هنا".

بلغتهما الاقتراح، فقبلاه على الفور.

حينما عدت إلى المكتبة، كان نوري يرتدي عباءة فضفاضة مزخرفة بشكل جميل، وقد وقفت خلف مقعده، أربع هتيات في ملابس شفاقة، قال:

"أه، مستر سورم، أرجو أن يكون صديقك قد قبلا الدعوة؟ ما زال أمامنا ساعة أخرى حتى يحين موعد العشاء. هل حدث أبداً أن جربت ما يتمتع به حمام الأمراء من قدرة على بعث الراحة في الجسد والاسترخاء في الأوصال؟ لقد اخترعه استاذ أعظم تركي في القرن السابع عشر. وهؤلاء السيدات الصغيرات قد تعلمن فن الكمال. إنني اقترح أن نستحم الآن على طريقة الأمراء، قبل العشاء، وربما أمكنك في أثناء ذلك أن تروي لي كيف حدث أن سمعت بايزموند دونيللي".

- ٢٥ -

□ كانت هذه هي للخدمة التي أدت إلى واحدة من أمتع الأمسيات التي قضيتها في حياتي، ولكن ليس هذا هو مكان وصفها بالتفصيل. إن تاريخ جماعة العنقاء موضوع يبلغ من التعقيد والثراء حداً يجعلني أشعر بأنه ليس من العدل أن أتحدث عنه هنا. وحينما يكتمل إعداد أوراق دونيللي للنشر، سوف أرجو أن أقوم بهذا العمل بنفسى. وقد سرد علينا نوري أيضاً جانباً من تاريخه هو، وانتهى بأن استعرض أمامنا بعضاً من تلك القدرات الهائلة التي أدت إلى تعيينه استاذ أعظم. (وقد حدث هذا بعد صراع مشهود مع لودفيج بينديج.

- ٣٦١ -

الشرف الألماني الذي كان أيضاً نازياً سابقاً. وقد أدار بينديج "العسكر الجنسي" للشهور، الذي أنكر للورخون الألمان المعاصرون وجوده).

لجاننا إلى أسرتنا، منهكين إلى أقصى حد متمنين أن ننام عميقاً، وفي ساعات الصباح الباكرة. وحينما استيقظنا، كان نوري قد رحل إلى باريس. وفي وقت متأخر من نفس اليوم طرت عائداً إلى شانون حيث قابلتني ديانا. وحينما عدنا إلى البيت، وجدنا برقية من نوري يسألنا فيها إن كان بوسعنا أن نلحق به في منزله في هيندورابي في عطلة الأسبوع التالي. افلتنا طائرته الخاصة من شانون. وفي الشهور الأربعة التالية منذ ذلك الحين، تمتعنا بأشعة الشمس، وكتبنا أنا هذا التقرير عن بحثي عن ايزموند.

أما أبحاثي في محفوظات السيد نوري - التي ساعدني فيها منظم مكتبته الممتاز الدكتور هانق خصه فقد أجابت على معظم ما تبقى من أسئلة حول ايزموند وحول تاريخ الجماعة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وسوف تنشر هذه النتائج في موعدها اللاتم. أما أنجيلا التي تعمل هنا هي الأخرى، لقد جمعت المواد الأساسية المطلوبة لتأليف ترجمة حياة ايزموند، هذه الترجمة التي من المحتمل أن نتعاون في كتابتها.

وقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني في عملية الكتابة عن "بحثي" هي مقدار ما أستطيع أن أستخدمه من الصراحة في بعض اللوايف أو الأحداث. ولقد قبلت اقترح هوارد فليشر بأن أكتب كل شيء كما حدث، ثم أترك له مهمة تقرير كمية التغييرات ونوع ما قد يكون ضرورياً منها^(*). وعلي أيضاً أن اعترف بأنني لم أسمع لديانا - حتى الآن - بأن تقرا المخطوطة، وأنها - لحسن الحظ - فتاة قادرة على الفهم، ويمكنني أن أقي أكثر اللوم على ايزموند.

وماذا عن ايزموند؟ فمنذ عصر ذلك اليوم في شارع بروك، لم أحس بحضوره إلا على فترات متباعدة. ولكنني لا أستطيع أن أكون وفقاً من أن هذا الحضور ليس من وحي خيالي. إنني كثيراً ما أجد نفسي أفكر في حادثة غريبة حدثت في بيت نوري في تلك الليلة. كان

(*) حينما كان هذا الكتاب في مرحلة تجارب الطبعة، سمعت أن بقايا ككولونيل دونيللي قد عثر عليها في منزل مزرعته الذي أحرق عن آخره، ولم يكن ثمة أي شكوك في وقوع عمل إجرامي متعمد. وعلى ذلك فقد اعتلت مكتابة الفترة الخاصة بالكولونيل دونيللي ووضعها بالشكل الذي كتبتها به هنا.

يوريس يستعرض قدرات حاسته السادسة امام أنجيلا وألستير. وان نوري قد نومه تنوياً
مغناطيسياً، وكانت إجاباته على أسئلة حول حياة كل منا الخاصة دقيقة إلى حد مخيف.
وقبل أن يوقظه نوري، سألنا إن كان لدينا أية أسئلة نحب أن نطرحها على التائم. قالت
أنجيل،

- "أجل. هل يمكن أن يخبرنا أين أبزموند في هذه اللحظة؟"

استدار وجه يوريس للغمض العينين الي، وقال،

- "إنه هو أبزموند".

* * *